د. يعقوب يوسف الغنيم

الأزمنة والأمكنة



المجلد الثالث

تحتوي الخزانة على عشرة أجزاء كل جزء منها يضم كتابًا أو أكثر من كتب التاريخ الخاصة بالفترة التي أشرنا إليها، وبعض هذه الكتب سبقت طباعته، وبعضها مخطوط يطبع لأول مرة ضمن الخزانة، كما أورد الشيخ البسام فيها بعض الكراسات التي لا يصل حجمها إلى حجم كتاب، ولكنها ذات نفع كبير لما فيها من خلاصات مهمة لبعض المواقف، ولبعض ذكريات كتابها وفق تجاربهم الخاصة بهم.

وتضم الخزانة ما يلي:

١ - تاريخ محمد بن لعبون.

٢ - تاريخ ابن عيسى (إبراهيم بن صالح).

وفيه:

- تاريخ ابن منقور (أحمد بن محمد)
- تاريخ ابن ربيعة (محمد بن ربيعة)
- تاريخ الفاخري (محمد بن عبدالله)
- تاريخ ابن ضويان (إبراهيم بن محمد)

وفيه: وثائق تراثية تضم:

- غزوات الملك عبدالعزيز (عبدالله بن غانم).
- مختصر تاريخ آل ماضي (تركي بن محمد).
- تاريخ عبدالوهاب بن تركي.
- تاريخ ابن دعيج (أحمد بن علي).

وفيه:

- تاريخ عبدالله محمد البسام.
- نبذة تاريخية عن مدينة عنيزة لعبدالرحمن البسام.
- تاريخ عبدالرحمن الصالح البسام.
- تاريخ القصيم لسليمان البسام.

وفيه:

- مختصر عنوان المجد في تاريخ نجد، مؤلف الكتاب الأصلي عثمان بن بشر، ومؤلف المختصر إبراهيم محمد آل عتيق.
- عنوان السعد والمجد في أخبار الحجاز ونجد لعبدالرحمن بن محمد آل ناصر.
- مطالع السعود بأخبار الوالي داود لعثمان بن سند، اختصره أمين الحلواني ولا علاقة له بموضوعات الخزانة.
- خلاصة الكلام في بيان أمراء بلد الله الحرام، لأحمد زيني دحلان اختصره إبراهيم بن عيسى.

٣ - مطالع السعد في تاريخ نجد وآل سعود لمقبل بن عبدالعزيز الذكير.

وفيه:

- تاريخ صالح بن عثمان القاضي.
- تاريخ إبراهيم بن محمد القاضي.
- تاريخ عبدالعزيز بن محمد القاضي.

إلى مفاهيم إسلامية في غالبها، وكنت سعيد بعلاقتي به لأنه من الرجال الذين لا يخرج المرء من اللقاء منهم بدون فائدة تزيد في معلوماته أو توسع مداركه.

وكان - رحمه الله - يحس بما أحس به تجاهه، ولذا فقد كان حريصًا على أن نلتقي كلما جاء إلى الكويت من الخارج، وكان يتكرم دائمًا بزيارتي في ديوانية الثلاثاء فنسعد أنا وأخواني الحاضرون في الديوانية بلقائه والاستماع إلى أحاديثه.

بقي عبدالعزيز العلي المطوع في عمله التطوعي في جمعية الإرشاد الإسلامي بصفته المراقب العام لها، والقطب الذي تسير حوله كافة أنشطتها، حتى وجد نَفْسَهُ مضطرًا للسفر إلى الخارج حيث عزم على الإقامة في مصر لأن أعماله هناك اقتضت بقاءه في القاهرة، ولأن مجال العمل في النشاط الخيري والاجتماعي والديني كان آنذاك رحبًا يجد فيه صاحبنا ما يُشْبِعُ رغبته في العمل الذي فيه ما يكفي من حيث تحقيق آماله ورغباته في العمل من أجل دينه ومن أجل أمته.

في سنة ١٩٥٤م طلب الرجل إعفاءه من العمل في الجمعية مع استمرار عضويته فيها، وما أن أبدى هذه الرغبة حتى ثارت زوبعة شديدة ضربت الأعضاء في الصميم، فكتبوا إليه راجين منه الاستمرار في عمله، ولما يعرفونه من ارتباط اسمه باسم الجمعية باعتباره مؤسسًا لها ومراقبًا لأعمالها منذ نشأتها، وقد نشرت مجلة «البعثة» - آنذاك - صورة من الرسالة التي وجهها إليه الأعضاء وعليها توقيعاتهم بمن فيهم كاتب هذه الكلمات.

وقد رد في عدد آخر من «البعثة» شاكرًا ومقدرًا وطالبًا من الإخوة الأعضاء قبول اعتذاره عن الاستمرار لأنه مضطر إلى مغادرة البلاد إلى القاهرة، ولا يمكنه بذلك أن يجمع بين عمله في الخارج والعمل مع هؤلاء الإخوة، وقد صارت له في القاهرة أنشطة كثيرة، وعلاقات متشعبة، وأصبح له اسم مدوٍ، وله حضور في كافة المناسبات، وله مشاركات في أعمال البر والخير، وإعانة المحتاجين وشهد

له الجميع بأنه رجل من الرجال الذين ندر وجود مثلهم في هذا الزمان لأريحيته وعدم تردده في تقديم ما يملكه في سبيل عمل خيري يرى فيه فائدة للجمهور، وقد وجه له الرئيس الراحل أنور السادات الشكر على مساهماته الخيرية، كما قام الرئيس محمد حسني مبارك بإهدائه وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى في اليوم الخامس عشر من شهر مارس لسنة ١٩٨٨م تقديرًا لجهوده الخيرية.

واستمر في عمله دون توقف إلى أن أقعده المرض ثم توفاه الله في اليوم السابع من شهر أبريل لسنة ١٩٩٦م.

رحمه الله رحمة واسعة، فقد كان نموذجًا حيًّا للصلاح والتقوى.

****

أما الشيخ عبدالعزيز الرشيد فقد ذكر السيد علي في كتابه «تاريخ الكويت» ضمن الحديث عن أسرته فذكر أن من هذه الأسرة الكريمة «الشاب النبيه السيد علي ابن السيد سليمان، أحد أعضاء الهيئة الإدارية للمدرسة الأحمدية، وأحد أعضاء المكتبة الأهلية».

وها نحن نرى من حديث الشيخ الرشيد جانبين من جوانب أنشطة الرجل يضافان إلى الجوانب الأخرى التي أشرنا إليها فهو فيما يبدو من القول الذي نقلناه كان منذ بداية شبابه وهو ينشط في المجالات الاجتماعية والثقافية والتربوية، ويسعى إلى مشاركة أبناء وطنه في دعمها والعمل على تنميتها.

كانت هذه جوانب من حياة رجل من أهل الكويت من الرعيل الأول الذين لم يتأخروا عن تقديم كل ما يستطيعون من جهد ومال في سبيل الوطن، وكان عملهم الطيب هذا مصحوبًا بنكران الذات، وعدم التشدق بالأعمال، فكل ما كان يعنيهم رضا الخالق سبحانه وعزة البلاد وأهلها.

وكانوا إلى جانب ذلك متكاتفين متعاونين لا تفرقهم الأهواء ولا تشتتهم المصالح. إننا نأمل من أبناء الجيل الذي تلاهم إلى هذه الدنيا وكذلك من أبناء الاجيال اللاحقة أن يقتدوا بهؤلاء فهم قدوة كريمة لا تنسى صفاتها ولا أعمال المتصفين بها.

رحم الله الجميع برحمته الواسعة.

****

العلامة محمود محمد شاكر في الكويت (١)[1]

هذا رجل تضيق الكتب عن الحديث عنه، فكيف بمقال لا يتجاوز صفحتين.

هو العالم الحقيقي في اللغة والأدب والشعر والتفسير والحديث والعقائد، وكثير من فنون العلم المتعلقة بذلك، وهو حارس التراث العربي الذي قدم لنا نماذج باهرة لكيفية تحقيق هذا التراث وتقديمه للناس بالصورة التي يجب أن يقدم عليها، وكان نشاطه في هذا المجال سببًا في بروز عدد من المحققين منهم من درس على يديه وأخذ طريقته، ومنهم من قلد فجاء تقليده على غير ما هو مطلوب، وقد بلغ الأمر ببعض المقلدين ممن اسمهم قريب من اسمه أن ينحو جانبًا باقي اسمهم المميز لهم فيقوم أحدهم بطبع كتب رديئة ويضع عليها أول اسمه وهو محمود شاكر دون أن يكمله، ثم يقلد الخط الذي اعتاد الأستاذ أن يكتب اسمه به إمعانًا في التعمية على الناس الذين وقع كثير منهم بذلك في وهم وأقبلوا على شراء تلك الكتب وهو ما يريده المقلد الذي سرعان ما كشف أمره لأن الناس عرفت الفرق بين القمة والحضيض فاتجهت إلى القمة.

لفت العلامة محمود محمد شاكر الأنظار إليه منذ بداية حياته، وحيث كان شابًا صار يكتب المقالات في الصحف، يتناول فيها مناحي متعددة، وكان له اهتمام خاص بقضايا المغرب العربي التي استحوذت على قسم كبير من مقالات تلك الفترة، وعندما طلبت منه مجلة المقتطف التي كانت من أشهر المجلات آنذاك أن

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٢م.

يكتب لها مقالات عن «المتنبي» كتب لها مقالات استغرق عدد المجلة الصادر في سنة ١٩٣٦م بكامله، وأصبح حديث الناس وزاد في شهرة الرجل.

وانشغل بعد ذلك في التحقيق وكان من أبرز أعماله فيه تفسير الطبري، وطبقات فحول الشعراء وعدد كبير آخر من كتب التراث، كان تحقيقه لها إحياء لما فيها من علم بفضل دراسته حولها والهوامش التي يضعها لها والعناية بالضبط والتصحيح.

ترجع معرفتي بالأستاذ محمود محمد شاكر إلى سنة ١٩٥٧م، حيث رحلت إلى القاهرة لأول مرة من أجل الدراسة، وقد كتبت - سابقًا - في هذا الشأن ما يلي: «لقد فتح هذا الرجل العظيم بيته ومكتبته أمام عدد كبير من طلاب العلم من شتى البقاع، ومنحهم من علمه الغزير، ومن لطفه وكرمه الشيء الكثير، كنا مجموعة من محبي هذا الرجل، ومن محبي العلم والأدب، كان فينا أستاذ الجامعة، والطالب فيها، والدبلوماسي، والموظف الكبير بجامعة الدول العربية، واللاجئ السياسي بمصر، والكاتب الشهير، والموظف المرموق في الدوائر المصرية، وكان هذا الجمع يمثل دولًا مختلفة، منها من الكويت كاتب هذه السطور والمستشار عبدالله علي العيسى، والأستاذ صالح العثمان، والأستاذ جمعة ياسين ولم يكن الأستاذ في ذلك الوقت يعرف غيرهم، ومن الأردن الدكتور ناصرالدين الأسد، ومن فلسطين المرحوم المجاهد عبدالله التل، ومن سورية المرحوم أحمد راتب النفاخ، والدكتور شاكر الفحام، ومن المملكة العربية السعودية الأستاذ أحمد المانع، ومن تونس الأستاذ إبراهيم شبوح، ومن الجزائر المفكر المعروف مالك بن نبي، وأحد الأخوة من الهند، وعدد من أبناء مصر، واتفقنا على أن نتقدم إلى الأستاذ بطلب الاستفادة المنتظمة من علمه عن طريق تقديم درس أسبوعي ثابت، ولقد استجاب - رحمه الله - لهذا الطلب بأريحيته المعروفة وهيأ المكان بمقاعد الدراسة، وتحدد

لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع وكان أول يوم بدأ فيه العمل على تدريسنا هو يوم الثلاثاء الموافق ١٩/١٠/١٩٥٧م.

وكان الكتاب الذي ارتأى أستاذنا أن يقوم بتدريسه لنا هو كتاب الأصمعيات، ويتكون من مجموعة من القصائد الشعرية اختارها أبوسعيد عبدالملك بن قريب الأصمعي (١٢٢ - ٢١٦هـ) والكتاب مطبوع بدار المعارف المصرية بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر (شقيق الأستاذ) وعبدالسلام هارون (أحد أقاربه) سنة ١٩٥٥م.

ولا أظن أنني في حاجة إلى الحديث عن المرحوم محمود محمد شاكر وعن علمه وآثاره، فقد تناول ذلك عدد كبير من الكتّاب وبخاصة بعد وفاته، بالإضافة إلى ما كتب عنه من دراسات جامعية بعضها منشور يستطيع أن يطلع عليه أي قارئ، كما أن مكانته العلمية معروفة شهد له بها إنتاجه، ونوه بها معاصروه، ويكفي أن نطلع على ما كتبه عنه الأستاذ «يحيى حقي» يوم أثار في مجلة «المجلة» المصرية موضوع ترجمة الشاعر الألماني «جوته» لقصيدة «تأبط شرًّا» اللامية الشهيرة، وهي التي تجد الحديث عنها في كتاب الأستاذ «محمود شاكر»: «نمط صعب ونمط مخيف» الذي ضم فيه مقالاته التي كتبها حول تلك القصيدة وما كتبه الدكتور «يحيى الرخاوي» في رثاء الفقيد تحت عنوان: «دروس معه عبر خمسين عامًا» وكذلك ما كتبه الدكتور «زكي نجيب محمود» وغيرهم.

في اليوم الأول من شهر نوفمبر لسنة (٢٠٠٧م) صدرت مجلة «العربي» وفيها مفاجأة سارة لي، ذلك أنها نشرت مقابلة مع الأستاذ أجرتها الأستاذة سعدية المفرح في شهر ديسمبر لسنة ١٩٨٩م عندما كان في إحدى زياراته للكويت. وقد أدارت الأخت سعدية معه حديثًا طويلًا تناول الكثير من المحاور، وقد أخذ حديثه عن الأديب يحيى حقي الكثير من صفحات هذا اللقاء فقد كان صديقه العزيز.

ثم تحدث عن تلاميذه من الكويتيين وأثنى عليهم بعد أن ذكرهم واحدًا واحدًا، وأود

أن أؤكد هنا أن من لم يذكره الأستاذ ليس من هؤلاء وإن حاول التعلق بالركب، ولكنني أضيف إليهم الأخ جمعة ياسين الذي يبدو أن تحريفًا حصل لاسمه فجاء في المقابلة على أنه: عمر، والأخ المرحوم جاسم المطوع، والأخوين الدكتور مرزوق يوسف الغنيم وعبدالله يوسف الغنيم وقد فات شيخنا ذكرهم وربما كان يريد ذكر القدماء فقط.

وتحدث عن الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، وأثنى على إنتاجه الشعري، وأكد أن شاعريته أكبر من الشعر الذي أنتجه، وأنه لم يقل كل ما في نفسه من شعر إلى أن توفي.

لقد كان اللقاء مفيدًا ومليئًا بالمعلومات، ومع شكري للأخت سعدية، أحمدُالله أنها اهتدت إلى الشريط الذي يحويه بعد أن فقدته مدة طويلة.

ولد محمود محمد شاكر في مدينة الإسكندرية المصرية.

في اليوم الأول من شهر فبراير لسنة ١٩٠٩م، وعينّ والده وكيلًا للأزهر الشريف في صيف السنة نفسها وبذلك انتقلت الأسرة بما فيها شيخنا إلى القاهرة، تدرج في دراسته إلى أن تخرج في المدرسة الخديوية الثانوية، ومنها التحق بالجماعة التي لم يستمر فيها لخلاف كبير نشب بينه وبين الدكتور طه حسين بسبب آراء هذا الأخير في الشعر الجاهلي، وذلك وارد بكل وضوح في كتاب «أباطيل وأسمار» الذي ألفه ونشره الشيخ في سنة ١٩٦٥، ومنذ سنة ١٩٢٢م، كان ملازمًا للعلامة الشيخ سيد بن علي المرصفي الذي كان يلقي دروسًا في كتاب شرح الكامل للمبرد وحماسة أبي تمام وبعض القصائد التي يختارها الشيخ المرصفي لكي يقرأها على تلاميذه، وقد استمرت علاقة الشيخ محمود بالمرصفي حتى وفاة هذا الأخير في سنة ١٩٢٥م.

بعد انسحابه من الجامعة هاجر إلى جدة حيث أنشأ مدرسة جدة الابتدائية بناءً على طلب الملك عبدالعزيز آل سعود، واستمر شيخنا في جدة حتى سنة ١٩٢٩م

حيث عاد إلى مصر وانصرف إلى كتابة المقالات في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» اللتين كان أستاذنا محب الدين الخطيب يصدرهما آنذاك.

كانت له صلات قوية مع عدد من كبار العلماء والأدباء وكان له عدد من الأصدقاء الشبان الذين برزوا فيما بعد، ثم اتسع مجال كتاباته، فنشر مقالاته في مجلة المقتطف منذ سنة ١٩٣٢م، بعدها نشر في مجلة الرسالة مقالات كثيرة، ثم تعرف على السياسي المشهور فتحي رضوان الذي استعان بالشيخ محمود محمد شاكر بالكتابة في مجلته «اللواء الجديد».

توقف الأستاذ عن كتابة المقالات بعد توقف مجلة «الرسالة» في سنة ١٩٥٢م وتفرغ للتأليف وتحقيق المخطوطات، وأنجز ستة عشر جزءًا من تفسير الإمام الطبري، وحقق كتاب طبقات فحول الشعراء وغير ذلك، وفي هذه السنة نشر قصيدته «القوس العذراء» التي نالت اهتمامًا كبيرًا وأعاد نشر كتاب المتنبي بعد أن توسع فيه وكان قد نشره في عدد من أعداد مجلة المقتطف كما ذكرنا، وأنجز بعد ذلك كتبًا قيمة أخرى منها ما هو تحقيق ومنها ما هو تأليف وشارك في كثير من المؤتمرات في خارج مصر، وألقى محاضرات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وانتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر، والمجمع العلمي العربي بدمشق.

ولقد تعرض للأذى الشديد في عهد جمال عبدالناصر، حيث اعتقل مرتين كانت مدة الأولى تسعة شهور بدأت في اليوم التاسع من شهر فبراير لسنة ١٩٥٩م، وانتهت في شهر أكتوبر للسنة نفسها، وصادف وجودنا - آنذاك - في مصر فكنا نزوره في السجن الحربي، ولم نكن نحن تلاميذه الكويتيين وهم كاتب المقال والأخوة عبدالله علي العيسى، وجمعة محمد ياسين، وصالح العثمان، لم نكن ننقطع عن هذه الزيارة، وكنا نبقى عنده حتى نصلي الجمعة معه في زاوية من زوايا ذلك السجن الكئيب.

«محمود محمد شاكر، قصة قلم» وكان من حظنا أن يكون الدكتور الطناحي هو كاتب المقدمة، أما الكتاب والكاتبة فلها موضوع آخر سوف يأتي إن شاء الله.

يقول الدكتور: «أي رجل كان محمود محمد شاكر، وأي مجلس كان مجلسه؟ وأي أنس كان يشيع في هذا المجلس، وأي علم كان يتفجر في رحابه؟ وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر ما شاء الله لهم أن يتكلموا، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغي الوقوف عنده وتأمله، لقد قلت في بعض ما كتبت إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظي به محمود شاكر من حبه والالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به».

والدكتور الطناحي في هذا المجال يستشهد ببيتين من الشعر فيهما الدلالة على فجيعتنا بفقد شيخنا، ويستشهد - كذلك - بقول السياسي المصري العريق فتحي رضوان عن بيت الشيخ: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفض». أما البيتان فهما:

لقد كنت في قوم عليك أشحة
بنفسك، إلا أن ما طاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم
ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

ولئن كان هذان البيتان يعبران أصدق تعبير عن الحال فإن ما كتبه الدكتور الطناحي هو قول أقرب ما يكون إلى الشعر من حيث تعبيره عن إحساس صادق ومحبة غامرة.

****

العلامة محمود محمد شاكر في الكويت (٢)[1]

هذه هي بقية المقال الذي بدأناه في العدد الماضي من «الوطن»، وكنا قد تحدثنا في آخر القسم السابق عن الذين كتبوا عن الشيخ، وهنا استئناف لذلك الحديث:

أما الأخت عايدة الشريف، فتكاد تكون هي المرتادة الوحيدة من النساء لهذا المجلس، ولقد كانت مداومة على الحضور كل يوم جمعة، ومشاركة في الأحاديث التي تدور ولم تكن ترى فينا جميعًا إلا إخوة لها نشاركها المجلس والإعجاب بصاحبه.

بدأت صلتها بأسرة الأستاذ في سنة ١٩٧١م وارتبطت بهذه الأسرة الكريمة إلى أن سبقت بالوفاة في اليوم الثالث من شهر أبريل لسنة ١٩٩٧ رحمها الله، ولقد كانت صلتها بالأستاذ وأسرته من أقوى الصلات، وقامت بأداء فريضة الحج في سنة ١٩٧٢م، مع الأسرة حينما كان الأستاذ وأهله في زيارة للكويت، وقد أحبت البقاء والعمل هنا فتم قبولها موظفة في إدارة النشاط المدرسي بوزارة التربية، وقد كانت ذات نشاط كبير قبل ذلك فهي متخرجة من معهد الفنون المسرحية بالقاهرة، وكانت تعمل زمنًا في مؤسسة السينما هناك تحت قيادة الروائي المشهور نجيب محفوظ وكانت - أيضًا - كاتبة لها نشاط صحافي كبير - ولها كتاب قبل كتابها هذا عنوانه «شاهدة ربع قرن».

وعندما دهمها المرض بعد عودة من الكويت إثر استقالتها من عملها هنا لم تجد أرحب من بيت الأستاذ ولا أكرم منه يؤويها فتجد فيه ما يخفف آلامها، وقد

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١٩م.

لقيتها هناك عند زيارتي للقاهرة بعد تحرير الكويت فوجدت آثار المرض بادية عليها من حيث الضعف الجسماني الماثل.

يتكون كتاب «محمود محمد شاكر، قصة قلم» الذي ألفته عايدة الشريف من ثمانية فصول يبدأ بفصول أربعة تتحدث فيها عن معرفتها به قبل أن تراه وذلك بعد أن قرأت آثاره، التي كتبها وسمعت أحاديث جلسائه عنه، وضمن هذا الباب تحدثت عن شخصيته الفذّة، وما جرى له في بداية حياته، وعن أسلوبه ومعاركه الأدبية، ومهاجمته الدعوة إلى العامية.

أما الفصل الخامس فهو عن بداية لقائها به، وتناول الفصل السادس ما دار بينهما من مناقشات حادة، وضعت تحت عنوان «معركة مع البحر المتلاطم» وتناول الفصل السابع سردًا تاريخيًا، أما الفصل الثامن فكان عن منهج محمود شاكر في تذوق الشعر.

كأني بهذه المرأة الكريمة كانت تلهث وهي في أخريات أيامها وقد أضناها المرض الذي كان يشدد وطأته عليها وقتًا بعد أخر، وقد ارتاحت بعد أن أنهت كتابة ما كتبت فهي ترى أن هذا الأمر دين عليها ينبغي أن تؤديه تقديرًا للرجل وردًا على كل مَنْ ناوؤه، وحفظًا لتاريخه بين الناس.

وهنا نصل إلى قول الدكتور محمد الطناحي: «اكتشف شقيقها الكاتب الصحافي يوسف الشريف بعد رحيلها أنها خلفت وراءها كتابًا جاهزًا للنشر عن الأستاذ محمود شاكر، فكانت قد استكملت سطوره قبل رحيلها بثلاثة شهور».

وقد نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة «كتاب الهلال» في شهر نوفمبر لسنة ١٩٩٧م. ولقد كان آخر ما كتبت فيه هو قولها: «عجلت باللمسات الأخيرة لهذا الكتاب بينما أستاذي محمود شاكر نزيل غرفة الانعاش بمستشفى النزهة الدولي

حتى انتهيت من مهمتي بحمد الله فجر الأول من أبريل عام ١٩٩٧، وكلي أمل أن أتمكن من إصدار الكتاب في أقرب فرصة، واهدائه إلى السيدة الفاضلة «أم فهر».. الزوجة الراضية الصبورة التي تفهمته وغمرته بالحب، ووفرت له أبواب الرعاية والإبداع، وأنجبت له ولنا خير خلف لخير سلف، ووسع كرمها ومودتها أصدقاءه ومريديه وقاصديه من طلاب العلم».

كنا - نحن تلاميذه - نتوق إلى زيارته لنا في الكويت، وكان هو يبادلنا الشعور نفسه، ولكن الظروف التي أعقبت خروجه من المعتقل الأول لم تكن تسمح له بالخروج من مصر لأن ذوي الرأي كانوا ممنوعين من الخروج.

ولكن الفرصة سنحت بعد ذلك فجاء إلينا، وكانت زيارته عيدًا لنا جميعًا، وشاركنا عدد كبير من أبناء الكويت الذين كانوا يسمعون عنه وعن علمه وفضله ولكنهم لم يروه، وكذلك الذين كانوا يقرؤون له ما يكتب من بعيد وقد كان سكنه في رحلته الأولى في بيت الأخ الكريم الأستاذ جمعة ياسين، الذي تحول بيته إلى مزار، وقد كان عدد الزوار كبيرًا، وكان الذين يتحرجون من الزيارة أكثر، وكنا نسهر معه كل ليلة، ونصحبه في الصباح إلى الأماكن التي يود زيارتها.

تكررت زياراته للكويت حتى بلغت خمس زيارات إحداها بدعوة من قسم التراث بالمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكان في جميع زياراته معلما في جلسات يعقدها محبوه فيستفيدونَ منه كثيرًا، يحضر إليه العدد الكبير من محبي الأدب واللغة، ومن الذين لهم رغبة في الاستزادة من العلم، وقد زار بعض المؤسسات التعليمية واجتمع برجالها ومن هذه المؤسسات معهد التربية للمعلمين، ومدرسة عبد الله السالم الثانوية حين كان الأستاذ جمعة ياسين مديرًا لها، وجمعية المعلمين، بالإضافة إلى الزيارات الشخصية لعدد ممن دعوه إلى زيارتهم.

وكانت زياراته الخمس إلى الكويت كما يلي: الأولى منها في اليوم الأول من شهر يناير لسنة ١٩٧١م، والثانية في اليوم الأول من شهر يناير لسنة ١٩٧٢م، وقد حضرت معه فيها السيدة زوجته مع ابنه فهر وابنته زلفى، كما صحبتهم الأخت المرحومة عايدة الشريف التي ورد ذكرها فيما سبق، وبعد إقامة قصيرة توجهوا جميعًا إلى الحج بترتيب من الأخ الأستاذ جمعة محمد ياسين، وعندما عادوا بعد أداء الفريضة أقاموا بيننا فترة ثم غادروا إلى القاهرة، وكانت الزيارة الثالثة في اليوم الأول من شهر ديسمبر لسنة ١٩٧٩م، وقد أقام الأستاذ في الكويت فترة كان خلالها سعيدًا لما وجده من اهتمام أبنائه به وكذلك اهتمام غيرهم ممن لم يره فيما مضى من وقت، وكان سعيدًا - أيضًا - لأنه رأى بعينه تآلف تلامذته والتفافهم حوله، وقد كتب لي بعد وصوله إلى القاهرة رسالة مطولة جدًا تحدث فيها عن انطباعاته، وعن آماله لنا.

وكان قد كتب هذه الرسالة في الثاني والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٨٠م، وجاء في جزء منها قوله: «أيام اختلستها من صندوق الدنيا، كلما طويتُ يومًا، أسفر الذي يليه عن أبهج طلعة، ثم انقضت مسرعة، وبقيت أحلامًا، أراها فتزيدني شوقًا إليها، وإلى تجدُّدها مرة بعد مرة إن شاء الله، وأكبر ما سرني وأرضاني، أني فوجئت بك رجلًا آخر غير الرجل الذي عرفته مرات قبل ذلك، وكنت قبل أن أنوي السفر، أخشى أن أجده قد تجعدت نفسه، فإذا هو قد انبسط منه ما كان منقبضًا، وازداد رُحبًا واتساعًا، وأضاءت جوانبه، وأسفرت عن كثير كان يتلثم محتجبًا بحجاب لا يكاد يشف عن حقيقته، فالآن زالت خشيتي، وعلمت أنه قد أفلت من المأزق إلى فضاء رحيب، لا يعوقه إن شاء الله شيء عن الحركة حيث شاء، وكيف شاء. فالحمدلله الذي أزال خشيتي، وأنزل على قلبي الرضا والطمأنينة».

وهذا جزء يسير من الرسالة، وهو يدلنا على ما كان يهتم به من أمورنا نحن تلاميذه كافة.

وجاء بعد ذلك الغزو العراقي الغاشم فهزّ شيخنا هزًا عنيفًا لأنه لم ير فيما حدث إلا تحطيمًا لوحدة الأمة، وإيذاءً لأناس مسالمين لم يُؤذوا أحدًا في حياتهم. وكان يدعو بعد صلاة الفجر على الظالم الذي تولى كبر هذه الجناية واستمر في ادعائه إلى أن تم تحرير الكويت، فعادت الابتسامة إليه، وقرر أن يأتي ليقدم التهاني بهذه المناسبة، وقد حضر في زيارته الخامسة في اليوم الثامن من شهر ديسمبر لسنة ١٩٩٢م.

ولم يكن خلال الفترات السابقة أو اللاحقة بعيدًا عن الكويت فقد كانت زياراتنا إليه لا تنقطع، كما أن مراسلاتنا ماضية بصفة مستمرة، إلى أن أثقله المرض، وأصبح غير قادر على المتابعة.

زرته بعد تحرير الكويت فوجدت أن التعب قد بدأ يتسلل إليه، وأنه يعاني من المرض وكان في بيته يتلقى العلاج على يد طبيب يحضر إليه، ولكنه بدأ يتراجع صحيًّا فنقل إلى المستشفى وبقي فيها إلى أن توفى، وعن هذه المرحلة سوف يتحدث إلينا الأخ المرحوم جاسم المطوع في هذا المقال.

وكانت وفاته صدمة كبيرة لنا، والتف محبوه حول الجلسة التي عقدت في كلية الشريعة بجامعة الكويت، حيث شارك عدد كبير من تلامذته ومن المعجبين بعلمه وبقدراته الفائقة، فأبَّنُوه، وتذكروا فضائله، فتحدث في ذلك اللقاء كل من كاتب هذه السطور، والأستاذ جاسم المطوع، والأستاذ جاسم الدوسري، والدكتور محمود الطناحي، والأستاذ عبدالحميد البسيوني، والشاعر مبارك الهاجري، والشيخ عبدالرحمن عبدالخالق، والدكتور عبدالرزاق الشايجي، والشيخ محمد بن ناصر العجمي، والدكتور عبدالله محارب، والأستاذ جمال سلطان، والأستاذ حاكم المطيري، والأستاذ حامد العلي.

وقد صدر كتيب في اليوم الحادي عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٧م تضمن الكلمات والقصائد التي قيلت في هذه الجلسة، التي أعطت الأستاذ حقه وذكّرت بما قدمه لأبنائه الكويتيين وغيرهم، وما قدمه لدينه ولغته وأمته بصفة عامة.

أشرت إشارة عابرة إلى حديث الأخ المرحوم جاسم المطوع خلال جلسة استذكار شيخنا المرحوم محمود محمد شاكر في كلية الشريعة بجامعة الكويت في مساء يوم السبت الحادي عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٧م، وهنا أوردُ بعضًا مما قاله أخي جاسم في تلك الليلة:

«قبل ثلاثة أشهر تقريبًا اتصل بي الأخ والصديق الدكتور يعقوب الغنيم، وقال لي بالحرف الواحد إن الديوان الأميري قد حدد لنا موعدًا لمقابلة صاحب السمو أمير البلاد، وكان الغرض من هذه المقابلة الكريمة هو ما عرف عن لفتات صاحب السمو الأمير الكريمة في مّد يد العون لكل محتاج، فقد أدخل العالم الجليل الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - إحدى المستشفيات الخاصة في القاهرة ونظرًا للتكاليف العالية لهذا المستشفى الخاص ولما يتمتع به الراحل الكريم من مكانة علمية في قلوب أبنائه ومريديه من أهل الكويت الذين اتفقوا على إرسال وفد لصاحب السمو الأمير لعرض الأمر عليه وتشكل الوفد من الدكتور يعقوب الغنيم والمستشار عبدالله علي العيسى وكاتب هذه السطور وكنا نعلم جيدًا أن صاحب السمو سيتحمل تكاليف علاج هذا العالم الجليل فهذا ما عرف عن سموه وفي الموعد المحدد للقاء سموه استقبلنا ببشاشته المعهودة حيث قام الدكتور يعقوب الغنيم والمستشار عبدالله علي العيسى بشرح موضوع الزيارة وهو تكاليف علاج الأستاذ شاكر وقد استمع سموه لكل ما قيل في حق هذا العالم الجليل وما أن انتهى أعضاء الوفد من طرح ما جاؤوا لأجله حتى بادرهم صاحب السمو بقوله إنه قد لا يعرف الأستاذ محمود شاكر ولكن ما دمتم أنتم قد زكيتموه فعليكم الذهاب

لعبدالرزاق المشاري ليقوم بمهمة تحمل تكاليف العلاج المطلوبة وهكذا بكلمات موجزة ومعبرة استطاع صاحب السمو كعادته أن يخفف من أعباء أسرة كريمة وأن يجعل للكويت السبق في مضمار الخير.

لقد خرجنا من عند سموه وقد أزحنا عن كواهلنا عبئًا كبيرًا لم نكن قادرين على تحمله لولا يد كريمة حانية حملته عنا هي يد صاحب السمو الأمير فجزاه الله عنا خير الجزاء.

وبعد خروجي وزملائي أعضاء الوفد من قصر بيان اتصلت مباشرة بالأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - لأزف له هذه البشرى فلم يتمالك نفسه فبكى متأثرًا من الفرح ليس لأن أبناءه ومريديه من أهل الكويت سعوا للتخفيف عنه ولكن لأن الاهتمام جاء باسم الكويت وبشخص أميرها، وقد كان لهذا أبلغ الأثر في نفسه - رحمه الله - فقد أحس قبل وفاته بتقدير الكويت للعلم والعلماء وهو الذي كان يعرف ذلك عنها جيدًا من قبل.

لقد عرفت الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - قبل سبعة وعشرين عامًا تقريبًا زرته لأول مرة في منزله فوجدت بحرًا زاخرًا يغنيك ساحله قبل أعماقه، وقد تحسرت على تلك السنوات الأربع التي أمضيتها في الشقيقة مصر ولم أتعرف على هذا العالم الجليل إلا بعد تخرجي وبدأت أحسد الذين نهلوا من علمه وسبقوني إلى فضله من الأصدقاء، وبدأت أتعرف عليه جيدًا عندما بدأ يزور الكويت فكنت أمضي معظم الوقت إلى جانبه وتوثقت صلتي به كبقية تلاميذه الذين سبقوني إليه فأنت قد تعرف محمود شاكر العالم والمحقق والأستاذ والكاتب والمفكر من خلال ما تطالعك به كتبه القيمة ومقالاته الشيقة ولكنك لا تعرف محمود شاكر الإنسان الوديع الكريم البسيط وغيرها من الصفات الإنسانية ما لم تزره أو يزرك وعندها تستطيع أن تنسى أنك أمام عالم فذّ أستاذ جليل ومفكر عظيم وقد عرف فيه

الكويتيون هذه الصفات قبل غيرهم فأحبهم وأحبوه يتصل بك في الصباح ليقول لك: أتغدى عندك اليوم فلا تملك إلا القبول فهذا شرف نتمناه ونسعى من أجله.

لقد عشنا معه أيامًا جميلة وممتعة تتلمذنا على يديه ومازلت أتذكر عند كل زيارة له للكويت كيف يكون وجوده بيننا فرصة ثمينة ليس في لقائه والاستمتاع بعلمه فحسب بل فرصة كي نلتقي ببعضنا البعض فنحن أحباء الأستاذ محمود شاكر وأبناءه ومريديه سوف نفتقده مرتين، مرة وهو ليس بيننا بعد أن غيبه عنا الثرى ومرة أخرى حين يفرقنا غيابه بعد أن كان يجمعنا حضوره.

لقد أحب الأستاذ محمود شاكر الكويت من خلال علاقاته الحميمة بأبنائه ومريديه الكويتيين وكان كثير السؤال عنهم فما أن يزوره أحدهم في منزله حتى يسأل زائره عنهم واحدًا واحدًا وكان يحتفي بهم أكثر من غيرهم لدى زيارتهم له كما كان يتحمل مشاق السفر والتنقل كي يسعد بلقائهم الذي لم يكن لقاء مجاملة بل لقاء والد بأولاده ولم تقتصر العلاقة بينه وبين أبنائه من أهل الكويت عليهم بل تعدت ووصلت إلى أسرهم فما أن يقوم الأستاذ محمود شاكر بزيارة أحدهم في بيته حتى تلتف بقية الأسرة حوله وتراه أكثر حنوًا على الصغار حتى من ذويهم، وأذكر أنه عندما كان يقوم بزيارتي في بيتي كنت أراه مشغولًا بمداعبة الصغار من الأولاد فتراهم أكثر التصاقًا به والتفافًا حوله طربًا بمجيئه فكان يضفي على الدار جوًا من البهجة والسرور والمرح كما أنه لم يشعر في يوم من الأيام أنه غريب عند زيارته الكويت بل على العكس تمامًا فتراه يتبسط مع أهل الدار وكأنه واحد منهم ولم نعتبره في يوم من الأيام ضيفًا عابرًا أو زائرًا بقدر ما كنا نعتبره جزءًا مكملًا لعائلاتنا، زياراته القصيرة لنا كانت أشبه بالحلم الجميل الذي سرعان ما ينتهي، وما أجمل تلك الأيام التي نسمعه فيها يهاتفنا أنه سيقوم بزيارة الكويت فما إن يحدد موعد الزيارة حتى يبدأ الإخوة من الأصدقاء بتكليفي بوضع ترتيبات الزيارة

من حجز الفندق وعملية الاستقبال في المطار فما إن يستقر به الحال حتى يمتلئ جناحه بالزائرين، وسرعان ما يتحول إلى منتدى فكري يومي يناقش فيه كل ما يدور في عالمنا العربي وكان هو الفارس الذي لا يشق له غبار والبحَّار الذي ليس له قرار، وما أجل تلك الأيام التي كنا نقوم فيها بزيارته في بيته «بمصر الجديدة» فما أن تهاتفه معلنًا عن وصولك إلى القاهرة حتى يبادرك على الفور «ما تتأخرش على الغدا».

وما أمتع تلك اللحظات حين تطلب منه أن يقرأ لك إحدى القصائد المختارة فيستجيب لك فيقوم من فوره ليحقق لك ما طلبت منه».

رحم الله شيخنا، ورحم الله أخي العزيز جاسم محمد المطوع.

****

الجمعية الخيرية الأولى في الكويت ١٩١٣م[1]

التفت الكويتيون في وقت مبكر من حياتهم إلى ضرورة التعاون فيما بينهم، وعرفوا أن المجتمع السليم هو الذي يعيش أبناؤه وكأنهم أسرة واحدة متحابة متعاونة، وأول ما يمثله التعاون والتآزر هو أن يعطف الكبير على الصغير، والغني على الفقير، وهذا ما دفع آباءنا الأوائل إلى أولى الخطوات المؤدية إلى إحياء المجتمع المدني الذي ينادي به الناس في هذه الأيام.

كان من أهم ما فكر به أولئك الرجال في ذلك الوقت هو تعميم أعمال الخير في المجتمع الكويتي الذي كان مفتقرًا إلى من يقوم بالخدمة العامة للمرضى والمحتاجين، ويسد حاجات الناس، ويعالج كل خلل يتم بينهم، ولم يجدوا - آنذاك - أفضل من قيام جمعية خيرية تتولى كل ذلك فتعين المحتاج، وتداوي العليل، وتقوم بكثير من الأعمال التي لم يكن بإمكان الحكومة - قديمًا - القيام بها نظرًا إلى الظروف المادية التي كانت صعبة للغاية، بحيث لا مجال للصرف الحكومي على مثل هذه الحالات، ولقد قام عدد من النشطين من الأهالي بالدور المطلوب لخدمة مجتمعهم ووطنهم فبرزت إلى الوجود الجمعية الخيرية الأولى في البلاد، وكان من أبرز من دعا إلى إنشاء هذه الجمعية، وحث الناس على الإنضواء تحت لوائها ومؤازرتها بما يعاونها على أداء مهمتها الكريمة هو المرحوم فرحان الخالد، وذلك في سنة ١٩١٣م، وكان لهذا الرجل الفضل الكبير في كثير من المشروعات الاجتماعية والصحية والتعليمية «التي نشأت في تلك الفترة من تاريخ الكويت. التي كان المجتمع خلالها في أمس

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٦/٣/٢٠٠٨م.

الحاجة إلى مثل هذا النشاط لسد النقص في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية وبخاصة بين المحتاجين من أبناء البلاد».

كانت الأحداث الجارية في البلاد - وقتذاك - كثيرة ومتشعبة وكان الخوف من تسلط المبشرين على البلاد وأهلها قويًّا جدًا، ولذلك فإن شرارة العمل الخيري استندت أول ما قامت على حسٍّ دينيٍّ ورغبة صادقة في خدمة المحتاجين التي دعا إليها الإسلام، وقد ظلت الأمور تتفاعل منذ سنة ١٩١٢م حتى سنة ١٩١٣م وفي هذه السنة الأخيرة صدع فرحان الخالد بالدعوة إلى إنشاء الجمعية الخيرية لكي تلبّي غرضين اثنين هما: سد حاجة المحتاجين من سكان الكويت، وإغلاق الباب أمام تسلل المبشرين.

إن قارئ تاريخ تلك الفترة يجد بوضوح أهمية قيام هذا المشروع النافع، ويجد الهجمة التبشيرية التي أشرنا إليها واضحة هي الأخرى. وهي التي بدأت بتعيين قسيس مقيم في البلاد مهمته التبشير، وتزامن ذلك مع إنشاء مكتبة خاصة تقوم بتوزيع الأناجيل يديرها شخص سوري اسمه جرجس، وكانت زيارة الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الشهيرة للكويت في سنة ١٩١٢م سببًا من الأسباب التي حفزت الناس إلى التحرك دفاعًا عن دينهم ومساعدة لمواطنيهم، فقد ألقى عددًا من الدروس والخطب، وزار عددًا من الناس في مجالسهم يدعوهم إلى نصرة دينهم والحرص عليه.

وقد تجاوب الناس معه تجاوبًا كبيرًا ولم يكن هؤلاء يكنون عداءً للدين المسيحي ولا للمسيحيين ولكن لم يقبلوا أن تأتي فئة من هؤلاء مليئة بالتعصب الديني راغبة في إخراجهم من دينهم الإسلامي الحنيف فكان ذلك ردة فعل طبيعية أثارتها رغبة الدفاع عن النفس وعن الدين.

نتيجة لذلك كله فقد كانت دعوة فرحان الخالد إلى إنشاء الجمعية المشار إليها، دعوة مقبولة بين الناس وسرعان ما بدأ العمل بها، فتم في حفل كبير افتتاح الجمعية.

كان الاحتفال بما دار فيه وبمن حضره ومن تحدث فيه دليلًا ناصعًا على تعطش الناس إلى مشروع خيري مثل هذا، وكان الجميع يرون فيه مولودًا من مواليد الخير التي سوف تعود فوائدها على الكثيرين من المحتاجين. وقد وقف صاحب الفكرة فرحان فهد الخالد أمام الحشد المجتمع بهذه المناسبة ليقول ضمن ما قاله في الافتتاح: «... ولا يخفى عليكم أن أسلافكم، رحمهم الله، مع عدم امتدادهم في الوقت، عمروا المساجد، وأوقفوا الأوقاف، وهذه أعمالهم بين ظهرانيكم تشهد لهم. وأنتم خلف من سلف، فلا تكونوا أدنى منهم، والله لا يضيع أجر المحسنين، ومن فضل الله أن أفاض عليكم نعمته في زمن أميركم المحبوب، مبارك الاسم، ميمون الطالع، مولانا الشيخ مبارك الصباح، المشهود له مع أنجاله الكرام بالعدل والإنصاف وحب الخير ومساعدة الوطن والرعية، أعزهم الله على أعدائهم ووفقهم وهداهم، فعليكم أيها الإخوان بالتعاون على البر والتقوى، وأعلموا أن هذه أول جمعية خيرية في بلدنا لمساعدة إخواننا من الفقراء والمساكين والأيتام».

وشارك في الاحتفال العلامة الشيخ عبدالله الخلف الدحيان فألقى كلمة نوه فيها بأهمية هذا العمل وبحاجة الناس والبلاد إلى مثله. كما ألقى عدد آخر من الفضلاء كلمات عبّروا فيها عن سعادتهم بهذه البداية الطيبة، وعن تأييدهم للفكرة وللقائمين عليها، وبالجملة فقد صار ذلك اليوم يومًا من الأيام التي تفخر بها البلاد، ذكر الشيخ عبدالعزيز الرشيد أنه كان في شهر ربيع الثاني لسنة ١٣٣١هـ التي توافق سنة ١٩١٣م.

لقد اختار مؤسسو هذه الجمعية اسم: «الجمعية الخيرية العربية» وهو اسم له مغزاه من حيث دلالة الصفة الأولى على أعمال الخير التي تضطلع بها، ومن حيث دلالة الصفة الثانية على البلاد التي نشأت الجمعية على أرضها من حيث كونها أرضًا عربية خالصة وفي هذا ما فيه من دلالات لابد من الإشارة إليها في ذلك الزمان. ويكفي أن نعلم أن الكويت كانت تعتمد في مراسلاتها الرسمية عند ذكر كلمة «إمارة الكويت» لفظ: بلاد العرب، وهي - أيضًا - ناشئة من ذلك الغرض المهم الذي يؤكد انتماء الوطن وأهله.

ومن حيث أغراض الجمعية فإننا وجدنا إجمالًا لها في خطاب الافتتاح الذي ألقاه المرحوم فرحان فهد الخالد ووجدنا وصفًا لها على الطبيعة تحدث به الناس، ونشرته كتب التاريخ. وفي منشور صادر عن الجمعية بثته من أجل الدعاية لها، وجمع القلوب حولها ورد ذكر للأعمال التي تزمع القيام بها خدمة الناس جميعًا فكان من ذلك:

١ - إرسال طلاب العلوم الدينية إلى الجامعات الإسلامية في البلاد العربية الراقية، وبذل ما يقتضي لهم من المصروفات في فترة تحصيلهم العلمي من صندوق الجمعية.

٢ - استضافة واعظ فاضل على علم بأمور الشريعة الإسلامية والدين الحنيف ليعظ الناس ويرشدهم إلى الصراط المستقيم.

٣ - جلب طبيب وصيدلي اشترطت الجمعية أن يكونا حاذقين مسلمين، وذلك من أجل علاج الفقراء مجانًا مع صرف الدواء لهم.

٤ - توزيع المياه على المحتاجين، وكان الماء من أهم حاجات الفقراء في ذلك الوقت.

٥ - تجهيز وتكفين أموات المسلمين الفقراء والغرباء.

ولقد كانت أعمال بعضها صعبة مكلفة وبعضها يسيرة التنفيذ، ولكنها كلها مهمة يحتاج إليها المجتمع عند نشأة الجمعية.

وكان أن بدأت بجمع عدد من الكتب النافعة مما تبرع به الأهالي لكي تكون نواة لمكتبة عامة يرتادها الجميع ويستفيدون مما فيها، ودعت المحدث الشيخ محمد الشنقيطي ليقوم بمهمة الوعظ والإرشاد وفقًا لأغراض الجمعية.

لقد سعت الجمعية حثيثًا إلى تنفيذ ما عزمت على تنفيذه وأعلنته في الخطاب الذي نشر على نطاق واسع، وأخذ الناس به علمًا، فاستأجرت بيتًا بالقرب من ساحل البحر مكونًا من طابقين استغلت الطابق العلوي منها مقرًا للطبيب والعلاج والصيدلية، واستغلت الطابق الأرضي ليكون منتدى للوعظ والإرشاد والمكتبة.

جهزت الجمعية المكان وأحضرت الطبيب التركي أسعد أفندي ومعه صيدلي من جنسيته، وقام عدد من الشبان الكويتيين بالمساعدة (تبرعًا) في أعمال التضميد ومنهم مساعد عبد العزيز الكليب، وعبد الحميد عبد العزيز الصانع، الذي صار له فيما بعد شأن كبير في الإدارة الكويتية.

وقد دام عمل المستشفى منذ بداية عمل الجمعية في سنة ١٩١٣م حتى قيام الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ .

وهكذا صارت أهداف الجمعية تأخذ سبيلها إلى التنفيذ خطوة بعد خطوة.

قلنا إن صاحب فكرة إنشاء الجمعية الخيرية العربية في الكويت والداعي إلى إنشائها، والداعي إلى جمع الناس حولها هو المرحوم فرحان الفهد الخالد.

ولد فرحان في الكويت في سنة تقارب سنة ١٨٧٨م. ونشأ في أسرة كريمة، لها باع طويل في أعمال البر والخير، ولها اهتمام بتقدم البلاد وإيجاد الوسائل

المساعدة على هذا التقدم، ولذلك فقد كانت من أوائل الأسر الكويتية التي جلبت الصحف إلى البلاد، وأتاحت الفرصة لمن يرغب في الاطلاع عليها، وكان فرحان من أوائل المستفيدين من هذه الفرصة، فزادته معلومات، واكسبته إحاطة بأخبار الدنيا، وفتحت ذهنه إلى مجالات من العمل الخيري لم يكن قد دعا إليها أحد قبله، ولقد واصل فرحان الخالد قراءاته واتصالاته بالمهتمين في الكويت وفي خارجها وعندما تبلورت في ذهنه فكرة الجمعية نبه إليها المقربين منه، ثم أجرى اجتماعات مع عدد منهم توجت باتخاذ قرار إنشائها، وبدأ هؤلاء بإصدار منشور أوضح أغراض الجمعية ودعا الناس إلى الالتفاف حولها، وعلى الرغم من وجود معارضين لهذا العمل بسبب عدم تيقنهم من جدواه، أو لظنهم بأنه عمل مخالف للشرع فقد قامت الجمعية يدعمها رجل من أكبر علماء الكويت آنذاك هو الشيخ عبدالله الخلف الدحيان. ولقد كان الكابتن شكسبير الوكيل السياسي البريطاني في الكويت معبرًا عن كراهيته لهذه الجمعية حين كتب في تقريره المرسل إلى بلده في سنة ١٩١٣م: «.. لم تكن الجمعية منذ نشأتها محل ترحيب من كبار السن في المدينة، الذين قالوا إنه تجب استشارتهم، لذلك لم يكن انهيارها مبعثًا للدهشة».

ولم يكن هذا الذي ذكره شكسبير هو سبب انهيار الجمعية، فقد بدأت نشطة، وقدمت أعمالاً مهمة كانت موضع تقدير الناس، لكن انهيارها ناتج من عدة أسباب، منها عدم استعداد المجتمع لعمل جماعي من هذا النوع، ومنها عدم كفاية الأموال التي ينبغي أن تصرف منها على أنشطتها المتعددة، ومنها وهذا هو المهم: وفاة المرحوم فرحان فهد الخالد صاحب فكرة إنشائها، والمحرك الذي تنبعث أنشطتها في وجوده، ولقد كان الزمن الفاصل من حين وفاة هذا الرجل في شهر ديسمبر لسنة ١٩١٣م، وانهيار الجمعية في شهر يناير لسنة ١٩١٤م وقتًا قصيرًا جدًا ينبئ في حد ذاته بأن الجمعية إنما كانت تعتمد في سيرها على مؤسسها أكثر من أي رجل آخر.

ولم يكن قيام الجمعية عملًا متعجلًا، فقد لاحظنا أن صاحب الفكرة قد بدأ تنفيذها باستشارات شملت العديد من أفراد أسرته، ومن بعض البارزين في الأنشطة الاجتماعية. ورأينا أنه حشد لها كل أسباب النجاح بما في ذلك الدعاية التي آمن بها دون أن يُسميها ولذلك أصدر المنشور الذي يُبلغ الناس بالعزم على إنشاء تلك الجمعية، ثم إنه حرص على أن يكون افتتاحها في احتفال كبير، وأن يلقي الكلمة الرئيسة فيها رجل من علماء الدين وأفاضل أهل الكويت هو الشيخ عبدالله الخلف الدحيان.

لكن المقدر كائن، ولكل شيء إذا ما تم نقصان. ويكفي أن تكون هذه البادرة منارة من منارات العمل الخيري الإنساني، ونموذجًا من نماذج العمل الاجتماعي في وقت متقدم من تاريخ الكويت، كما يكفي أنها نشأت في الوقت الذي كانت البلاد في حاجة ماسة فيه إلى من يقدم هذه الخدمات التي قدمتها في وقت وجيز.

في أسلوب حزين تحدث الشيخ عبد العزيز الرشيد عن اللحظة الحزينة التي بدأت بوفاة المؤسس ثم بانهيار المؤسسة على الرغم من الجهد الذي بذل من بعده في سبيل استمرارها في العمل، يقول: «توفي هذا الشاب التقي في محرم سنة ١٣٣٢ هـ (١٩١٣م) حينما كان عائدًا من بومباي في أحد المراكب البخارية ودفن في بندر عباس فكان لموته رنة أسف وحزن عظيمين في الكويت وقد علم الكويتيون عمومًا أنهم أصيبوا بأحد أعظم أفراد بلدهم فضلًا وآدابًا وأخلاقًا وغيرةً وحماسًا، ورثاه الفاضل الشيخ عبد المحسن البابطين قاضي الزبير سابقًا وكذا الأديب الفاضل الحر السيد مساعد بن السيد عبدالله وقال الأخير:

متى يسلُ منا القلب والنفس تمرح

وقد مات فرحان فهيهات نفرحُ

وقد اشرأبت الأعناق بعد وفاة هذا الشاب التقي إلى شقيقه الأكبر الكريم المفضال أحمد الفهد فسار هذا الكريم بالجمعية في النهج الذي سار عليه سلفه الراحل وبذل من وقته النفيس وماله في إصلاحها ما أطلق ألسنة الناس بشكره وعلموا آنذاك أن فرحان لم يمت وقد خلف مثل هذا الكريم الأبي الذي كان له وللقائمين على الجمعية آمال عظيمة ولكن الوقت خانهم».

ولعل من سخريات القدر أن تؤول المعدات التي قامت الجمعية الخيرية بشرائها واستعملتها في المستوصف الخيري إلى الجهة المنافسة لها، حيث قدمها من لا يملكها إلى الإرسالية الأمريكية التي سارعت بقبولها لا لحاجتها إليها، بل لإنهاء هذا الصرح الكويتي المسلم الذي كان ندًا لها كاشفًا لأسرارها.

رحم الله فرحان الفهد الخالد، وكل من وقف معه وآزره حتى قام بهذه المهمة الاجتماعية العظيمة التي كان قيامها في ذلك الوقت شبيه بالمعجزة، فلم يكن الناس على استعداد لتقبلها، ولا الإمكانات المادية كافية لاستمرارها ومع ذلك فقد ظهرت إلى الوجود تقدم كل ما ورد في دستور إنشائها، ويتكاتف حولها مؤسسوها الذين كان يقودهم فرحان الفهد الخالد.

****

من تاريخ الكويت التجاري على ألسنة رجاله (١)

أحسن الشيخ جابر العلي الصباح صنعًا حين أمر باعتباره وزيرًا للإعلام أن تؤخذ تسجيلات لأقوال عدد من أهل الكويت القدماء لإطلاع الأجيال القادمة على خبراتهم وعلى مدى ما قدموه من جهد في سبيل وطنهم. وقد جاء البرنامج تحت اسم «صفحات من تاريخ الكويت» قدم الأستاذ سيف مرزوق الشملان عددًا من حلقاته، وقدم الأستاذ رضا الفيلي عددًا آخر. ونحن اليوم - بعد مضي عدة سنين على هذا العمل المهم - نرى أهميته أكثر، بل نراه ضرورة لحفظ جزء عزيز من تاريخنا بحفظ تاريخ هؤلاء الرجال.

هذا المقال يعتمد على مقابلة تلفزيونية قدمها الأخ رضا الفيلي ضمن البرنامج المذكور، وهي معقودة للحديث مع ثلاثة من الرجال الذين عملوا في القطاعين السياسي والتجاري، ولكنهم في هذه المقابلة يتحدثون عن مهنتهم التي عاشوا معها زمنهم وهي: التجارة. هؤلاء الرجال هم:

١ - خالد عبداللطيف الحمد.

٢ - عبدالرحمن البحر.

٣ - مشعان الخضير.

رحمهم الله جميعًا.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢/٤/٢٠٠٨م.

وسوف يكون اعتمادنًا كبيرًا على ما جاء في المقابلة لأنها استوعبت الكثير من الأمور المتعلقة بأنشطة هؤلاء الرجال، وصارت مرجعًا لتاريخهم وتاريخ التجارة الكويتية في آن واحد.

تحدثنا في مقال سابق من «الوطن» عن المرحوم خالد العبداللطيف الحمد، وأوردنا جانبًا من حياته وأنشطته المتعددة، كما ذكرنا آراءه في كثير من الأمور، ولا بأس هنا من تقديم إيجاز عنه يعتبر مدخلًا لحديثنا لهذا اليوم.

عبداللطيف خالد الحمد رجل من رجال الاقتصاد البارزين في الكويت له أنشطة متعددة داخل البلاد وخارجها، ولد في سنة ١٨٩٠م، واشتغل بالسياسة في بداية حياته حتى صار عضوًا في المجلس التأسيسي لسنة ١٩٣٨م، ولكنه سرعان ما تفرغ لأعماله الخاصة وافتتح له مكتبًا في عدن يدير منه تجارته التي يشاركه فيها بعض أفراد أسرته، ثم عاد إلى الكويت حيث اهتم بالعمل التجاري على نطاق واسع وعني بتأسيس الشركات ذات النفع العام، وهو أحد مؤسسي بنك الكويت الوطني، ورئيس مجلس إدارته إلى أن توفاه الله.

لا ينسى أبناء الكويت العناية التي يوليها لهم هذا الرجل فهو حلّال المشاكل على كل حال.

وقد كتبنا فيما سبق من مقالات عن المرحوم مشعان الخضير الخالد، وهو من الرجال البارزين في الأعمال التجارية والاقتصادية الخاصة، كما أنه مشارك في الأعمال العامة، ولد في منطقة القبلة في سنة ١٨٩٢م، وبعد أن أنهى دراسته في الكتاتيب التي كانت موجودة في زمنه انتخب عضوًا في مجلس الشورى الذي أقامه الشيخ أحمد الجابر الصباح في بداية حكمه. وشارك في تأسيس المدرسة الأحمدية وكان عضوًا في الهيئة التي تديرها، وصار فيما بعد عضوًا في عدد من المجالس المهمة كالمجلس البلدي في اليوم الثامن من شهر مايو لسنة ١٩٢٣م،

ومجلس المعارف في سنة ١٩٣٦م، واللجنة التنظيمية للمجلس الأعلى منذ سنة ١٩٥٩م حتى سنة ١٩٦٢م، والمجلس الأعلى لإدارة شؤون البلاد في الفترة ذاتها، والمجلس المشترك منذ شهر أغسطس لسنة ١٩٥٢م حتى سنة ١٩٦٢م، وهيئة وضع قانون الانتخاب منذ سنة ١٩٦١م حتى سنة ١٩٦٢م، وكان قبل ذلك عضوًا في المجلس التأسيسي الذي تم إنشاؤه في سنة ١٩٣٨م.

كان أول رئيس لدائرة مالية الكويت، وذلك منذ سنة ١٩٣٨م حتى سنة ١٩٣٩م. يمتاز بحبه للقراءة، وكثرة التزود من المعلومات، كما يمتاز بنزاهته وعفته، وكانت له مكتبة كبيرة تبرع بها في سنة ١٩٥١م لدائرة معارف الكويت، وكان طيلة عمله في المدرسة الأحمدية لا يتقاضى أجرًا فقد تبرع به للمدرسة.

توفي في شهر يوليه لسنة ١٩٦٥م.

وثالث حلقات اللقاء كانت مع المرحوم الحاج عبدالرحمن البحر، وهو من رجال الاقتصاد الكويتيين الذين عملوا في المجال التجاري والاقتصادي على أوسع نطاق، وأسس مؤسسات لا تزال تعمل شاهدة له بجده واجتهاده وعمله الدؤوب، وكان من أوائل وكلاء شركات النقل البحري الأجنبية، وكان مشاركًا في عدد من الأعمال العامة، معروفًا لدى الجميع بصيته الطيب، وحسن تعامله مع الناس، وصدقه وأمانته في الأعمال التي يقوم بها. وكان من أبرز أعماله العامة عضويته في المجلس البلدي لعدة سنوات.

بدأ اللقاء بالحديث مع المرحوم مشعان الخضير، وكان السؤال الموجه إليه عن كيفية تكوين الدولة بإدارتها المنظمة وشخصيتها المستقلة، وكيانها المعروف مع سؤال إضافي يقول: ما هي المراحل التي مرت بها تطورات النظام الحكومي حتى وصل إلى ما وصل إليه؟

ويبدو أنه كان تحديد ما جرى في الزمن القديم صعبًا لعدم وجود تاريخ مكتوب عنه. ولكن مشعان الخضير اتجه مباشرة إلى الرد على السؤال مبتدئًا بفترة حكم الشيخ مبارك الصباح التي امتدت من سنة ١٨٩٦م حتى سنة ١٩١٥م، ففي عهده كما جاء في الجواب قويت الكويت واتسعت تجارتها البرية والبحرية، وكانت تجارتها قبل ذلك مهددة عندما تخرج القوافل أو السفن لكثرة مما تتعرض له من مخاطر، ولكن الشيخ مبارك كفل الأمان للتجار وساعدهم على العمل دون منغصات، فاتسعت تجارتهم برًا وبحرًا، وكانت تعتمد في ذلك الوقت على صيد اللؤلؤ والاتجار به، كما تعتمد على أسفارهم إلى الهند وأفريقيا، وبلغت سفن الغوص على اللؤلؤ عددًا كبيرًا جاوز الثمانمائة سفينة، وبلغ عدد السفن المتجهة للتجارة في الهند وأفريقيا حوالي مائة سفينة، ولذا فقد كان الاعتماد الأكبر في تجارة الكويت على النشاط البحري.

ولكنه أضاف أن صيد اللؤلؤ والاتجار به قد اعتراه وهن ثم اضمحلال فيما بعد بسبب مزاحمة اللؤلؤ الزراعي الياباني، وضعف الاقبال على الشراء في الأسواق الأوروبية. أما التجارة غير البحرية فقد ازدادت قوة منذ الحرب العالمية الأولى، وانتشرت أعمالها انتشارًا كبيرًا حتى وصلت إلى الشام في ذلك الوقت، وكان الشيخ سالم المبارك الصباح من المؤيدين للتجار الكويتيين في أثناء حكمه، وساعد تأييده هذا على انتشار تجارتهم.

وفي عهد الشيخ أحمد الجابر الصباح استمر هذا النشاط وبخاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقد اتسعت في هذا الوقت تجارة الكويت، ثم أفاض الله سبحانه علينا نعمة النفط فتضاعفت الأوضاع التجارية إلى الأفضل.

وكان السؤال الثاني عن المجالس التنظيمية والإدارية. وقد أجاب عنه بقوله: لم تكن هناك مجالس تنظيمية بمعنى الكلمة قبل أن ينشأ المجلس البلدي في سنة

١٩٢٨ م، وكان مجلسًا صغيرًا يتألف من اثنى عشر عضوًا برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح وكان المدير هو المرحوم سليمان العدساني. والحقيقة أن البلدية قامت بأعمال طيبة داخل البلاد، وكان مديرها من أنشط المدراء، وكان مقرها في غرفة صغيرة بسوق التجار ولكنها على صغر حجمها من حيث المقر وعدد العاملين، وعلى ضعف مواردها المالية استطاعت أن تقوم بأعمال جليلة أفادت البلاد.

وانتقل مشعان الخضير إلى الحديث عن مجلس آخر هو مجلس المعارف، فقال إنه لم يكن هذا المجلس منتظمًا حتى سنة ١٩٣٦ م، وهنا صار له أعضاء بالاختيار ثم بالانتخاب يرأسهم الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وانتظمت المدارس، وقَدِمَ إليها مدرسون من الخارج، وأرسلت دائرة المعارف عددًا من أبناء الكويت للدراسة العليا، وصارت هذه الدائرة تسير على الطريق السليم.

تحدث بعد ذلك عن النادي الأدبي الذي تأسس في سنة ١٩٢٤ م ولكنه لم يتوسع في ذلك لأنه كما قال بعيد عن أنشطته. واعتذر عن عدم الحديث عن المسائل السياسية لأنه كما قال - أيضًا - لا يتعاطى السياسة، ولأنه تحدث عما يعرفه وله خبرة فيه فحسب، ولكن أحد الحاضرين طلب منه أن يورد أسماء عدد من التجار الذين يعرفهم ولهم دور في تجارة الكويت التي ذكر عنها الكثير في بداية الحديث، فأورد عددًا من أسماء هؤلاء مقسِّمًا إياهم إلى أقسام هم تجار الشرق الذين يقومون بتسيير سفنهم إلى الخارج للتجارة، والذين يهتمون من هؤلاء بتجارة اللؤلؤ، وتجار الغرب من العاملين في المجالين المذكورين. ونعتذر هنا عن سرد الأسماء حتى لا نغمط أحدًا حقه فيما لو لم نذكره، لأنه لم يذكر الجميع لا لسبب إلا لأنه أراد - فقط - أن يقدم أمثلة لهؤلاء التجار الذين كانوا يعملون في مجالي السفر والغوص.

وجاء دور الحاج عبدالرحمن البحر في هذا اللقاء فسأله الأخ رضا الفيلي عن التجارة الكويتية بصفته تاجرًا له دوره في هذا المجال النشط. فتحدث عن طريقة ورود البضائع إلى الكويت، واعتبر الجزء الأهم منها ما يرد بوساطة البواخر، وكانت المحمرة مركزًا تجاريًا تصب فيه البضائع الواردة من الهند، ثم يتم نقلها إلى الكويت عن طريق وكلاء للتجار الكويتيين يقيمون هناك، ولكن البواخر بدأت ترد إلى الكويت مباشرة بعد سنة ١٩٢٠م، فانهالت السلع على البلاد بكافة أنواعها ثم تطور الأمر فصارت البضائع الأوروبية هي الأخرى تأتي على هذه الوسائل الحديثة، وكان في الهند أيضًا من الكويتيين من افتتح مكاتب تجارية فصار هؤلاء يمدون أقرانهم في الكويت بكل حاجاتهم، ومنهم محمد سالم السديراوي وحسين بن عيسى وغيرهما، كانت البضائع تصل من كراتشي، ومن مومبي، وتأتي الأخشاب من النيبار بواسطة السفن الكويتية، وكان للكويتيين نشاط في تجارة التمور وتسيير السفن والتجارة الخارجية، وكانوا ذوي صدقة وأمانة، كما كانوا عصاميين ومكافحين لا فرق بين كبير وصغير، وكنت ترى الشاب الذي لم يتجاوز عمره العشرين سنة، يدخل إلى المعترك بصفته معلمًا أو ربانًا في السفينة، وهذا ما جعل للكويت دورًا كبيرًا في تمويل المنطقة بكاملها، بسبب هذا النشاط العارم الذي يقوده تجار البلاد.

هنا وجدنا المرحوم مشعان الخضير يتدخل في الحديث لكي يقول: أود أن أبين أن هناك أناسًا كان لهم أثر كبير في نمو اقتصاديات الكويت منهم خالد الزيد الخالد وأحمد سعود الخالد. وهم من التجار أهل الفكر، الذين أقاموا مؤسسات أخذت تدر على الكويت أرباحًا طيبة مثل بنك الكويت الوطني وشركة السينما وشركة الملاحة.

واستأنف قائلًا: وأذكر ممن قام بخدمة التجارة في الكويت أخيرًا السيد عبدالعزيز حمد الصقر والسيد خالد العبداللطيف الحمد، وهم ممن لهم دور مهم في هذا المجال.

هذا وجميع الكويتيين الذين كانوا في المجالس الأدبية أو التجارية هم أناس قاموا بالواجب بشرف وأمانة بدون مقابل.

عاد الأخ رضا الفيلي إلى الحاج عبدالرحمن البحر ليسأله عن تجارة الماضي مما لم يذكره في حديثه السابق، فذكر أن تجارة الكويت قديمًا كانت قائمة على تصدير الخيل والتمور، وعندما ضعف هذا المجال جاء دور تجارة اللؤلؤ، وكان للأخير دوره في اقتصاد الكويت، إلى أن ضعف هذا الدور، وحل محله وافد جديد هو النفط الذي تدفق في البلاد في وقت مناسب.

وقد اتفق الحاج عبدالرحمن والحاج خالد فيما بعد على أن التجارة عند تسجيل المقابلة كانت في أسوأ حالاتها لعدة أسباب، منها:

١ - دخول عدد من عديمي الخبرة إلى مجال التجارة.

٢ - اشتغال عدد من الكويتيين بصفتهم تجارًا ولكن أكثرهم لم يكن يتمتع بالصفات الطيبة للتجار الكويتيين.

٣ - أصبحت التجارة داخلية. لانقطاع العمل المرتبط بالبيع للخارج (تجارة الترانزيت).

انتقل السؤال إلى الضيف الثالث وهو المرحوم خالد العبداللطيف الحمد، وكان رده أن التاجر الكويتي نشيط وعصامي، وهو ينوّع تجارته ولا يعتمد على صنف واحد، وذلك تحسبًا للطوارئ التي قد تؤثر على سير عمله، وكان جميع العاملين على سفن السفر التي تغادر إلى الهند وأفريقيا يحرص حتى البحارة منهم على أن تكون معه بضاعة ولو يسيرة يضيف ريعها شيئًا إلى دخله من عمله الأساسي، وكان بين الجميع تنافس على هذا العمل وهذا التنافس هو السر في نجاحهم وتفوق أعمالهم. وهنا التقط المرحوم مشعان الخضير ليتحدث عن أمانة

التاجر الكويتي: فضرب لذلك أمثلة لا مجال لذكرها هنا. ولكن المرحوم خالد الحمد عاد ليقول: إن طريقة الاتفاق الودّي بين التاجر والنوخذة، وسماح الأول للثاني بتقاضي نسبة عالية من الأرباح تُقدّر بالثلث لها دورها في النمو التجاري عند الكويتيين.

وإن الأمانة من الأمور التي تحلّى بها أولئك الرجال وهذه الصفة هي التي كانت تتيح لهم ما لا يتاح لغيرهم في البلدان الأخرى فهم يتنقلون فيها ومنها وإليها دون معيقات ودون أن تطلب منهم مراجعة الجهات الأمنية، ثقة من هذه البلدان بهم.

وبعد ذكر أسماء عدد من تجار الكويت القدماء عاد الأستاذ رضا الفيلي ليسأل عن الأسعار في تلك الأيام وكيفية معرفتهم بالتغيرات التي قد تطرأ عليها. وقد رد المرحوم خالد الحمد على هذا السؤال قائلًا:

من الصعب تحديد هذا الأمر، فالأمور في البيع والشراء تأتي بحسب نية الإنسان، ومن المعروف إن زيادة الأسعار في بلد المنشأ سوف تؤدي إلى زيادتها في الكويت، وهناك من التجار من لديه الصبر على بضاعته فينتظر ارتفاع الأسعار حتى يحصل على فائدة عالية، ومنهم من لا ينتظر، فهو يرى حصوله على فائدة قليلة ولكنها مستمرة أجدى له وأبقى لاسمه التجاري.

وذكر - أيضًا - أن تجارة الكويت كانت تعتمد كليًا على الدول المجاورة فبلادنا سوق كبير لهذه الدول يأتي أهلها لكي يشتروا حاجاتهم كاملة منها.

وجاء سؤال عن رحلاته التجارية فقال:

سفراتي متعددة، وبعضها وبخاصة في اليمن تكون إقامتي فيها ما بين سنتين وثلاث سنوات، وأسافر إلى الحبشة والصومال، وقد تعاطينا تجارة التمور في

البداية ثم توسعنا، وكانت كل سفراتي السابقة عن طريق البحر. ولم تكن السفن الشراعية التي نسافر عليها على شيء من الكفاءة من الناحية الفنية.

وكان هذا هو ختام الحديث المشترك، وقد ختمه الرجال الثلاثة بالدعاء للشيخ عبدالله السالم الصباح، والثناء عليه، وعلى مقدرته الفذّة في تسيير الأمور.

هذه التجارة الواسعة وهؤلاء التجار الذين لم يدعوا مجالًا إلا خاضوه، ولا بلدًا فيه مصلحة لعملهم إلا ذهبوا إليه مستخدمين السفن الشراعية الكويتية التي صارت مشهورة جدًا في المناطق التي تصل إليها، هؤلاء الرجال كان وراءهم معاونون سهّلوا لهم الأمور، وتحملوا الصعاب من أجل العمل الشريف الذي يفيدهم ويفيد وطنهم الكويت وهم النواخذة والبحارة الذين اخترقوا البحار إلى أماكن بعيدة لمدد طويلة ينقلون السلع، ويبيعونها ويشترون غيرها فهم الذراع القوي الذي يعتمد عليه تجار الكويت آنذاك وهؤلاء الأعوان لا يمنعهم جهد ولا تعب عن القيام بهذه المهمات، استمع إلى حديث أحدهم لصاحبه وقد أقبل عليهم الليل عندما كانوا على متن السفينة التي كانت تمخر عباب (الغبّة) في طريقها إلى مدينة كراتشي:

أقبل الليل وهذا يومنا
يقتفي آثار بحر العربِ
رقد النُّهام والسُّمّار لا
سمر يغري ولا من طرب
يا رفيقي هل ترى النَّجمَ الذي
باتَ يهدينا، ولما يغب
أو ترى ضوءَ هلالٍ ساطعُ
يتهادى بعد لم يحتجب
هذه الغبة لا تلقى بها
من أنيس غير هذا الكوكب

انظر الأمواج تنداح هنا
قد كسانا ماؤها المنسكب
واستمع أنات قومٍ رقدوا
بعد يوم قد مضى في تعب
واسأل الله وصولًا آمنًا
وسلامًا بعد طول النُّصب
يا رفيقي اترك اليأس فقد
ينجلي الأمر بشيء عجب
فكراتشي قد بدا ميناؤها
لم يعد عنا بعيد الطلب

****

ملحاق خير

هذه عودة إلى الحديث عن المرحوم عبدالرحمن محمد البحر الذي لم أوفه حقه من الحديث في مقالات سابقة كما حدث مع زميليه المشاركين له في اللقاء المشار إليه في هذا المقال.

ولد - رحمه الله - في حوالي سنة ١٨٨٥م بالعاصمة الكويتية، وكان كغيره من ناشئي تلك الأيام يزاول دراسته بداية في الكتاتيب القائمة وقتذاك. ومنذ سنة ١٩١٠م بدأ نشاطه التجاري عن طريق ممارسة استيراد المواد الغذائية والاستهلاكية والإنشائية، وظلت تجارته تنمو بنمو السوق المحلي وأسواق البلدان المجاورة التي يفد كثير من تجارها إلى الكويت فيتسوقون حاجتهم منه ومن غيره من التجار الكويتيين الذين نشطوا في تقديم خدمة تزويد السوق بكافة حاجاته.

واهتم بشؤون الملاحة بين الكويت وخارجها، فصار وكيلًا لعدد من الشركات العاملة في هذا الحقل منذ بداية عشرينيات القرن الماضي، وصارت لمؤسسته العاملة في الملاحة سمعة باهرة، وذلك لأنه كان يهتم بكل ما يتعلق بهذا العمل لما له من أهمية في تنشيط التجارة في البلاد. وتبعًا لذلك فقد شارك غيره من زملائه التجار في تأسيس واستملاك شركة النقل والتنزيل منذ ثلاثينيات القرن المنصرم، وقد كانت هذه الشركة تقوم بإدارة الميناء، وتتولى الأعمال المتصلة به مثل المناولة والتنزيل وتموين البواخر. وقد استمرت هذه الشركة في عملها إلى أن توسع العمل

التجاري والبحري، وأصبحت غير قادرة على أن تقوم بتلبية كافة احتياجات السوق الذي نشأت فيه، فتقرر تأميمها وتحويل الميناء إلى إدارة حكومية تقوم بالأعمال التي كانت الشركة تقوم بها.

إضافة إلى ذلك اهتم المرحوم عبدالرحمن البحر بنشاط آخر من الأنشطة التجارية هو: نشاط العقار، فحرص على الإستفادة من الفرص المواتية التي يتيحها العمل في المجال العقاري، ولكن نشاطه لم يقتصر على الكويت فقد كان له عمل في الخارج أيضًا عن طريق شراء وبناء المباني المدرة للأرباح.

وكانت له مساهمات في مجال تأسيس الشركات، وذلك منذ سنة ١٩٢٥م حين شارك في قيام شركة النقليات الأولى في البلاد وكانت تقوم بنقل الركاب من الكويت وإليها، ثم أسهم في شركة كهرباء الكويت، وشارك في إنشاء بنك الكويت الوطني وشركة ناقلات النفط وغير ذلك من المؤسسات الاقتصادية الكويتية البارزة.

كان له اهتمام مبكر بتجارة الأجهزة الإلكترونية، فقد كان ثاني وكيل في الكويت لشركة فليبس المشهورة التي كانت ولا تزال تنتج الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، وقد تخلى عنها فيما بعد لانشغاله بأعمال ووكالات أخرى من هذا النوع. كما كان من مؤسسي غرفة تجارة وصناعة الكويت، وكان عضوًا في مجلس إدارتها في الفترة ما بين سنتي ١٩٥٩م و ١٩٦٢م.

لم تتأثر تجارة المرحوم عبدالرحمن البحر بأحداث الحربين العالميتين الأولى والثانية، ولم يتعرض خلال الزمن الذي اشتدت فيه المعارك إلى خسائر مادية بسبب تميزه بالقناعة والاكتفاء بالربح القليل، وبذا حافظ في عمله التجاري على وتيرة واحدة لم تؤثر فيها تقلبات الزمن.

كان خلال ممارسته لعمله التجاري ملتزمًا بكلمته، حريصًا على تقوية علاقاته الطيبة مع الجميع، وكانت سمعته المحمودة سببًا في اختياره عضوًا في لجنة التحكيم التجاري، فكان له دور بارز فيها.

كانت المزايا الطيبة التي اتصف بها المرحوم عبدالرحمن محمد البحر سببًا من الأسباب التي كونت حوله الكثير من العلاقات الإنسانية، وصار له أصدقاء كثيرون في الكويت وخارجها.

توفي - رحمه الله - في اليوم الحادي والثلاثين من شهر يناير لسنة ١٩٧٢م.

****

رجال لن ينساهم الوطن[1]
الشيخ يوسف بن حمود

هذا رجل من رجال الفضل والعلم، امتلأت حياته بهما، فهو على خلق كريم، وهو متعلم جاد ومعلم له أياد بيضاء على كثير من أبناء الكويت الذين كانوا في زمانه يمارسون طلب العلم، وصفه الخال الشيخ محمد سليمان الجراح فقال: «كان رجلًا صالحًا، وكان بليغًا، ذا معرفة بعلوم الآلة، وله شعر حسن في رثاء الشيخ عبدالله الخلف، وكان بجوار بيته بيت وقف يُعلِّم فيه».

هكذا أوجز الشيخ محمد الجراح حديثه عن الشيخ يوسف الحمود دون إخلال فقد وفّاه حقه، وتحدث عن مناقبه وأسلوب عمله في نشر العلم. كانت العلاقة بين أخوالي والشيخ يوسف علاقة قوية، وكنت اسمعهم يتحدثون عنه بتقدير له وثناء عليه. وكانت محبته لهم قوية منذ بدأ اتصاله بهم في مجالس الشيخ عبدالله الخلف الديحان. ولما كان الشيخ يوسف إمامًا في مسجد العثمان بحي القبلة فإنه كان ينيب الشيخ محمد الجراح عنه، وقبل وفاته كتب رسالة يستخلف فيها الشيخ محمد على إمامة المصلين في المسجد، وذلك بعد أن كان ينوب عنه في كثير من الأوقات ووجد لديه الصدق والإخلاص، والتمسك بأهداب الدين، فلم يجد غيره أحدًا يصلح لهذه المهمة.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٩م.

تلقى الشيخ يوسف الحمود تعليمه عند الشيخ مساعد العازمي، والشيخ عبدالله الخلف الذي ارتبط به ارتباطًا روحيًّا وعلميًّا قويين لدرجة أنه لم يستطع أن يستمر في حياته المعتادة بعد وفاة شيخه فلزم بيته وانقطع عن الناس إلى أن حان وقت وفاته رحمه الله.

وفي هذا الشأن يقول الشيخ يوسف بن عيسى القناعي في كتابه «صفحات من تاريخ الكويت» عن الشيخ الحمود: «طلب العلم في الكويت عند الشيخ مساعد العازمي، واستفاد منه فائدة كبيرة، فاشتغل بالتجارة فلم يوفق فيها، وعُيِّن مدرسًا بالمدرسة المباركية، وكان ملازمًا لمحل الشيخ عبدالله الخلف لما به من المذكرات العلمية، وبعد وفاة الشيخ عبدالله لزم بيته، وانقطع عن مخالطة الناس حتى توفي».

ما سقناه فيما سبق ما هو إلا تقديم موجز للرجل ندخل منه إلى موضوعنا، فالشيخ يوسف الحمود رجل كان ذا وزن علمي مشهود، وكان له إنتاج في التعليم، وفي الدروس الدينية التي كان يلقيها في البيت الذي ذكر الشيخ محمد سليمان الجراح، وله أصحاب تجمعه بهم صلة العلم منذ أيام الطلب، وله تلاميذ كثيرون في الموقعين اللذين تصدى للتعليم فيهما نذكر منهم الشاعر الكويتي المعروف خالد الفرج الذي كان من تلاميذه في المدرسة المباركية.

الشيخ يوسف بن سليمان الحمود من مواليد سنة ١٨٧٦م تقريبًا لأن التسجيل الخاص بالولادات لم يكن قد عرف عند ولادته. وكانت نشأته في بيت والده وتحت رعايته. كان والده نوخذة من نواخذة الغوص، وكان هذا العمل هو السائد في الكويت آنذاك. ولم يكن الوالد على الرغم من انهماكه بهذه المهنة بعيدًا عن القراءة والاطلاع، فكان يحرص على اقتناء الكتب وعلى قراءتها وحضور مجالس العلم كلما

سنحت له الفرصة. وقد شب ابنه يوسف وهو يرى ذلك من أبيه، فكان أن أحب العلم وأكب على الكتب يقرؤها منذ صار قادرًا على ذلك. وشارك والده في عمله، فكان يخرج في رحلات الغوص معه، ويكافح مثل أقرانه في سبيل كسب الرزق.

وبعد هذه المرحلة اشتغل بالتجارة، ولكنه لم يوفق فيها تمامًا كما ذكر الشيخ يوسف القناعي، وكان مشاركًا للشيخ عبدالعزيز الرشيد في دكان يتولى الشيخ يوسف إدارته، ولفرط نزاهته وحرصه على اتباع الصدق مهما كلفه الأمر فإنه لم يكن قادرًا على مجاراة الناس في طرقهم التجارية فكان إذا عرض شيئًا للبيع أكد على المشتري أنه لا يضمن صلاحيته، وبذلك انفض عنه المشترون مما أدى إلى إغلاق المحل.

الجزء المهم من حياة الشيخ هو الجزء المتعلق بدراسته ثم بقيامه بالتدريس وكنا قد أشرنا منذ البداية إلى طرف من ذلك ولكننا الآن نسرد كل ما توصلنا إليه عنه في هذين المجالين المهمين من مجالات حياته.

بدأ دراسته في كتاتيب الكويت كما هي العادة الجارية في زمنه، إذ كل أقرانه لا مجال لهم في تلقي دراستهم إلا هذه الكتاتيب التي كانت منتشرة في كل مكان في البلاد وكان أصحابها جزاهم الله خيرًا يسدون النقص في هذا المرفق المهم من مرافق إعداد الأبناء للمستقبل. ولم يتخلوا عن مهمتهم الشريفة هذه إلا بعد أن قوي نشاط دائرة معارف الكويت، وأصبحت تفتتح مدارسها في نواحي الوطن المختلفة منذ سنة ١٩٣٦م، ولكن بعض هذه الكتاتيب كان عاملًا حتى منتصف خمسينيات القرن الماضي، لأنهم كانوا يجدون إقبالًا من أولياء الأمور عليهم حتى ذلك الوقت.

وعندما مر الشيخ يوسف بن حمود بهذه المرحلة الدراسية وأجاد القراءة والكتابة وختم قراءة القرآن الكريم اتجه إلى التَّزوُّد بالعلم من مصادر أخرى

فاتصل بالشيخ مساعد العازمي الذين كان قادمًا لتوه من مصر بعد أن درس في الأزهر الشريف، فعلمه الفقه والنحو والصرف والعروض.

وعندما أدرك الكثير من هذه العلوم على يد شيخه، اتجه إلى الشيخ عبدالله الخلف الدحيان الذي استقطب عددًا من طلبة العلم يدرسهم، ويتحاور معهم في مجلسه العلمي الذي اشتهر في ذلك الوقت. وقد كان هذا التحول في حياة الشيخ يوسف مهمًّا إذ ارتبط بالشيخ عبدالله ولم يفارقه أبدًا إلى أن فرق الموت بينهما.

وعندما تم افتتاح المدرسة المباركية في سنة ١٩١٢م كان الشيخ يوسف الحمود قد اكتمل علمًا ودرايةً وأصبح من أصلح الناس للتدريس في تلك المدرسة فتم اختياره لهذا العمل، وبعد سنوات قليلة خلا منصب المدير فتم اختياره مديرًا لها، وكان خلال هذين العملين رجلًا صالحًا نافعًا استفاد منه الكثيرون.

وكان إلى جانب ذلك إمامًا في مسجد العثمان بحي القبلة وهو مسجد قريب من مسكنه. وكان حريصًا على أداء الواجبات الدينية والنوافل فيه، كما كان متميزًا بالخلق القويم، والطيبة، وكرم النفس. وكان يدعو إلى مساعدة الفقراء، ويسعى إلى جمع ما يقوم بحاجاتهم من نفسه ومن بعض التجار ثم يقوم بتوزيعها على كل محتاج.

الشيخ يوسف بن حمود شاعر، لكنه لم يترك لنا من شعره غير قصيدة واحدة هي التي قالها في رثاء شيخه عبدالله الخلف الدحيان. ويبدو أنه حرص على ألا يبقى من شعره شيئًا في أيدي الناس.

أما هذه القصيدة، فربما كان سماحه ببقائها ناتجًا عن محبته للشيخ عبدالله، أو أن انتشارها كان أمرًا خارجًا عن إرادته لأن جميع القصائد التي قيلت في رثاء الشيخ مجموعة ومعروفة ومنها قصيدة الشيخ يوسف الحمود هذه.

جاء في مطلع القصيدة قوله:

ما للخطوبِ على القلوبِ تواردتْ
فغدت تبوح بشجوها المتكررِ
غُصّت عيون أولي النُّهى لمّا بدا
شخص الزمان بوجهه المتنكِّر

ومنها:

خطبُ ألمَّ بنا فيا لهفي على
شيخ غدا للذكر خير مذكِّر
بحر الندى قمر الدُّجى، علم الهدى
كم قد أبان الرُّشدَ للمتحيِّر
إنّ العيون لفقده لغزيرة
تبكي الزمان بدمعها المتحدِّر
يا راحلاً أضنى الفؤادَ رحيلُهُ
هنِّيت بالحور الحسان النُّضَّر
وكسيت في دار النعيم كرامةً
حُللاً تضيءُ من اللباس الأخضر

ولما كانت هذه القصيدة هي كل ما عثرنا عليه من كتابته فإن من المستحسن عرضها لنتبين منها بعض أفكاره التي قد نتوصل إلى شيء منها من خلال شعره.

تتكون القصيدة من سبعة وعشرين بيتًا بدأها بتساؤلين أولهما عن سر توارد الخطوب في ذلك الوقت حتى غُصّت عيون العقلاء لما رأوه من أعمال دهرهم المتنكر، أما التساؤل الثاني فهو عن سر الغفلة التي كانت تحيط بهم في الوقت

الذي يرون فيه الموتُ يلحق أصغرهم بأكبرهم دون تفرقة. يبدأ بالحديث عن الفقيد الذي شبهه بالبحر وشبه وفاته بالجزر الذي لحق ذلك البحر، ثم يتحدث عن فضائل الشيخ متجهًا إلى أحد إخوته في الدرس وهو يقصد نفسه قائلًا: يا أخي إن الموت أمر لابد منه وأن أيامنا طيف يمر لنائم ومُفكر، وهذا الموت - يا أخي- فرق شملنا. ثم يبدأ بإسداء النصائح إلى المستمعين حاثًا على التجلُّد والصبر، وعلى العمل ليوم يُقدِمون فيه على خالقهم فلابد وأن يتزودوا بأعمال الخير والتقوى فهي زاد ذلك اليوم.

ثم يعود إلى رثاء الفقيد والثناء عليه والدعاء له.

ومن باب العلم بالشيء فإنني نقلت هذه القصيدة عن الخال الشيخ إبراهيم سليمان الجراح، الذي كان مشاركًا هو الآخر في رثاء الشيخ عبدالله الخلف الدحيان بقصيدة مطلعها:

ألا أيها النَّاعي علام تلعثمُ
أفأنتَ في وقع المصيبةِ أبكمُ

ومنها قوله موجهًا الكلام إلى شيخه:

غادرتنا وبكل قلب خفقة
وبكل عين دمعة لا تُكْتمُ
وبكلِّ صدرٍ من نواكَ نوائح
يندبن ما بين الضُّلوع، ومأتمُ
أضحى محل الوعظ بعدك مُقفرًا
وانحلَّ للطُّلاب أمر مُبرم
وتعطلت حِلَقُ الدروس فمالها
من بعد بُعدك من يُرُمُّ ويَرْأمُ

كان الشيخ يوسف بن حمود مرتبطًا ارتباطًا كليًا بالشيخ عبدالله الخلف الدحيان، كان يحضر دروسه، ويلازمه في مقره، ويحفظ له كتبه، ويسعى إلى خدمته في كل ما يريد محبة منه له، وتقديرًا لعلمه وفضله، واعترافًا منه بأن الشيخ عبدالله يستحق ذلك.

وبعدما توفي شيخه وجد الشيخ يوسف بن حمود نفسه بمثابة اليتيم، وانقطع ما تعود عليه من سماع الدروس والالتقاء بطلبة العلم، وتوقف ذلك القلب الكبير الذي كان يحنو عليه، ويعتبر صاحبه قدوة له. فانزوى في بيته ولم يعد يخالط الناس، بل لقد كف عن مخاطبتهم حتى لقد وجدناه يكتب للشيخ محمد سليمان الجراح يطلب منه إمامة المسجد برسالة بخط يده بينما كان من المنتظر أن يخاطبه شفهيًا بذلك الأمر، ولكن ما أخذه على نفسه من حيث الانقطاع كان من أسباب الكتابة وهذا ما أشرنا إليه في بداية حديثنا.

بعد هذه الفترة المليئة بالكآبة، بدأ المرض يغزو جسمه الضعيف، وتعرض لحالات منه مؤذية لم يفد معها الطبُّ المتوافر في تلك الأيام، ولكنه كان صابرًا على البلاء مؤمنًا بقضاء الله وقدره.

وفي سنة ١٩٤٦م فاضت روحه إلى بارئها، فرحل عن هذه الدنيا لاحقًا بشيخه الذي لم يستطع نسيان أيامه العطرة. تاركًا زملاءه ومحبيه للأحزان.

في وقت وفاته كان الخال داود سليمان الجراح في رحلة معتادة إلى بومبي بالهند. وقد علم بخبر وفاة الشيخ يوسف بن حمود وهو هناك، فحزن عليه حزنًا شديدًا ولم يجد من يبثه هذا الحزن إلا صديق الطرفين الشيخ أحمد خميس الخلف، فكتب الخال داود رسالة فيها تعزية بالوفاة وفيها ذكر لمناقب الشيخ رحمه الله، ومن تلك الرسالة نقتطف ما يلي: «أعزِّيكم بفقيد العلم والأدب، والزهد

والورع، وخاتمة العُبّاد والنُّسّاك: الشيخ يوسف بن حمود فرحمة الله عليه رحمة واسعة. وأسكنه فسيح جنته، وألهمنا وإياكم وذويه جميل الصبر والعزاء، وإنّا لله وإنا إليه راجعون».

انتقل الشيخ يوسف سليمان الحمود إلى رحمة ربه تاركًا ذكرًا حسنًا، ودعوات تملأ أفواه الناس له بالمغفرة والرحمة من الله سبحانه. ولئن كان مثالًا للزهد فإنه لم تكن له من متع الدنيا - غير عبادته - إلا رحلة يقوم بها في موسم الربيع إلى بيت له في قرية الدمنة التي صارت اليوم جزءًا من مدينة السالمية، ولكنه كان يحول هذا البيت الصغير إلى مزار يستقبل فيه أصحابه وتلاميذه، ويلقي فيه الدروس لمن شاء. ولعل الموقع الذي كان فيه البيت المذكور هو الذي يمر به الشارع الذي أطلقت عليه دائرة بلدية الكويت اسم الشيخ وحسنًا فعلت. وهذا أقل ما ينبغي علينا أن نفعله من أجل هذا الرجل النبيل.

****

ملحاق خير

أرسل إلى أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم صورة رسالة وردته من المملكة العربية السعودية أرسلها الأخ الكريم الأستاذ عبدالعزيز ثامر المطرودي، وقد تحدث الأخ المرسل عن إنتاج مركز البحوث والدراسات الكويتية وأثنى عليه، ثم عرّج على كتاباتي فأشاد بها مما أسعدني، فالكاتب يحب - دائمًا - أن يرى أثر ما يكتب لدى القراء. وقد وجدت أن من المناسب هنا أن أورد قسمًا مما جاء في الرسالة تقديرًا لكاتبها وشكرًا على حسن ظنه، متمنيًا أن أتمكن من تحقيق ما أشار إليه في باقي رسالته.

وهذا هو القسم الذي أردت عرضه في هذا الملحاق: «سعادة الدكتور عبدالله يوسف الغنيم بكل صراحة لقد وهب الله الكويت أبناء مخلصين كرّسوا وقتهم وجهودهم لخدمتها ورفعة شأنها وإبراز تاريخها بطرح سلس وقوي. وهو السمة الغالبة على مطبوعات مركز البحوث والدراسات الكويتية.. لا أستطيع وصف سعادتي خلال قراءاتي للكتب التي حصلت عليها خلال السنوات التي مضت من إصدارات المركز.. فالحق يقال بأن كل كتاب منها كنز ثقافي.. خصوصًا كتب الدكتور يعقوب يوسف الغنيم الذي أتابع إصداراته وصفحتيه الرائعتين في جريدة الوطن الكويتية بعنوان «الأزمنة والأمكنة» ولا أخفيكم أنني التمست من كتابات شخصه الكريم شدة تمسكه بالتراث والتاريخ الكويتي الأصيل من خلال حفظه لبعض الأماكن التراثية بدولة الكويت والتي يصعب الوصول إليها أو تميزها مع المد

العمراني الحديث، قد كان (يقصد كشك) الشيخ مبارك الكبير رحمه الله والذي التقطت للدكتور يعقوب صورة له وهو يقف أمام الدكان الذي تحول بكل أسف لملكية خاصة وجُعل مطعم صغير، وأيضًا شجاعته بالحديث عن الحق الكويتي إبان الأزمة، والذي حاول بعض الحاقدين سلبه والاستيلاء عليه والمساعدة على جزم الغزو... خصوصًا حينما قرأت في صحيفة الوطن وفي زاوية «الأزمنة والأمكنة» عن الدور المتخاذل لثلة ممن خانوا دولة الكويت وهم الذين ترعرعوا على أرضها وسمنوا من خيراتها، وخرجوا منها بشرًا وهم الذين يتسولون منها وبالأخير يكونوا في طليعة من يخونها ويجحد أفضالها».

بعد هذا أشكر الأخ الكريم عبدالعزيز على ما كتب، وأرجو أن يرى قريبًا تحقيق جل ما اقترح، وأعتذر إليه عن عدم تمكني من نشر رسالته كاملة لضيق المكان ولكن الاشارة إليها والاقتطاف منها قد يغنيان في نقل مشاعره الطيبة.

****

ملحاق خير

الشيخ عبدالله الخلف الدحيان علم من أعلام الكويت، ورائد من رواد العلم الديني فيها، فهو علامة الكويت بلا منازع، له صيت في وطنه وفي خارج وطنه، عرف بغزارة العلم، وكرم الأخلاق والورع، وأحبه الناس لما يتمتع به من صفات كريمة جعلته مثالًا يحتذى بين عدد كبير من رجال عصره، ولد الشيخ عبدالله الخلف في الكويت في يوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٨٧٥م وعاش في رعاية والده، وتعلم منه القرآن الكريم، ومبادئ القراءة والكتاب والحساب، فنشأ منذ صغره حسن السيرة محبوبًا مقربًا عند أقرانه، محبًا للعلم مكبًا على تحصيله، وعندما شب وأصبح قادرًا على الدراسة الأعلى، ذهب إلى الشيخ محمد بن عبدالله الفارس فلازمه وأخذ عنه مبادئ الفقه وشيئًا من اللغة العربية، وحضر مجالس السيد مساعد السيد عبدالجليل العلمية وأفاد منها ثم خرج - بعد ذلك - إلى تلقي العلم في خارج الكويت، فحضر عند عدد من العلماء، وكان هؤلاء يعجبون بسرعة إدراكه واتساع فهمه، مما حببه إلى نفوسهم، وحملهم على تقديره، وبخاصة أنه يمتاز مع همته العلمية بالصدق والإخلاص والتواضع.

وقد حصل من عدد من هؤلاء العلماء على إجازات تثبت دراسته، وتبين ما حصل من علم على أيديهم، وهذه الإجازات تشبه الشهادات الدراسية التي تقدم للطلاب في وقتنا الحاضر، ومن الإجازات التي حصل عليها الشيخ عبدالله الخلف الدحيان إجازة كتبها الشيخ إبراهيم بن عيسى، واشتملت على ذكر الكتب التي

تلقاها الدحيان عن شيخه، وفيها عدد من كتب الحديث التي تناولها الشيخ ابن عيسى بالتفصيل ذاكرًا سندها وعمن تلقاها، مضيفًا إليها كتب الفقه، وأوصاه في آخر إجازته بتقوى الله في سره وعلانيته، والتمسك بسنة نبيه - ﷺ - وقول الحق بحسب الاستطاعة، وتمنى له التوفيق في مقبل أيامه، وكان تحرير هذه الشهادة في الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول لسنة ١٣٣٢هـ (الموافق الثامن عشر من شهر فبراير لسنة ١٩١٤م).

وقد عاد الشيخ عبدالله الخلف إلى الكويت مزودًا بالعلم مسلحًا بالأخلاق وبدأ التدريس والإمامة، واشتغل فترة بأمر القضاء، وشارك في كثير من المناسبات التي تقتضي مشاركته، وبخاصة تلك المناسبات التي تقام من أجل الخير، وبقي على حاله من الصلاح وحسن السيرة إلى أن توفي في يوم الخامس عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٣١م.

****

التشابه في أسماء الأماكن بين الكويت وباقي أطراف الجزيرة العربية[1]

تتشابه أسماء الأماكن في هذه المنطقة كثيرًا، وهو أمر معروف منذ القدم، ولما كان عدد كبير من الأماكن إنما اشتق اسمه من شكل سطح الأرض التي هي فيه فإن سبب هذا التشابه مفهوم ولكن بعضها لا علاقة له بسطح الأرض، إذ ربما كان ذلك بسبب السكان الذين إذا انتقلوا من مكان معروف الاسم نقلوا معهم اسم المكان الذي كانوا يقيمون فيه، وهذا - أيضًا - معروف من طبيعة حياة السكان القدماء لهذه الأرض التي كان سكانها يتنقلون بحسب تغيير الأجواء وبخاصة عند بحثهم عن مساقط الأمطار حيث يزدهر الربيع وتنمو الأعشاب التي ترعاها مواشيهم.

وقد تنبه عدد من علماء الأمة القدماء إلى ذلك فقاموا بتأليف كتب حول الأسماء المتشابهة نذكر منها كتابين مهمين في هذا الباب.

أولهما هو كتاب: «الأماكن، أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة» من تأليف الإمام الحافظ محمد بن موسى الحازمي المتوفى في سنة ١١٨٨م. وهو كتاب كبير الحجم يقع في مجلدين، وقد أعده للنشر الأستاذ حمد الجاسر، وصدر في سنة ١٩٩٤م، وكانت عناية الشيخ حمد بهذا الكتاب كبيرة من حيث التصحيح والتحقيق ووضع الحواشي المهمة والفهارس المفيدة، وضم الكتاب عددًا من الأماكن المتشابهة في الأسماء، وإن اختلفت مواقعها، وقد ضم عددًا كبيرًا جدًا من الأماكن التي من هذا النوع، وفيه فائدة جمة للقارئ والباحث على حد سواء.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٤/١٦م.

وأما الكتاب الثاني فهو: «كتاب المشترك وضعًا، والمفترق صقعًا» من تأليف العلامة ياقوت الحموي، والنسخة التي بين يدي مصورة عن نسخة مطبوعة في أوروبا سنة ١٨٤٦م، قام بتصويرها وتسهيل الحصول عليها للراغبين المرحوم قاسم محمد الرجب، صاحب مكتبة المثنى، وكان هذا الرجل من المهتمين بالكتب والكُتّاب، يبذل من ماله الكثير في سبيل تسهيل إيصال الكتاب إلى الراغب فيه، وقد نالت مكتبته شهرة كبيرة عمت البلاد العربية وقصدها المستشرقون من الغربيين، وقد لفتت هذه الشهرة نظر الطاغية صدام حسين فأمر زبانيته بتأميمها، وسرعان ما انهار هذا الصرح العالي، وانهارت معه صحة صاحبه انهيارًا أدى إلى وفاته رحمه الله. عرفت قاسم الرجب معرفة جيدة والتقيت به عدة مرات، كل ذلك في مصر، وكان يرسل إلي طلباتي من الكتب وأنا في مراحل الدراسة هناك، وكان قبل ذلك يرسل إلي ما أريد وأنا على مقاعد الدراسة في معهد الكويت الديني، ولقد عرفت فيه رجلاً صالحًا وفيًا صادقًا في كلامه وفي معاملته على خلاف جماعته الذين لا تأخذ منهم حقًا ولا باطلًا.

جاء الكتاب في مجلد واحد يضم أربعمائة وخمسًا وأربعين صفحة، والحقت به فهارس مفيدة منوعة، ولكنه يحتاج إلى تحقيق جديد بعد النظر إلى ما قد تم اكتشافه من نُسخ له ثم يتم طبعه على الطريقة الحديثة المتداول أمثالها، إذ أن حروف المطبعة التي طبعت الكتاب في سنة ١٨٤٦م هي غير حروف الطباعة المعهودة اليوم.

بعد هذه المقدمة نعود إلى موضوع حديثنا، وقد اخترت عددًا من المواضع الكويتية، مما له شبيه في مناطق أخرى من جزيرة العرب، وسوف استعرضها هنا لكي أؤكد أنه ما دام الاسم هناك قديمًا، له ذكر في التاريخ وكتب البلدان، بل وفي الشعر العربي فإن المكان الذي نراه ضمن حدود الكويت وعلى خريطتها قديم أيضًا، ولابد من أن يأتي يوم ينكشف لنا فيه تاريخه.

ومن الأماكن المختارة ما يُسمى «السرحة» وقد كان هذا الاسم يطلق عندنا على الموقع الذي يضم منطقتي النزهة والفيحاء والقطعتين ٣ و٤ من منطقة ضاحية عبدالله السالم، وكان الموقع قبل إنشاء المناطق الثلاث مسيل ماء لآبار الشامية وكيفان وهي من أهم موارد المياه في الكويت القديمة، وكانت الحكومة - آنذاك - تمنع إقامة العشيش أو بيوت الشعر أو السكن بوجه عام في المواضع الثلاثة التي ذكرنا، وذلك حرصًا على نقاء المياه التي تسيل منها إلى الموارد المائية في الشامية وكيفان.

هذه هي السرحة، التي نسي الناس اسمها ومن قبلهم الحكومة، ولا ندري ما هو الضرر فيما لو اطلق هذا الاسم على منطقة الفيحاء أو منطقة النزهة، وذلك في وقت التخطيط للمواقع المستحدثة، واليوم وقد صارت الأسماء أمرًا واقعًا لماذا لا تسمي دائرة بلدية الكويت شارعًا واسعًا في المكان نفسه باسم السرحة حفاظًا على اسم قديم لا نشك في قدمه بدليل تشابهه مع موضع آخر في مكان مختلف.

وقد أورد ابن منظور في كتابه «لسان العرب» ذكر السرحة فقال في مادة (سرح): «وقال أبوحنيفة (الدينوري): السرحة دوحة محلال واسعة، يحل تحتها الناس في الصيف، ويبتنون تحتها البيوت، وظلها صالح، قال الشاعر:

فيا سرحة الركبانِ، ظلُّكَ باردٌ

وماؤكَ عذبٌ لا يمل لواردِ

وذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» هذا الموضع فقال: والسرحة في اليمامة، موضع بعينه».

لا ندعي أن «السرحة» المعروفة في الكويت قديمًا هي ذاتها التي ذكرها كل من ابن منظور وياقوت الحموي، ولكن تشابه الاسم المعروف عندنا مع الاسم القديم له دلالته.

هذا وقد ذكرت (السرحة) في الشعر القديم كناية عن المرأة وذلك لجمالها، ومن ذلك قول حُميد بن ثور:

أقول لعبدالله بيني وبينه
لك الخير خبِّرني فأنت صديقُ
تُراني إذا عللت نفسي بسرحة
من السَّرح موجود عليّ طريق؟
أبى اللهُ إلا أنَّ سرحةَ مالكٍ
على كلِّ سرحاتِ العِضاهِ تروق
فقد ذهبت عرضًا وما فوق طولها
من السَّرح إلا عَشَّةٌ وسُحُوق
فلا الظِلُّ من برد الضُّحَى تستطلُّهُ
ولا الفيءَ من برد العشي تذوق

وقد لجأ إلى الكناية عن المرأة بهذا الأسلوب لأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنذر الشعراء، وقال: والله لا شبب (أي تغزّل) رجل بامرأة إلا جلدته. ولذلك رأينا حميد بن ثور يقول: تراني إذا عللت نفسي وذكرت السرحة، أفيجد علي أحد طريقًا يُعاقبني بسببه؟

ومما قاله السيد الكريم الشريف الرضي، فيما يتعلق بالكناية بالسرحة عن المرأة قوله:

طال ذكرُ النفسِ أرواحَ زرودٍ وبروقهْ
وعقابيلَ غرامٍ يذكرُ القلبَ حقوقهْ
وخيالٌ دلسَ القَلْبُ على العينِ طروقهْ
كذبٌ يحسبهُ الصَّبُ من الشوقِ حقيقهْ
أنعمي يا سرحةَ الحي وإن كُنت سحيقهْ
أتمنى لك أن تبقي على النَّأي وريقهْ
ثمرُ حَرَّمَ واشيكِ علينا أن نَذُوقهْ

بعد كل ذلك فإنه يحق لنا أن نقول إنه لابد وأن يكون اسم السرحة الكويتية متحدرًا من جذور قديمة لم نستطع حتى الآن أن نتوصل إليها حتى نثبتها، ولكن البحث المستمر سوف يطلعنا عليها.

حدثني عن سرحة الكويت المرحوم الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين وهو من الملمين بأسماء المواقع الكويتية قديمها وحديثها، ومثل ذلك أنه حدثني عن الاسم القديم لمنطقة الخالدية وهو المعيريض، وياليت بلدية الكويت تطلق هذا الاسم القديم على أحد الشوارع في المنطقة المذكورة.

ثم نتطرق هنا إلى موقع آخر هو المسمى «مهزول» وهذا شبيه بما سبقه من حيث وجود اسم قديم له في منطقة من مناطق الجزيرة العربية.

يقع «مهزول» في غربي الكويت بالقرب من وادي الباطن، وهو أرض خالية يمر بها طريق ترابي تطرقه السيارات، وتقع بجواره بحرة تدعى «بحرة مهزول» وهي شق في الأرض يشبه الوادي تفيض فيه مياه الأمطار عند تساقطها، وشرقًا عنه موضع آخر يدعى عمارة مهزول، وهو عبارة عن مرتفع ترابي به بعض الصخر، يوضع عادة للإستفادة منه في معرفة الطرق، فهو علامة من علاماتها، وفي الشمال عن «مهزول» وفي موقع أكثر قربًا من وادي الباطن «الرمة» نجد موقعًا آخر يدعى «مهيزيل» وبجواره مركز للشرطة.

يقع «مهزول» على بُعد ١٤٣ كيلومترًا عن العاصمة، وهو على شرقي خط الطول ٤٧,٥٠ شمالي خط العرض ٢٩,٢٩.

ومهزول وما حوله أسماء محلية لمواقع متقاربة كما رأينا، وهي وإن كانت محلية إلا أن الظن كل الظن أن إطلاقها على هذه المواقع قديم، والدليل على ذلك هو وجودها في مناطق أخرى من جزيرة العرب، وذكرها في الكتب القديمة، كما حدث مع «السرحة» التي أوردنا ذكرها فيما سبق.

ولاشك في أن مزيدًا من البحث سوف يوصلنا إلى العلاقة التي تربط موقع مهزول وما حوله بالتاريخ المحيط بالمنطقة، وكل ما دار فيها من أحداث، ونحن في ذلك نرى أن تكرار الاسم لم يكن بالصدفة ولم يكن عبثًا إذْ قد يكون تاريخ المكان قد ابتعد عنا قليلًا، ولكن اسمه ظل باقيًا.

وبعد ما تقدم نعود إلى ذكر شيء مما ورد عن مهزول في الكتب القديمة، وذلك كما يلي:

١ - في كتاب «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» لعبدالله بن عبدالعزيز البكري المتوفى في سنة ١٠٩٤م. حديث عن مهزول ذكره ضمن الحديث عن موقع حمى ضرية المشهور في جزيرة العرب، وذكر شعرًا قاله حبيب بن شوقب وهو من أهل ضرية جاء فيه:

بربا العثاعثِ حيثُ واجهت الرّبا
سند العروس وقابلت مهزولا
وجرتْ بها الحجج الرّوامس فاكتست
بعد النّضارة وحشة وذبولا

وقد وردت في البيتين أماكن كلها في موقع الحمى المذكور.

وتحدث البكري - مرة أخرى - عن مهزول فقال: هو مذكور في رسم ضرية.

٢ - أورد الحسن بن عبدالله الأصفهاني في كتابه «بلاد العرب» المطبوع في سنة ١٩٦٨ م ذكر مهزول عدة مرات، وذكر أن هناك مواقع عدة لهذا الاسم نفسه، وصفها بايجاز شديد ذاكرًا مواقعها، وهذا أيضًا مما يدل على أن «مهزول» الكويت غير مستبعد أن يكون واحدًا. من تلك الأماكن التي ذكرها باسمه، أو أن هذا الاسم تكرار للأسماء القديمة التي وردت في كتاب الأصفهاني.

٣ - وذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» موقع مهزول فقال: «اسم وادٍ في إقبال النير بحمى ضرية، ويقال: وادٍ إلى أصل جبل يقال له ينوف، وقال أبو زياد: مهزول وادٍ يتعلق بواديين فهما شعبا مهزول، وأنشد:

عوجا خليليّ على الطلول
بين اللّوى وشعبتي مهزولِ
وما البكا في دارس محيل
قفر وليس اليوم كالماهول

٤ - أما الحازمي فذكر قولًا مطابقًا لقول ياقوت الأول.

ولا أظن أننا في حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على أن ورود الاسم قديمًا يدل دلالة قاطعة على أن الموقع الموجود عندنا قديم. وأن ذكرنا ما ورد في الكتب لا يدل على أن المواقع التي ذكرت فيها تشير إلى موضعنا، ولكننا أوردنا ذكرها تدليلًا على قدم هذا الاسم، والمجال مفتوح لمزيد من البحث.

وسوف نتحدث هنا عن موقع ثالث هو: القرين: وهذا الاسم له في تاريخ الكويت صدى كبير، فهو الموضع الأول الذي تأسس فيه نظام الحكم الكويتي، وبقيت المنطقة المحيطة به تسمى القرين إلى أن نشأت العاصمة الجديدة (الكويت) فعمَّ اسمها على البلاد كلها.

ومن أوائل الخرائط العالمية التي ورد فيها ذكر اسم «القرين» كانت الخريطة التي رسمها كارستن نيبور ووصف فيها رحلته الشهيرة، ونشرت في سنة ١٧٧٢م.

وكان من أواخر من ذكر «القرين» مقترنًا بالكويت هولويس بيللي الذي حضر إلى الكويت مرتين خلال القرن التاسع عشر وذكر ذلك في سنة ١٨٦٣م، عند كتابة تقريره عن إحدى الرحلتين المذكورتين.

الشاعر العبقري محمود حسن إسماعيل في الكويت[1]

في ليلة مقمرة من ليالي صيف سنة ١٩٥٤م من القرن الماضي، كنت استمع إلى محطة صوت العرب من مذياع بائس كان من أفضل ما وُجد في تلك الأيام، وكانت هذه المحطة موضع إعجاب الجميع ومتابعتهم، وبخاصة حين يهدر منها أحمد سعيد بخطبه التي (ودتنا في داهية) كما يقول إخواننا المصريون. كان صوت العرب - آنذاك - يذيع حديثًا عاديًا من الأحاديث التي يدعو بعض المختصين لإلقائها على مسامع المتابعين، وفجأة قُطع الحديث، وقال المذيع بصوت قوي: انتظروا مفاجأة طيبة. ثم أعاد الحديث ليقطعه مرة أخرى ليقول إن المفاجأة الطيبة التي وعدناكم بها سوف تكون نشيدًا وطنيًا صاغه الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، ولحنه الموسيقار محمد عبدالوهاب وهو الذي سوف ينشده عليكم. لم أكن قد سمعت بهذا الشاعر من قبل وإضفاء صفة الكبير من قبل المحطة عليه أثارت فضولي فكيف لا أعرف شاعرًا كبيرًا مثله وأنا أقرأ الكثير من دواوين الشعر، والكثير من كتب الأدب؟ المهم في الأمر أن تنويه صوت العرب قد تكرر، وفي الهزيع الأخير من الليل حان وقت تقديم النشيد. كان ذلك هو نشيد «دعاء الشرق» الذي صدح به الفنان محمد عبدالوهاب فأسمع وأمتع.

لقد كان النص واللحن في منتهى الرقي، وقد صارت إذاعة صوت العرب تردده مرارًا، وجعلته لحنًا مميزًا لأحد أهم برامجها المنوعة المسمى: «ليالي الشرق» وكانت بداية النشيد:

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٢٣م.

يا سماء الشَّرقِ طوفي بالضِّياءِ
وانشري شمسك في كل سماءِ
ذكِّريه.. واذكري أيامه
بهدى الحق ونور الأنبياء.

ويستمران في إبداعهما قائلين:

كانت الدُّنيا ظلامًا حوله
وَهْوَ يهدي بخطاهُ الحائرينا
أرْضُهُ لم تعرف القيد ولا
خفضت إلا لباريها الجبينا
كيف يمشي في ثراها غاصبٌ
يملأ الأفق جراحًا وأنينا
كيف من جناتها يجني المنى
ونُرى في ظلها كالغرباء

وانتهت الليلة، وبقي النشيد عالقًا في ذهني أردده بيني وبين نفسي، مرت الأيام، وزالت أشياء كثيرة منها المذياع الذي حدثتك عنه، وهو لايزال عندي مصورًا وسوف أريك صورته مع هذا المقال، وجاءت السنة التي غادرت فيها إلى القاهرة من أجل الدراسة.

وخلال هذه السنوات التي سبقت رحلتي كنت أتابع شعر محمود حسن إسماعيل، واستمع إلى ما يغنى من قصائده. وأذهلتني فيما بعد كما أذهلت غيري أنشودة «النهر الخالد» التي غناها ولحنها عبدالوهاب وسرعان ما صارت على كل لسان فالكل يردد:

مسافر زاده الخيالُ
والسحر والعطر والظلالُ

ظمآن والكأسُ في يديه

والحب والفن والجمال

شابت على أرضه الليالي

وضيعت عمرها الجبال

وصار الجميع يهتف بقول شاعرنا:

سمعت في شطك الجميل

ما قالت الرِّيح للنخيلِ

يُسَبِّحُ الطيرُ أم يُغنِّي

ويشرح الحُبّ للخميل

وَأَغْصُنٌ تلك أم صبايا

شربن من خمرة الأصيل

كان من حسنات الأستاذ محمود محمد شاكر عليّ أن عرفت في مجلسه الشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، وكان يجلس صامتًا شاردًا متأملًا يستمع إلى الحديث الذي يدور في المجلس ولم يكن يشارك فيه إلا نادرًا، ولكنه يحس بمحبة من حوله، ويلحظ ما يكنون له من تقدير واحترام، ومنذ اللقاء الأول توثقت صلتي به، واعتبرت هذا حدثًا من أحداث حياتي. فهو قمة من وصل إليها ارتفع. واستمرت هذه الصلة حتى يوم وفاته رحمه الله.

ومحمود حسن إسماعيل غزير الشاعرية، كثير الإنتاج صدر له أربعة عشر ديوانًا جمعتها الشيخة الدكتورة سعاد الصباح في أربعة مجلدات وطبعتها طباعة أنيقة تشكر عليها. وله مجموعة قصائد لم تنشر جاء بعضها في الكتاب الذي أصدرته ابنة الشاعر سلوان محمود مع عزت سعدالدين وتتنوع موضوعات قصائده كما تتنوع أوزانها، وهو لا يترك مناسبة لا يشارك فيها بقصيدة، وكان يمثل بشعره مصر والعرب في مناسبات دولية منها مشاركته في مهرجان الشعر الدولي الذي عقد في يوغوسلافيا صيف سنة ١٩٦٩م.

وأنشد فيه قصيدة من أحلى قصائده، وهي بعنوان «السلام الذي أعرف» ومنها قوله:

مِن الشَّرقِ جئتُ ومن كلِّ أرضٍ أتيت

ولست نبيًا على كفه تَسْطع المعجزاتْ

ولامُرسلا في يميني كتاب

يضيء الوجود بآياته البينات

ولا حاملًا شعلة في يدي

تدُقُّ السَّماءُ بها كلُّ باب

ولكنني من دروب الحياة أتيتُ

ومن كل جُرح لإنسانها قد سريتُ

إلى آخرها.. وهي قصيدة طويلة، من نوع الملاحم الخالدة، وفيها تعبير عن فكر هذا الشاعر الفذ، وفيها الدليل على تمكنه من أدوات الشعر. وإذا قرأنا ختام هذه القصيدة عرفنا شاعرها جيدًا فهو الذي يقول موجهًا الكلام لحاضري المهرجان:

فيا أصدقائي

إذا عاد حر إلى أرضه في الصباحْ

وعادت مع النور

تبسم كل الجراحْ

وكفت عن البغي.. نار السلاحْ

وذابت مع اللون.. كل العناصرْ

وبادت من الأرض كل المجازرْ

وماتت عليها رياح التآمرْ

وسطو العصابات من كل باغ وغادرْ

وفلت عُراها حبال الخيام

ولم يبق فيها شريد مضامْ

وغنت مع الطير أم وطفلْ

وسبح للحب

غصن، وظلّ

سأشدو

ونشدو جميعًا

بلحن السلامْ

أرأيت هذا الختام البديع، وهذا الجمع الحاشد لكل ما كان يمر بالوطن العربي من مآس في تلك الفترة. يكفينا أن نرى عنده الإلمام الكامل بقضية شعبه العربي، وأن يستطيع بمهارة أن ينقل صورتها إلى العالم عبر هذا المهرجان.

صدرت للشاعر أربعة دواوين قبل ثورة ١٩٥٢م بمصر، كان أشهرها «أغاني الكوخ» و«هكذا أغني». وقد لقي هذان الديوانان اهتمامًا كبيرًا من النقاد والقراء، وبخاصة أن أكثر قصائدهما قد نشرت قبل طبعهما في عدد من الصحف المصرية. ولا ننسى أنه كان من المثابرين على نشر قصائده في مجلة الرسالة التي كانت أشهر مجلة أدبية في عالمنا العربي وأكثرها قراء.

وعندما قامت الثورة أنتج ثلاثة دواوين هي «نار وأصفاد» و «قاب قوسين» و «لابد». وتوالت دواوين شعره منذ هذه الفترة فأصدر «التائهون» و «صلاة ورفض» و «هدير البرزخ» و «صوت من الله» و«نهر الحقيقة» و«موسيقى من السر» و«رياح المغيب».

ويلاحظ المتتبع لهذه الدواوين أن بعضها يتخصص في موضوع واحد فأغاني الكوخ مثلًا يضم قصائد عن الريف والفلاح والكوخ الذي يسكنه هذا الفلاح، ويتحدث عن حياة الطبيعة البكر التي تعبق بروائح الأرض والزرع، وديوان نار

وأصفاد يضم قصائد وطنية قالها بعد الثورة وشدت ببعضها أم كلثوم مثل قصيدة «رُبا الفيحاء» التي مطلعها:

وفَّقَ اللهُ على النُّورِ خطانا

والتقت في موكب النصر يدانا

وحَّدت شمس الضُّحى أعلامنا

وانبرت في الشرق تُحيي المهرجانا

لا تسل عَنَّا ولا كيف لقانا

واسأل التَّاريخ عنا والزمانا

نحن كنا مهجة واحدة

ودمًا حرًا، وروحًا، وجَنانا

وأما ديوان «صلاة ورفض» فهو يضم قصائد نظم أكثرها في إثر هزيمة سنة ١٩٦٧م، وأول قصيدة فيه يعبر فيها عن رفضه لهذه الهزيمة، ثم تأتي قصائد الديوان بعدها وهي تسير على الموال نفسه، فيعبر فيها عن غضبة الثأر وصوت المعركة وعن القدس وغير ذلك. وأما ديوان «صوت من الله» فهو ابتهالات يتوجه بها الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى ويعبر فيها عن إيمانه العميق مبتهلًا إلى خالقه بابتهالات رائعة التعبير. وديوان «موسيقى من السر» حَوّل فيه موضوعات كثيرة إلى أصوات موسيقية شعرية معبرة عن كثير من نواحي الحياة، وقد هربت إحدى قصائد هذا النوع لتحط في ديوان آخر هو: «نهر الحقيقة» وهذه القصيدة هي «موسيقى من الجن» وهي قصيدة جميلة تخيل نفسه فيها يرى الجن ويستمع إلى همهماتهم، وأغنياتهم ورقصهم:

وأكاد أسمعهمْ

ورغم ضراوة الغيب الكثيف

أكادُ أسمعهم وأبصرهمْ

وأرى حفيف خطاهم

خلف الأثير مزاهرًا حمرًا
تُغَنّيهم وتُرقصُهمْ
يتسللون ويمرقون
ولا طيور الوهم فوق الظن
بالأحلام تُدركهمْ
وأكاد من خَلَدي أكلمُهُمْ

هكذا قال، ومع ذلك فهو غير مصدق لما يقال عن الجن من أنهم يعلمون بالمغيبات، أو أنهم يستطيعون نفع أحد، لذلك قال في نهاية القصيدة:

ضلوا الطريق
فما لمنتجع غيب الإله سنًا يُضَوِّؤهم
الغيب غيب الله يُبعدهم
والعقل مدّ الروح يحملهم
والروح قبل العقل ترفضهم

بقي الحديث عن ملحمته التي خصص لها ديوانًا مستقلًا وهي: «هدير البرزخ» وهذه من قصائد الكويت، قالها بيننا وأسمعنا إياها، وهذه هي قصتها وقصة حضوره إلى الكويت كما ذكرتها في كتابي «همس الذكريات» وكنت أتحدث عن إنشاء مركز بحوث المناهج في وزارة التربية فقلت: «وبمناسبة ذكر مركز بحوث المناهج، أذكر أحد الأعلام الذين كانوا يعملون به، وهو الشاعر محمود حسن إسماعيل، وقد حرصت على حضوره إلى الكويت لناحيتين، أولاهما حاجة العمل في المركز إلى مثله، والثانية الرغبة في أن يساهم في الحركة الثقافية والأدبية في الكويت خارج العمل، وقد أنتج الكثير في هذه الفترة، وشارك في أمسية شعرية اقتصرت عليه ألقى فيها عددًا من قصائده وكان وجود صاحب النهر الخالد ودعاء الشرق بيننا فرصة كبيرة للاستفادة منه. ولا أنسى أن أذكر أن الشاعر كان من

أعز أصدقاء الأستاذ محمود محمد شاكر وأقربهم إلى نفسه، وله قصيدة استقبل بها صديقه حين زار الكويت لأول مرة يقول فيها:

وتكلمتْ حباتُ رملِ البيد حين
نزلتَ ضيفًا في قلوب رجالها
وسمعتُها، وسمعتَ أنت حديثَها
ورأيت مثلي ما يدور ببالها
كذب اللقاء فأنت نبض رياحها
وإباء تلعتها وكبر جبالها
وحديث من غبروا وشباباتهم
بيديك سحر يمينها وشمالها
تعب الخلود وملَّ، حتى زرتها
فرددته نشوان فوق رمالها

وهي قصيدة طويلة ألقاها الشاعر في بيتي حينما كنت مع زملائي نحتفي بمقدم الأستاذ، وقدم لها بقوله: «لصديقي الكبير، الأستاذ محمود محمد شاكر، في لقائه المفاجئ بأرض الكويت العربية، التي نزل رحابها لأول مرة في حياته».

ومن الأمور التي لا تنسى ما حدث لنا معه في إحدى الليالي، وكنا جلوسًا بحضور الأستاذ محمود شاكر في منزل الأخ جمعة ياسين فدار الحديث عن الموت والقبور، وكان محمود حسن إسماعيل ينفر من هذا الحديث، وردًا عليه عزمنا على أمر يزيل عنه هذا الخوف، فخرجنا أنا والأخ جاسم المطوع والأخ إبراهيم المهنا، وأخذناه معنا من أجل إيصاله إلى سكنه، ولكني اتجهت به إلى المقبرة، وحين شاهد بابها وما كتب على سورها من أن الغسل والتكفين مجانًا ذهل وأصبح يهمهم بكلمات غريبة ويطلب مني عدم الدخول، وظل فترة يردد ذكر هذه الحادثة، ويقول إن أشد ما أغاظني هو أن الغسل والتكفين مجانًا، فكأنهما

هدية تهدى إلى الميت، وقد أنتجت هذه الزيارة ملحمة أبدعها شاعرنا من وحي المقبرة هي «هدير البرزخ».

كان الأستاذ الدكتور توفيق الفيل أحد شهود الفترة التي كان فيها الشاعر محمود حسن إسماعيل بيننا في الكويت، ولديه ذكريات تفضل بكتابتها بعد أن طلبت شهادته وهاأنذا ذا أختم بها مقال اليوم فهي خير ختام.

«لا أريد أن أتحدث عن شاعرية محمود حسن إسماعيل، فلا زلت أقول إن هذا الشاعر يحتاج إلى تفرغ كامل من أجل استكناه صوره وخيالاته، كما أنه في حاجة إلى أن يجمع المرء طاقاته ومعارفه من أجل أن يلج عالمه الفسيح والعميق معًا. لكني أريد الآن أن أتحدث في أمرين، أعلم أن الدكتور يعقوب الغنيم لن يقبل أن يكتب هو عن الأول، والثاني عرفته قبل وفاة الشاعر.

أما الأمر الأول، فيتلخص في أن محمود حسن إسماعيل ضاقت نفسه بالحياة في مصر في ذلك الوقت، إذ حسب بعضهم أنه لا يساير النظام فتجاهل هؤلاء قدره ومقداره. وربما تمثل في ذلك بعض ما قال البحتري:

وإذا ما جفيت كنت جديرًا
أن أرى غير مصبح حيث أمسي

وقد كان الدكتور يعقوب الغنيم يتولى منصبًا رفيعًا في وزارة التربية فهيأ للشاعر الكبير مكانًا في مركز من مراكز التربية. ومن العادات التي تأصلت فينا أن يكيد بعضنا لبعض، فذهب أحدهم إلى الدكتور يعقوب وهمس له أن محمود حسن إسماعيل لا يقوم بعمل. وكان رده عليه «ماجئنا بالأستاذ محمود حسن اسماعيل ليقوم بعمل يقوم به واحد من الناس، لكنا جئنا به تكريمًا لاسمه وشاعريته، ولينعم على أمتنا بقصيدة من شعره ولو كل عام». أترك للقارئ أن يثمن ما فعل يعقوب الغنيم، وما تستحق الكويت الذي قام أحد أبنائها بمثل هذا العمل.

أما الأمر الثاني: فقد أشيع أن الأستاذ محمود حسن إسماعيل توفي، ووصل هذا الخبر السيئ إلى ابنته، فاتصلت به وهي باكية، وحين علم منها ذلك، قال لها: هل رأيت الطبيعة غاضبة ترسل عواصفها؟ قالت: لا : قال فكيف تظنين والدك قد مات.

ومن الغريب أن تهب في الكويت عواصف عاتية، وتغضب الطبيعة غضبًا شديدًا عند وفاة الأستاذ محمود حسن إسماعيل لا أدري إن كان الشاعر قد قال ما قال مداعبًا ابنته ومخففًا عنها خبرًا أليمًا أزعجها وأحزنها أم رأى ببصيرته ما سوف يحدث حين تفقد الأمة شاعرًا في مثل قامة محمود حسن إسماعيل، لا أستطيع الجزم بهذا ولا ذاك، لكني أستطيع أن أقول ما قال الشاعر العربي القديم:

وما كان قيس هُلكه هُلك واحدٍ
ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما

****

ملحاق خير

كان الأستاذ عبدالحميد البسيوني على صلة وثيقة بالشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل، وكانت لقاءاتهما لا تنقطع سواء أكان ذلك في الكويت أم في القاهرة، وكانت جلساتهما لا تخلو من فائدة، ولذلك نرى الأخ البسيوني شديد الإحساس بألم الفراق حين توفى الشاعر، وكانت وفاته تحمل معاني الفجأة التي هي من سمات الشاعر، فكل من يراه يحس أنه مسكون بصورة المفاجأة، ولذلك عملها معنا، وفارقنا ونحن وكل محبيه ومحبي الشعر الرائع في أمس الحاجة إليه.

اجتمع بعض الصحاب لتأبين الشاعر، فقام الأستاذ عبدالحميد البسيوني لكي يدلي بدلوه، ويعبر عن مشاعره، وعن علاقته المتينة بالشاعر الراحل، ولم يكن يريد كلمته أن تكون كغيره فحولها إلى ما يشبه الدراسة، وقدم لها بكلمات منه ممزوجة ببعض أبيات سبق للشاعر أن قالها فجاءت كلمة الرثاء هذه والشعر يكتنفها من كل جانب. ولمزيد من الحرص الذي جُبل عليه أخونا الأستاذ البسيوني فقد كتب كلمته في قصاصات صغيرة أحمد الله أنها وقعت في يد أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم الذي أسعدني بإرسالها إليّ كي أحظى بقراءتها ثم أتمكن من اختيار جزء منها لهذا الملحاق.

وهذا هو ما اخترته من تلك الكلمة التأبينية الطويلة

«وأخيرًا.. سكت عنه العذاب، وسكن احتدام النار، التي ألحت لتضرم التراب، وتنزلت السكينة على الطائر الغريب الذي تذأبت عليه الرياح، فلم تطع له دوحة، ولم يُسبح عليه ظل.. فعانق الأشواك والهجير، وصانع الرماد في توهج المسير.

وسقطت حوامة الروح، التي ظلت تدق أبواب الغيب، وتتغل في خبايا الكهوف، وظلام الغابات وأسرار البحار تطوف، كالإعصار بالأغصان، وتجذب الموج إلى الشطآن تمزق الأستار وهي هائمة.. وتلقط الأسرار وهي حائمة».

وهدأ الصمت الهادر.. ونعس الضوء الدائر..

في صبيحة يوم مذبوح الوتر، موؤود النغمة، إلا من نشيج حزن كبير، على الناي المهشم المقهور، الذي دوخ الأنغام، وظل عمره مخطوفًا بسحرها، مجددًا في وقعها ونبرها وهاربًا من «ساعة: أنغامها في نايها مكررة تجيء، ثم تختفي، ثم تعود وفق سر لست أدري خيره».

في صبيحة الإثنين، السابع من ربيع آخر سنة ١٣٩٧ «٢٥ من إبريل ١٩٧٧» بل الساعة السادسة، رحل محمود حسن إسماعيل ولست محدثكم الليلة عن مصابي به، فذلك عندي، لن يخفضه بوح، يرضيني أو يرضيه أن نتداعى لوليمة.. ومن الوفاء لروحه الصافية في حيرة البرزخ، أن نكره ما كره في مثال هذه اللحظة:

«من أجل هذا، أكره الإيماء لاندهاشة الجنائز.. وأكره الاصغاء للدموع، مهما حومت غرائزي وأكره الإفضاء بالأحزان..

مهما خيمت جراحها لشمسي،

وأكره الرثاء، والبكاء.

حتى لو رأيت نعشي»

فيكفيكم مني أن نعيش معه لحظة.. أن نقترب من فنه خطوة.

أن تقترب من الفنان محمود حسن إسماعيل في دوائره الثلاث، التي لا يختلف عليها عارفوه بالصحبة، وعارفوه بالقراءة، ومتابعوه بالنقد..

محمود حسن إسماعيل ابن القرية الأصيل، محمود حسن إسماعيل شاعر مصر العظيم، محمود حسن إسماعيل شاعر الأمة العربية.

في الثاني من يوليو سنة ١٩١٠م ولد محمود حسن إسماعيل في قرية النخيلة، التابعة لمحافظة أسيوط.. لأب، هو المثل لملايين أمثاله.. فقير. متعفف ذي عيال، يعمل بالزراعة. ولست أزعم أنني أعرف تفاصيل نشأته، ولكنها أشياء من نثار الأحاديث، منها أن الفتى حفظ القرآن صغيرًا، وأن أباه استعان به، فقد كان الأول، في هموم زراعته.. وماذا من صغير لم يتعد العاشرة بقليل.. يحرس الزراعة في الحقول. الحقول بعيدة عن القرية، قريبة من شاطئ النيل.. النهر الخالد.. وفي كوخ وسط الحقول الممتدة، يقيم الفتى محمود، نهاره كله، مع الحقول، والنبات، وجماعات من عمال تفيء إلى الظلال في القائلة، ووصايا أبيه أن يخاف، وألا يقترب من النهر، حتى لا يجرفه التيار.

نهار طويل على فتى في سن اللعب والمرح، كان يقضيه!

عرف الناس الجواب بعد سنين.. سنة ١٩٣٤ يوم صدر ديوانه الأول، وهو في سنة الرابعة والعشرين، وكان طالبًا بدار العلوم. الديوان ينم اسمه عنه «أغاني الكوخ» ولكن ذلك النهار الطويل لم يكن يخلو من الزاد.. زاد المعرفة فعلى الطريق كان يأتي كل يوم من محطة القطار، راكب يتجه إلى القرية، خادم في قصر الباشا يحمل صحيفة الأهرام لسيد القصر.

ويدنو منه الفتى محمود يومًا بعد يوم، ويطلب منه أن يمهله ليقرأ صحيفة الأهرام، ولكن الخادم العنيد لا يلين إلا بعد اتفاقية اقتصادية.. أن يمنحه الفتى محمود شيئًا من أثمار الحقل نظير ساعة يقرأ فيها الأهرام.. وكانت الأهرام في ذلك الزمان صحيفة جامعة للسياسة والأدب.

وربما سبق الليل الوالد إلى ولده الصغير محمود، فيحيله لخيالات الخوف، من الوحدة، والأقاصيص الدائمة عن مردة الجن والإنس وفظائع الثأر بين العائلات، وظل الخوف رفيق الشاعر بقية عمره، ولعل أسعد لحظات حياته يوم

خطب الرئيس السادات في علماء الأزهر، فقال: «لا خوف إلا من الله، لقد سقط الخوف إلى الأبد»، ووجد الشاعر هنا فرصته، بل وجد في أعماق نفسه حقه، فقد جاء الفرج وسقط الخوف إلى الابد، واطلق الشاعر البخور، وأعد الورق، ووضع الموت في تابوته الأخير مشيعًا في حفرة لا يرجع منها، وكانت قصيدة لم تنشر لليوم، أيضًا بسبب الخوف، أتت أول كلمة فيها جهد التذكر: وأخافه.. وأخاف ممن شيعوه».

هذا وعسى أن يأتي يوم تُنشر فيه هذه الكلمة كاملة ففيها الكثير مما ينبغي أن يطلع عليه المرء إذا أراد أن يعرف المزيد عن الشاعر وعلاقته ببيئته، وبصاحبه الذي حكى لنا عنه.

****

المقوع.. حيث أعمال النفط[1]

تلح عليّ ذكرى جميلة، مرت على أحداثها عشرات السنين ولكنها لم تُمح من ذاكرتي، وذلك لأن الأشياء التي تحدث في وقت ملائم مع صحبة طيبة لا يمكن أن تُنسى مهما تعاقبت الأيام والليالي.

كان يومًا رائعًا من أيام ربيع سنة ١٩٥٤م، وكان الربيع في ذلك الوقت يملأ الأرض بالأعشاب البرية في حين كانت الشمس ساطعة ترسل أشعتها المدفئة على الدنيا يوم قَرّرتْ إدارة معهد الكويت الديني إرسال فريقها الكشفي في رحلة خلوية إلى منطقة مَلَحْ. سعدنا في ذلك اليوم بصحبة الأخوة المشاركين في الرحلة التي تركت ذكراها عالقة في الذهن إلى يومنا هذا.

استمتعت نفوسنا بالهواء النقي، والألعاب البريئة كما كانت الأعشاب التي من بينها زهور النوير الرائعة تضفي على جو الرحلة سعادة وأنسًا. لقينا يومذاك جماعة من آل هنيدي الذين يقيمون في المنطقة حيث يمارسون عملًا ضمن الأعمال التي تتطلبها شركة نفط الكويت، ولذلك كان لهم هناك بيت كبير وديوان عامر، بالإضافة إلى عدد من المساكن التي خصصوها للعمال الذين يتم نقلهم يوميًا إلى مواقع عملهم ثم تتم إعادتهم مساءً إلى مهاجعهم. سعدنا بزيارتهم حيث قدمنا لهم الشكر على مبادرتهم الكريمة إذ كانوا قد سارعوا بإرسال كبش كبير هدية منهم لنا، كان الغداء عامرًا بوجوده، لا أزال أذكر ذلك اليوم الجميل، ولاتزال منطقة مَلَحْ تُلحُّ على ذهني.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٤/٣٠م.

حديث هذا المقال يتضمن موقعين هما: المقوع وملح، وذلك لتجاورهما من جهة، ولأنني أظن - من جهة أخرى - أن اسم ملح كان في القديم يضم أرض المقوع بكاملها لعدة أسباب منها:

١ - أن موقع ملح قديم الذكر في الكتب، ووقعت فيه أحداث قديمة ومتأخرة، وسوف نورد الأشعار التي ذكرت فيها فيما بعد.

٢ - أن موقع ملح متسع يشمل ما يطلق عليه هذا الاسم كما يشمل بحرة ملح، وهي شق في الأرض تملؤه مياه الأمطار عند هطولها، ويتدفق منها إلى أماكن متعددة.

٣ - أن المقوع ليس له ذكر قديم ولم يبرز إلا بعد أن استغلته شركة نفط الكويت حين بدأت أعمالها، وهو متكون من مرتفعات ومنخفضات تشبه في شكلها سطح ملح.

كل هذا يدعونا إلى الظن، والظن فحسب،أن اسم ملح كان يشمل ملح والمقوع في القديم.

تحدثنا يومًا عن العدان، وذكرنا أنه ينقسم إلى قسمين، أحدهما بري والآخر بحري بمعنى أنه ملاصق للبحر، وقد ذكر كل من لوريمر وهارولد ديكسون المواقع التي يتكون منها العدان البري وكان منها ملح والمقوع.

فالمقوع هو كما وصفه لوريمر يتكون من خمسة آبار عمقها ١٨ قدمًا، والمياه صالحة للشرب، وكان على الطريق المؤدي إلى الأحمدي، ولكن هذا الطريق أصبح غير مألوف بعد إنشاء الطرق الأخرى الموازية، وكذلك إنشاء مطار الكويت الذي قطع ذلك الطريق.

وفي المقوع بعض نشاطات شركة نفط الكويت، وكان فيه بعض البيوت، ومستشفى، ثم تحول هذا المستشفى وبعض المباني هناك إلى مدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات، وقد اصبحت هذه المنطقة خالية في الوقت الحاضر من السكان، وذلك بعد نمو عدد من المناطق القريبة منها مثل الفروانية، وأبرق خيطان، إذ إنه لا يفصل بين الموقعين الا المطار، بالإضافة إلى أن المنطقة غير صالحة للسكنى بسبب الأعمال النفطية وتأثر الجو بهذه الأعمال مما خشي معه التأثير على صحة السكان، ويبعد المقوع عن مدينة الكويت مسافة ٢٦,٥ كيلو مترًا.

وأما ملح فهو موقع مجاور للمقوع إلى الغرب منه بمسافة ثلاثة كيلو مترات، وكان فيه موضع مخصص للمقاولين الذين يعملون في مجال النفط، كما ذكرنا آنفًا.

وملح كما أشرنا فيما مضى موقع قديم لبني تميم فيه ماء مذكور في كتب الأماكن، وقد ذكره الشاعر الأموي جرير وهو شاعر تميمي فقال:

يا أيها الراكبُ المزجي مطيتَهُ
بلِّغ تحيَّتنا، لقيت حُملانا
بلِّغ رسائلَ عنا خفَّ مَحمَلُها
على قلائصَ لم يَحمِلْنَ حيرانا
كيما نقولُ إذا بلَّغتَ حاجتَنا
انتَ الأمينُ، إذا مستأمَنٌ خانا
تُهدي السلامَ لأهلِ الغور من مَلَحٍ
هيهاتَ من مَلَحٍ بالغور مُهدانا

وهنا نذكر ما قاله أستاذنا العلامة الشيخ حمد الجاسر بهذا الخصوص حين علّق على قول الإمام محمد بن موسى الحازمي المنشور في كتابه الأماكن وهو من تحقيق الشيخ حمد (٢/٨٥٧).

كان الحازمي قد قال عن مَلَح (بفتح الميم واللام) أنه من ديار بني جعدة باليمامة. وكان تعليق الشيخ حمد كما يلي: «وبلاد جعدة في منطقة الأفلاج، جنوب اليمامة وما حولها، أما ملح الوارد في قول جرير فأراه الموضع الذي لا يزال معروفًا في منطقة الكويت، حيث بلاد تميم قديمًا ..» واردف ذلك بقوله: «وأراه الوارد في شعر الأعشى».

أما ما جاء في شعر الأعشى، فهو ضمن القصيدة التي مدح بها إياس بن قبيصة الطائي. ومنها:

إنما نحنُ كشيءٍ فاسدٍ
فإذا أصلحهُ اللهُ صَلَحْ
كم رأينا من أناسٍ هلكوا
ورأينا المرءَ عَمرًا بطَلَحْ
أفِقًا يجبى إليه خَرجُهُ
كُلَّ ما بينَ عُمانٍ فَمَلَحْ

(طلح: نعمة ورفاهية، الآفق: البالغ نهاية الكرم).

إذن فموقع مَلَح مشهور منذ القدم، تشهد له الأشعار التي ذكرناها، بل إن بعض الشعراء المتأخرين عن جرير كانوا يوردون ذكره في أشعارهم. ومن أولئك الشاعر المدائني وهو من متأخري العصر العباسي إذ يقول:

حننت وأين من ملح الحنينُ
لقد كذبتك - يا ناق - الظنونُ

ويقول:

فَسَقَى الدار من ملح مُلِثٌ
تُحصحص في اسرّته الحصونُ

إلى أن تكتسي زهرًا قشيبًا

معالمها، وتعتمُ الحُزُونُ

وهذا الذكر الواسع مع عدم ذكر المقوع هو ما أثار ظننا بأن اسم ملح يشمل الموقعين، إذ لم نسمع عن المقوع في الشعر إلا ما قاله شاعر الكويت فهد العسكر عند زيارة له قصيرة لتلك المنطقة:

أشجى الرفاق تأوُّهي وتوجّعي

وَتَمنُّعي عن شربها في المقوعِ

وأنا الذي بالأمس إن هي شُعْشعتْ

كم زُفَّ لي قدحي وغير مشعشع

وهي قصيدة طويلة يشكو فيها ما يعانيه من زمنه، ومن عقوق أبناء وطنه:

وطني ولي حق عليك أضعتهُ

وحفظت حق الدّاعر المتسكّعِ

أقدم ما جاء في الكتابات الحديثة عن ملح والمقوع ما ذكره لوريمر في موسوعته «دليل الخليج» فقال عن المقوع: «يقع على بعد ميل واحد جنوب ملح، به خمسة آبار عمق كل واحدة منها ثمانية عشر قدمًا، والمياه صالحة للشرب».

ويلاحظ أنه لم يتحدث عن ملح بأكثر من هذه الإشارة، واسم ملح اليوم منحصر في الجزء الغربي من المقوع.

وجاء هارولد ديكسون بعد ذلك بزمن ليقول في كتابه «الكويت وحاراتها»، ما يلي:

«ملح: وهي خمسة عشر بئرًا على بعد خمسة عشر ميلًا إلى الجنوب من مدينة الكويت، وثمانية أميال إلى غرب قرية بوحليفة على الساحل، ويبلغ عمق هذه الآبار القريبة من حقل النفط في المقوع، عشرين قدمًا، ومياهها مائلة إلى الملوحة،

ولكنها صالحة للشرب»، ثم يضيف أمرًا مهمًا بقوله: «وكانت أراضي ملح تزرع في السابق، وفيها بقايا حصن قديم».

أما المقوع فقال عنه أنه: «مكان يبعد ميلين عن ملح شمالًا، فيه الحقل الأصغر من حقلي النفط التابعين لشركة نفط الكويت (٣٣ بئرًا)، وفيه أيضًا المستشفى الرئيسي، ومركز التدريب، وهناك أيضًا عدة آبار واحد منها فقط يحتوي على مياه صالحة».

ليست لملَح ولا للمقوع أهمية سكانية، فهما اليوم خاليان من السكان، ولكنهما كانا يضمان عددًا كبيرًا من المساكن المؤقتة في أوائل الخمسينيات، إذ بدأ العمل جديًّا في التنقيب عن النفط في المقوع، وأصبح مقرًا لعدد كبير من العاملين في استخراج النفط على مختلف مستوياتهم وجنسياتهم حتى لقد وجدناه يضم مستشفى مجهزًا أفضل تجهيز لخدمة كافة العاملين، وعندما قلصت شركة نفط الكويت أعمالها هناك أهدت مبنى المستشفى لوزارة التربية التي حولته إلى مدرسة في منتصف ستينيات القرن الماضي، إلى أن انتقل جميع سكان المنطقة لعدم ملاءمتها للسكن فأغلقت المدرسة لانتفاء الحاجة إليها، وذلك ما سبق أن أشرنا إليه.

بدأ التنقيب عن النفط في المقوع إبّان سنة ١٩٥١م، ولم تأت سنة ١٩٥٢م إلا والذهب الأسود ينساب من منابعه هنا، معلنًا العثور على كنز جديد من كنوز النفط، وفي هذا العام بدأ الانتاج الفعلي لنفط المقوع.

وبدأ في الوقت نفسه إنتاج حقل الأحمدي الذي لم يتقدم أو يتأخر عن مواعيد المقوع، وبذلك صارت الحقول الثلاثة المتقاربة: برقان والمقوع والأحمدي تنتج نفطًا غزيرًا. وصار يطلق على هذا الثلاثي اسم: «حقل برقان الكبير».

في شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م نشرت مجلة النفط اللندنية مقالًا عنوانه: «التحقيق في أسرار حقول نفط الكويت»، وقد ترجمته ونشرته في حينه جريدة «الكويت اليوم» الرسمية ومما جاء في المقال حول تشكيل المستودع الثلاثي الذي أشرنا إليه ما نقدمه فيما يلي: «يعتبر تشكيل مستودع برقان - المقوع - الأحمدي، تشكيلًا مركبًا إذ إنه مستودع ذو مساحة كبيرة جدًا، ولكنه ليس بذي عمق كبير تحت الأرض، ويتكون هذا المستودع من ثلاثة خزانات ثانوية منفصلة عن بعضها البعض، وتختلف الخامات الموجودة في كل من هذه الخزانات اختلافًا طفيفًا في تركيبها، فتعتبر خامات الأحمدي خفيفة، وخامات المقوع متوسطة، وخامات برقان ثقيلة، وفي الأحمدي توجد كميات كبيرة من الغاز، بينما لا توجد أية كميات من الغاز في برقان، وتوجد منه كميات قليلة في المقوع.

ويبدو أن تركيب النفط في الأجزاء القاعدية من الخزان متشابهة في مستوياته المختلفة إلا أن كثافته تزداد بازدياد العمق.

وقد تساءل الكاتب - مندهشًا - عن كيفية حدوث هذا التجمع النفطي في منطقة كبيرة واحدة؟ وكيف تم توزيعه داخل الخزان؟ وهنا أورد الكثير من الاحتمالات التي أدت إلى هذه النتيجة، ولكن المقام لا يسمح لنا بإيرادها.

لا بأس في نهاية مقالنا هذا في أن نورد بعض المتفرقات عن الموقع الذي كان في يوم من الأيام مقرًا كبيرًا من مقرات العمل النفطي، وكانت فيه بعض المرافق العامة وكان فيه عدد لا بأس به من السكان، وإن كان بقاء الكثيرين منهم مؤقتًا بحسب حاجة العمل، وهذا هو ما يمكن أن نقوله في المتفرقات التي أشرنا إليها:

١ - كان عدد السكان يزيد وينقص بحسب الحاجة إلى العمالة بمختلف درجاتها، فقد كان عدد هؤلاء في سنة ١٩٦٥م زهاء خمسة آلاف ومائة وأربع وثلاثين نسمة، ثم ازداد العدد زيادة كبيرة في سنة ١٩٧٠م، ليصبح ثمانية آلاف

وثلاثمائة واثنتين وعشرين نسمة، وقد عاد العدد بعد هذا الارتفاع إلى الانخفاض التدريجي لأن الأمر قد استقر باكتشاف النفط وعمل تمديدات إسالته إلى ميناء الأحمدي فاكتفت شركة نفط الكويت بمركز التجميع الذي يحظى بالحراسة والعناية.

٢ - عندما كانت أعداد الناس على الصورة السابقة كان للمقوع أمير عينه أمير البلاد ليتولى فض المنازعات بين السكان، ومراعاة احتياجاتهم وتمثيلهم لدى الدوائر الحكومية القريبة منه وبخاصة في الأحمدي، وكان آخر أمير للمقوع هو المرحوم مرشد الشمري.

٣ - مرشد بن عايد الشمري من أبطال معركة الجهراء المعروفين (١٩٢٠م) وكان له موقف مشهود أكد بطولته، ولد في سنة ١٨٩٨م، وفي المعركة كلفه الشيخ سالم المبارك الصباح قائد الجيش الكويتي آنذاك بالذهاب إلى العاصمة لطلب النجدة من أهلها، وقد اخترق بحصانه الحصار الذي كان مضروبًا على القصر الأحمر، ووصل إلى الكويت في اليوم الحادي عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٢٠م، وكان لهذه الحركة التي قام بها دور كبير في إنهاء الحرب وخذلان المعتدين، ولم تنس له الدولة هذا الموقف فاطلقت اسمه على أحد شوارع الجهراء حيث بدت بطولته هناك.

٤ - لا ننسى أن نشير هنا إلى أن اسم المقوع إنما جاء من اسم القاع، وفي اللهجة يطلق اسم (المقوع) على المنخفض في البر وفي البحر، ولذا فإننا نستطيع أن نقول إن لفظ المقوع له دلالة على شكل من أشكال سطح الأرض، ولا غرابة أن نرى الاسم في مكان آخر، وها نحن اليوم نجد ما يطلق عليه اسم المقوع الشرقي تمييزًا له عن الموقع الآخر. وكان هذا المقوع في شرقي العاصمة ولا يزال معروفًا بهذا الاسم حتى اليوم، استغلته الحكومة في السابق فأنشأت

على أرضه عددًا من مساكن ذوي الدخل المحدود وزعتها على طالبي السكن، وكان قبل ذلك مجموعة من الحفر التي كانت تستغل لعمل الجص، وهذه الحفر هي التي أعطته اسم: المقوع، هذا فيما يتعلق بالبر، أما في البحر فلا يقال المقوع عن القاع البحري، ولكن يقال في اللهجة: القوع.

هذا ما يمكن أن يقال عن ملح وعن المقوع وعن المقوع الشرقي. أرجو أن يكون فيما قدمته إفادة.

****

الفيلسوف المسلم مالك بن نبي في الكويت[1]

بدأت الدراسة في أخريات سنة ١٩٥٧م في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وانتظمت مع زملائي بصفتي طالبًا مستجدًا في هذه الكلية العريقة، ومع مرور الأيام تم التعارف بيني وبين عدد من الزملاء طلبة الكلية، فتحدث معي أحد هؤلاء وهو ليبي المنشأ، يبدو أنه من محبي القراءة عن كتاب صدر باللغة العربية في تلك الأيام، وذكر لي أنه كتاب جديد في نوعه، وأن القليل من الكتاب قدم لنا شيئًا يتعلق بتطلعنا إلى التقدم، والتماسنا لدور في طريق الحضارة، هذا الكتاب هو «شروط النهضة ومشكلات الحضارة» للأستاذ العالم مالك بن نبي، الذي كتبه باللغة الفرنسية باعتبار أن الاستعمار الفرنسي قد جنى عليه فصادر لغته العربية، ولذلك أصبح لا يكتب مؤلفاته إلا بلغة فرنسا، وترجم الكتاب اثنان أحدهما من أبناء كلية دار العلوم والآخر هو الأستاذ عمر مسقاوي الذي أظن أنه هو المترجم الحقيقي للكتاب، وهذا الرجل الذي كان يدرس آنذاك بكلية الحقوق بجامعة القاهرة صار فيما بعد من رجال السياسة اللبنانيين، وأحد وزراء الدولة اللبنانية، ولكنه ثابر على الاهتمام بتراث مالك بن نبي، وتقديمه للناس حتى لقد أصدر مجموعة مؤلفاته ضمن سلسلة ذهبية عنوانها «مشكلات الحضارة» وقد نهض الأستاذ عمر بهذا الأمر بناءً على وصية كتبها الأستاذ مالك بن نبي، وأورد المؤتمن عليها حديثًا عنها في بداية كتاب ابن نبي «مذكرات شاهد للقرن» وكان ذلك في الطبعة التي صدرت في اليوم الخامس عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٧٩م. يقول

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٥/٧م.

الأستاذ عمر مسقاوي: «في عام ١٩٧١م، ترك أستاذنا مالك بن نبي، رحمه الله، في المحكمة الشرعية في طرابلس لبنان، وصية سجلت تحت رقم ٦٧/٢٧٥ في ١٦ ربيع الثاني ١٣١٩هـ الموافق ١٠ حزيران ١٩٧١م، وقد حملني فيها مسؤولية كتبه المعنوية والمادية، وتحملًا مني لهذا الرسالة، ووفاء لندوات سقتنا على ظمأ صافي الرؤية، رأيت تسمية ما يصدر تنفيذًا لوصية المؤلف بـ (ندوة مالك بن نبي).

والتسمية هذه دعوة إلى أصدقاء مالك بن نبي وقارئية، ليواصلوا نهجًا في دراسة المشكلات، كان قد بدأه وهي مشروع نطرحه كنواة لعلاقات فكرية، كان رحمه الله يرغب بتوثيقها.

وإنني لأرجو من أصدقاء مالك وقارئيه، مساعدتنا في حفظ حقوق المؤلف في كل ما ينشر باللغة العربية أو غيرها مترجمًا من قبل المترجمين أو غير مترجم. فقد حملني، رحمه الله، مسؤولية حفظ هذه الحقوق، والإذن بنشر كتبه، فإن وجدت طبعات لم تذكر فيها إشارة إلى إذن صادر من قبلنا، فهذه طبعات غير مشروعة، ونرجو إبلاغنا عنها».

كان ظهور شخص من أبناء الجزائر – آنذاك – في مثل المقدرة الفكرية التي يمتلكها بن نبي أملًا تحقق، وقد توالت ترجمات مؤلفاته واحدًا بعد الآخر، كان راعيها في تلك الفترة شيخي الأستاذ محمود محمد شاكر رحمه الله، وقد نشر له في مكتبة دار العروبة التي كان مساهمًا فيها عدة كتب منها كتاب «الظاهرة القرآنية» الذي احتفى به الأستاذ محمود، وقدم له بمقدمة واسعة تدل على يقينه بأن هذا الرجل يقدم شيئًا ينبغي علينا الاهتمام به. ومنها كتاب «في مهب المعركة» وهو مجموعة من المقالات المهمة التي كتبها صاحبنا حول ما تعانيه منطقة الغرب الإسلامي بما في ذلك وطنه الجزائر. وقد كانت المقدمة التي كتبها الأستاذ محمود لهذا الكتاب شهادة للمؤلف ولكتابه، وتعبيرًا عن الفرح بوجود من يثير مثل هذه القضايا بحس نابه، وإدراك سليم للأوضاع.

يقول الأستاذ محمود:

فهذا المفكر الخبير، قد استطاع بحسن إدراكه وبقوة بيانه وبدقة ملاحظاته، أن يفتح عيوننا على الخيوط التي تنسج منها حياتنا، تحت ظلام دامس قد اطلقه المستعمر ليخفي عنا مكره وخداعه لنا، فإذا تم نسيج هذه الحياة تصرف تَصَرُّفَ الحر الذي لا سلطان لأحد عليه، وهذا هو المعنى الذي يرمي إليه الأستاذ مالك باصطلاحه الذي وضعه، وهو «الاستعمار».

ثم يستأنف قوله:

«وليس يخالجني شك أننا لن نظفر بما تتمناه قلوبنا، ولا بما تتبجح بذكره ألسنتنا، من حرية. أو استقلال، أو مجد أو كرامة، إلا إذا استطعنا أن نفكر في أمورنا تفكيرًا صحيحًا، مؤسسًا على أصل من التنبه واليقظة والإدراك، وظهور رجل مثل مالك بن نبي من بين شعب لقى من نكبة الاستعمار ما لم يلقه شعب إسلامي آخر باعث على الرجاء والأمل فأنا لا أعرف فيمن قرأت لهم أو سمعتهم من الناس ولا ممن في أيديهم مقاليد أمور الشعوب العربية والإسلامية رجلًا فيه مثل هذا الحس الدقيق بالنكبة أو مثل هذا التنبه الشامل للدسيسة أو مثل هذه الاستقامة في فهم الوسائل المعقدة التي يستخدمها الاستعمار أو مثل هذه الخبرة بالخسة التي تلبس ثياب النبل والشرف وإنه ليحزنني أن يكون أمرنا اليوم كما قال الأول «من البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره».

استطعت في الفترة التي أشرت إليها أن أحصل على كتابين من كتبه هما: «شروط النهضة ومشكلات الحضارة» «وجهة العالم الإسلامي»، وقد أعجبت بهما غاية الإعجاب وشكرت الزميل الذي دلني عليهما، فقد وجدت فيهما شيئًا مختلفًا وآراء جديرة بأن يطلع عليها المرء في خضم تلك الحياة السائدة - آنذاك - وهي فترة تشدد الاستعمار في عدد من الدول وبخاصة بعض الدول العربية التي كنا نحس بمعاناتها ونرجو الله أن يرفع عنها البلاء المسيطر.

وبعد أن قرأت الكتابين اتيحت لي فرصة لقاء المؤلف، ومعرفته عن قرب، والاستماع إلى أفكاره مباشرة، وذلك أنني كنت - كالعادة - في زيارة لمجلس الأستاذ محمود محمد شاكر، وإذا بي أجد من بين الحضور رجلًا أراه لأول مرة يميل إلى الطول أبيض اللون سمح الملامح يتحدث بهدوء عجيب، تحس لأول وهلة أن الأستاذ شاكر يكن له تقديرًا كبيرًا، وإعجابًا واضحًا، يبدو ذلك من أسلوب حديثه إليه ومعاملته له. ولسروري البالغ عرفت أن هذا الرجل هو مالك بن نبي، الذي أعجبت بكتابيه ومن هذا المجلس عرفت كتبه الأخرى وحصلت عليها، وصارت بيني وبين هذا الرجل صلة قوة امتدت إلى أن توفاه الله. كنت ألقاه بين الفينة والأخرى في المجلس الذي تحدثت عنه إلى أن افتقدته فلم يعد يحضر فتبين لي أنه عاد إلى الجزائر بعد هجرة استمرت مدة طويلة، وأن حكومة الجزائر قد أسندت إليه مهمة إدارة المعاهد الفنية العليا هناك، وقد سعدت بلقائه في مقره الأخير حين زرت الجزائر، وسررت يومها بصحبة أخي الأستاذ فيصل الصالح المطوع حيث كان سفيرًا للكويت هناك، وقد انتهزت الفرصة فدعوت الأستاذ مالك بن نبي لزيارة الكويت، وذلك من أجل أن يلم بمعلومات كافية عنها من جهة، ومن أجل أن يلقي بعض الدروس على طلاب المعاهد الفنية وأساتذتها شارحًا تجاربه. مقدمًا ما لديه من خبرات ومعارف. وقد أسعدني بحضوره وهذا له حديث آخر.

المفكر مالك بن نبي من مواليد شهر يناير لسنة ١٩٠٥م، وكان مولده في مدينة قسنطينة الجزائرية، وبانتقال أهله إلى موقع آخر انتقل معهم بعد تريث فترة في مسقط رأسه وقد قضى تلك الفترة عند بعض أقاربه.

أنكب على الدراسة، بادئًا بحلقات حفظ القرآن الكريم، ودرس في المرحلة الابتدائية والإعدادية، ثم عاد إلى قسنطينة حيث أنهى دراسة المرحلة الثانوية في سنة ١٩٢٥م. كان منذ بداية حياته فطنًا تبدو عليه مخايل الذكاء، ولكنه عندما تهيأ للعمل لم يجد فرصة ملائمة، حيث وجد السلطات الفرنسية قد أوصدت الأبواب

كلها في وجهه فاضطر إلى الهجرة، وفي مهجره الفرنسي واصل دراسته فتخرج مهندسًا كهربائيًا في سنة ١٩٣٥م، وكان أول جزائري في هذا التخصص.

ظل مالك بن نبي عمره كله وهو يكتب شارحًا أفكاره، منبهًا الأمة إلى أوضاعها، دالًا لها إلى الطريق الذي إن سلكته نجت فألف ما يزيد على ثلاثين كتابًا أكثرها مطبوع ومترجم إلى اللغة العربية، ونشرت مئات المقالات التي تسير على هذا النهج القويم.

وهو يرى إن التغيير نحو الأفضل لا يكون إلا بتطهير النفس والكيان من عوامل الوهن، ومن القابلية للاستعمار، ولا يكون ذلك إلا بالعقيدة الخالصة التي تبعث على التقوى والمراقبة الدائمة والمحبة بين الناس والعمل الدؤوب والاتقان والتجديد وخلاصة ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾، (من الآية رقم ١١ بسورة الوعد).

ومن أفكاره: أن الديموقراطية ليست مجرد نقل للسلطة من طريق إلى آخر، بين السلطان والشعب مثلًا؛ إنما الديموقراطية ترسيخ السلوك والشعور والقيم التي ينبغي أن تؤسس في روح الشعب، وفي ضميره وتقاليده.

وهو يعيب على العالمين الإسلامي والعربي الركون إلى نظرية المؤامرة، وعدم التحرك لكشفها إن وجدت ومحاربتها لإزالة آثارها فيقول: «لا بد من التخلص من المفاهيم الخاطئة، وبعض النظم الاقتصادية أو السياسية التي تجر إلى الحروب ومنها عقيدة المؤامرة»، لأن ابن نبي يرى أن من أشد مواطن الضعف الاستسلام لهذه الفكرة، ولابد من الاستيقاظ والإفاقة من خدر «المؤامرة الموهومة»، التي انقلبت بفعل الأحداث العالمية من عالمنا العربي والإسلامي إلى العالم الغربي، حيث الاتهام والشك إلى كل ما ينتمي إلى عالمنا العربي، فلابد من التخلص من الأزمة

في النفسية الاحتضارية والخداع الذاتي أو الرضا عنها نفسية حضارية وتنمية الإيجابية في الوسط العربي والإسلامي والعالمي.

وبعد هذا فإننا مهما نقلنا عنه أو عرضنا من أفكاره فإننا لن نصل إلى عرض كل ما أنجز فالرجل غزير الإنتاج عميق التفكير، وكتبه الموجودة بين إيدينا اليوم هي دليلنا على كل أفكاره.

وقد اهتم عدد من الكّتاب بأفكار الأستاذ مالك بن نبي الحضارية الحديثة وكتبت عنه بحوث ومقالات كثيرة، وخصص له موقع على شبكة الإنترنت وألفت حوله وحول آرائه كتب كثيرة منها:

١ - مالك بن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي - للدكتور محمد العبده.

٢ - مالك بن نبي، مفكرًا إصلاحيًا - لأسعد سجمداني.

٣ - مالك بن نبي ومشكلات الحضارة - لزكي ميلاد.

٤ - فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي - لسليمان الخطيب.

٥ - صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي - لعبداللطيف عبادة.

٦ - التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي - لنوارة السعد.

ويلاحظ أن الكتاب فيهم من هو من المشرق العربي، وفيهم من هو من الغرب، ومعنى هذا أنهم اعتبروا هذا الرجل نتاجًا للمنطقة العربية والإسلامية لا ينفرد به قطر دون آخر. وهذا الذي ذكرناه هو ما تمكنت من العثور عليه. ولقد تكون هناك كتب أخرى لم أتمكن من اقتنائها والإطلاع عليها.

أشرت في بداية حديثي هذا إلى الزيارة التي قمت بها للجزائر في منتصف ستينيات القرن الماضي، وذكرت أنني زرت هناك الأستاذ مالك بن نبي في مكتبه

الذي يزاول فيه العمل الذي أسندته إليه الحكومة الجزائرية وهو الإشراف على المعاهد الفنية العليا، كما ذكرت أن تلك الزيارة كانت بصحبة الأخ الكريم الأستاذ فيصل الصالح المطوع الذي كان سفيرًا للكويت هناك في ذلك الوقت.

كنا - أنا والأستاذ بن نبي - سعيدين باللقاء، وكانت فيه فرصة لاستذكار لقاءاتنا في منزل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي كان بن نبي يكن له تقديرًا كبيرًا ومحبة خالصة، وقد تحدث يومذاك كثيرًا عن مزايا الأستاذ، وعن الدعم الذي لقيه منه عندما كان مقيمًا في القاهرة، وكان نشر كتبه صعبًا باعتباره لا يعرف الطرق التي بها يصل إلى الناشرين ولا يعرف أساليب التوزيع، إضافة إلى أن كتبه وهي كلها مكتوبة باللغة الفرنسية تحتاج إلى مترجم حاذق يقربها إلى أذهان الناس، وقد كان الأستاذ محمود محمد شاكر نعم العون له في هذا المجال الشائك، وبن نبي يرى - أيضًا - أن اتصاله بالأستاذ محمود شاكر قد كفل له بالإضافة إلى ما يتعلق بكتبه سهولة الاتصال بعدد كبير من الناس الذين كانوا يرتادون مجلس الأستاذ شاكر، وفيهم أعداد من أبناء مصر وأبناء الدول العربية ومن هؤلاء بعض الكويتيين الذي كان لقاؤهم بمالك بن نبي في ذلك المجلس فرصة لهم من أجل تعرف رجل من كبار المثقفين العاملين في مجال التوعية السياسية والفكرية في وقت اختلطت فيه الأفكار، واضطربت باختلاطها أمور الحياة في عدد من البقاع العربية.

دار الحديث أثناء لقائنا في الجزائر خلال ذلك اليوم حول ما تقدم آنفًا، وكانت الذكريات كثيرة، وقد أحسست أن الرجل قد وجد أخيرًا الراحة بعد طول الاغتراب، وعدم الاستقرار بسبب الظروف التي كانت تحيط بوطنه.

وقبل أن أودعه عرضت عليه دعوتي لزيارة الكويت، وقد بررتها له بعدة أمور منها الاستفادة من خبراته الكثيرة في الحياة وفي التعليم الفني بخاصة، ومنها إعادة اللقاء بالأخوة الذي كان يراهم في مصر من الكويتيين، ومنها إطلاعه على ما يدور في الكويت بصورة عامة، وما يتحقق في مجال التعليم بصورة خاصة، وبعد هذا العرض وجدت وجهه يتهلل، ويعطي الموافقة على تلبية الدعوة وهنا وعدته بإرسال خطاب رسمي بذلك، وأبلغته بأن سفير الكويت في الجزائر قد صار يعرفه جيدًا الآن سوف يسهل له الأمور بمجرد وصول رسالة الدعوة.

وبعد الوداع غادرت الجزائر عائدًا إلى الكويت وفي ذهني العزم على تحقيق وعدي لمالك بن نبي الذي سعدت بلقائه بعد طول انقطاع، وبالفعل قمت بكتابة رسالة الدعوة وأرسلتها إلى سفارة الكويت في الجزائر، مع نسخة للسفارة، كما كتبت رسالة شكر للأخ فيصل الصالح، وذكرته بما دار في ذلك اللقاء.

جهزنا للضيف مقر الإقامة، وأعددنا لزيارته برنامجًا حافلًا قصدنا فيه أمرين أولهما أن يطلع على كل شيء له علاقة بعمله أو باهتماماته الفكرية، والثاني هو أن يقدم شيئًا من خبراته للعاملين في إطار التعليم الفني باعتباره رجلًا له خبرة واسعة في هذا المجال. وفور إبلاغنا بموعد وصوله كان كل شيء جاهزًا، وكان عدد من العاملين في المجال التربوي وآخرون ممن يعرفونه على استعداد للقاء. وبالفعل فقد تم كل شيء على ما يرام والتقيت به في مطار الكويت فور وصوله، ثم عقدت له اجتماعًا مع بعض القياديين بغية التعرف به عن قرب بعد أن كانوا يسمعون عنه. وقد جرى في لقاءات التعارف هذه نقاشات عديدة كلها تدور حول ما ورد في بعض كتبه التي تيسر للبعض إحضارها إلى الكويت وقراءتها.

أما البرنامج فقد كان يحتوي على زيارات لبعض معالم البلاد، وبعض المدارس، وعقد له لقاء مع مجموعة طيبة من أعضاء جمعية المعلمين الكويتية، كان لقاءً حميمًا سعد به الضيف وسعدت به تلك المجموعة من المربين الذين عرفوا بلقائه رجلًا من الرجال الداعين إلى النهضة والتطوير والإصلاح في جميع المجالات. وقد التقى في أماكن أخرى مع عدد من المثقفين الكويتيين وغيرهم وشرح لهم خلال اللقاء ما كان يعنيه بشروط النهضة ومشكلات الحضارة، وفسر ما يقصد بقوله: قابلية الإنسان للاستعمار، وهي التي كان يرددها قائلًا: إن الشعب لا يمكن أن يتخلص من الاستعمار إلا إذا تخلص من قابليته هو له، فإذا عقد العزم على المواجهة فإن سوف ينال حريته، ومعنى ذلك أن يغير المرء ما في نفسه أولًا، مصدقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، سورة الرعد، آية (١١)، وهي الآية الكريمة التي ذكرناها منذ البداية.

كانت اللقاءات ذات أثر كبير، فهو بما لديه من علم وافر، وتطلع إلى مستقبل ناهض لهذه الأمة وإخلاص لا ينتقصه إي إحباط قد تسببه الظروف المعاكسة التي مرت بالرجل الذي كافح الاستعمار، وأخرجه من نفسه أولًا، ولقي العنت من المستعمرين. كل ذلك جعل لقاءاته نافعة ومؤثرة أغنت الحاضرين بالمعلومات وبالأفكار.

كانت زيارات مالك بن نبي لمعهد التربية للمعلمين متعددة وخلالها لقي الأساتذة والطلاب وعقد عددًا من الجلسات مع كل هؤلاء تحدث إليهم فيها عن التعليم الفني في الجزائر، وعن تطلعات الجزائريين حول هذا الفرع من فروع المعرفة، ومع تعدد الجلسات فإن الموضوعات صارت تتجدد مما جعل الجميع

يحصلون منها على فوائد جمة، فكانت زيارته للكويت، ولهذا القسم من أقسام التعليم الفني عندنا من أنجح الزيارات التي قام بها أحد من الخبراء لأنه جمع بين الدراية بالتخصص والقدرة على طرح الأفكار التي استلهمها من خلال قراءته للمستقبل، فكان ما قدمه في كل مجال زاره أو لقي فيه أحدًا من المهتمين ذخيرة فاز بها أولئك الذين استمعوا إليه.

ومن حسن حظي أن وجدت أحد شهود ذلك اللقاء في معهد التربية للمعلمين وكان حول محاضرة ألقاها هناك، والشاهد هو الأستاذ صلاح بريقع الذي كان - يومذاك - مدرسًا في وزارة التربية وهو اليوم باحث في مركز البحوث والدراسات الكويتية، وقد جاءت شهادته كالتالي:

- **دعي السيد مالك بن نبي لإلقاء محاضرة بمعهد المعلمين بالمرقاب خلال العام الدراسي ١٩٦٤/١٩٦٥م تقريبًا.**

- **كانت المحاضرة بالقاعة الرئيسية لمبنى المعهد (المسرح) التي غصت بالحاضرين من أساتذة المعهد ونظار ومدرسي المدارس الثانوية والمتوسطة بالكويت وأعضاء الهيئة التدريسية بها وكبار رجالات التربية آنذاك.**

- **كان موضوع المحاضرة فيما أذكر (الواقع الإسلامي المعاصر مقارنًا بما وصلت إليه الحضارة الغربية في العصر الحديث).**

- **وكان مما قاله في ذلك: «إن كل شيء في عالمنا المعاصر من صناعات استراتيجية أو استهلاكية لا يعبر عنا. لأنه من صنع الغرب ومنتجاته باستثناء الإناء الفخاري الذي نشرب منه (القلة) فهي التي من صنع أيدينا، ولا مستقبل لنا ما لم نصنع ما نحتاج إليه».**

- وقد أثنى الحاضرون على ما قدمه (مالك بن نبي) من رؤى وتوجهات نحو النهوض بالمجتمع الإسلامي المعاصر.

غادرنا مالك بن نبي بعد أن قضى فترة الزيارة النافعة لي ولجميع من لقيته. وبعد وصوله إلى الجزائر بفترة يسيرة قدم استقالته من عمله وذلك في سنة ١٩٦٧م. وظل متفرغًا لعمله الفكري، جاهدًا في سبيل إيصال نتائج ذلك إلى الناس كافة، واستمر على هذا الحال إلى أن توفي في اليوم الحادي والثلاثين من شهر أكتوبر لسنة ١٩٧٣م.

رحمه الله رحمة واسعة.

****

جولة في الأزمنة والأمكنة الكويتية[1]

هذه جولة سريعة على بعض الأحداث التاريخية التي مرت بالكويت، وحديث عن بعض المواقع التي يحتاج المرء أن يعيد ذكرها بين حين وآخر فإن تغيُّر الأحوال السريع يؤدي إلى نسيان الكثير من أمور الزمان والمكان، ولا ندعي أننا نستطيع أن نُطيف بكل شيء في مقال واحد، ولكننا نقدم اليوم ما يمكن تقديمه، وسوف تكون هناك فرص أخرى لتقديم المزيد.

تنقسم هذه العجالة إلى قسمين:

القسم الأول، في الزمان: ويحتوي على ثلاثة موضوعات ندرجها فيما يلي:

١ - معركة الرقة

توفي في سنة ١٧٧٦م الشيخ صباح بن جابر، وتولى الحكم مكانه ابنه الشيخ عبدالله بن صباح، وكان رجلًا حازمًا، اتسعت في عهده تجارة الكويت، وكثرت رحلات سفنها بحيث امتدت إلى الهند وما حولها، وكان هذا الأمر من الأمور المهمة في حياة الكويت والكويتيين إذ صار البحر مورد رزق يُعدُّ له الجميع ما يستوجب الاستفادة من خيراته الكثيرة.

ارتاح الناس في ظل هذا الحاكم الحازم القريب من الحق، وأسفوا لوفاته حين توفي في سنة ١٨١٤م.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٥/١٤م.

في عهد الشيخ عبدالله بن صباح حدثت معركة شهيرة في تاريخ البلاد هي معركة الرقة البحرية، ونحن اليوم نرمز إليها بمنطقة من مناطق الكويت الكبيرة هي منطقة الرقة على طريق الفحيحيل.

أشعل هذه المعركة جماعة من بني كعب كانوا يحكمون المحمرة، وكانوا يشاهدون التقدم السريع للكويت في المضمار الاقتصادي، ويرون النشاط المستمر الذي يبدو في تدفق السلع، وتدفق المشترين من البلدان المجاورة فأخذهم الطمع، ورغبوا في الاستيلاء على هذه الدرة الثمينة. لقد تحركت أطماعهم بالكويت، فخرجوا قادمين إليها من أجل احتلالها والقضاء على نظامها والاستفادة من الإمكانات المادية المتاحة بها. ولكن أهالي هذا البلد لم يرضخوا لهؤلاء المغيرين، ولم يتيحوا لهم الفرصة لتحقيق مآربهم فخرجوا إلى السفن المعادية القادمة بالشر والهلاك، والتقوا بأعدائهم في منطقة الرقة البحرية وهي منطقة ذات مياه ضحلة بالقرب من جزيرة فيلكا، فاستطاع المدافعون - بكل سهولة - القضاء على أغلب سفن الأعداء، ثم رجعوا فائزين.

وكانت خطة الكويتيين قد استندت إلى استدراج سفن بني كعب إلى منطقة الرقة، وهذه الخطة كانت من أهم أسباب النصر، إذ كان المغيرون على غير دراية بطبيعة الموقع، غير عارفين بأن الإبحار فيه لا يناسب سفنهم الكبيرة، فوقعوا في كمين لم يستطيعوا الخروج منه.

وعلى النقيض من بني كعب فقد كان أبناء الكويت يعرفون جيدًا طبيعة بلادهم برًا وبحرًا، ولهم خبرتهم الطويلة بها، وهذه المعرفة المتراكمة لديهم عبر تاريخهم في وطنهم دليل على صحة القول بأن تاريخ تأسيس الكويت كان يسبق بكثير الزمن الذي ذكرت بعض كتب التاريخ أنه كان في وقت يصل إلى سنة ١٧١٥م على حين أن المعركة المذكورة تدل على شيء آخر، فهنا شعب محارب يمتلك السفن

والخطط حاكمه الثاني بدأ حكمه في سنة ١٧٧٦م ومن غير المعقول أن يكون التاريخ الذي ذكروه صحيحًا بل أن الأقرب إلى الصحة هو التاريخ الذي أكدناه مرارًا وهو سنة ١٦١٣م.

هذا ولم تترك الكويت مناسبة إلا واغتنمتها من أجل الثأر من هؤلاء الذين هجموا عليها دون أن تتسبب لهم بأذى، ولذا فقد قام الشيخ جابر الأول وهو ابن الشيخ الذي قاد معركة الرقة بعد أن تولى الحكم في سنة ١٨١٤م باغتنام الفرصة التي أتيحت له، ففي عهده شاركت الكويت بأول مجهود حربي خارج حدودها إذ أقدمت على إرسال جنودها إلى المحمرة لتأديب بني كعب بناء على التماس من الحكومة العثمانية، عندما طردت قبيلة بني كعب جند الحكومة العثمانية من المحمرة فهب جابر لاستردادها من أيدي الغاصبين.

وقد كان الاهتمام بهذا العمل من أجل تحقيق رجاء تلك الدولة من جهة، ومن أجل الرد على الاعتداء الكعبي الذي تم في عهد الشيخ عبدالله بن صباح على الكويت.

٢- الشيخ مبارك الصباح والدولة العثمانية

نمت أطماع الدولة العثمانية في الكويت في زمن الشيخ مبارك الصباح أكثر من أي وقت آخر، ولعل من أهم ما دفعها إلى ذلك هو خضوعها للضغوط الألمانية التي كانت تشجع الدولة العثمانية على مضايقة الكويت رغبة في الحصول على موضع قدم لها في منطقة كاظمة.

ولم يحصل العثمانيون من كل محاولاتهم على شيء يؤثر على استقلال وحرية الكويت، ولم تكن هذه البلاد تابعة لهم في يوم من الأيام، وليست جزءًا من أي بلد من البلدان التابعة لهم، غير أن هذه الأطماع التي حركتها ألمانيا أثارت غرائز عدد

من الولاة العثمانيين فحاولوا أن يضيقوا على الكويت حتى تستقيم لهم أمورهم، وكانوا يقومون بذلك بعيدًا عن توجيهات قياداتهم في العاصمة العثمانية، وهنا ندرج أمرين:

الأول: هو أن الألمان عندما جاؤوا إلى الكويت بغرض بحث الاستفادة من موقع كاظمة مع الشيخ مبارك كانوا يقدمون له مغريات كثيرة مالية واقتصادية وعمرانية، ولو كان الأمر متعلقًا بما ظنه بعض الناس لحضر الجيش العثماني، واستولى على المكان دون أن يقدم الألمان أية مغريات.

والثاني: هو أن برقية وصلت إلى الشيخ مبارك في شهر نوفمبر لسنة ١٨٩٩م من الجانب العثماني (الباب العالي) تفيد بأن أي موضوع يريد بحثه أو حاجة يرغب بها، فإن عليه طلبها من الباب العالي في اسطنبول مباشرة وألا يكون له اتصال مع والي البصرة أو والي بغداد.

وفي هذا دليل قاطع على عدم الربط بين الكويت والعراق في العهد العثماني حين كان العراق محكومًا منه.

والعجيب أن المخالفة التي كان الولاة العثمانيون في العراق يرتكبونها بحق الكويت دون أن يكون لهم حق فيها، أو عندهم تفويض بها هي التي كبرت في أذهان العراقيين منذ أيام الملك غازي، وللأسف الشديد أن بعضهم لايزال إلى اليوم يعتقد بما نفته العاصمة العثمانية (اسطنبول) وطلبت من الشيخ مبارك الصباح عدم الاعتداد به، وحتى هذه الرسالة التي أشرنا إليها لم تكن تتضمن شيئًا يتعلق بالغض من استقلال الكويت وحريتها، بل كانت تنبئ الشيخ بأن هؤلاء ليس لهم الحق بأن يطلبوا منك أي شيء وأنت إذا أردت شيئًا فإنك تستطيع طلبه مباشرة.

وهناك الكثير من الأمور التي تؤيد ذلك من وثائق ومراسلات، وهي كلها تتعلق بالدولة العثمانية قبل انهيارها في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م)، وكان الشيخ مبارك الصباح قد أعلن إقدامه على خوض الحرب ضد تركيا بسبب الأعمال التي قامت بها ضده، ثم بسبب احتلال أجزاء صغيرة من حدود الكويت وبخاصة في جزيرة بوبيان وما جاورها. وقد لعب الشيخ دورًا نشطًا في الأعمال الحربية ضد الأتراك في البصرة، وباعتباره شريكًا في الحرب فإن له حق المنتصر، وقد تضمنت معاهدة سيفر لسنة ١٩٢٠م، ومعاهدة لوزان لسنة ١٩٢٣م، وجهة نظر القانون الدولي حين فرضتا قيودًا محدّدة توضح الموقف من الدولة العثمانية وممتلكاتها السابقة، ولم يكن وضع الكويت مثل وضع العراق لا من الناحية الواقعية ولا من الناحية القانونية. (أنظر: كتابنا الكويت تواجه الأطماع ص ١٠٢).

وما ينبغي أن يقال لدحض الإدعاءات المشبوهة كثير جدًا ولكننا نكتفي بما تقدم.

٣- الشيخ مبارك الصباح في مؤتمرين:

للشيخ مبارك أهميته في المنطقة المحيطة كلها وليس في الكويت وحدها، فهو دائم الاتصال بالمسؤولين حوله، دائم التعرف على الأخبار والأحداث المحيطة بحيث صار موضع ثقة من يحتاج إلى مشورة إذ يجدها عند هذا الرجل المجرب الذي كفل لنفسه الإحاطة بكثير من المعلومات حتى صار له تأثير كبير في بعض دوائر الحكم وبخاصة في موقع مثل عاصمة العثمانيين اسطنبول حيث كان له تأثير على بعض القرارات هناك حين سعى إلى عزل والي تركيا لدى البصرة ووضع آخر بدلًا منه، وقد تحقق له ذلك.

إذن فلا غرابة أن يدعى إلى أي مؤتمر تبحث فيه أمور تتعلق بالحياة المشتركة لدول متجاورة، وقد حدث أن شارك في مؤتمرين مهمين بهذا الخصوص هما:

أولًا: ما أطلق عليه مؤتمر (الفيلية) وهي عاصمة المحمرة، وقد تم عقد هذا المؤتمر في شهر مارس لسنة ١٩٠٩م، وتم عقده في قصر الشيخ خزعل بن مرداو في عاصمة حكمه، وقد حرص الشيخ خزعل على حضور الشيخ مبارك الصباح للاستشارة بآرائه حول الأمور المطروحة، وإلى جانب هذين الشيخين حضر كل من سعدون باشا زعيم قبائل المنتفق، وعدد من رجال المنطقة، وكان الداعي إلى هذا اللقاء ما كان يعانيه الزعماء من مشاق يسببها رجال الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على تلك المواقع وعلى الأخص البصرة، وعلى الرغم من أن العثمانيين قد اتخذوا خطوات أكثر تشددًا عند معرفتهم بما دار في المؤتمر إلا أن المشاركين استمروا في البحث عن طريق مناسب حتى بعد انفضاض الاجتماعات، وهذا حديث يطول لو أردنا الاستمرار فيه.

ثانيًا: ما سُمي «مؤتمر المحمرّة» الذي عقد في سنة ١٩١٣م، وكانت الدولة العثمانية – آنذاك – منهمكة في حربها في البلقان، وكان ينبغي أن يجتمع رؤساء المنطقة من العرب لكي يبحثوا في أوضاعهم ومستقبل بلادهم في ضوء ما يتهدد العثمانيين من انهيار، وفي ضوء تراجع العلاقات العربية التركية تراجعًا ينذر بانقطاع الصلات بين العرب وتركيا أو على الأقل ينذر باتخاذ الدولة التركية إجراءات مشددة ضد العرب، وهذا هو ما حدث بعد المؤتمر الذي عقد في المحمرة وحضره الشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب، إذ قد أثار هذا اللقاء ثائرة الأتراك فاندفعوا إلى إصدار قانون جديد ينظم الولايات التركية ومنها ولاية البصرة مما دفع السيد طالب النقيب إلى الاحتجاج، ورفض القانون مع المطالبة بإبعاد من يعادي العرب من موظفي تركيا، وطلب من الشيخين مبارك وخزعل مساعدته بالسلاح تحسبًا لما قد تخفيه الأيام بحسب التوقعات التي ينذر بها الوضع آنذاك، بل مضى إلى أكثر من ذلك حيث دعا إلى عقد مؤتمر في الكويت يضم كافة زعماء الجزيرة العربية للبحث في المشكلات الناجمة عن هذه الأوضاع، ومن ثم البحث في الأمور المستقبلية لأبناء المنطقة.

لقد كان الشيخ مبارك الصباح عضوًا بارزًا في هذين المؤتمرين، وكان اهتمامه بأوضاع المنطقة كبيرًا كما كان معارضًا للأعمال العنصرية التي كان يقوم بها الأتراك ضد العرب، وهم في بلادهم دون عدالة أو مراعاة للأهالي الأصليين. (انظر: كتاب مبارك الصباح للدكتورة سعاد الصباح، وكتاب: الشيخ خزعل، أمير المحمرة لعدد من الكتاب).

والقسم الثاني «في المكان: ويحتوي هو الآخر على ثلاثة موضوعات هي:

١ - بلُوقَة

هذا موقع من المواقع الكويتية، وهو وإن لم يكن معروفًا اليوم بهذا الاسم إلا أنه معروف بالصفة الدقيقة الدالة عليه.

ذكرت في كتابي «كاظمة في الأدب والتاريخ» أن بلوقة من الأماكن القريبة من كاظمة. وهذا أوان تقديم بعض التفاصيل لهذا القول.

نقل ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان أن «بلوقة ناحية فوق كاظمة قريبة من البحر»، وقال البكري في كتابه «معجم ما استعجم»: «أن بلوقة بناحية البحرين فوق كاظمة»، وإذا عرفنا أن العرب كانت تطلق على هذه المنطقة اسم البحرين تبين لنا أنه يقصد البلوقة المكان الذي في الكويت بدليل ذكره لكاظمة.

بلوقة اليوم موقع فوق كاظمة إلى الشمال الشرقي منها، وهو لا يسمى بهذا الاسم حاليًا، ولكنه يسمى «الرخام» والرخام كما ذكرت في مكان آخر تلال متناثرة بالقرب من الصبية في شمال الكويت، وهي منطقة صحراوية خالية، وقد جاءت تسميتها بسبب ارتباطها بنوع من العشب ينبت فيها هو: الرخام. وبجوار هذا الموقع مفيض ماء تغمره السيول في موسم الأمطار يسمى «شعيب الرخام» وبجواره - أيضًا - مرتفع صغير يسمى «ضليع الرخام».

وإذا قرأنا ما كتبه ابن منظور في كتابه «لسان العرب» توصلنا إلى السبب الذي يدعونا إلى القول بأن هذا الموقع المسمى حاليًا «الرخام» هو ما كان يُسمى - في القديم - بلوقة. يقول بعد ذكره لعدة معان لكلمة بلوقة: «البلوقة مكان فسيح من الأرض بسيطة تنبت الرخامَى» والمكان الذي نتحدث عنه هو هذا الذي ذكره ابن منظور، وإذا كنا قد ذكرنا أن به بعض التلال المتناثرة بينما يقول صاحب كتاب «لسان العرب» أنه في أرض منبسطة فذلك لا يغير في الأمر شيئًا، إذ قد تكون هذه التلال قد تكونت بعد العهد الذي كتب فيه كتابه بفعل الرياح وتغير سطح الأرض نتيجة لنشاطها في هذا المكان الصحراوي.

تحدث شيخنا الأستاذ حمد الجاسر عن بلوقة في كتابه «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» على الرغم من أن هذا الموقع ليس من البلاد السعودية، وهي عادة سار عليها شيخنا في كثير من المواضع في الكويت وغيرها من دول الخليج.

قال عن بلوقة بعد أن أورد أقوال القدماء عنها: «وقول المتقدمين عن بلوقة: أنها فوق كاظمة يقصدون في الأعم الأغلب لمن كان في العراق، فهي على ذلك دون كاظمة في نواحي منطقة الكويت»، ولا أدري لم اختار الشيخ هذا الرأي، ولم لا يكون الموضع فوق كاظمة لمن جاء من الجنوب كما بينا في حديثنا عن الرخام بلّوقة.

٢ - الشعيبة

وضع موقع الشعيبة اليوم يختلف شكلًا عن الوضع الذي كان عليه في السابق، فكثير من أبناء هذا الجيل لا يدركون وضع هذه القرية الجميلة قبل أن تحيق بها لعنة النفط إن صح هذا التعبير.

كانت هذه القرية تعيش وادعة هادئة على ساحل الخليج، على بُعد ٤٤ كيلو مترًا جنوبي العاصمة. وكانت قليلة المباني ولكنها قرية تفيض بالحيوية والنشاط،

فعلى الرغم من المساكن المبنية من الطين على الطراز الكويتي القديم إلا أن سكانها كانوا ينشطون في مجالات شتى منها المشاركة في رحلات الغوص والسفر وصيد الأسماك، وكانت فيها باقي المقومات الأخرى من مساجد ومدارس، وتقوم الحكومة بإمدادها بالخدمات الصحية الملائمة.

سميت «الشعيبة» بهذا الاسم نسبة إلى شعب كبير تقع القرية عند مفيضه إلى البحر، وما زال هذا الشعب أو الوادي ماثلًا للعيان.

ورد ذكر الشعيبة في الخرائط العالمية القديمة، ومنها خريطة كارل ريتر التي نشرها في كتابه «علم الأرض» الذي طبع في ألمانيا سنة ١٨١٨م، ومنها ما ورد في الأطلس الذي نشرته جمعية نشر المعلومات النافعة في لندن سنة ١٨٤٠م، ومنها خريطة «هول بري» المنشورة في المملكة المتحدة سنة ١٨٥٦م وهي تقع على غربي خط الطول ٤٨,٨شمالي خط العرض ٢٩,٢.

في أواخر ستينيات القرن الماضي بدا أن هذه القرية الجميلة صارت تتعرض إلى التلوث من جراء أعمال النفط التي أحاطت بها من كل جانب، وأصبحت المعيشة فيها صعبة على سكانها فتم نقل الجميع إلى منطقة الصباحية التي كانت قد أنشئت في تلك الفترة، وصارت الشعيبة مُفرّغة للأعمال السائدة حولها، فهي الآن مخصصة للصناعات المختلفة، وبخاصة المعتمد منها على النفط، وبها محطة لتحلية المياه وتوليد الطاقة وتصفية النفط وبها - أيضًا - ميناء تجاري مهم.

وهذه بعض الملاحظات حول القرية القديمة:

١ - كانت القرية مسورة من ثلاث جهات، وكانت الجهة البحرية مفتوحة. وهي من الأماكن التي أحبها الشيخ جابر المبارك الصباح فهو يقضي فيها أوقاته في الصيف وفي الربيع، وسوف يأتي ما يؤكد ذلك.

٢ - ألف جمال الدين الربكي كتابًا في سنة ١٨١٧م أسماه «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب» ولما كان هذا الكتاب مليئًا بالتخليط والتلفيق، فإنه لابد لنا من الرد على ما جاء فيه عن منطقتنا فهو يقول:

«لا يخفى على السامع أنه من الكويت إلى الظهران، وهو موضع قريب من القطيف على أربعة فراسخ من جانب الشمال - وهو اليوم خراب - هذه الأرض يقال لها العدّان، وليس فيها بلدان مسكونة، بل بعض المواضع تسكنها في الصيف عرب بني خالد مثل العماير والصبيح، وهي: الفنطاس والفنيطيس جنوب الكويت مسافة يوم من جهة الجنوب».

وفي كلام صاحب لمع الشهاب كثير من التخليط، ففي عهده كانت الفحيحيل والفنطاس وأبوحليفة والشعيبة من المناطق الآهلة بالسكان، وكان لسكانها مشاركة في شؤون الحياة الكويتية، بما في ذلك القيام برحلات صيد اللؤلؤ باعتبارهم يعيشون على مواني البحر، ومدنهم تشكل مواني طبيعية لإيواء السفن، وفي هذه المنطقة التي أشار إليها الريكي، ولاسيما في الفنطاس، حياة ثقافية وفنية متميزة في حدود الإمكانات المتوافرة آنذاك، وقد برز فيهم شعراء وفنانون لم يكونوا ليبرزوا لولا الاستقرار الدائم والحياة الحافلة بالنشاط في موقعهم ذاك.

٣ - ذكر لوريمر هذه القرية في كتابه «دليل الخليج» فقال عنها: «الشعيبة: تقع على الساحل وتبعد ٢٤ ميلًا جنوب الجنوب الغربي لبلدة الكويت».

وذكرها في موضع آخر قائلًا: «قرية ساحلية صغيرة في منطقة العدان في إمارة الكويت، وتتكون من ١٥ منزلًا تقع في داخل حصن مخرب، وسكانها عبارة عن ٢٠ أسرة من قبائل عربية مختلفة، وبها عشر آبار عذبة المياه على عمق ١٦ قدمًا».

ولدى الأهالي ١٥٠ نخلة وبعض الأشجار الأخرى، ويزرعون القليل من الشعير والخضراوات، كما أن لديهم ثلاثة قوارب أو أربعة لصيد اللؤلؤ، والقرية عبارة عن منتجع ريفي لسكان مدينة الكويت».

كما ذكرها الشيخ عبدالعزيز الرشيد بقوله: «الشعيبة هي أقصى قرية في الجنوب وعلى بُعد ثلاثين ميلًا عن الكويت».

وذكرها ديكسون بقوله «الشعيبة» وهي آخر قرية ساحلية إلى أقصى الجنوب في منطقة العدان، وهي أيضًا من قرى القصور، وتقع هذه القرية على بعد ٢٧ ميلًا إلى جنوب الجنوب الغربي من مدينة الكويت، وفيها ١٠٠ منزل يسكنها أصحابها بصورة دائمة، وعدد من المنازل الصغيرة تدعى (حوطة) تسكن من وقت إلى آخر، وفيها أيضًا أنقاض قلعة كانت في يوم من الأيام المصيف المفضل لدى الشيخ جابر بن مبارك الصباح. وفي القرية عشرة آبار تحتوي على مياه صالحة للشرب على عمق ١٥ قدمًا، وهناك أيضًا حوالي ١٥٠ شجرة نخيل، وبعض أشجار السدر، وقليل من زراعة الشعير والخضار، ويملك سكان القرية مركبًا أو مركبين ثم يعقب قائلًا: «إن قرية الشعيبة آخذة في التوسع والازدهار، وهي تقع مباشرة إلى جنوب المدينة الحديثة على ميناء الأحمدي».

٤ - كانت هذه القرية موضع إلهام للشاعر محمود شوقي الأيوبي الذي كان يعمل في مدرسة البنين بها، وقد كتب قصائد كثيرة من هناك تضمنتها دواوينه الشعرية المطبوعة، وقد كان هناك منذ سنة ١٩٥٥م.

٥ - وكانت - كذلك - موقع إلهام للشاعر النبطي عبدالله بن غصاب الذي كان يعيش هناك، ويقول الشعر معبرًا فيه عن مشاعره مراسلًا بقصائده لعدد من الشعراء ذكرنا منهم الشاعر فهد العبدالمحسن الفهد (الخشرم) وله قصائد مُغَنّاة منها القصيدة التي غنتها الفنانة عايشة المرطة ومطلعها:

شِ الـــراي يــا أهــل الــهــوى شِ الــراي

الـــشـــوق عـــــزّم عــلــى غــربــالــي

وبعد فهذا تسجيل للصورة التي كانت عليها قرية الشعيبة وما حلَّ بها، ولا أشك في أن من أبنائها من يستطيع أن يكتب تاريخها وتاريخ رجالها، وأن ينشر ما يجده من صور عنها وعنهم، فهل من مجيب؟

٣- العاقول والمطبة

من المواضع التي زالت من الوجود إلا دلالات باهتة تدل عليها موضعان هما: العاقول والمطبة. كلاهما في منطقة الشرق داخل السور الثالث، وكلاهما زال من خرائط الكويت ما عدا الدلالات الباهتة التي أشرنا إليها مثل اسم دوار العاقول، ودوار المطبة.

يقع دوار العاقول عند تقاطع شارع الشيخ أحمد الجابر الصباح والشيخ جابر المبارك الصباح يطل عليه مبنًى عالٍ كبير كان في يوم من الأيام مقرًا للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، والعاقول كما قال داود الأنطاكي في كتابه: «تذكرة أولي الألباب» هو: «شوك الجمال، وهو نبت معروف ترعاه الإبل كثير الشوك فيه حدة، وله زهرأبيض وأصفر، كما له فوائد في الطب الشعبي».

ومنطقة العاقول التي نتحدث عنها تحيط بالدوار الذي ذكرناه والذي حلّت محله إشارات مرورية. وقد كانت هذه المنطقة آهلة بالسكان، ويبدو من شعر الشاعر الشعبي فهد بورسلي أنه كان من سكانها فهو يقول في إحدى قصائده التي تترد على ألسنة المغنين:

وأنـــا فــهـد مــن هــل الـــعـــاقـــولْ

والـــقـــلـــب ســـاكـــن فـــريـــج ثـــانـــي

وأولها قوله:

شقول يا أهل الهوى شقولْ

هذا نصيبي من الخلان

وشفي يديني على المجمولْ

يرضى الضحى والعصر زعلان

وهذه الأبيات الثلاثة تدل على أن العاقول منطقة سكنية أو فريج من الفرجان القديمة فهذا الشاعر من سكانها، واستعماله لكلمة فريج ثاني دلالة واضحة على الفريج الأول وهو فريج العاقول.

شهدت بنفسي بقايا نبات العاقول قبل أن يزال وهو مطابق للوصف الذي ذكره داود الأنطاكي في تذكرته.

أما المطبة فقد كانت منطقة سكنية كاملة، بقي من آثارها مدرسة النجاح التي تأسست في سنة ١٩٤٩م ومسجد شملان بن على آل سيف الذي أنشأه في سنة ١٨٩٣م. وبقي دوار المطبة الذي هو في تقاطع شارعي طارق بن زياد وعبدالله الأحمد، وكانت بها الكتاتيب، وبها شاوي المطبة الشهير الذي يردد الأطفال هذه الأهزوجة عنه:

كيا شاوينا

شاوي المطبه

صيح على امه

يبي ارطبه

وكان في طرفها الشرقي أمام مبنى هيئة شؤون القصّر مركز توزيع المياه القديم، وكنا نسميه بركة الماء، وهو من أعمال شركة ماء الكويت التي تأسست في

سنة ١٩٣٩م وعندها تنتهي سيارات الأجرة التي تنقل الناس من السوق إلى شرقي المدينة وكان يطلق على هذا النوع من العمل: سرَّة شرق.

وهي حاليًا بامتداد شارع عبدالله الأحمد من هذه النقطة التي أشرنا إليها غربًا حتى الدوار، ثم تمتد شمالًا حتى تتاخم مساكن منطقة شرق المعروفة.

ولا يعرف سبب تسميتها بهذا الاسم إلا أنها في هذا الطرف من العاصمة تمثل هبوطًا أرضيًا، في مقابل تل بهيته والنفود المقابل لها في غربي البلاد وهو التل الذي بني عليه المستشفى الأمريكي، فكأن الذي يأتيها يطب فيها أي يقفز هابطًا إليها، وقد ذكر البعض أن ذلك الاسم راجع إلى أن بعض الصبية كانوا قد صنعوا خرمًا في السور الثاني للبلاد، فكانوا يقفزون منه من جانب إلى آخر، وفي رأيي أن هذا الرأي لا صحة له لعدة أسباب، منها:

١ - ذكر الشيخ يوسف بن عيسى أن بداية هذا السور من الشرق هي عند جناح نقعة ابن نصف الشرقي، وكان له هناك باب يسمى «دروازة بن بطي» شرقي بيت ابن نصف وبالإمكان استعمال هذا الباب لمن يريد الخروج والدخول.

٢ - أن الهبوط من الفتحة المزعومة لا يؤدي إلى منطقة سكنية كبيرة كما ذكرنا عنها، ولكنه يؤدي إلى الوصول إلى خلف السور مباشرة فكيف تمتد هذه البقعة لتشمل مساحة كبيرة كهذه.

٣ - أن عبور أبواب السور في غير الأوقات المقررة ممنوع، فكيف يسمح بهذا الاختراق الذي إن صح وهو غير صحيح سوف يفقد السور قيمته، ويعرض البلاد لهجوم من يريد بها شرًا.

٤ - يمتد سور الكويت الثاني - غربًا - إلى موقع متحف الكويت الوطني، ولم نسمع بوجود أي خرم فيه، ولو كان الأمر في المطبة كما ذكر البعض لوجدنا خرومًا أخرى مشابهة تنتج عنها مطبات كثيرة، وهذا ما لم يحدث.

وعلى ذلك فإن الأرجح أن تكون التسمية قد أتت من شكل الأرض هناك فهو منخفض فكأن من يصل إليه قد وثب إليه وطبّ فيه كما نقول في لهجتنا.

المطبة والعاقول كانتا منطقتين واضحتي المعالم، وكان السكان يميزون بينهما، وقد رسم المرحوم الشاعر عبداللطيف عبدالرزاق الديين خريطة للعاصمة كما كانت عليه في السابق أوضح فيها هذين الموقعين. فموقع المطبة هو خلف الجزء الأخير من سور الكويت الثاني الذي كان ينتهي عند إشارة المرور عند تقاطع شارع الخليج العربي مع شارع خالد بن الوليد، وتمتد جنوبًا إلى تقاطع شارع الشيخ أحمد الجابر وشارع خالد بن الوليد وهو نهايتها الشرقية أما بدايتها مع الغرب فموضع اختلاف، ولكننا نستطيع أن نقول أنها تبدأ من عند الدوار الذي تقع عليه مكتبة البابطين حاليًا، وتمتد مع شارع عبدالله الأحمد إلى الشرق. وضمن هذه المنطقة فريج مشهور هو فريج الزهاميل.

أما العاقول فيمتد من شارع خالد بن الوليد غربًا حتى شارع جابر المبارك شرقًا وتقع المقبرة التي تسمّى مقبرة هلال ضمنه ويحدّه من الجنوب شارع الشيخ أحمد الجابر، وأما من الشمال فالمقبرة والامتداد معها إلى الشرق، مع مضي الوقت تداخلت المنطقتان وكاد اسم المطبة أن يغطّي منطقة العاقول بكاملها لولا أن بلدية الكويت قامت بتدارك الأمر حين أطلقت اسم العاقول على الموقع الذي أشرنا إليه، وهو عبارة عن تقاطع على شارع الشيخ أحمد الجابر. وعلى هذا فإن

بعض الأماكن التي أشرنا إلى وجودها ضمن المطبة كمدرسة النجاح مثلًا إنما هي في الأصل في منطقة العاقول، ولكن الأمر كما ذكرنا تفصيلًا.

لعل في ما تقدم فائدة تجدد الأمل في مواصلة الحديث، وسوف نرى كم هو واسع هذا المجال التاريخي الجغرافي، ذلك لأن الكويت لم تحظ في السابق بما يغطي أخبارها التي تناثرت بفعل الزمان. ولا أملّ من تكرار الرجاء إلى كل من لديه القدرة على الإسهام في العمل المؤدي إلى تسجيل كل شيء عن الكويت أن يتقدم متسلحًا بالصدق والوثائق، واضعًا بين عينيه مصلحة وطنه.

****

الشيخ أحمد الشرباصي في الكويت[1]

هذا رجل عرفته الكويت جيدًا وعرفها معرفةً تامةً فهو مؤلف كتاب (أيام الكويت) الذي ضم العدد الكبير من المعلومات عن هذا الوطن، واحتفظ بتاريخ الحقبة التي أمضى الشرباصي جزءًا منها مدرسًا بالمدرسة المباركية.

عرف الشيخ أحمد الشرباصي الكويت عن طريق المرحوم الأستاذ عبد العزيز حسين الذي عرفه عندما كانا يدرسان معًا بكلية اللغة العربية في الأزهر، ذلك لأن الأستاذ عبد العزيز كان من طلاب البعثة الكويتية الأوائل في مصر، وكان معه الأستاذ أحمد العدواني والأستاذ يوسف العمر والأستاذ يوسف مشارى البدر، وكانت بداية رحلتهم إلى هناك في سنة ١٩٣٩م.

وعندما أصبح الأستاذ عبد العزيز حسين مسؤولًا عن بيت الكويت بالقاهرة، وعزم على إصدار مجلة البعثة دعا الشيخ الشرباصي للمشاركة فيها بكتابة المقالات، وذلك لأنهما كانا يحلمان بمشروع من هذا النوع منذ أيام دراستهما.

ومنذ اليوم الأول لصدور مجلة (البعثة) في سنة ١٩٤٦م بدأ الشرباصي في الكتابة بها ولم ينقطع لأي سبب من الأسباب، وكان وهو في الكويت يرسل مقالات إلى بيت الكويت بالقاهرة ليتم نشرها، ولم يمنعه عن الاستمرار إلا توقف المجلة مع آخر عدد صدر منها في شهر يناير لسنة ١٩٥٤م، وقد جاءت أعدادها ثمانية مجلدات عندما قام مركز البحوث والدراسات الكويتية مشكورًا بإعادة طبعها، ولم

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢١/٥/٢٠٠٨م.

يكتف بذلك بل وضع لها مقدمة كتبها آخر رئيس تحرير لها وهو المرحوم الأستاذ عبد الله زكريا الأنصاري، وتوّجها بتصدير كتبه رئيس المركز أخي العزيز الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم، وكانت الفهارس التفصيلية هي الهدية التي قدمها المركز لقراءة البعثة حيث سهل عليهم المتابعة والرجوع إلى الموضوعات المطلوبة، وقد جاء التصدير والمقدمة وجاءت الفهارس في مجلد واحد هو المجلد التاسع .

كان الشرباصي محبًا لهذه المجلة يذكرها دائمًا ففيها بدأ يكتب ومنها انتشر صيته بين الناس، وهي فوق ذلك أمل من آماله تحقق، ووصل إلى مرتبة علية من الإتقان، وسجل ممتع لأفكار شباب الكويت وغيرهم، وتاريخ مصور للكويت ليس في فترة صدورها فحسب، بل كانت المجلة تقدم مقالات تاريخية مهمة، وتقدم تطلعات أبناء الدارسين في مصر إلى آفاق مستقبل وطنهم الذين كانوا يعدون الأيام حتى يعودوا حاملين شهاداتهم وعلمهم لكي يخدموه.

وقد بادلت البعثة الشرباصي حبًا بحب، نشرت كل ما ورد إليها من مقالاته، وكتاباته المتنوعة، ونشرت كل ما كتب عنه، ويكفينا أن نقول إن اسم أحمد الشرباصي قد تكرر في مجلة البعثة في أكثر من ١٢٦ موضعًا، وهو أكثر اسم تردد في ثنايا هذه المجلة منذ صدرت.

وقبل أن ندخل إلى الحديث عن السيرة الذاتية للشيخ أحمد الشرباصي، فإننا لابد وأن نشير إلى التباس يحدثه تشابه اسمه مع اسم شخصية كبيرة ومعروفة، تلك هي شخصية العالم الوزير المهندس أحمد عبده الشرباصي المتوفى سنة ١٩٨٤م، وكان وزيرًا للأشغال في حكمة الثورة المصرية في سنة ١٩٥٣م، ثم صار عضوًا في مجمع اللغة العربية وحين خرج من الحكومة كان له مجلس ثقافي أسبوعي في بيته، وقد ألّف عنه فرج الشرباصي كتابًا تناول فيه سيرته الذاتية قبل الرحيل.

ولعل أدل شيء على الالتباس بين اسم هذا الرجل واسم الشيخ أحمد الشرباصي، أن خير الدين الزركلي صاحب كتاب الأعلام أورد بيانًا عن حياة المهندس أحمد عبده الشرباصي وفي آخر البيان قال: ومن إنتاجه العلمي: فذكر تحت هذا البند أسماء مؤلفات الشيخ أحمد الشرباصي ويكفي هذا دليلًا على ما ذكرناه بشأن الالتباس، إذ إن هذا الأمر الذي خفي على واحد مثل الزركلي لابد وأن يخفى على الكثيرين.

أما الشيخ أحمد الشرباصي فهو من مواليد اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩١٨م، درس في كتّاب القرية التي ولد فيها، وحفظ القرآن هناك كما تعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بمعقد دمياط الديني، وبقي فيه إلى أن أنهى دراسته الثانوية في سنة ١٩٣٩م، وكان خلال دراسته في المعهد نشطًا طموحًا ترك له بمسلكه الطيب آثارًا لا تنسى عند أساتذته وعند زملائه، ومن ثم التحق بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف وتخرج فيها متفوقًا بارزًا بنشاطه واطلاعه، وكثرة علاقاته مع زملاء الدراسة ومع عدد من المثقفين خارجها.

تخرج بعد أن نال الشهادة العالمية وشهادة إجازة التدريس في سنة ١٩٥٤م، واتجه إلى التدريس فترة من الزمن أسندت إليه فيما بعد وكالة رواق الأحناف بالأزهر، وارتحل إلى الكويت وهو في هذه الوظيفة وعندما عاد لم يلبث بها إلا قليلًا حتى انتدب إلى عدد من الأعمال، ولم يمنعه عمله في ذلك الوقت من تحقيق طموحه إلى الدراسة العليا فأكملها حاصلًا على شهادة الدكتوراه في الأدب والنقد في سنة ١٩٧٦م، في موضوع عنوانه: (رشيد رضا صاحب المنار) وبعد حصوله على هذه الشهادة عيّن مدرسًا بالكلية التي تخرج فيها، وهي كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف.

في خارج شؤون الدراسة والعمل، كان الشيخ الشرباصي نشطًا إلى أبعد الحدود، فكان يؤلف الكتب ويكتبها وينشرها، وكان يلقي الخطب في المناسبات التي تتاح له الخطابة فيها ولقد كان بارعًا في كل ذلك، وكان متدفقًا في حديث

يتناول موضوعات متنوعة فيبدع في عرضها وكان له اتصال بعدد من التنظيمات النشطة مثل جمعية الشبان المسلمين وغيرها.

وصل الشيخ أحمد الشرباصي إلى الكويت وهو في أوج نشاطه، وفي وقت اكتمال عمله، ونضج شخصيته، وكان الناس يعرفونه من قبل عن طريق ما يقرؤون له من مقالات في مجلة البعثة، وعن طريق الأخبار التي تنشرها هذه المجلة عنه، ولذا فقد حظي باستقبال وترحيب كبيرين، وفتحت له الأبواب فزار المسؤولين، وديوانيات القوم، والأندية والجمعيات ولم يدع مجالًا في الكويت إلا وقد وقف فيه خطيبًا واعظًا ومذكرًا، وزار مناطق الكويت طولًا وعرضًا فرأى الشعيبة والأحمدي والقرى الساحلية والجهراء وكاظمة وكثيرًا غيرها، وكانت السنة الدراسية التي زار فيها الكويت عامرةً بالتدريس والوعظ عامرةً بالعمل وكأنها أكثر من سنة لفرط ما قام به خلالها من عمل، ويكفي الاطلاع على كتابه (أيام الكويت) لكي يعرف المرء مدى حركته خلال ذلك العام الدراسي من سنة ١٩٥٣م، وبعد هذا الخضم الهائل من الأعمال والمؤلفات أدركه المرض في سنة وفاته، وبقي قعيد الفراش إلى أن وافته منيته في اليوم الرابع عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٨٠م، وكان قد ترك ذخيرة كبيرة من المؤلفات والآثار.

ألف أحمد الشرباصي كتابه (أيام الكويت) بعد أن انتهت مهمته فيها، إذا كان - كما أشرنا من قبل - مدرسًا منتدبًا من الأزهر للعمل في دائرة معارف الكويت، وقد أمضى في عمله هذا عامًا دراسيًا واحدًا كان خلاله مثالًا للنشاط، وكان حريصًا على الكتابة وإلقاء الخطب في المساجد وغيرها.

وهذا الكتاب فريد من نوعه فهو شبيه بما كان يسمى: (جراب الحاوي) فيه كل شيء من التاريخ إلى الحكاية إلى القصيدة إلى المعلومات العامة، كان يسير في

الطريق فيلتقط ما يعنّ له، حتى إذا عاد إلى القاهرة نفض ما في الجراب ونسقه، وجعله في كتاب هو : أيام الكويت.

يقول عن كتابه: (هذا كتاب «أيام الكويت» جمعت فيه بين رواية التاريخ، ووصف المشاهدة، ولمحة الذكرى، وقد يكون في هذه النواحي الثلاث قسط يشترك في تقديره أو تصويره أكثر من كاتب، ولا تثريب، فليست شؤون الأمم أو الموضوعات العامة مما ينفرد به كاتب أو مؤرخ).

لا ندري إن كان الشرباصي قد أراد أن يكون كتابه هذا كبير الحجم في أربع وأربعين وخمسمائة صفحة فملأه بكثير من الأمور التي يمكن الاستغناء عنها، أم هو تابع لمنهج اختطه لنفسه منذ البداية، ولكن الرأي الأول هو الأقرب إذ يبدو أنه كان طوال فترة بعثته التي لم تستمر طويلًا كان يجمع كل ما يجده أمامه إذ كان في نيته إصدار هذا الكتاب، ومما يؤكد ذلك الاستطراد الواسع في بداية الكتاب حين كتب تاريخ الكويت وهو موضوع أجدر ما يكون بكتب التاريخ إلا إذا كان يوجه كتابه إلى غير أهل الكويت ونحن نشك في ذلك، وتحدث عن النفط وعن الغوص على اللؤلؤ، وعن نهضة الكويت التي شاهدها، وقد استطرد هنا استطرادات لا معنى لها، مثل رثائه للمرحوم سلطان الكليب، ووضعه صورة لبعض الأطفال الكويتيين الذين يدرسون في مصر مع تعليق عليها، ومثل نقله قصيدة بعنوان (الينابيع السود) وهي من قصائد الشاعر محمود شوقي الأيوبي، وكان الشرباصي قد نشرها في مجلة الشبان المسلمين التي تصدر في مصر، وعلى الرغم من أن القصيدة رائعة إلا أن وضعها في الكتاب كان من قبيل الاستطراد غير الملائم، ومن استطراداته مقال بعنوان: (أغنى دولة في العالم)، وهو مقال لم يكتبه لأن كاتبه هو اللورد كتروس البريطاني ولم يترجمه لأن المترجم هو المرحوم يوسف الشايجي، وتحدث عن المحاكم ونشأة القضاء في الكويت وعن مجلس الشيخ عبد الله الجابر الصباح، ثم

انطلق في حديث ممل وبخاصة حين تحدث عن القهوة التي قدمت في ذلك المجلس فأفاض في ذلك، ولم يترك شعرًا قيل فيها إلا ذكره، وتحدث عن الأشخاص من ذوي الحاجات الذين يفدون على الشيخ واستعرضهم واحدًا واحدًا.

ألحق ذلك بموضوع عن التعليم، فتحت عنوان (نهضة التعليم) أورد الشيء الكثير عن تاريخ التعليم ونشأة دائرة المعارف وتنظيمها ومدارسها مما استغرق عشرين صفحة من الكتاب ألحق بها ثلاث صفحات عن المعهد الديني وأقسامه ولعله كان ينقل شيئًا مكتوبًا قد وضع بين يديه لأن التفصيلات كثيرة بما فيها أسماء المدرسين .

وجاءت قمة الاستطراد بذكره لأسماء المدرسين المعارين للكويت مرتين بحسب مؤهلاتهم العلمية ومراكز عملهم .

وجاء بعد ذلك فصل عن مؤتمر عربي عقد في دمشق وشاركت فيه الكويت، وهذا ليس من كتابته لأنه نص تقرير وفد الكويت إلى هذا المؤتمر، وفي الصفحات اللاحقة مقابلة أجراها ثلاثة من طلاب المدرسة المباركية مع الأستاذ عبد العزيز حسين ونشرت في مجلة اليقظة وهذه أيضًا لا يد له فيها .

أما ما بعد ذلك فهو تلخيص لمقالات وندوات رصها في الكتاب وهي لا تفيد القارئ بشيء جديد لأنها كانت منشورة قبل ذلك بأسماء أصحابها الحقيقيين .

وابتداءً من ص ١٥٣ حتى ص ٢٥٦ تحدث عن شعراء الكويت، وأورد نماذج من أشعارهم، ملحقًا بذلك حديثًا عن راوية شعر المتنبي في الكويت المرحوم حمد مبارك المناعي، ثم بعض القصائد النبطية منها أغنيتان.

وبعد الحديث عن الشعر تحدث عن اللهجة الكويتية وجلب أمثلة لا ينطبق أكثرها على طبيعة نطق الكويتيين .

أما حديثه عن المرأة فقد أطاله بنقله لمقالات بأقلام عدد من سيدات الكويت الفضليات.

وتكلم بإيجاز غير معهود منه عن عادات الطعام في الكويت احتوى على تصوير كتابي عن المائدة الكويتية، وما يقدم عليها وما تدور حولها من أحاديث، ثم عقد فصلًا عنوانه (أمثال الكويت) جاء في تسع وعشرين صفحة تضم عددًا من الأمثال مع بيان عنها، وهو استطراد لا محل له .

وعقد - فيما بعد - فصلًا عن الأندية الكويتية وآخر عن التيارات الفكرية المختلفة في البلاد وألحق بالفصل الثاني كلمتين كان قد ألقاهما في بعض الأندية ونشرهما في مجلة البعثة .

كان حديثه بعد ذلك عن الصحافة الكويتية، وعن الأدب عندنا ونقل عددًا من المقالات التي كتبها غيره أو مقابلات كأنها تدور بين صحفي ومسؤول، وأنهى هذا المسار بمقابلة نشرت له في مجلة البعثة تحت عنوان (مع الأستاذ الشرباصي).

استهل الشيخ أحمد الشرباصي الجزء الأخير من بقية كتابه بالحديث عن ذكرياته في الكويت بادئًا بمقالة سبق له نشرها في مجلة البعثة تناول فيها قصة رحلته إلى الكويت، وهي مقالة مليئة بالمبالغات، كثيرة التفصيلات، بدأها منذ تقررت رحلته إلى أن ركب الطائرة وما حدث له من تأخير ثم الوصول واستقبال السيد سليمان العدساني له، ووصوله إلى مسكنه الذي لم تعجبه فيه بعض النواقص التي لم يذكرها، وقال أنه بعد ساعات من وصوله إلى الكويت جاءه من يدعوه إلى حضور الاحتفال بافتتاح جمعية الإرشاد الإسلامي، وقال أنه فرح بتلك الدعوة ولباها وخطب في الاحتفال، وكعادته استطرد في الحديث عن الجمعية وأهدافها وعن رعاية أمير البلاد - آنذاك - الشيخ عبد الله السالم الصباح لها، وتحدث

عن زيارته لعدد من كبار المسؤولين، وكأنه ضيف عابر لأن المدرسين الذين يأتون إلى الكويت في ذلك الوقت كثيرون ولكنهم لا يقومون بمثل هذه الزيارات الرسمية.

في اليوم الثالث من شهر أكتوبر للسنة التي وصل فيها إلى البلاد، وكان يوم إثنين أقام الشيخ عبد الله الجابر الصباح رئيس المعارف مأدبة عشاء في قصره، وقد ألقى الشرباصي كلمة في هذه المناسبة ونقل في كتابة وصف مجلة البعثة لهذه المأدبة.

وفي اليوم التالي كان حديثه عن مقابلة للشيخ عبد الله السالم التي ذكر فيها ما دار من حديث عن الشاعرين المتنبي وأحمد شوقي، وفي مساء اليوم نفسه حضر إلى جمعية الإرشاد الإسلامي حيث كان الأستاذ عبد المجيد مصطفى يلقي محاضرة عن (الفردوس المفقود) يقول الشرباصي : إنه عقّب على المحاضرة بتعليق مسهب، وهذه هي عادته.

أعقب ذلك بذكر الأحاديث والمحاضرات التي كان يلقيها في عدد من المساجد مثل مسجد السوق ومسجد ملا صالح وغيرهما . وعن زيارته لنادي المعلمين، حيث عرض عليه الأستاذ حمد الرجيب عند زيارة النادي المشاركة في الأنشطة التي تقام هناك والكتابة في مجلة الرائد التي يصدرونها، وكان حديثه عن الكلمة التي ألقاها في مسجد الملا صالح مدعاة لحديث عن مؤسس المسجد فذكر تفصيلًا عن حياته نقلًا عن كتاب (تاريخ الكويت) للشيخ عبد العزيز الرشيد.

بعد ذلك تحدث عن زيارته لصديقه القديم الأستاذ عبد العزيز حسين، وذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شهر أكتوبر وتحاوره معه في شأن بعض الأمور المتعلقة بالمناهج الدراسية، وزار معه في اليوم التالي معامل تقطير المياه، ومبنى ثانوية الشويخ الذي كان - يومذاك - تحت الإنشاء وفي المساء لبى دعوة نادي

المعلمين إلى حفلة سمر، وزار الأحمدي بصحبة الأخ عبد الرزاق العسكر واثنين من أصحابه وصلّوا جميعًا صلاة الجمعة في مسجد المدينة، ووصفه الشرباصي وصفًا دل على إعجابه به، وألقى بعد الصلاة محاضرة أصغى لها السامعون .

وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شهر أكتوبر ألقى محاضرة بعنوان: (واجبات المواطن الصالح)، وذلك في نادي المعلمين، وقد قدمه للحاضرين السيد خالد يوسف النصر الله، وأثبت الشرباصي كلمة التقديم كاملة، وألقى في اليوم السادس والعشرين محاضرة في جمعية الإرشاد الإسلامي، وكان الشاعر محمد علي الحوماني موجودًا فألقى قصيدة في ذلك اللقاء، وتحدث في حفل شاي أقامته الجمعية المذكورة على شرف مدرسي المدرسة المباركية، ثم يقول: (بعد ذلك بدأت سلسلة من الأحاديث ألقيها في المدرسة كل يوم ثلاثاء، في وقت المساء، وذكر في اليوم التاسع والعشرين ما يلي: (جاءني في منزلي مذيع المحطة الكويتية لتسجيل بعض الأحاديث الصباحية وأحاديث الجمعة تطوعًا بلا مكافأة!) وقد استغرقت الصفحات من ٤٠٦ حتى ٤٢١ الأحاديث التي قالها للإذاعة ومقالة نشرتها له مجلة الرائد التي يصدرها نادي المعلمين .

ألحق ذلك ببيان عن تحركاته وأغلبها عن لقاءات ومحاضرات منها لقاؤه بالشيخ فهد السالم الصباح واستماعه لمحاضرة المجاهد التونسي محيي الدين القليبي.

وحضر في يوم الخميس العشرين من شهر نوفمبر حفل قرآن الأستاذ عبد الله زكريا الأنصاري في المدرسة القبلية، ووصف هنا أسلوب الاحتفال بالزواج عند الكويتيين، ثم أثبت مقالًا كتبه أخوه السعيد الشربيني الشرباصي عنوانه (ألقوا الأحبة في البحر)، ثم أورد قصيدة كتبها الشاعر محمود شوقي الأيوبي عن محمد نجيب ومعها رسالة فقام الشرباصي بإرسال القصيدة والرسالة إلى الرئيس المصري.

ثم استمرت الزيارات والمحاضرات وتسجيل الأحاديث للإذاعة والرحلات بين عدد من المناطق الكويتية، وأورد عددًا من الخطب التي قالها إلى أن أفرد فصلًا عن رحلة قام بها إلى الجهراء وقد وصف القرية التي صارت اليوم مدينة كبيرة، ووصف مزارعها وطرق الري فيها، وكذلك القصر الأحمر، وبعد ذلك خاض في مثل ما خاض به من قبل، وختم ذلك بالحديث عن رحلته إلى الفحيحيل والشعيبة ووصف - كعادته - كل شيء رآه في رحلته ثم ذكر أن مجلة الرائد قد نشرت له مقالًا بعنوان (بيوت بلا نوافذ) أثبته كاملًا في هذا الموضع من كتابه .

في مساء يوم الإثنين العاشر من شهر يناير زار بصحبة الأستاذين عبد العزيز حسين وحمد الرجيب موقع المقوع حيث انفجرت بئر للنفط واشتعلت فيها النيران، وكان الناس يذهبون لرؤية هذا الحدث .

يوم الجمعة السادس عشر من شهر يناير كان حافلًا بالنشاط ففيه وصل إلى الكويت المجاهدان الجزائريان محمد البشير الإبراهيمي و الفضيل الورتلاني، كما حضر في المساء الدكتور عبد الوهاب عزام، وقد استدرك الشرباصي فقال أن البشير الإبراهيمي لم يحضر في ذلك اليوم لمرضه، وكانت أول زيارة لهذه المجموعة (في المساء) للنادي الأهلي، وقد ألقيت كلمات الترحيب التي رد عليها الدكتور عزام .

ومنذ ص ٤٧٤ صار يتحدث عن زيارة الدكتور عزام الذي رافقه طوال زيارته للكويت، ثم أثبت حديثًا أذاعته له إذاعة الكويت وكان موضوعه (مكانه الأزهر الشريف).

ومما لفت نظري في الكتاب شدة اهتمامه بموضوع الحفاء، فهو يقول في اليوم الثامن من شهر مارس: (بدأت بين التلاميذ الدعوة إلى محاربة الحفاء بصورة واسعة ففي كل فصل أدخله أبدأ لمدة دقائق بالحديث عن أخطاء الحفاء).

وفي اليوم التالي ذكر أنه واصل حملته هذه، وفي مسجد البدر ألقى كلمة بعد صلاة الجمعة حث فيها على تجنب الحفاء وكأن هذه المشكلة من المشكلات التي تشغل الكويت والواقع عكس ذلك، ويبدو أنه جاء وفي ذهنه هذا الموضوع الذي أثير في مصر، فظن أن البلدان الأخرى بما فيها الكويت تعاني من مثل هذه المشكلة .

وهنا لا أريد ذكر الصفحات الأخيرة من الكتاب، وهي صفحات قليلة لأنها كلها كانت منشورة في مجلة البعثة، ولكني أود أن أنشر هنا نبذة مما نشرته مجلة (الأهرام العربي) في اليوم السادس من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٧م، لعلاقتها بموضوع الحفاء، ولدلالتها على ما أشرت إليه من أن الشرباصي جاء إلى الكويت وهو متأثر بهذا الموضوع، وهذا هو ما وقع عليه اختياري من المقال :

(ولنا أن نعلم أن وزارة النحاس باشا كانت إحدى خططها محاربة (الحفاء) وكانت البُلغة رمزًا للتفاخر فكانت في أول أمرها يحملها صاحبها تحت أبطيه وهو ذاهب للمأتم والأفراح وليس في قدميه إلا قبيل المكان المقصود بخطوات قليلة.

أما الطريقة القومية فقد حدثت عندما تزوج الملك فاروق الملكة ناريمان وكان من علامات تقربه للناس أن جعل الدعوة عامة بكل المواطنين من كل أنحاء المملكة المصرية، فما كان من المرحوم عم فواز الرجل الفقير المعروف بنزاهته إلا أن باع البقرة الوحيدة التي يمتلكها وعقد العزم على حضور فرح الملك، وكانت هدية الملك للرعية أن أمر بتوزيع البلغ والمراكيب على من حضروا الفرح إلى جوار الطعام الحلوى.

وعاد فواز بالبلغة[1] فرحًا مسرورًا حاملًا إياها بجلال وتقدير، وكأنه قد عاد بقطعة من كسوة الكعبة، وجعل لها رفًا خشبيًا في داره وجعل أهل القرية بل والقرى المجاورة يتوافدون لرؤية بلغة الملك، وقد بلغ من حرصه عليها أن حرّم عليهم

(١) البلغة : نوع من الأحذية يلبسها عامة الشعب.

ملامستها حتى لا تتأثر بالأيدي الخشنة، وحدث أن طلب عمدة القرية رؤية البلغة وعندما أبلغه شيخ الخفر برغبة العمدة قال فواز قولته التي صارت مثالًا فقد نظر إلى شيخ الخفراء نظرة استعلاء ودهشة قائلًا: (بلغة جلالة الملك لا تذهب إلى أحد .. حتى لو كان حضرة العمدة).

هذا هو الشيخ أحمد الشرباصي وهذا هو كتابه (أيام الكويت) وهذه هي حكايته مع الكويت وأهلها، وعلى الرغم من الملاحظات التي عرضنا إلا أن الرجل قد صنع خيرًا بجمعه كل هذه المتفرقات التي لا يخلو عدد كبير منها من فائدة، ويبقى أن نذكر علمه وحصافته وقدرته الفائقة على ارتجال الأحاديث في مختلف الموضوعات، وتمكنه من التأليف المتنوع الذي كان منه البحوث العلمية المفيدة، والمحفوظات وحديث الرحلات، ومدارسة القرآن الكريم إضافة إلى ما قدمه من أحاديث إذاعية ومقالات صحفية من يطلع عليها يعرف مدى الجهد الذي كان يبذله هذا الرجل .

رحم الله الشيخ أحمد الشرباصي فقد كان شعلة وهاجة أفاد الناس واستحق المحبة والتقدير رحمه الله وأثابه .

****

المكتبة الأهلية العامة في الكويت ١٩٢٢م[1]

المكتبات العامة معلم من المعالم التي تزدان به المدن في العالم. هي مركز علم، ودليل حضارة، ومدرسة ذاتية لكل راغب في الاعتماد على نفسه بالتعلم عن طريق القراءة الحرة أو المنظمة. وأبناء الكويت يملكون هذا الإحساس بدور المكتبات العامة، ويرون أنها بجانب ما هي خطوة من خطوات التقدم فإنها كانت عندنا ضرورة. فقد نشأت فكرة إنشاء مكتبة أهلية عامة هنا في الوقت الذي كان فيه الحصول على الكتاب أو الصحيفة من أصعب الأمور، بسبب صعوبة المواصلات وانقطاع الصلات مع المراكز الثقافية الخارجية.

كان ذلك في سنة ١٩٢٢م، عندما اجتمع عدد من المهتمين كان منهم السيد عبدالحميد الصانع، والسيد سلطان إبراهيم الكليب، وتداولوا في اجتماعهم مقترحًا مؤداه ضرورة إنشاء مكتبة أهلية عامة في الكويت يستفيد منها الجميع بالقراءة والاطلاع، ومتابعة كل جديد في الخارج عن طريق الصحف التي تردها وتكون في الوقت نفسه مجالًا للقاءات الثقافية والمناقشات في كل ما يفيد.

وبعد اقتناع المجتمعين بالفكرة، والإقرار بوجاهتها رأوا ضرورة البدء بالعمل على تنفيذها على أن يكون ذلك بضم عدد آخر من أبناء الكويت إليهم حتى ينهض الجميع بالعبء المنتظر، فكان أن رشحوا عددًا من الشخصيات المعروفة، الذين كان لهم اهتمام بالشأن الثقافي وهم: السادة سليمان العدساني، وزيد محمد الرفاعي، ومرزوق الداود، ورجب السيد عبدالله الرفاعي، وعبدالرحمن النقيب، ومشاري

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٥/٢٨م.

الحسن، وعلي الفهد الخالد، ويوسف بن عيسى القناعي، وعيسى القطامي، ووافق الجميع على المشاركة في هذا العمل الوطني المهم آخذين على عواتقهم الالتزام ماديًا ومعنويًا بما يجب على كل واحد منهم، ولم يعتذر عن عدم الاشتراك معهم إلا عيسى القطامي لظروف خاصة به.

وبدأ العمل في مشروع المكتبة الذي أطلق عليه اسم المكتبة الأهلية، واختار المؤسسون السيد عبدالحميد الصانع ليكون مشرفًا على التأسيس، والسيد رجب عبدالله الرفاعي مساعدًا له مع توليه أمانة الصندوق، وعُيّن السيد عبدالله العمران ملاحظًا داخل المكتبة، وقد وضعت المجموعة التي بدأت هذا العمل نظامًا تسير عليه المكتبة بما في ذلك تأسيس مجلس لإدارتها كان قد اتخذ مقر المكتبة مقرًا مؤقتًا له، وكان اجتماع مجلس الإدارة الذي التأم في اليوم الرابع من شهر جمادى الآخرة لسنة ١٣٤٢هـ الموافق لليوم الحادي عشر من شهر يناير لسنة ١٩٢٤م. قد قرر ما يلي:

١ - تزوّد المكتبة - باستمرار - بعدد من الصحف اليومية العربية، بما في ذلك الاشتراك في جريدة الأهرام وجريدة المقطم المصريتين، وجريدة القبس السورية، وذلك بصفة خاصة.

٢ - من حق الأعضاء دافعي الاشتراك والمقيدين في سجل المكتبة، استعارة نسخة من كل كتاب. كما يحق للمشتركين من غير الأعضاء الثابتين مثل ذلك، ولا يحق للشخص الواحد استعارة أكثر من كتاب في وقت واحد، وله أن يستعير غيره إذا أعاده، وعند الاستعارة فإنه لابد وأن يودع تأمينا لضمان حق المكتبة الأهلية في استعادة ما لها من كتب عند المستعيرين.

٣ - كما تبين لنا من قبل فقد ثَبّت مجلس الإدارة كلًا من السيد عبد الحميد الصانع مشرفًا على كافة شؤون المكتبة، والسيد رجب بن عبدالله الرفاعي

معينًا له في حالة غيابه، كما جاء في النظام أن مجلس الإدارة يقوم باختيار من يحل محلهما إذا غابا أو انقطعا عن العمل.

هذا وفي السنة التي تأسست فيه المكتبة الأهلية (١٩٢٢م) استقال السيد عبد الحميد الصانع من الإشراف عليها كما كان مقررًا من قبل، فاجتمع مجلس الإدارة وبدّل في طريقة العمل حين اختار الشيخ يوسف بن عيسى رئيسًا والسيد سلطان إبراهيم الكليب مديرًا.

ويبدو أن هذا القرار المهم كان نقلة بالنسبة للمكتبة الأهلية التي كادت تواجه انهيارًا تامًا بسبب قلة الموارد وضعف الميزانية واستقالة عدد من الأعضاء، فعندما تم التغيير في النظام الإداري توجه الرئيس والمدير إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه، وتداركا الأمر بسرعة عجيبة، ولم يكتفيا بمتابعة الأمور التنموية بالنسبة للمكتبة، بل سعيا إلى الانتقال من البيت المستأجر الذي كان مقرًّا لها، وذلك بمحاولة الحصول على مقر خاص، وتم ذلك بالحصول على موقع أهداه للمكتبة الشيخ عبدالله السالم الصباح، ولما لم تكن تلك الإجراءات كافية فقد تقرر إيقاف النشاط ونقل الكتب إلى مخزن في المدرسة الأحمدية أو في مكان يقع بجوارها، حيث بقيت هناك عرضة للتلف منذ سنة ١٩٢٨م حتى سنة ١٩٣٥م. وفي السنة الأخيرة عاد الحديث مجددًا إلى إحياء مشروع المكتبة الأهلية، فتم تشكيل لجنة من أجل القيام بإنشاء مبنى خاص يخف عليها به تراكم الإيجارات، ويفسح لها في المكان، وقد تم اختيار موقع في وسط البلد بالقرب من مسجد السوق. وكان تشكيل اللجنة المشار إليها في اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الثانية لسنة ١٣٥٥ هـ الموافق لليوم الحادي عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٣٦م. وهي مكونة على الشكل التالي:

الشيخ يوسف بن عيسى، سيد علي السيد سليمان، عبدالله الصقر، مشعان الخضير، سليمان خالد العدساني، خالد العبداللطيف الحمد، عبدالله ثنيان الغانم.

بدأت اللجنة بجمع التبرعات للمشروع، فتوالت عليها تبرعات المهتمين المادية. وتبرعت السيدة شاهه الصقر بدكان من أملاكها أضافته اللجنة إلى دكاكين أخرى مجاورة له بعضها اشترته وبعضها أوقاف قدمها نظارها لهذا العمل، وتم دمج كافة الدكاكين، وشُرع في البناء ولم تمض سنة على البدء حتى بدأ استخدام المبنى الجديد ونقلت إليه الكتب من المخزن الذي كانت فيه، وسارت المكتبة في طرقها، ولكن سنة ١٩٣٦م كانت هي السنة التي نشأت فيها دائرة معارف الكويت فضُم نشاط المكتبة الأهلية إلى أنشطة هذه الدائرة الحديثة وصارت المكتبة بعد انضمامها تدعى مكتبة المعارف العامة. وهي التي نمت فيما بعد نموًا كبيرًا فصارت لها فروع كثيرة في كافة نواحي البلاد، ولعلها المشروع الوحيد الذي ظل قائمًا منذ سنة تأسيسه الأولى بصفته مشروعا أهليًا إلى حال نموه القائم حاليًا تحت الظل الحكومي.

في الفترة الأخيرة من فترات العمل في المكتبة الأهلية وبعد إنشاء مبناها الخاص كان لابد من تعيين شخص يتولى إدارتها، ويكون في الوقت نفسه متعلمًا متابعًا للاطلاع يعرف في شؤون الكتب ومتفرغًا، فتم - آنذاك - اختيار الشيخ محمد محمد صالح لكي تسند إليه أمانة المكتبة في وضعها الجديد، وقد استمر في عمله هذا حتى بعد أن أُدخلت المكتبة ضمن مسؤولية دائرة معارف الكويت.

الشيخ محمد محمد صالح رجل محب للعلم حريص على إيصاله إلى طالبيه، وكان ينظر إلى عمله وكأنه رسالة يقوم بها يبتغي من ورائها الذكر الحسن والأجر والثواب من الله سبحانه قبل كل شيء، ولد الشيخ محمد في منطقة الشرق من العاصمة الكويتية في سنة ١٩٠١م، ودرس مبادئ القراءة والكتابة على يدي والده الذي كان إمامًا وخطيبًا في أحد مساجد منطقة الشرق، وبعد ذلك اتجه الشيخ محمد إلى تلقي دروس في اللغة العربية والفقه على يد الشيخ يوسف بن عيسى

الذي اختاره فيما بعد للعمل في المكتبة عند إنشائها. ثم اتجه الشيخ محمد إلى تثقيف نفسه تثقيفًا ذاتيًا فاتسع في القراءة وبخاصة في مادتي الفقه وعلوم الدين، وكان محبًا للاطلاع لا يتوقف عنه إلا لعارض مهم. اشتغل بالتدريس والمراجعة بمعهد الإرشاد والمعهد الديني، وعُرض عليه العمل في القضاء ولكنه لم يقبل ذلك.

عندما تحولت المكتبة فيما بعد إلى مسؤولية دائرة المعارف وسميت مكتبة المعارف وعُيّن الشيخ محمد محمد صالح أمينًا عامًا لها، كان بذلك أول أمين عام لها وهي بهذه الصفة.

رعى الشيخ محمد المكتبة وأنشأ لها فروعًا عدة وجمع لها العديد من الكتب القيمة والنادرة، وتنقل بين عدد من البلدان من أجل تطوير عمله فيها واعتنى بشكل خاص بالوثائق والمخطوطات وتنظيمها، وأضاف هذا الفرع من العمل المكتبي إلى دائرة جهوده.

وعندما كان إمامًا وخطيبًا بدأ عمله في مسجد القطامي سنة ١٩٣٤م، ثم حلّ محل والده في مسجد الناهض، وكان يلقي دروسًا طوال شهر رمضان، وبعد أن أدى الكثير من المهام طلب الإحالة على التقاعد فتم له ذلك، ثم توفي في الخامس من شهر مارس لسنة ١٩٨٩م رحمه الله.

وكان من أهم ما قام به هو تهيئة عدد من العاملين الممتازين الذين سارت معهم مكتبة المعارف وفروعها إلى الأمام، وكانوا مثالًا صالحًا لأمناء المكتبات يحبون الكتب ويرعون قُرّاءها، ويحرصون على كل جديد يضاف إليها، ومن هؤلاء ابنه المرحوم صالح والمرحوم يوسف حسين، والمرحوم سهيل الزنكي وغيرهم.

كانت المكتبة الأهلية من أهم ما سعد به المفكرون من أبناء البلاد، فقد كان تنفيذ فكرتها حلمًا من الأحلام الجميلة التي تراود كل محب للقراءة وللأدب

والثقافة بصورة عامة. ويدلنا استمرارها على الرغم من العوائق التي جابهتها منذ البداية على مدى تعلق منشئيها وقرائها بها باعتبارها أمر لا غنى عنه.

كان الشيخ عبدالعزيز الرشيد مهتمًا بهذه المكتبة مقدرًا دورها في تنمية المواهب والمعارف لدى الشباب، ولذا فقد أفرد بابًا للحديث عنها تحت عنوان «المكتبة الأهلية» قال فيه: «ودّ كثير من أهل الفضل والأدب في الكويت تأسيس مكتبة علمية تضم بين جنباتها من الكتب النافعة المفيدة ما يهذّب العقول وينور الأذهان سيما وكتب الجمعية الخيرية كانت محفوظة في بيت آل بدر الكرام، ومازال حديث تأسيسها ليرتادها الناس يتخلل المجالس والأندية إلى أن تحققت الأمنية على يد الأستاذ الفاضل مصلح الكويت الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، وعلى أيدي إخوان له فضلاء من مواطنيه الغيورين ففتحوها بهمتهم ورتبوا لها على أنفسهم من المال ما يقوم بحاجتها وجُمع في ساحتها كثير من الكتب النفيسة التي تبرع بها المحسنون فضمت إلى كتب الجمعية الباقية.

وفي سنة ١٣٤١هـ فتحت المكتبة أبوابها للقراء وأصبحت موردًا عذبًا زلالًا ومنهلًا صافيًا للمطالعين، وفيها عدا الكتب عدة جرائد ومجلات راقية تفضل بها رجال من أهل الشرف والغيرة.

وانتخب لها أعضاء من أحرار الكويتيين وأفاضلهم وأنيطت رئاستها للفاضل الشيخ يوسف بن عيسى القناعي وإدارتها للحر الغيور الفاضل «سلطان آل إبراهيم الكليب».

من الملاحظ أن كافة الرجال الذين دعوا إلى فكرة المكتبة الأهلية، ثم إلى إنشائها، ومتابعة عملها ومجابهة الصعاب التي واكبت عملها كل هؤلاء كانوا من

الأغنياء الذين يستطيعون الحصول على الكتب والمجلات بكل وسيلة، وكان منهم من لديه مكتبة كبيرة جدًا مثل المكتبة التي كان يمتلكها الشيخ يوسف بن عيسى القناعي، وهي مكتبة كبيرة تضم مجلدات من أمهات الكتب كما تضم أعدادًا كبيرة من مجلتي المقتطف والهلال المصريتين وكانت هذه الأعداد مجلدة تجليدًا فاخرًا، تبرع بها الشيخ لجمعية الإرشاد الإسلامي، وكان من سعادتي أن رأيتها واطلعت على ما فيها من كنوز، وذلك بعد أن قام بإهدائها إلى مكتبة جمعية الإرشاد الإسلامي في أوائل خمسينيات القرن الماضي فكان في إهدائه لها إثراء لمكتبة الجمعية المذكورة لا مثيل له لما تتميز به مختاراته من جودة، ولما تتضمنه من فوائد تعود على قرائها بالنفع الكبير.

وهو في ذلك مثال لغيره من علماء زمانه الذين كان حرصهم على الكتب كبيرًا، وكان كل منهم يمتلك مكتبة يباهي بها غيره لما تضم من الفرائد. ومن هؤلاء الشيخ ناصر المبارك الصباح الذي كوّن مكتبة باذخة يحرص على رعايتها، وعلى تزويدها بكل جديد، وهو لذلك على صلة بأشخاص في عدد من الدول يمدونه بكل ذي فائدة من المطبوعات التي تجود بها مطابع تلك البلاد.

وكان من أولئك الشيخ عبدالله الخلف الدحيان الذي تشهد بقايا مكتبته الموجودة الآن بما كانت تضم في وقته من مخطوطات ومطبوعات حرص على أن تكون في حوزته يقرؤها ويستفيد منها هو وتلامذته الكثيرون.

أما الشيخ عبدالعزيز حمادة فقد شاهدت له مكتبة هي من المفاخر لما تضم من أمهات الكتب وحين زرته في بيته بصفته شيخي الذي كنت أتلقى العلم على يديه وجدت هذا الكنز الكبير والبحر المتلاطم من العلوم والمعارف التي كانت

تحويها تلك الكتب، وقد أحسن أبناؤه حين أهدوها إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تعميمًا للاستفادة منها.

ولا أنسى هنا ذكر مكتبة الخال الشيخ محمد سليمان الجراح فقد كانت له مكتبة كبيرة يقرأ ما فيها من كتب، فتراه مكبًا عليها ليلًا ونهارًا، ويضم إليها كل جديد مما يشتريه أو يهدى إليه، وقد أهداني منها في صغري ثلاثة كتب اعتز بها ولا تزال محفوظة عندي هي: جواهر الأدب لأحمد الهاشمي، وشرح قطر الندى لابن هشام في النحو، ونيل المآرب في شرح دليل الطالب لعبدالقادر الشيباني، وهو كتاب في الفقه على المذهب الحنبلي.

وغير هؤلاء كثيرون، ولا يزال عدد من أبناء الكويت يهتمون بتكوين المكتبات المنزلية ويجمعون لها ما طاب من الكتب، ويتيحون الفرص لغيرهم من أجل الاستفادة منها فكأنها مكتبات عامة ولكنها مخصصة لمعارفهم وأصدقائهم.

نعود إلى بداية الحديث عن الرجال الذين قاموا بهذه المهمة الوطنية الثقافية وهي إنشاء المكتبة الأهلية، وهي أول مكتبة عامة في البلاد فنؤكد مرة أخرى أن هؤلاء ليسوا في حاجة إلى المكتبة لأنهم يملكون من المال والصلات الداخلية والخارجية ما يمكنهم من الحصول على ما يريدون من كتب وصحف، بل وجدنا أكثرهم يمتلك مكتبته الخاصة التي يتعهدها بإضافة كل جديد إليها، ولكنهم قاموا بهذه المهمة خدمة لوطنهم، ولأبناء وطنهم لأنهم عرفوا أهمية توافر الكتب والصحف بين أيدي الناس، ورأوا أن الأمم تتقدم بالعلم وأن المكتبات من أهم روافد ذلك فحرصوا على القيام بهذه المهمة لا يريدون جزاءً ولا شكورًا، إلا أن يروا المكتبة، وقد بدأت عملها، وصارت منهلًا عذبًا يرتاده العطاش إلى المعرفة.

فجزاهم الله خير الجزاء على ما قدموا، أما نحن فيحق لنا أن نفخر بوجود مثل هؤلاء الذين سعوا بكل جهودهم رغم صعوبة الأوضاع وقلة الموارد إلى تقديم خدمة وطنية عظيمة.

ومن الجدير بنا أن نقتدي بهؤلاء في مجال الخدمة العامة، وتنمية المشروعات الشعبية التي يستفيد منها كافة المواطنين، وأن نسعى إلى تنوع المشروعات النافعة التي يتكاتف أبناء الوطن في سبيل إقامتها ومتابعة أنشطتها، فالأمم لا تحيا إلا بهمم أفرادها الذين يسعون بكل تجرد عن المصالح الشخصية إلى مجالات الخدمة العامة، وتقديمها للجميع. إننا من أجل رفعة وطننا ينبغي أن ننبذ الأنانية، وننسى التسابق البغيض على المصالح الخاصة التي استعبدت الكثيرين منا على حساب مصلحة البلاد.

****

ثلاثة من رجال الكويت[1]

أجد متعة كبرى في البحث عن ماضي بعض أبناء الكويت، ومن ثم تسجيل ما أجده نتيجة لذلك. فقد مر وقت نرى فيه الرجال الذين عملوا لوطنهم يمضون في الطريق الذي سلكه من كان قبلهم من الناس تاركين ذكرى شديدة التوهج، ولكنها - للأسف الشديد - سرعان ما تخبو مع مرور الزمان. وهذا هو ما حدث للكثيرين من أبناء الكويت المخلصين الذين غادروا دنيانا دون أن يكون لدينا سجل يحفظ تاريخهم ويسطِّر أعمالهم، بل وجدنا من الصعوبة بمكان أن نحدد باليوم والشهر والسنة تاريخ ميلاد أي منهم أو تاريخ وفاته، أو تاريخ إنجازه لعمل من أعماله التي عرف بها. ليس هذا فحسب بل لقد وجدت أن بعض الأهالي لا يحتفظون بشيء عن أحبابهم الماضين لا المعلومات التي تفيد الباحثين، ولا الصور التي تقرب المعلومات إلى القراء. وهذه دعوة أضيفها إلى الدعوات السابقة أتمنى من خلالها الانتباه إلى هذه المسألة حتى لا يقع القادمون فيما نقع فيه في هذه الأيام.

هذا تمهيد لا بد منه، ونحن نبدأ بالحديث عن ثلاثة من أهل الكويت كم كنا نتمنى أن نجد عنهم أكثر مما وجدناه حتى نقدمه هنا، ولكن تقديم الموجود أدعى إلى حفظه عن الضياع. هؤلاء الثلاثة هم:

أولًا: عبدالله محمد البحر

ثانيًا: أحمد السيد هاشم الغربللي

ثالثًا: ملا محمد ابن ملا أحمد الحرمي

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٦/٤م.

١ - عبدالله محمد البحر

هذا رجل لا ينسى، فهو من الرجال الذين خدموا وطنهم وقدموا له كل ما يقدرون عليه، وفي أي مجال يتطلب منهم خدمته والعمل من أجله. اسم الشهرة: عبدالله البحر، واسمه الكامل: عبدالله محمد العبدالله البحر.

إنه معروف بأعماله الطيبة وبخاصة في رعاية المحتاجين ومتابعة حوائجهم عند المسؤولين، ولذا فقد اكتسب محبة الناس الذين كانوا يتوافدون على منزله في براحة السبت منذ الصباح الباكر ليتقدموا له بكل ما يشغل بالهم فيجد له الحل بواسطة علاقته الطيبة مع كبار المسؤولين الذين كانوا لا يردون له طلبًا لأنهم يعرفون نياته الطيبة وعدم بحثه عن أية مصلحة شخصية من وراء متابعة حاجات الناس الذين وثقوا بقدرته على القيام لهم بما يعينهم على كل ما يعترضهم من أمور.

كنا ونحن صغار نعرف عبدالله البحر جيدًا ونسمع عن أعماله الطيبة كثيرًا. كان سكنه في فريج ملاصق لفريجنا: فريج الشاوي، وكان مرورنا أمام بيته وبخاصة في الصباح حين الذهاب إلى المدرسة الأحمدية يرينا أولئك الناس الذين يجتمعون حول بابه آملين منه أن يقضي لهم حاجاتهم، وكان يقوم بذلك عن طيب خاطر وعن شهامة فطره الله عليها، لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا، ولا ينتظر منهم ما ينتظره البعض في هذه الأيام إذ لم يكن هناك انتخاب ينوي خوضه فيكتل الرواد حوله عن هذا السبيل، فهو لا يمتلك عنان من يقدم له الخدمة على عكس نواب المستقبل الذين يشعرون أبناء مناطقهم بأنهم امتلكوهم بما قاموا به، على حين يكون أكثر ما يقومون به مجرد تمثيل لا يؤدي إلى حقيقة ناصعة.

وكنا نرى عبدالله البحر وهو يخطر بسيارته حين يتجه إلى عمله الخاص، أو إلى الأماكن التي يلتقي فيها مع كبار القوم، وفي هذه اللقاءات يستطيع أن يطرح ما لديه من هموم الناس الذين هم في انتظار عودته ظافرًا، ولم يكن ليعود من تلك الزيارات إلا وقد حقق الكثير لهم.

ولد عبدالله محمد البحر في سنة ١٨٨٥م، ودرس في الكتاب عند الملا سعد بن خليفة السنين مع عدد من أصدقائه الذين كانوا - آنذاك - في مثل سنه، وقد درس عند هذا الملا القراءة والكتاب والقرآن الكريم كما درس خاصة الحسابات التجارية التي كانت تسمى «مسك الدفتر». بدأ بعد ذلك في العمل واتسعت تجارته، وصار محط الأنظار.

كان له حضور في مواضع متعددة من البلاد، وله مجالسة مع الشيخ عبدالله السالم الصباح، وكان يصاحبه في بعض رحلاته ومن ذلك ما نشرته مجلة البعثة في عددها الصادر في شهر يناير لسنة ١٩٥٢م، إذ قالت: «عاد صاحب السمو أمير البلاد على يخته الخاص من رحلته التي قضاها بين عمان وقطر والبحرين، وقد استغرقت هذه الرحلة خمسة عشر يومًا، وكان في صحبة سموه كل من الشيخ عبدالله الجابر الصباح، والشيخين جابر وصباح الأحمد، والشيخين سالم وجابر العلي، والشيخ محمد الجابر، والسيدين عبدالله البحر، وعبدالله الزين».

وله مجالسات ورحلات مع عدد كبير من كبار المسؤولين الذين كانوا يشعرون بمكانته، ويسعدون بحديثه الطلي، ومعلوماته الواسعة.

وأخيرًا انتقل إلى رحمة الله تعالى في اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٦٣م، فمضى مأسوفًا عليه من الجميع، تاركًا أطيب الذكر على كل لسان.

ولا أختتم الحديث عن هذا الرجل قبل أن أورد هذه النبذة التي لابد من إيرادها في هذا المقام فهي إشارة تاريخية جيدة إلى تلاحم الأسرة الكويتية وارتباطها ببعض عن طريق النسب:

تزوج عباس عبدالله الهارون من هيا عبدالله البحر، وأنجب منها منيرة وعزيزة، وتزوجت عزيزة من غنيم سليمان الغنيم، وكان لزوجة عباس أخ شقيق هو محمد عبدالله البحر متزوج من لطيفة الدويري، وقد أنجب منها كلًا من عبدالرحمن محمد البحر وأخويه عبدالله وأحمد. يلاحظ أن محمد عبدالله البحر هو خال منيرة وعزيزة، كما تجدر الإشارة إلى أن لطيفة الدويري كانت متزوجة قبل زوجها هذا من أحد أبناء عائلة المديرس وأنجبت منه بنتًا هي شريفة المديرس، وهذه الأخيرة تزوجت من فارس الوقيان لتنجب فاطمة الوقيان التي تزوجت الشيخ دعيج سلمان الصباح، وأنجبت منه كلًا من الشيخ سعود والشيخة سبيكة والشيخ خالد والشيخة بدرية والشيخ سلمان الدعيج الصباح. والجدير بالذكر أن الشيخة سبيكة (أم علي) تزوجت الشيخ جابر العلي السالم الصباح رحمه الله.

عزيزة عباس الهارون هي جدتي لوالدي.

٢ - أحمد السيد هاشم الغربللي

هذا الرجل من تجار الكويت البارزين، له أعماله التجارية الواسعة، وله علاقاته المتشعبة مع عدد كبير من التجار في داخل الكويت وخارجها، وله إضافة إلى ذلك نشاطه الاجتماعي وصلاته بالمجتمع، ومعارفه الكثيرون ولا يزال سوق الغربللي في العاصمة يدل عليه وعلى عدد من أفراد أسرته الذين اتخذوا محلات لهم في هذا السوق مما جعل اسمه يلتصق به حتى اليوم.

وهو دمث الأخلاق حسن المعشر محبوب من كل من عرفه، لا يعرف التكبر إلى نفسه سبيلًا، ولا يصد أحدًا، أو يمتنع من مواصلة أحد. عرفته أثناء عملي في زيارات له. ثم قمت بزيارات إليه في منزله حيث يجلس في ديوان خاص، وسعدت بهذه اللقاءات التي جمعتني به فقد رأيت فيه رجلًا طيبًا مجربًا يستفيد المرء من مجالسته، ويسعد بلقائه، ولا يمضي اللقاء حتى يحس زائره بمقدار ما يتمتع به هذا الرجل من طيبة النفس، وحُسن الأخلاق وصفاء الضمير.

كان أحمد السيد هاشم الغربللي - إضافة إلى أنشطته التجارية الخاصة وأنشطته الاجتماعية المتعددة وارتباطاته الكثيرة مع الناس - نشيطًا في مجال العمل العام. ففي شهر يناير لسنة ١٩٤٩م أعلن عن اختياره عضوًا بمجلس معارف الكويت، وكانت هذه بداية مبكرة لنشاطه الحميد في هذا المجال، وقد كان معه في عضوية المجلس السادة يوسف الحميضي، وأحمد محمد البحر، وعبدالرزاق رزوقي وآخرون.

وفي شهر مارس لسنة ١٩٥٠م نشرت مجلة البعثة تلك الصورة الشهيرة التي قدمناها في «الأزمنة والأمكنة» عدة مرات ومن الصعب إعادتها مرة أخرى هنا، وهي الصورة التي تمثل مجلس معارف الكويت برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وفيها يرى السيد أحمد السيد هاشم الغربللي بصفته عضوًا في ذلك المجلس.

كان مُشجعًا للأنشطة الطلابية المختلفة وعلى الأخص فيما يتعلق بالألعاب الرياضية، ومن ذلك أنّه قدم في شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٠م كأسًا فضية لكي تتبارى عليها مدارس الكويت الابتدائية في عدة ألعاب. ثم نراه في نهاية شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٠م يغادر الكويت إلى القاهرة، وهناك لا ينسى أن يزور بيت الكويت، ويطلع على أقسامه، إذ كان مقره قد استؤجر حديثًا بعد أن ضاق المقر

القديم بأعداد الطلاب. وقد قام في هذه الزيارة بالتبرع للبيت الجديد بمقاعد وثيرة شملت أثاث القاعة العامة التي يجتمع فيها أبناء الكويت وضيوفهم، وتقام فيها ندواتهم وأنشطتهم المختلفة.

بقي في عضوية مجلس المعارف إلى سنة ١٩٥١، حيث تفرغ بعدها لأعماله الخاصة، وليواصل حياته التي اعتاد عليها من حيث الاتصال بالآخرين، وبناء الصداقات، واستمر في تقوية أواصر الودّ مع الكثيرين إلى أن اكتسبتُ أنا صداقته ضمن هؤلاء وذلك في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي.

كان السيد أحمد الغربللي مؤسسًا من مؤسسي شركة السينما الكويتية، وكان عضوًا في مجلس إدارتها الأول الذي شكل في اليوم الثاني عشر عن شهر أكتوبر لسنة ١٩٥٥م. وممن كانوا معه في المجلس المذكور السادة عبدالعزيز حمد الصقر ونصف اليوسف النصف وخالد الزيد الخالد ويوسف الفليج وأحمد سعود الخالد ومحمد البحر وآخرون.

وكانت أعماله التجارية متشعبة، ومن ذلك أن شركته هي التي قامت بإمداد بنك الكويت الوطني عند نشأته في سنة ١٩٥٢م ببعض الأثاث، وبدراجتين هوائيتين، وكانت قائمة الدفع بمبلغ خمسمائة وعشرين روبية. ومما يلفت النظر أن رقم هاتف شركة السيد أحمد السيد هاشم الغربللي كان في ذلك الوقت مكونًا من ثلاثة أعداد هي ٢٤٢ فقط وهكذا كانت أرقام الهواتف في ذلك الوقت البعيد.
ومما يلفت النظر أن كتابين من الكتب التي تحدثت عن الشخصيات الكويتية والمعلومات العامة عن البلاد ذكرًا أن أحمد السيد هاشم الغربللي كان ناظرًا للمدرسة الشرقية، وهذا قول غير صحيح، وقد سألت ابنه السيد عبدالمجيد الغربللي عن ذلك فأنكر معرفته بمثل هذا الأمر الذي - كما قال - لو حدث لعرف به، ويبدو أن تشابه الأسماء كان له دور في هذا الخلط.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر يونيه لسنة ١٩٨٥م كان لابد وأن يحدث ما ليس منه بد، فانتقل السيد أحمد السيد هاشم الغربللي إلى رحمة ربه مأسوفًا عليه مني ومن الجميع.

هذا وكان الأخ العزيز غسان صبحي أبوعقل قوي العلاقة بالسيد، وكان محبًا له وفيًا لذكراه، وقد سألته - بصفته صديق الطرفين - أن يقوم بكتابة انطباعه عن تلك العلاقة الطيبة برجل كريم طيب النفس مثل صديقنا المشترك، فتردد في البداية قائلًا: إن هذا الأمر يثير عليه مواجع الفراق.

ولكنه عاد ليكتب ما اقترحت عليه لأنه متأكد من أن هذه الأمور لابد وأن تكتب للتاريخ، وهذا هو ما كتبه الأخ أبوعلي:

«في بداية السبعينيات من القرن الماضي، قادتني الصدفة إلى مكتب السيد أحمد السيد هاشم الغربللي وكان في الطابق الثالث من بناية غرفة صناعة وتجارة الكويت القديمة، وهناك التقيته لأول مرة. إذن هذا هو التاجر المعروف الرجل الوقور.. الذي كان في حينه على كل شفة ولسان.

جلست أمامه مقدرًا رهبة الموقف.. فإذا به يدرك بفراسته وحنكته وخبرته الطاعنة في القدم أن هذا الغريب يتهيب الموقف.. فأخذ يمازحني ويسألني من هنا وهناك، ويحسن ضيافتي.. ويدعوني إلى ديوانه العامر في الشامية المطل على نهاية الدائري الأول. أعطاني رقم هاتفه وأخذ رقم هاتفي.. وطلب إليّ أن أحضر إليه إن أنا احتجت إلى أي عون في هذا البلد الحبيب المضياف. ثم افترقنا... وبعد أيام رن الهاتف لأسمع صوت السيد أحمد يقول.. لقد وعدت بالحضور إلى الديوان ترى لماذا لم تفعل..؟ يومها اتجهت إلى هناك حيث رحب بي وأكرمني بإجلاسي قربه تمامًا.. وقال سيحل بعد غد رمضان وهذا يعني أنك ستشاركنا الإفطار يوميًا.. قلت هذا شرف كبير لا استحقه.. وحضرت إفطار اليوم الأول

من رمضان في عام ١٩٧٣م.. وكان أول إفطار أحضره في بيت كويتي عريق وعلى مائدة رجل كريم الخُلق والخَلق.. ولا أنسى كيف كان يضع لي أطايب الطعام بيده الكريمة.. وبعد الصلاة يتفرق الجمع. مدعوين إلى إفطار اليوم التالي.. وهكذا الأمر في كل عام. إلى أن حل علينا عام ١٩٨٥م وكنت أنا في سفر خارج الكويت.. لأقرأ نعيه في إحدى الجرائد الكويتية.. فأحسست أنني قد فقدت صديقًا كبيرًا كريمًا مهابًا.. حالت ظروف السفر دون أن أشارك في دفنه ومأتمه.. أنا من أحبه وقَدّره طوال سنوات انقضت على لقائي الأول به، وأنا ما زلت أتردد إلى ديوانه العامر وفاءً وإكبارًا.

يرحمك الله أيها السيد في قومك، والعزيز بين أهلك ومعارفك.. يا من تركت فينا أطيب الذكرى وأحلى المواقف نم قرير العين فإنني والله لك أدعو، وعلى حبك باق».

٣- الملا محمد بن ملا أحمد الحرمي

هذا رجل كويتي من أهل الصلاح والتقوى، محب للعلم وأهله، مواظب على صلاته في مسجد الساير الذي كان إمامًا له وخطيبًا، ثم خلفه ابنه جاسم فابنه محمود، وعلى الرغم من أنه لم يعد إمامًا ولا خطيبًا في المسجد إلا أنه كان مستمرًا في الذهاب إلى الصلاة. كان يسير من منزله عند حلول وقت كل فرض هادئًا وادعًا لا تسمع له صوتًا يدخل المسجد بخشوع ويخرج منه بخشوع. ولم يكن يحب المظاهر، أو يدعي العلم وإن كان قلبه مملوءًا علمًا تدل عليه الخطب التي كان يلقيها وصارت من نصيب أبنائه الذين كان آخرهم على المنبر الملا عبدالله الذي توفي لاحقًا بوالده وبأخويه.

تشعر حين ترى الملا محمد وهو يسير في طريقه المعهود بأنك ترى رجلًا من الذين تمكن الإيمان من قلوبهم يتملكك نوع من التقدير والإكبار للرجل ويعجبك

سمته وهدوؤه، ولست وحدك في ذلك فجميع المحيطين به يكنون له التقدير نفسه وهو يستحق ذلك على كل حال.

كان قصير القائمة نحيف الجسم، يلبس ملابس غاية في النظافة، ويضع على رأسه عمامة بيضاء قليلة السُّمك، ولم يتغير شكله هذا إلى أن توفي رحمه الله. قد وصفته بوصفة هذا وتحدثت عن مدرسته التي كان يزاول التدريس فيها في خارج أوقات الصلاة، وهذا هو حديثي أورده هنا ولو كان مطولًا لأهميته في الدلالة على نوع التدريس في هذه المدرسة المرموقة ضمن كتاتيب ذلك الزمان.

«وأذكر أنني كنت أسير في أحد الأنحاء بقرب الحي حين مررت بمدرسة أهلية كانت هناك، صاحبها ملا محمد بن ملا أحمد، ويديرها ابنه ملا محمود الذي كان يعرفني بسبب معرفته لأخوالي، وقد كان يراني دائمًا بصحبة واحد منهم، وما أن لمحني حتى طلب مني الدخول إلى المدرسة ومباشرة الدراسة فيها، وحين قلت له: إن أهلي لا يدرون أين أنا الآن، قال: لا عليك فأنا أبلغ أحد أخوالك. وهكذا انتظمت في الدراسة بهذه المدرسة الأهلية، وكان عمري خمس سنوات.

كان نظام الدراسة في هذه المدرسة يعتمد أكثر ما يعتمد على قراءة القرآن الكريم، والمبنى عبارة عن صالة متوسطة المساحة هي جزء من منزل الملا، ويتكون الطلاب من مجموعتين، الكبار الذين قطعوا مرحلة في قراءة القرآن، ويقوم بالتدريس لهم الملا محمد وكان رجلًا صالحًا، حسن السمت، هادئًا قليل الكلام، وكان محبوبًا من أهل الفريج لصلاحه الذي عرف به بين الناس، كان يميل إلى القصر نحيلًا يعتم بعمامة بيضاء صغيرة يضعها فوق غترته، وكان يمسك في أثناء التدريس بعصا طويلة بالغة الطول تصل إلى آخر تلميذ في المجموعة يؤدب بها المتخلفين ويستحثهم على القراءة، وعدم التوقف عنها. أما ابنه ملا محمود فقد كان يقوم بتدريس الطلاب الأصغر سنًا» وهم المبتدئون، وكان هو المدير الفعلي

للمدرسة، وهو في الوقت نفسه إمام مسجد الساير الشرقي، وظل في وظيفته هذه مدة طويلة حتى بعد أن أغلق المدرسة بسبب ارتباطه بالعمل في بلدية الكويت إثر تغير ظروف الحياة فيما بعد، ثم قام بعده بإمامة المصلين في هذا المسجد أخوه ملا عبدالله، وكان أخوه ملا جاسم يقوم بهذه المهمة قبله.

في هذه المدرسة بدأت بقراءة القرآن الكريم، وشهدت نظام المدرسة الأهلية، وحضرت حفلة من حفلات ختم القرآن حين ختم أحد زملائي الكبار قراءة القرآن، فألبسوه البشت، وقرأوا التحميدة التي مطلعها:

الحمدُ للهِ الذي هدانا

للدِّين والإسلامِ اجتبانَا

سبحانهُ منْ خالقٍ سبحانا

بفضلهِ علَّمنا القرآنا

وهي نوع من الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، والشكر للوالدين وللمدرس على ما بذله هؤلاء للخاتم، حتى وصل إلى هذه النتيجة، وقد طفنا ببعض البيوت التي كانت توزع علينا المكسرات والحلويات بهذه المناسبة، وكان بعضها يدفع مبالغ نقدية يسيرة تدفع في النهاية إلى المدرس.

ومما جاء في التحميدة:

إنِّي تعلَّمتُ كتابًا أكبرا

علَّمني مدرسٌ ما قصَّرا

ردَّدني في درسهِ وكرَّرا

حتى قرأتُ مثلهُ كما قَرا

كنت قد كتبت مقالاً نشر في «الوطن» في اليوم الخامس من شهر أكتوبر لسنة ٢٠٠٥م تحدثت فيه عن مساجد الكويت، وكان لابد من الحديث عن المسجد الواقع

في فريجنا، ومنه تفرع الحديث إلى الملا محمد والملا محمود، وقد سعدت بتسلم رسالة من الأخ محمد أحمد ملا محمود الملا، وهو ابن حفيد الملا محمد، نوه فيها بما كتبت، وأهداني نسخة كاملة من الخطب التي كان يلقيها جده الأعلى فوجدت فيها ثروة قيمة تمنيت لو قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بطبعها أسوة بما تقوم به في مجال النشر.

هذه الخطب المنبرية كانت في ملك والد الملا محمد الذي أوقفها وهي مخطوطة، وقام ابنه بنقلها والاستفادة منها كما قام الأحفاد جاسم ومحمود وعبدالله بالخطابة بها نقلًا عن أبيهم الملا محمد عن أبيه الملا أحمد. وهي مجزأة على شهور السنة الهجرية، ومجزأة مرة أخرى على الجمع بحسب كل شهر هجري. وقد أضيفت إليها خطبتا عيد الفطر وعيد الأضحى. وفي آخر المخطوط كتب الملا محمد ما يلي:

«قد تم ودخل في ملك أفقر الورى، وخادم العلماء، محمد ابن الملا أحمد بن عبدالله الحرمي الشافعي غفرالله له ولوالديه وللمسلمين آمين ثم آمين»، وأُرِّخ ذلك في يوم الجمعة من شهر ذي القعدة لسنة ١٣٣٤هـ الموافق لشهر سبتمبر لسنة ١٩١٦م.

هكذا نصل إلى نهاية الحديث عن هؤلاء الرجال الثلاثة، مع وعد منّا بنشر أية معلومات جديدة قد ترد عنهم لأن من حقهم علينا حفظ تاريخهم وتسجيل أعمالهم.

رحم الله الجميع وجزاهم عنا كل خير.

****

الشيخ العلامة السيد أحمد صقر في الكويت[1]

من علماء الأمة البارزين رجل يكاد الناس ينسونه الآن كما نسوا عددًا من العلماء الذين أثروا الحياة بعلمهم وأدبهم، ولم يعد الجمهور يرى فيهم القدوة التي ينبغي أن تتبع فتوقّف المدد الذي يأتينا بالعلماء الأفذاذ الذين سعدنا بهم واستفدنا من علمهم، وحلّ محلهم أشخاص علمهم إدعاء أو أوشال من علم قليل لا ينفع.

كان الشيخ السيد أحمد صقر مدرسًا في معهد الكويت الديني عندما كنت في السنتين الأخيرتين في المرحلة الثانوية، وكان هذا من حسن حظي إذ إن تلقي العلم على يد عالم مثل هذا العالم يعتبر مكسبًا لا يعادله شيء آخر. ولقد كتبت عنه - فيما سبق - أذكر فترة دراستي عنده وطريقته في التدريس فقلت:

أما أستاذي الذي لا أنساه فهو المرحوم الشيخ سيد أحمد صقر وهو أحد علماء الأمة المنتجين، له مؤلفات وتحقيقات كثيرة، وقد استفدت منه جدًا، وكان من طبعه عدم التقيد بالمنهج الدراسي فهو يتوسع في بعض الأبحاث، ويقرأ لنا مختارات شعرية جميلة تمثل كافة عصور الأدب العربي، وكان يطلب منا كتابة بحوث عن بعض الموضوعات التي تمر علينا في منهج الأدب، احتفظ حتى الآن ببحثي الذي كتبته - آنذاك - بناء على طلبه عن الحريري صاحب المقامات، وكان يأخذنا إلى المكتبة ويرينا كيف نقرأ، وكيف نستفيد مما نقرأ، وكيف نعود إلى المراجع الكبيرة والمعاجم، ومكتبة المعهد - يومذاك - كانت غنية بأنواع الكتب في شتى التخصصات التي تهم الدارسين به. وقد شجعنا على اقتناء مكتبات

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٦/١١م.

خاصة لكل منا عن طريق شرائنا بتشجيعه كتبًا من دار المعارف بمصر وصلتنا عن طريق البريد، فكانت الأساس لمكتبتي الخاصة، وربط بيننا وبين تلامذته في مصر بصلات طيبة، فكنا نراسلهم على البعد واختص كل واحد منا بأحدهم يكاتبه ويبادله المعلومات، وكان من نصيبي مراسلة المحقق الأديب المرحوم الدكتور عبدالفتاح الحلو الذي زاملته فيما بعد في كلية دار العلوم.

والأستاذ سيد هو أساس الصلة التي تمت بيني وبين الأستاذ المرحوم محمود محمد شاكر العالم الجليل، وصاحب المواقف الشجاعة التي لا تنسى مدى الدهر، وَعَدَنَا الأستاذ سيد بزيارة الأستاذ عندما نتخرج، ونذهب للدراسة في مصر، وهذا هو ما حدث فيما بعد.

كانت طريقة الشيخ السيد صقر فريدة من نوعها، إذ لم يكن يتقيد بكثير من طرق التدريس المعروفة بل كان يسير على النهج القديم في التعليم، ولذلك فقد كان درسه مزيجًا من أمور شتّى. فهو قد قرّر علينا كتابًا من أهم كتب التراث هو كتاب: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، فقرأناه عليه بأكمله وهو كتاب أقرب ما يكون إلى كتب تفسير القرآن الكريم ولكنه يوضح الكثير من المشكلات التي قد تعرض للقارئ غير الملم إلمامًا كافيًا باللغة، فيقرب له البعيد، ويضع الحلول أمامه لكل ما يراه مشكلًا. وقد استفدنا منه فائدة كبيرة، ولا أزال أعود إليه بين فترة وأخرى لاستذكار ما فيه من فوائد.

وفي أدب اللغة العربية كان يُكثر لنا من المختارات الشعرية، ويجعلنا ندرك معانيها، ويفسر لنا ما غمض منها. ولم يكن يتقيد بعصر معين من عصور الأدب فكان يتحفنا في كل درس له بشيء فريد. وكل ذلك يضاف إلى طرق البحث التي أشرنا إليها آنفًا.

ولقد كان اطلاعه على التراث العربي في شتى فروعه من أهم ما يميزه. بدأ بذلك منذ بداية حياته، فقد حقق ديوان الشاعر الجاهلي علقمة الفحل المعاصر للشاعر امرئ القيس وكان صدور الديوان بالقاهرة في سنة ١٩٣٥م،

وهو - حينذاك - طالب بالقسم الثانوي بالأزهر الشريف. واستمرت منذ ذلك العهد عنايته بهذا التراث حتى حقق وأصدر منه عددًا كبيرًا من الكتب التي كان بالإضافة إلى قيامه بتحقيقها يتولى شرحها لتلامذته.

كان الشيخ صقر من بيت علم، وكان والده الشيخ أحمد محمد صقر مدرسًا بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وكان عالمًا مرموقًا يتولى الخطابة في مسجد قريته عندما يذهب إليها حيث إن إقامته الدائمة كانت في القاهرة.

ومن هنا استمد شيخنا توجهه إلى الدراسة الشرعية فذهب إلى الأزهر ودرس فيه منذ المراحل الأولى حتى تخرج في كلية الشريعة، فصار مدرسًا للأدب العربي كما ذكر شيخنا الأستاذ محمود محمد شاكر.

كتب أخي الدكتور محمود الطناحي رحمه الله عن الشيخ السيد صقر كلمة في كتابه «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي»، ذكر فيها أن اسمه مركب وهو: «السيد أحمد» وبعضهم يظن أن اسمه «أحمد» وأن «السيد» صفة له، يقول «ولم يبعد عن الصواب من ظن هذا، فهو سيد اسمًا وصفة».

وكتب عنه الدكتور حامد طاهر، وهو من الأدباء المعروفين من أبناء كلية دار العلوم، وقد تدرج حتى صار نائب رئيس جامعة القاهرة، قال: «وفي سنة ١٩٦١م دخل فصلنا أستاذ جديد لتدريس مادة الأدب العربي وفوجئت بأنه لا يرتدي الزي الأزهري المعهود. كان هو السيد أحمد صقر، المحقق الكبير، والذي كان مغضوبًا عليه من الأزهريين فعاقبوه بالتدريس في المرحلة الابتدائية، ثم شمله العفو قليلًا فانتقل إلى المرحلة الثانوية!

أحدث هذا الرجل انقلابًا هامًا في حياتي. فقد طرح على الطلاب سؤالًا مثيرًا:

- ماذا قرأ كل منكم في الإجازة الصيفية؟

وتعددت الإجابات المضحكة: «كنت ألعب الطاولة مع زملائي بالقرية»، «كُنت أساعد أبي في الحقل»، «أعدت قراءة كتاب الفقة»، «كنت أقرأ الجريدة في دوار

العمدة». ولم يصل الدور إليّ. فلم أجب. ولم يسمع مني الأستاذ شيئًا في ذلك اليوم. لكنه ثار ثورة عارمة على كل من أجابوا، واصفًا إياهم بأنهم «خشب مسندة» ثم راح يشرح لهم أن الثقافة العامة شيء، والمقررات الدراسية شيء آخر تمامًا.

كان هذا رأيي الذي آمنت به منذ سنوات، ولم أجرؤ أن أفاتح فيه أحدًا من زملائي بالأزهر. وها هو الرجل الجريء يعلنه بصراحة، ويحاسب عليه.. يومها أحسست أنني سأكون تلميذه المفضل، بل صديقه.

ولم نلبث أن التقينا. ودعاني إلى منزله بشارع محمد علي حيث اطلعني على حجرة مكتبه التي تمتلئ بأندر المخطوطات، والمطبوعات النفيسة. وهناك حدثني عن أنه يمتلك طبعة دار الكتب أو طبعة بولاق من كتاب كذا وكذا. فعلمت أن الكتب مستويات. وهناك علمني كيف احترم «الكتاب» وأقلب صفحاته بقدسية، دون أن يعني هذا عدم نقدي لمؤلفه. وباختصار كان هذا الرجل هو الثورة التي حدثت أمامي داخل الأزهر».

على الرغم من أن هذا الرجل قد اشتغل بالتدريس، وعلى الرغم من أنه سافر إلى الكويت والمملكة العربية السعودية من أجل ذلك، فإنه لم يكن تاركًا لما بدأ به وهو في مقتبل أيام عمره، وهو العلم وتحقيق الكتب التراثية، فحقق في حياته ونشر أربعة عشر كتابًا من أمهات الكتب، نذكر منها إضافة إلى الكتاب الذي ذكرناه سابقًا، وهو كتاب «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، كتاب غريب القرآن لابن قتيبة أيضًا، وكتاب إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني، طبعته دار المعارف بمصر ضمن سلسلة «ذخائر العرب».

وعندما اتجه إلى علم الحديث حقق ونشر كتاب «الإلماع في علم الرواية والسماع» للقاضي عياض اليحصبي، وحقق كتبًا في هذا المجال لم تنشر بعد هي: «أمثال الحديث للرامهرمزي، وأعلام السنن للخطابي وغيرها». وقد تبين أنه أعد للطبع خمسة كتب مهمة نأمل أن ترى النور إن شاء الله.

وهذا العدد الذي ذكرناه من الكتب التي حققها ولم يقم بنشرها دليل على أن اهتمامه منصب على الإنتاج قبل كل شيء، فهو يرى أن تحقيق النصوص التراثية واجب ديني مهم وأن التحقيق أمر والنشر أمر آخر، ذلك لأنه يعلم أن التحقيق يحتاج إلى رجل ذي دراية بهذا العمل يقوم بإحياء النص ويقدمه على الصورة الأفضل من حيث إمكان تيسيره للقارئ عن طريق النسخ الجيد والهوامش والفهارس وكل ما يجعل الكتاب مفيدًا لقراء اليوم. ولكن النشر يأتي فيما بعد فلا داعي للانتظار حتى يطبع الكتاب الذي انتهى من تحقيقه حتى يبادر إلى العمل في كتاب آخر، وهذا هو ما حصل منه.

كنت في سنة ١٩٦٢م في مهمة تتعلق بالتراث العربي كلفتني بها وزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام حاليًا)، فصار من أول أعمالي في هذه المهمة زيارة هذا الرجل والاستفادة من خبرته في هذا المجال. وذهبت إليه في بيته بشارع محمد علي، وهو قريب من دار الكتب المصرية. جلست في المكان الذي سبق أن ذهبت إليه في السابق لأكثر من مرة. وطرحت عليه ما لديّ. فقال إن أهم ما يجب عليكم العناية به هو التنسيق فبدلًا من أن يطبع كتاب تراثيّ عندكم، ويطبع في الوقت نفسه في بلد آخر ينبغي أن تبادروا إلى وضع نظام يكفل عدم الازدواج، وذلك عن طريق تبادل المعلومات أو عن طريق المؤسسات الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية وغيرها. وبذلك يمكن طبع كتابين في وقت واحد بدلًا من طبع كتاب واحد في بلدين مختلفين.

وعندما سألته عن مثال لذلك ذهب إلى مكتبته وأحضر لي مجلدًا مكتوبًا بخط اليد فإذا هو كتاب «المصون في الأدب» من تأليف أبي أحمد الحسن بن عبدالله العسكري.

وكان جاهزًا للطبع ومحققًا تحقيقًا يكفي أن نقول إن من قام به هو الشيخ السيد صقر. تذكرت أن هذا الكتاب قد طبع ضمن المطبوعات التراثية التي

أصدرتها الوزارة التي أعمل بها، وعلى الرغم من إصدار الوزارة كان بتحقيق عالم جليل هو شيخي الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، إلا أن قيام جهد مزدوج على كتاب واحد فيه ضياع للوقت والجهد، وللأستاذ عبدالسلام هارون أعمال كثيرة في منتهى الدقة وكان بإمكان الوزارة تكليفه بتحقيق نص آخر. لقد احتفظ الشيخ سيد صقر بهذا الكتاب في مكتبته ولم يستطع طبعه، وقد يكون لديه غير هذا الكتاب مما تنطبق عليه الحالة ذاتها.

هذا يدلنا - كما قلت في البداية - على أنه يهتم بالعمل قبل أن يهتم بالنشر، ويدلنا - أيضًا - على أن الكتب الخمسة التي ذكرناها أصبحت ستة، وقد تكون معها كتب أخرى لم نعلم عنها شيئًا.

كان الدكتور محمود الطناحي صديقًا محبًا لشيخنا، وقد كتب عنه في كتابه الذي سبقت لنا الإشارة إليه شيئًا يدل على ذلك دلالة واضحة.

ولئن أشرنا فيما مرّ بنا من حديث إلى بعض حديثه عنه، فإننا نذكر هنا بعض الأمور التي لابد من ذكرها. فهو بالإضافة إلى ما قدمنا عن والده، والبيئة العلمية التي نشأ فيها شيخنا يقول: «وهو من بيت علم وفضل، فوالده الشيخ أحمد صقر، من فضلاء علماء الأزهر، وكان أستاذًا بكلية أصول الدين، ومازلت أذكر سمته، إذ كنت في العاشرة من عمري، تلميذًا بمدرسة أم السلطان شعبان لتحفيظ القرآن الكريم بحي الدرب الأحمر، وكان رحمه الله يتردد على هذه المدرسة، مع مجموعة من علماء الأزهر، الذين كانوا يتعهدون مدارس تحفيظ القرآن، حسبة وزُلفى إلى الله».

والدكتور الطناحي يصف إمكانات الشيخ السيد أحمد صقر بقوله: «والأستاذ السيد أحمد صقر أديب من الطراز الأول، ولو أنه أطلق لملكاته الأدبية العنان، لكان من كبار أدباء العربية، ولكنه انصرف إلى تحقيق النصوص، متجهًا من أول أمره إلى الأصول، ثم كانت عنايته أخيرًا بعلوم الحديث ومصنفاته، بعد أن خلت الساحة بوفاة المحدّث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر. وعلى قصر المدة التي

اشتغل فيها بهذا العلم الشريف، فقد نفذ إلى أسراره، وأحاط بقضاياه، واقتنى نوادر مخطوطاته.

وهو من أقدر الناس على تقديم كتاب، وتقويم نصّ، وتوثيق نَقْل، وتخريج شاهد، واستقصاء خبر، ثم إن له من وراء ذلك كلّه علمًا جامعًا بالمكتبة العربية، وإدراكًا للعلائق بين الكتب. ومن أراد أن يعرف علم الرجل وبصره، فليقرأ مقدمته لكتاب تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، وإعجاز القرآن للباقلاّني - الذي حصل به على جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة - وحواشيه على أسباب نزول القرآن، للواحدي، والصاحبي، لابن فارس، والإلماع، للقاضي عياض.

وقد ذكر الدكتور الكثير عن الشيخ وعن طبائعه وحرصه على عمله، وظنه بإنتاجه لأنه لا يريده أن يذهب إلا لمن يفهمه، وهو بذلك متأثر بأبي حيان التوحيدي الذي حقق كتابًا من كتبه هو: الهوامل والشوامل، بالاشتراك مع الدكتور أحمد أمين، وكان أبوحيان التوحيدي، قد أحرق كتبه ضنًا منه أن تقع في يد من لا يستحقها.

في السنة الدراسية ١٩٥٥ - ١٩٥٦م دخل علينا في بدايتها شيخ من مشايخ المعهد الديني لأول مرة، كان هذا الشيخ هو أستاذنا للأدب العربي الأستاذ السيد أحمد صقر، دخل علينا الفصل كما يدخل صديق، تحدث عن نفسه، وعما يستطيع أن يقدمه لنا، وذكر لنا منذ اليوم الأول أنه إنما يلبس جبه المشائخ امتثالاً لأمر الأزهر الشريف لكلٍّ من يرسل من قبلَه على سبيل الإعارة، وهذا هو ما أثار انتباه الدكتور حامد طاهر بحسب ما ذكرناه منذ البداية. ولا داعي هنا لإعادة الحديث عن طريقته في التدريس، ولكننا لابد وأن نشير إلى أننا ارتبطنا به ارتباطًا قويًّا، ورأينا فيه قدوة صالحة. وكنا نلتقي معه لا في وقت الدراسة فحسب بل نزوره في بيته فيفتح لنا صدره ويتحدث إلينا حديث الأب والمعلم، ويزيدنا اطلاعًا على أعماله، وعلى ما يقتنيه من كتب على الرغم من أن طبيعة عمله واقتصاره على مدة قصيرة من الزمن لا تسمح له بمزيد من جمع الكتب، ولذلك فقد كان يعتمد

اعتمادًا كبيرًا على مكتبة معهد الكويت الديني وهي مكتبة ملأى بالكتب القيمة والمراجع التي لا غنى عنها في شتى فنون العلوم، وبخاصة علوم التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو واللغة بعامة والأدب بما في ذلك عدد كبير من دواوين أبرز الشعراء العرب القدماء الذين يمرّ ذكرهم ضمن المناهج الدراسية.

وكانت لشيخنا علاقات طيبة بكثير من الأشخاص من خارج المعهد، وأذكر أنني عرفت أخي وصديقي الأستاذ فاضل خلف عن طريقه، فقد كان يأتي لزيارته في المعهد ويقفان فترة يتبادلان فيها الحديث، وأنا اعتبر معرفتي بأبي محمد من ضمن ما تفضل به على شيخي الكريم.

وكان الشيخ السيد أحمد صقر يشارك في أنشطة المعهد الخارجية التي يقوم بها في باب التوعية الدينية. وأذكر أنه ألقى بعض الأحاديث في إذاعة الكويت كان لها صداها الجيد بين الناس لدرجة أنهم كانوا يتصلون بالإذاعة في طلب الاستزادة منها، ولا عجب من ذلك فهو كنز من العلم يسير على قدمين.

وكان يشاركنا في كثير من الأنشطة التي نقوم بها، ويوم قرر المعهد الذهاب بنا إلى جزيرة فيلكا وجدناه يرتدي الدشداشة والغترة، ويأتي معنا إلى هناك حيث أمتعنا بوجوده وحديثه واستمتع هو برحلة جميلة سوف يرى القارئ صورًا لها مع هذا المقال.

بعد كل ذلك أليس من واجبنا أن نذكر هذا الرجل الجليل ونبدي مآثره الجمّة؟

****

قضاة الكويت الأوائل[1]

كان أول نظام رسمي له علاقة بأمور التقاضي بين الناس هو النظام الذي صدر في سنة ١٩٢١م في بداية حكم الشيخ أحمد الجابر الصباح، وكان المجلس الاستشاري الذي أسسه الشيخ بناء على اقتراحات تلقاها من بعض المواطنين هو الذي بحث النظام المشار إليه. وبالتالي أصدره الشيخ بعد أن اقتنع به وقد نص على أن تكون جميع الأحكام موافقة في المعاملات والجنايات ومتطابقة مع أحكام الشرع، وإذا شكّك المحكوم عليه بالحكم الذي صدر مدعيًا أنه مخالف للشرع كتبت به مذكرة ترفع إلى علماء الإسلام وما اتفق عليه هؤلاء فهو الذي يُقَرُّ.

كما أنه ليس هناك ما يمنع أن يتفق خصمان على تحكيم شخص يُصلح بينهما باعتبار أن الصلح خير وهو ما ترضاه الشريعة الإسلامية، أما باقي النظام أو الميثاق فليس له علاقة بالأحكام القضائية وإنما هو خاص بالتشاور في الأمور الداخلية والخارجية حول كل ما يستجد في البلاد بما في ذلك الاقتراحات التي يتقدم بها من يَعِنُّ له رأي أو اقتراح والحاكم يدرس هذين الأمرين ويشاور فيهما جماعته وما اتفق عليه الجميع فإنه يُنفّذ.

كان هذا الذي حدث في سنة ١٩٢١م انتقالًا كبيرًا فيما يتعلق بشؤون القضاء، ولكننا هنا نريد أن نعرف ما جرى لهذا المرفق الحيوي المهم منذ تأسست الكويت إلى حين صدور الميثاق الذي تحدثنا عنه آنفًا.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٨/٦/٢٠٠٨م.

وقبل كل شيء فإنه لابد من الإشارة إلى أن القضاء قد نشأ بوجود قاضي الشرع منذ البداية حتى لقد رأينا الشيخ عبدالعزيز الرشيد يستدل به على بداية الكويت.

فهو يرى أن الكويت تأسست قبل سنة ١١٣٥هـ (١٧٢٢م) وذلك لأنه رجّح أن أول من تولى القضاء في الكويت هو الشيخ محمد بن فيروز وقال:

ولا يبعد أن يكون ذلك الأستاذ هو أول قضاتها لأنه توفي في الكويت سنة ١١٣٥هـ.

ويقينًا أن هذا التاريخ لا يدل على زمن تأسيس الكويت لعدة أسباب أولها: أن هذا هو تاريخ وفاة القاضي وليس تاريخ بدء عمله، وثانيهما: أن البلد بقي مدة طويلة يتقاضى الناس بينهم فيه عن طريق التفاهم.

وهنا يقول الشيخ الرشيد:

نكاد نجزم بأن آل الصباح لم يولّوا القضاء أحدًا أول ما نزلوا في أرض الكويت وأن الذي كان يتولاه إذ ذاك هو من يقع اختيار المتنازعين عليه.

إن التقاضي موجود منذ نشأة الكويت ولكن أسلوبه مختلف إلى أن استقر الرأي على اختيار قاض يُعتمد عليه، فتم اختيار الشيخ محمد بن فيروز لكي يقوم بهذه المهمة.

ومع ذلك فهو لا يدلُّ دلالة قاطعة على تاريخ نشأة الكويت لأننا لا نعرف الفترة التي كان التقاضي يتم بها بين الناس عن طريق اختيار حكَم يرجعون إليه ولا الفترة التي مرت بين وقت اختيار ابن فيروز وتاريخ وفاته بل إن الشيخ عبدالعزيز الرشيد يصرح بأن أول من تولى القضاء غير معروف على التحقيق وإن كان أقدم من عُرف هو الشيخ ابن فيروز.

وهذا يعطي دلالة أخرى على النشأة إذ تبين لنا هنا أن هذا المرفق المهم قد مر بثلاثة أطوار:

الأول: منها التقاضي بين الناس عن طريق انتداب من يرون تحكيمه في مشكلاتهم.

والثاني: تولية قضاة لم نعرفهم كما ذكر الرشيد.

والثالث: هو ابن فيروز المذكور.

بعد وفاة ابن فيروز تولى قضاء الكويت أحد أفراد آل عبدالجليل وعَبّر عن ذلك الشيخ عبدالعزيز الرشيد والشيخ يوسف بن عيسى بقولهما:

يقال أن أحد آل عبدالجليل قام بالقضاء بعده أي بعد ابن فيروز وفي هذه الأثناء وصل إلى البلاد رئيس آل عدساني كما سماه الرشيد وكان عالمًا صالحًا أعجب القاضي «العبدالجليل» ذلك منه فقام بالتنازل عن منصب القضاء له.

ومنذ ذلك الوقت استمر هذا العمل في أيدي أفراد من هذه الأسرة الكريمة حتى صار لفظ العدساني يعادل لفظ القاضي وأذكر أنه كان يُحكى أن بعض البحارة الكويتيين حدثت لهم حادثة في البحرين فذهبوا للتقاضي هناك وعندما أتوا إلى الكويت رووا حكايتهم قائلين: ذهبنا إلى عدساني البحرين.

تولى القضاء إذن عدد من آل عدساني منهم:

١- الشيخ محمد بن عبدالرحمن العدساني الذي توفي في سنة ١١٩٧ هـ (١٧٨٢م).

٢- الشيخ محمد بن محمد العدساني الذي توفي في سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣م).

٣- الشيخ محمد صالح العدساني الذي استقال في سنة ١٢٢٨هـ (١٨١٣م).

بعد ذلك تولى القضاء الشيخ علي بن شارخ سنة ١٢٢٨هـ (١٨١٣م) وتوفي بعد سنتين أو ثلاث من تاريخ تعيينه.

وهنا عاد القضاء إلى آل عدساني وكان أول واحد منهم بعد الشارخ هو الشيخ محمد صالح العدساني الذي عاد مرة أخرى وبقي في منصبه هذا حتى وفاته في سنة ١٢٣٣هـ (١٨١٧م)، عند وفاة محمد صالح العدساني لم يكن الذي سوف يحل محله من الأسرة ذاتها مستعدًا للقيام بالمهمة وكان يحتاج إلى وقت إضافي لذلك. فتولى القضاء رجلان هما الشيخ علي بن نشوان ومحمد بن محمود حتى سنة ١٢٣٥هـ (١٨١٩م)،وهنا تولى العدساني المشار إليه وهو عبدالله مهام القضاء حتى سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م)، وهكذا استمرت السلسلة العدسانية فيما بعد إلى أن تغيرت الأمور واختلفت.

معلومات عن بعض قدامى القضاة الذين عملوا في الكويت ونبدأ بمحمد بن فيروز:

١- كتب الأستاذ عبدالله خالد الحاتم عن تاريخ القضاء في الكويت في ص ٢٠٥ من كتابه: «من هنا بدأت الكويت» فذكر تولي محمد بن فيروز للقضاء عندنا فقال بكل جرأة:

وهذه الرواية بدورها مغلوطة كما نجد ذلك واضحًا من رواية الشيخ عثمان بن سند وبين أن ابن سند معاصر لابن فيروز الذي توفي في البصرة ودفن في الزبير في سنة ١٨٠١م ويتساءل فأين هذه الرواية من تلك؟ واستدرك قائلًا: «اللهم إلا إذا كان الشيخ محمد بن عبدالله بن فيروز هذا هو غير محمد بن فيروز المذكور في تاريخ الكويت ويا ليت الأستاذ الحاتم اكتفى بهذا الاستدراك الذي يبدو أنه غير مقتنع به ولو قرأ كتاب الشيخ عبدالعزيز الرشيد جيدًا لعرف الحقيقة فتاريخ وفاة ابن فيروز في الكويت بعد أن أدار قضاءها كانت في سنة ١٧٢٢م ووفاة ابن فيروز الذي تحدث عنه ابن سند كانت في سنة ١٨٠١م ويبدو من سياق حديث ابن سند

أن صاحبه لم يأت إلى الكويت أصلًا، ولذا فإن قاضي الكويت المقصود هو شخص آخر وقد ساق الشيخ عبدالعزيز حديثًا قاطعًا يدل على صحة ما ذهبنا إليه وذلك حين قال عن القضاة:

وأقدم من عرف هو الشيخ محمد بن فيروز جد ابن فيروز المشهور كما أخبرني أستاذنا الفاضل الشيخ عبدالله الخلف نقلًا عن الشيخ إبراهيم بن عيسى المؤرخ النجدي.

هذا والاسم الكامل لهذا القاضي هو محمد بن عبدالله بن فيروز وصاحب ابن سند اسمه محمد بن عبدالله بن محمد بن فيروز وكان هذا من نقاد دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وهذا يؤكد عدم تلقي الشيخ إبراهيم بن صالح العلم على يديه.

ولم يكن الشيخ إبراهيم بن صالح قد عاصر الشيخ محمد بن عبدالله بن فيروز لأن هذا الأخير توفي قبله بزمن والشيخ ابن صالح من مواليد سنة ١٢٧٠هـ في الوقت الذي رأينا فيه أن وفاة ابن فيروز القاضي في الكويت كانت في سنة ١١٣٥هـ ولكن اسمه ورد ضمن السند الذي وصل إلى آخر شيخ درس عليه وهو الشيخ أحمد بن عيسى.

والصواب في هذه المسألة ما ذكره الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن ابن صالح البسام في كتابه «علماء نجد خلال ثمانية قرون» جزء ٦ ص ٢٣٦ وهو أن محمد بن عبدالله بن فيروز قاضي الكويت الذي توفي في سنة ١١٣٥ هـ - ١٧٣٢م أنجب ابنا اسمه عبدالله اشتغل بالعلم الديني وانتقل بعد وفاة أبيه إلى الأحساء وأنجب عبدالله هذا ولدًا سماه محمدًا هو الذي طلب العلم ونبغ فيه وانتقل إلى العراق للسبب الذي أشرنا إليه.

وعلى هذا فإن من اسمه محمد بن عبدالله بن فيروز اثنان أحدهما قاضي الكويت والآخر هو الذي ذكره صاحب كتاب سبائك العسجد وتبنى الحاتم قوله دون تمحيص وهذا هو حفيد صاحبنا.

٢- ذكرنا في أول حديثنا أن رجلًا من آل عبدالجليل تولى القضاء بعد وفاة الشيخ محمد بن فيروز وليست لدينا معلومات عن حياته ومقدرته العلمية ولكن اختياره لم يتم في ذلك الوقت لولا استطاعته القيام بالمهمة الموكلة إليه.

ولعل مما يدل على هذه الفترة أن الشيخ محمد بن عبدالرحمن العدساني تولى القضاء منذ سنة ١١٧١هـ - ١٧٥٦م وبينه وبين وفاة ابن فيروز خمس وثلاثون سنة.

وهذا هو ما يؤكد وجود قاض بين الإثنين، ولا توجد معلومات وافية عن هذا القاضي إلا أنه هو مؤسس مسجد العدساني في المنطقة التجارية.

وأذكر أننا كنا نصلي فيه صلاة العصر يوميًا عندما كنا ندرس عند الشيخ محمد صالح العدساني وقد قامت بلدية الكويت بهدم هذا المسجد الأثري الذي تم تأسيسه على يد هذا الرجل الكريم في سنة ١٧٤٧م لكي تنشئ في مكانه حديقة.

ويقال إنها أقامت بدلًا منه مسجدًا آخر في منطقة كيفان، وهذا لا يبيح لها هدم المسجد لقدمه ودلالته على نشأة الكويت، ولأن منطقة كيفان فيها مواقع لمساجد مقررة سلفًا من واجب الحكومة بناؤها حتى لو لم يهدم مسجد من المساجد وأخيرًا لأن المسجد أهم من الحديقة.

توفي الشيخ محمد بن عبدالرحمن العدساني في سنة ١١٩٧هـ - ١٧٨٢م تاركًا مهمة القضاء للشيخ محمد بن محمد العدساني.

٣- تولى هذا الشيخ القضاء بعد سلفه وبقي فيه إلى أن توفي في سنة ١٢٠٨هـ - ١٧٩٣م ولا نعرف من أمور حياته شيئًا.

٤- بعد وفاة الشيخ محمد بن محمد العدساني تولى القضاء الشيخ محمد صالح العدساني ولكنه سرعان ما اختلف مع أحد العلماء الموجودين في الكويت

- آنذاك - وهو الشيخ علي بن شارخ وكان الخلاف حول نهاية شهر شعبان وبداية شهر رمضان واختلاف مذهب كل واحد منهما عن الآخر في هذه المسألة ورفع القاضي الأمر إلى الحاكم وكان يومها هو الشيخ عبدالله الصباح الأول ١٧٧٦ - ١٨١٤م الذي انتصر للشارخ مما دعا القاضي العدساني إلى تقديم استقالته.

وهنا طلب الشيخ عبدالله من الشارخ أن يتولى القضاء يقول الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه تاريخ الكويت:

أما عبدالله (يقصد الشيخ عبدالله الصباح) فأرسل إلى الشيخ علي وفَوّضَ إليه القضاء ولكنه امتنع أولًا وقال:

إنه منصب خطير من أهم شروطه إقامة الحدود وأخشى أن تُغَلّ يدي عن تنفيذها سيما على الوجهاء فَهَوّنَ الشيخ عبدالله عليه الأمر وقال:

إني سأطلق يدك في القيام بالواجب ولو على نفسي فَقَبِلَ ولكنه اشترط أن يُسمح له بالعمل في التجارة لمدة شهرين من كل عام حتى ينفق من ريعها على نفسه وعلى أهله لأنه لا يأخذ على القضاء أجرًا فأذن له الشيخ عبدالله الصباح بذلك.

هذا ومما يلفت النظر في حديث الشيخ عبدالعزيز الرشيد عن هذا القاضي أمر له دلالة تاريخية مهمة وذلك ما جاء في قوله عنه:

وكان أول أعماله أن أحرق أكواخًا كان يأوي إليها كثير من أهل الفساد، ثم أسس في موضعها المسجد المعروف بمسجد المديرس.

وكنّا قد سمعنا أن هذا العمل تم في وقت آخر غير وقت الشيخ عبدالله الصباح ولكن تاريخ تأسيس هذا المسجد يدل دلالة واضحة على صدق ما قاله الرشيد فقد تم تأسيسه في سنة ١٨١٠م.

يضيف الشيخ الرشيد بعد ذلك أن الشيخ علي بقي في القضاء نحو سنتين أو ثلاث سنوات إلى أن توفي ثم رجع القضاء إلى أهله (يقصد العداسنة).

٥- عاد - بعد ذلك - الشيخ محمد صالح العدساني إلى العمل في القضاء واستمر فيه إلى أن توفي في سنة ١٨١٧م.

٦- كان من المقرر أن يتولى القضاء الشيخ عبدالله العدساني ولكنه عند وفاة من سبقه لم يكن مستعدًا - كما ذكرناه - فتولى العمل رجلان مجتمعين هما الشيخ علي بن نشوان والشيخ محمد بن محمود وكان عملها مؤقتًا مرتبطًا بموعد استعداد الشيخ عبدالله للقيام بمهام القضاء فتم له ذلك في سنة ١٢٣٥ هـ (١٨١٩م) وبقي الشيخ عبدالله في عمله حتى سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م).

٧- في السنة التي توفي فيها الشيخ عبدالله العدساني تولى القضاء ابنه محمد بن عبدالله وبقي في منصبه هذا حتى سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) وفي أيامه الأخيرة كان ابنه عبدالعزيز يقوم بمباشرة أعمال القضاء، وعندما توفي والده حَلّ في محله إلى أن أدركته الوفاة في سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م).

أردت السير على ما سار عليه الشيخ يوسف بن عيسى القناعي حين اقتصر على الحديث عن القضاء والقضاة في الكويت على الزمن المنتهي بعهد الشيخ مبارك الصباح ولكني وقد ارتضيت السير وراءه أثبت رجلين توفي أحدهما في سنة ١٩١٩م وتوفي الآخر في سنة ١٩٢٠م وذلك لأنهما بدآ العمل في وقت سابق على هذين التاريخين وقد امتد بهما الزمن لذا كان لابد من ذكرهما.

وبعد فهذه صورة ما كان دائرًا في الكويت في سلك القضاء منذ البداية حتى سنة ١٩٢٠م وما جاء بعد ذلك فهو معروف لأنه وارد في الكتب القريبة من تناول أيدي الناس.

رحم الله أولئك الرجال وغفر لهم وجزاهم خيرًا على ما قدموا لوطنهم ومواطنيهم.

****

العلامة عبدالسلام محمد هارون في الكويت[1]

كان أول لقاء بشيخي الأستاذ عبدالسلام محمد هارون في قاعة الدرس بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، وكان - يومها - يدرسنا مادة النحو من كتابه «الأساليب الإنشائية في النحو العربي».

كان الكتاب يتناول الدرس النحوي بطريقة مبتكرة، وكان الرجل مليئًا بالعلم بحيث استفدت منه كثيرًا واستفاد منه - أيضًا - زملائي الحاضرون في القاعة، ولكن علاقتي به استمرت بعد ذلك إلى أن توفي رحمه الله، وكان لاستمرار علاقتي به أسباب كثيرة، منها أنه أستاذي في الكلية وهذا وحده يفرض علي احترامه وتقديره وتمتين الصلة به، ومنها أنه محقق للتراث له عدد كبير من الكتب في هذا المجال وأنا عاشق لتراث العرب الثقافي منذ غرس هذا في نفسي شيخي الآخر المرحوم السيد أحمد صقر في الكويت، ومن الأسباب أنه مع الشيخ أحمد محمد شاكر قد حققا كتاب «الأصمعيات» الذي درسناه على يد أستاذنا محمود محمد شاكر، وأنه يمت بصلة القرابة لهذين الرجلين الجليلين: أحمد ومحمود.

حضر الأستاذ عبدالسلام محمد هارون إلى الكويت لكي يكون مدرسًا في جامعتها منذ سنة ١٩٦٦م، وهي السنة التي نشأت فيها هذه الجامعة، وبذلك يكون من أساتذة جامعة الكويت الأوائل الذين أسهموا في تأسيسها وتأسيس أقسامها العلمية المختلفة، وكان منذ ذلك الوقت رئيسًا لقسم اللغة العربية مؤسسًا له، وقد ترك آثارًا باهرة تدل على المقدرة العلمية والإدارية، وجمع قلوب الأساتذة حوله

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٦/٢٥م.

خلال فترة عمله الطويلة في هذه المؤسسة العلمية الكبيرة، ولذلك فقد أصدرت الجامعة بعد وفاته كتابًا تذكاريًا مهمًا ضم عددًا من البحوث كما احتوى على معلومات مهمة عن حياته وإنتاجه العلمي، وجهده في تحقيق التراث، قام بإصدار هذا الكتاب القيم قسم اللغة العربية الذي أنشأه الأستاذ، وكان عنوانه: «الأستاذ عبدالسلام هارون معلمًا، ومؤلفًا ومحققًا»، وهو من إعداد الدكتورة وديعة النجم، والدكتور عبده بدوي، ويقع في أكثر من ستمائة صفحة شارك في كتابتها عدد كبير من زملائه وطلابه، وكان صدوره في سنة ١٩٨٩م، وهي السنة التي تلت السنة التي توفي فيها.

وإذا كنت قد ذكرت أسباب ارتباطي به فإنني لا يمكن أن أغفل سببًا مهمًا هو أنه كان المشرف على رسالتي التي نلت بها درجة الماجستير من كلية دار العلوم، فقد تخرجت على يديه مرتين، الأولى في سنوات الكلية الأربع، والثانية في الدراسة العليا، ونحن نعلم أن رباط العلم قريب من رباط الأب مع ابنه، وليس في الروابط الإنسانية أقوى منه، إذ لا تدانيه الروابط الأخرى التي تشد الناس إلى بعضهم.

كنت أزور شيخي في بيته في الكويت، وفي بيته في القاهرة، وأسعد بالحديث معه، وأستفيد من علمه، وأتعلم طريقته عن طريق تعرف أسلوبه في وضع خطط العمل لتحقيق النصوص وغير ذلك.

لقد كان الأستاذ عبدالسلام محمد هارون علمًا من الأعلام في دنيا الأدب العربي، وعلوم اللغة العربية، تخرج على يديه ما لا يقل عن مائة طالب من حملة الماجستير والدكتوراة، وأنتج عددًا كبيرًا من الكتب كان بعضها من الموسوعات مثل كتاب خزانة الأدب للبغدادي، والحيوان للجاحظ، وكتاب سيبويه في النحو، وغيرها من أمهات الكتب العربية بالإضافة إلى إعداد الكثير من البحوث والفهارس التي تميز بصنعها، وأذكر أنني أثناء عملي في تحقيق كتاب «المقرب في النحو» شكوت

له ما أعانيه ويعانيه أمثالي عند البحث عن شاهد من شواهد النحو لمعرفة قائله أو نحو ذلك، فكان أن قام بتأليف كتاب ضخم مكون من مجلدين سماه «معجم شواهد العربية» وقدمه مطبوعًا يطلع عليه كل من أراد الاستفادة منه، وبالفعل فقد كان هذا الكتاب نافعًا لكل من يعمل في التراث وبخاصة المتعلق منه بمادة النحو. وما كان هذا العمل صعبًا عليه فقد تمرس بأعمال الفهرسة حتى صارت الكتب التي يحققها لا نظير لها في هذا المجال، فهي لهذا السبب سهلة التناول ميسرة للمتعلمين وسائر القراء.

ولد الأستاذ عبدالسلام هارون في الإسكندرية خلال سنة ١٩٠٩م، وحفظ القرآن الكريم وهو في السنة العاشرة من عمره، ثم دخل الأزهر في سنة ١٩٢١م حيث درس العلوم الشرعية والعربية، والتحق بعد ذلك بمدرسة كانت تدعى: تجهيزية دار العلوم، وكانت في مستوى الدراسة الثانوية فنال منها شهادة البكالوريا في سنة ١٩٢٨م، ولم يتوقف عندها فانتظم بدار العلوم العليا وأكمل دراسته بها في سنة ١٩٣٢م، اشتغل بالتدريس في المدارس الحكومية منذ سنة ١٩٤٥م حتى سنة ١٩٥٠م، حيث عيّن أستاذًا مساعدًا بكلية دار العلوم بالقاهرة، رشحه لذلك إنتاجه العلمي المبكر، ثم صار في سنة ١٩٥٩م رئيسًا لقسم النحو بها.

تم اختياره في سنة ١٩٦٩م ليكون عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر، عندما خلا المقعد الذي كان يشغله الأديب المشهور محمد فريد أبوحديد إثر وفاته، وهذا هو أسلوب المجمع في ملء الشواغر، نال عددًا من الجوائز منها جائزة مجمع اللغة العربية في سنة ١٩٥٠م، وجائزة الملك فيصل العالمية في سنة ١٩٨١م.

كان الأستاذ مرحًا بطبعه، وكانت هذه الصفة مما يقرب الناس إليه، إضافة إلى علمه وفضله، ومما يدل على الروح المرحة التي كان يتحلى بها أنه عندما سئل عمن هو أستاذه قال للسائل سوف تعجب إذا قلت لك إن ابن عمتي الأستاذ الشيخ

أحمد محمد شاكر كان أستاذي، وكنت أستاذه، كنا نتعاون جميعًا على نشر التراث، أعلمه ويعلمني، كان مختصًا بالأمور الدينية، وكان إمام أهل الحديث في عصره.. كانت طريقتي مماثلة لطريقته، وطريقته مماثلة لطريقتي.

ولقد ترك الأستاذ هارون مكتبة ضخمة، عامرة بالكتب النفيسة، له تعليقات وتصحيحات على هوامش كثير من هذه الكتب بخط يده مما يدل على علم وفير، وعلى الفائدة الكبرى التي يجنيها قراء هذه الكتب من بعده، اقتنت هذه الذخائر مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض، وعرضتها لكل من يرغب في الاستفادة مما حوته من معارف، أما كتبه التي ألفها أو حققها فقد أحصاها الأستاذ خير الدين الزركلي فوجدها تزيد على خمسين كتابًا، يقع ضمنها كتاب نوادر المخطوطات الذي يضم عشرين قسمًا كل قسم يمثله كتاب يختلف حجمه من بين ما يوازي كراسة إلى أكثر، وقد تكون له مخطوطات من تأليف لم تر النور حتى الآن نحن في شوق إلى الاطلاع عليها.

نال شيخنا إعجاب كل العاملين في تحقيق ونشر التراث العربي، ولفت الأنظار إليه تعدد الموضوعات التي تناولها فلم يقتصر على موضوع واحد، فله في التاريخ والأدب والشعر والأمور العامة عمل طيب هو محل اهتمام كل باحث، وتنوعت الكتب التي أخرجها بين كتب النحو عندما حقق كتاب سيبويه ونشره، وكتب الوصف كما فعل مع كتاب «البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ» التي حققه وشرحه.

ولا مانع هنا من الإشارة إلى عملين من أعمال هذا الشيخ الجليل في مجال تحقيق كتب التراث وهما كتابان مهمان في تراث العرب النحوي، كل واحدة منهما يتكون من عدة مجلدات، أولهما الكتاب المشهور باسم «كتاب سيبويه» لابي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الشهير بسيبويه، وقد صدر الجزء الأول منه في سنة

١٩٦٦م، ويتكون من خمسة مجلدات، وهذه أول مرة نجد فيها شخصًا يعتني بتحقيق هذا الكتاب تحقيقًا، يبدؤه بذكر حياة المؤلف، وطلبه للعلم، ثم تصديه للتعليم والتأليف والمناظرة في مادته، واهتم الأستاذ عبدالسلام هارون كثيرًا بالشواهد الشعرية التي مرت في الكتاب وبين أسماء الشعراء ومظان وجود الأبيات، وتحدث عن المخطوطات التي اطلع عليها قبل أن يبدأ بعمله، ثم ذكر الكتب التي ألفت حول «الكتاب» من شروح واختصارات لبعض الشروح، ومن انتقادات له كذلك، وعدد الطبعات التي سبقته فكانت خمس طبعات، ثم عاد إلى ذكر المنهج الذي سار عليه في العمل، وكانت مقدمته التي كتبها قبل أن يقدم لنا الكتاب جاءت في ست وخمسين صفحة، جاء في آخرها - وهو ما يدل على تواضع العلماء: «وأما بعد فهذا عمل متواضع أضيفه إلى تلك الجهود المتواضعة السابقة في سبيل خدمة العربية والعروبة، راجيًا أن يتقبله الله خالصًا لوجهه، وأن يجزيني عنه خيرًا»، والحق أنه عمل كبير، ومجهود عظيم وكل ما نرجوه هو أن يتقبل الله سبحانه دعاء الشيخ».

أما الكتاب الثاني فهو «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، وهو موسوعة بمعنى الكلمة فيه الشعر والنثر، وفيه النحو والصرف، وفيه البلاغة وتاريخ الأدب وأخبار العرب، أصدره في أحد عشر مجلدًا كبيرًا، والحق به مجلدين بالحجم نفسه جعلهما خاصين بالفهارس، وهذ الأمر من أهم ما كان يعنى به شيخنا عبدالسلام هارون لأنه يرى أن الفهارس هي التي يتوصل بها القارئ إلى ما يريد بأسرع طريق وفي وقت صارت الأوقات فيه ذات قيمة، والحياة متسارعة في شتى نواحيها.

يبدو أنه كان سعيدًا بإتمام تحقيق هذا الكتاب الضخم، وسعيدًا بإنجاز الفهارس الجمة التي صنعها له فقد كانت تسعة وعشرين فهرسًا، وبدت سعادته

من أول سطر في مقدمة الجزء الأول من الفهارس حيث قال: «هذه النعمة السابغة التي أتاحت لي اليوم أن أقدم هذه الفهارس النفيسة الغالية إلى جمهور الباحثين، هي تحقيق أمل قديم، راود النفس من سنين وسنين، وظل يلمع تارة ويخبو أخرى، إلى أن شاء إله جلت قدرته، وعزت إرادته، أن يمنحني من الوقت الفسيح والجهد الجهيد، ما يعجز البيان عن الإفصاح بالحمد لله..».

ولا ننسى ونحن نتحدث عن الكتابين أن ننوه بالحواشي الكثيرة ذات الفائدة العلمية الكبيرة التي غطت كل ما يحتاج إلى إيضاح معنى أو تقريب ما يحتاج إلى تقريب مما يفيد القارئ.

يقول أخي الدكتور محمود الطناحي عن الأستاذ: «وخلاصة ما يقال عن الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، أنه لم يخط أحد في التراث سطرًا إلا ولهذا الرجل عليه منة، وذلك لأنك لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثية إلا وفيها كتاب من تحقيقات شيخنا».

وكتب الدكتور عبدالعال سالم مكرم، وهو من الذين عملوا مع الشيخ في قسم اللغة العربية بجامعة الكويت: «كانت صدمة عنيفة للتراث ورجاله أن يرحل فارسه عن ميدانه، فيسقط اللواء من يده، وهو في قمة مجده، وذروة عطائه وأوج عظمته، ولا أبالغ إذا قلت: إنه - رحمه الله - أمة في رجل، فلئن غاب عنا بجسمه، فقد بقي بيننا بإنتاجه الضخم، وعلمه الغزير، وعطائه المتدفق».

وكتب أخي الدكتور حسين محمد شرف الأستاذ بكلية دار العلوم وهو أحد تلاميذ الشيخ، يقول: «شيخ وقور، وعالم جليل ومجمعي أمين، وإمام في التحقيق، وأستاذ مثالي، بطلابه رحيم وعنهم مدافع، وعلى مصالحهم غيور، تحمله الأذى بصدر رحب وقلب كبير من أجلهم لا يعرف حدًا، ومواقفه في الدفاع عنهم لا تحصى عدًا، ومتابعته الباحثين معه ومع غيره وحفزه إياهم، وتيسير الأمور لهم

وتصديه لكل المعوقات التي تعترض طريقهم لا يفتر ولا يضعف، وتزويده الكثير منهم بمؤلفاته وتحقيقاته معين لا ينضب، وعطاؤه العلمي في حل وترحال لم يتوقف حتى آخر لحظة له في دار الفناء».

أدرج الدكتور حسين شرف بعد ذلك عددًا من المواقف التي وقفها الشيخ عبدالسلام هارون مع تلامذته مما يدل على تأكيد كل ما تقدم، ولا مجال هنا لذكر الكثير مما ورد في كلمة الدكتور التي جاءت في الكتاب التذكاري الذي أصدرته جامعة الكويت وأشرنا إليه آنفًا.

من الذين أسهموا بالكتابة عن الأستاذ رجل من كبار العلماء كان نائبًا لرئيس مجمع اللغة العربية بمصر فترة طويلة، بل كان أحد أعمدته، وأمينًا عامًا له قبل ذلك، هذا الرجل هو الدكتور مهدي علّام الذي تخرج من كلية دار العلوم سنة ١٩٢٢م، وأكمل دراسته في إنجلترا موفدًا في كليته لدراسة التربية وعلم النفس، قام بعدة أعمال مهمة في المجال الثقافي، واختير لعضوية المجمع في سنة ١٩٦٤م وله عدد من المؤلفات، والبحوث المنشورة في عدد من المجلات الرصينة، وقام بترجمة عدد من البحوث من اللغة الإنجليزية إلى العربية، وكان يجيد هذه اللغة إضافة إلى اللغتين الفارسية والعبرية، ولكل ذلك وقع الاختيار عليه ليتحدث عن تجربة الأستاذ عبدالسلام هارون في المجمع، ولقد كتب فصلًا ضمن الكتاب الذي أصدرته الجامعة، ذكر فيه - بإسهاب - الكثير مما يتعلق بذلك الرجل متناولًا في البداية نشأته وحياته ومؤلفاته، ثم عرّج على حديث المجمع، فتكلم عن أول يوم بدأ عمله فيه. وكان ذلك في الحفل الذي تم فيه استقباله بصفته عضوًا جديدًا، وذلك وفق التقاليد المجمعية، وكان الرجل المنوط به الترحيب به هو العالم الجليل الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، الذي قال: «وجماع ما يقال عن الأستاذ عبدالسلام هارون أنه شيخ في إهاب شاب، أو أنه شاب في مسلاخ شيخ، فأما

أنه شيخ فإن سنوات عمره تنظمه في سلك من يطلق عليهم هذا الوصف، وأما أنه شاب مكتمل الشباب فكل أحواله التي نعرفها عنه تدل عليه وتؤكده، فهذه الجلادة التي يتحلى بها، وهذا الصبر الذي يلقى به مشاق الأعمال العلمية المضنية، على اختلاف مناحيها وكثرة شعبها، ومضاء عزيمته فيما يضطلع به منها، كل أولئك لا يدع مجالاً للتردد في صحة إطلاق هذا الوصف عليه».

وذكر الدكتور علّام عن الأستاذ عبدالسلام هارون إضافة إلى ذلك قوله: «وقد انتخبه مجلس المجمع أمينًا عامًا في اليوم السابع من شهر يناير لسنة ١٩٨٤م، وقد اضطلع بمسؤولياته في هذا المنصب بمثل ما عهد فيه من النشاط والدقة والسماحة، ومن ميزاته أنه خير رفيق على الطريق».

كان شيخنا الأستاذ عبدالسلام هارون كثير العمل لا يوقفه عن ذلك سفر أو تغيير مكان إقامة، وكان الله قد بارك له في أوقاته فصار ينتج في الزمن القصير مالا ينتجه غيره في الزمن الطويل، ولعل السبب إلى جانب معونة الله سبحانه له هو الخبرة الطويلة التي نالها نتيجة للدراسة والقراءة ومراجعة الكتب وتحقيقها منذ وقت مبكر من حياته المباركة.

كان في الكويت مثالًا للنشاط فأنتج الكثير وشارك في أعمال الجامعة وأعمال وزارة التربية، فقد كان عضوًا في بعض اللجان والمجالس التابعة لجامعة الكويت، وكان عضوًا مهما في لجان تطوير المناهج في وزارة التربية وكان وجوده في الفرع الخاص بمناهج اللغة العربية سببًا من أسباب جودة الإنتاج وسرعة الوصول إلى النتائج، وشارك في تأليف بعض الكتب التي نشرتها الجامعة ومنها كتاب «بحوث في اللغة والأدب الذي ألفه مع آخرين وأشرفت على إصداره الدكتورة سهام الفريح وأعيد له في الكويت طبع كتابين من كتبه هما: «كتاب الميسر والازلام» وكتاب «قواعد الإملاء» طبعتهما مكتبة الأمل، بالإضافة إلى كتاب «تهذيب سيرة

ابن هشام، الذي نشرته دار البحوث العلمية، وذلك إضافة إلى ما سبق له نشره في الكويت عن وزارة الإعلام مثل كتاب «مجالس العلماء» للزجاجي، عبدالرحمن بن إسحاق، وكتاب «المصون في الأدب» للحسن بن عبدالله العسكري.

وأنتج وهو في الكويت الكتاب الذي سبقت لنا الإشارة إليه وهو «معجم شواهد العربية» من مجلدين، وكان يعمل أثناء وجوده في الكويت على إنجاز كتابين ضخمين هنا: خزانة الأدب وكتاب سيبويه في النحو، ونحمد الله إنه أوتي القدرة والوقت فإنجزهما، ولقد غادر الكويت في سنة ١٩٧٥م تاركًا أثرًا جيدًا على المستويين العلمي والشخصي فقد كانت له علاقات طيبة بزملائه وتلامذته وكثير من الناس هنا، ولم يتوقف عن العمل عندما عاد إلى وطنه، إذ كان له في تحقيق الكتب وتأليفها وفي مجمع اللغة العربية بالقاهرة عمل كبير ظل ينتج فيه حتى أخر يوم في حياته، حيث انتقل إلى رحمة الله في سنة ١٩٨٨م، تاركًا فراغًا كبيرًا، إذ أن الحريصين مثله على حفظ التراث وتحقيقه والعناية به قليلون، وما يدل على ذلك أن الكتب التراثية التي طبعت بعد أن ذهب أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ومحمود محمد شاكر على التوالي ولحقهم الدكتور الطناحي والسيد أحمد صقر ومن تتلمذ على أيديهم وعاشرهم وشاطرهم اهتماماتهم كل تلك المطبوعات التي صدرت بعدهم، يعتريها الخلل والزلل، ولا سيما تلك المطبوعة في العراق مهما كانت ألقاب محققيها.

رحم الله كل هؤلاء الذين أسهموا في حفظ تراثنا وقربوا لنا منه ما بعد، حتى صار بين يدي كل طالب علم، ورحم الله الأستاذ عبدالسلام محمد هارون وغمره برحمته الواسعة.

****

نظرة إلى الكويت من الخارج ١٩٥٥م[1]

في اليوم الحادي عشر من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٥م صدر العدد الأول من الجريدة الرسمية «الكويت اليوم»، وتولت هيئة تحرير الجريدة منذ البداية إبراز أهدافها والأسباب الموجبة لصدورها، وكان مما جاء من ذلك ما يلي: «إصدار الكويت اليوم جاء بناءً على قرار اتخذته اللجنة التنفيذية العليا، بعد أن لمست الحاجة إلى أداة تنقل إلى الجمهور أخبار الدوائر الحكومية، وتنشر الأنظمة والقوانين والإعلانات والمناقصات وما إلى ذلك من الأخبار الرسمية التي تهم المواطنين».

وأضافت إلى ذلك قولها: «وفضلاً عن نشر القوانين والبيانات فإن من أول أهداف جريدتنا تنوير الرأي العام، وإطلاعه على الأعمال النافعة التي قامت بها أو ستقوم بها الحكومة».

كان لجريدة «الكويت اليوم» دورها الفعال في الحياة الكويتية فقد كانت تقدم المعلومات أولاً فأولاً للمواطنين، وتمدهم بكل ما يحتاجون إليه في تسيير أمورهم الاجتماعية والتجارية إضافة إلى اطلاعهم على مواقف الحكومة من القضايا التي تحدث في البلاد، كما رأيناها في سنة ١٩٦١م، وهي تدافع عن استقلال الكويت وتهاجم الأفكار السخيفة التي أعلنها قاسم العراق.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٢م.

ومع كل ذلك فقد كانت لهذه الجريدة فائدة كبرى لم تعلنها هيئة تحريرها ضمن ما أعلنت من أهداف، وهي تقديم مترجمات لما يكتب عن الكويت في الخارج، إذ كان المشرفون يختارون موضوعات مهمة تتعلق بالكويت فيقومون بترجمتها، وعرضها في الجريدة مما كون لنا «اليوم» متابعة جيدة لما كان يكتب عن الكويت في تلك السنين، وهذه فائدة امتدت إلينا منذ تاريخ صدور الجريدة الرسمية، وإن كانت الجريدة قد توقفت عن نشر مثل تلك المقالات فإن أسباب ذلك التوقف واضحة، فمن جهة بدأت الصحف الكويتية تأخذ هذا الدور وتقدم يوميًا كل جديد مما ينشر عن البلاد، ومن جهة أخرى اتسعت الأعمال وكثرت الإعلانات الرسمية والبيانات الحكومية المختلفة فلم يعد في الجريدة مجال لنشر موضوعات أخرى كتلك التي كانت تنشرها من قبل. وعلى كل حال فقد قامت في بداية عملها بجهد مشكور في هذا السبيل ويكفيها فضلاً أنها لا تزال تصدر بقوة واقتدار وتؤدي رسالتها الوارد ذكرها في أهدافها المعلنة منذ عددها الأول.

في سنة ١٩٥٥م كانت الكويت حديث الألسنة في العالم بما حباها الله من نعمة النفط، وتدفق أمواله عليها، وبما قامت به من استعجال لتطوير أحوالها على كافة المستويات، فلم تترك مجالاً إلا تحركت من خلاله بغية التقدم، واختصار الزمن إليه، فهناك أنشطة في المجالات الصحية والتعليمية والاجتماعية والعمرانية، وغيرهما مما يلفت النظر إلى هذه الرغبة العظيمة في الرقي، والعزم على طرح التخلف، وهذا ما جعل الكويت موضع الإعجاب فهي قد استغلت ثروتها في أمور عادت بالنفع العميم على الشعب الذي كان متعطشًا إلى هذا التحرك المهم.

لفت ذلك نظر اثنين من الكتاب في جريدتين بريطانيتين مختلفتين بعد أن علما عن هذا التقدم المذهل الذي حدث في الكويت خلال سنوات معدودات، فكتب كل منهما مقالاً لجريدته نعرض فيما يلي شيئًا مما كتباه لدلالته على تلك الفترة

من تاريخ الكويت التي يكاد الكثيرون ينسون ما كان فيها من تحرك سريع وتقدم كبير بسبب سرعة جريان الأحداث آنذاك ومر السنين بصورة خاطفة لتغطي على كل ما دار.

نشرت جريدة «التيمس» اللندنية مقالاً في عددها الصادر في اليوم التاسع عشر من شهر مايو لسنة ١٩٥٥م. وكان المقال بعنوان: «الغرب الأوسط في بلاد الشرق الأوسط» ومن العنوان نعرف أن المقصود هو تشبيه الكويت في نموها وتطورها - آنذاك - بالتطور الغربي المشهود.

بدأ المقال بمقدمة قصيرة جاء فيها: «لقد أطلق على الكويت اسم (الغرب الأوسط في بلاد الشرق الأوسط»، وهذه التسمية - في الواقع - لها دلالتها، فنشاط أهلها الدائم والسيل العظيم من المهاجرين الذي يتجه إليها، والمقارنة بين عهدي الكويت القديم والجديد بين المئذنة وأبراج المياه الضخمة، بين السوق القديم والسوق الجديد المتلألئ بأنوار النيون الرائعة، كل هذا من شأنه أن يدلَّ على هذه التسمية».

هنا ينبغي أن نلاحظ أن المقارنة بين المئذنة والأبراج لا يقصد به إلا فارق الارتفاع، وإلا فلا موجب للمقارنة بين رمز إسلامي عريق، وعمل من الأعمال المادية.

ثم تحدث الكاتب عن الكويت موقعًا ونشأةً، مضيفًا إلى ذلك أن أهل الكويت «عاشوا في رفاهية، وأثروا تحت حكم شيوخهم الحكماء من عائلة الصباح، وترددت شهرتهم في الأمانة من كراتشي إلى ممباسا، ومن البصرة إلى مكة، وإذا كان حقًّا أن الفينيقيين أصلهم من الخليج العربي، فإنه حق - أيضًا - أن تقاليدهم مازالت حتى الآن في نفوس بحارة الكويت وصائدي اللؤلؤ، وفي التجارة. ويتميز الكويتيون عن سائر عرب شبه الجزيرة العربية، بأخلاق البحارة من صبر وجلد واحتمال للشدائد».

ثم يبدأ في الحديث عن الثروة النفطية التي ظهرت في الكويت مع تفجر الأراضي بينابيع النفط معرجًا بعد هذا على ذكر العمل في هذا المجال قائلاً: «وتعمل في الكويت الآن (١٩٥٥م) شركتان للبترول، الأولى شركة الكويت للبترول، وتملكها شركتان.. شركة البترول الإنجليزية - الإيرانية، وشركة الخليج للتنقيب والكشف (وهي نفسها أحد فروع شركة اتحاد الخليج الأمريكية للبترول) والثانية شركة البترول الأمريكية المستقلة أو (أمين أويل) التي بدأت أعمالها منذ وقت قريب فقط».

وفي أكتوبر لسنة ١٩٣٧م، عثرت الشركة على بئر للبترول في مكان يسمى «البرقان» على بُعد ٢٥ ميلاً جنوبي مدينة الكويت، وهذا المكان لا يزيد عن كونه نقطة صغيرة على الخريطة، مثل آلاف النقط الصغيرة غيرها، ولكن البئر التي اكتشفت فيه كانت أغنى بئر للبترول في العالم أجمع في ذلك الوقت. وقد عطلت الحرب العالمية الثانية العمل فيها ولكنه استؤنف في سنة ١٩٤٦م. وفي خلال السنوات التسع الماضية كانت هذه البئر سببًا في تقدم الكويت بشكل رائع».

وبعد حديث قصير عن مساحة العاصمة، وتعداد السكان في كامل البلاد، وبعد إشارة إلى أن عدد السكان كان يصل إلى ثلاثمائة ألف نسمة - نصفهم على الأقل يعيش في العاصمة في حين يتوزع النصف الثاني على باقي المناطق الكويتية.

وذكر الكاتب - بعد ذلك - أن الكويت الحديثة هي بمثابة نقطة توازن بين الشرق والغرب، ولم يجد ما يُفهم منه النفور من الجانب الآخر بل على العكس من ذلك، إذ رأى تفاهمًا بين الطرفين اللذين يمثل الجانب الغربي منهما شركات النفط العاملة، ورأى أن الكويت تحافظ على تقاليد الطرفين وتفوز باحترامهما. وهما - الحكومة والشركات - يفوزان بناتج العمل النفطي ويتقاسمان الأرباح الناتجة عنه منذ سنة ١٩٥١م. ثم يضيف إلى ذلك قوله: «ومنذ تفجر هذه الثروة قررت

الكويت أن تحافظ على تقاليدها وأن تأخذ بأسباب المدنية الحديثة التي تلائمها. وكانت النتيجة مزيجًا من القديم والجديد، وكلاهما رائع.

ويحيط بمدينة الكويت سور يبلغ طوله أكثر من خمسة أميال به ثلاث بوابات رئيسية، وتمتد المدينة بسرعة خارج السور.

ولقد قرّر حكام الكويت أن يرسموا سياسة عامة تتلخص في ثلاث نقاط رئيسية، وهي توفير الماء والكهرباء لكل منزل، وتعميم الخدمات الطبية حتى تشمل كل العائلات، وتوفير التعليم الصالح لكل الأطفال والشباب.

ولقد بدؤوا في تنفيذ هذا البرنامج فأنشؤوا كثيرًا من المدارس، وقد بنتها شركات أجنبية، وتكاد المدرسة الثانوية بالكويت أن تكون أقرب إلى الجامعات منها إلى المدارس الثانوية، وأبنيتها لم تتم كلها وحينما تتم تكون قد كلفت خمسة ملايين جنيه، وعدد طلبتها الآن (٥٠٠) طالب ولكن ينتظر أن يكون (٩٠٠) طالب في العام القادم».

وتحدث - أيضًا - عن محطة تقطير المياه من البحر، وهي تقوم - في الوقت نفسه - بتوليد الكهرباء، وتحدث عن آلاف السيارات التي تسير في شوارع الكويت وعن سعر البنزين الرخيص الذي يقدم لسائقيها، ذاكرًا أن الكويت تستهلك في الشهر نحو مليون جالون من البنزين.

وقال إن الحكومة تتكون من عائلة الصباح، وهم متعاونون فيما بينهم، ودلل على ذلك فيما تم عندما حدثت كارثة الأمطار فظهر التعاون الجلي بين هؤلاء، وبين رجال الكويت الذين أسهموا بجهودهم، وأموالهم في مقاومة الأضرار.

وفي الختام جاء دور الحديث عن مدينة النفط وهي الأحمدي فذكر أنها مقر شركات النفط، وأن من سكانها ثمانمائة بريطاني، وخمسون أمريكيًا، وما يقرب

من ستة آلاف عامل أغلبهم من الكويتيين، وأن عدد آبار النفط - في ذلك الوقت - كان مائة وستين بئرًا تنتج سبعة وأربعين مليون طن سنويًا.

ولم ينه المقال حتى أورد ما يلي:

- حصيلة الحكومة الكويتية من ضريبة البترول نحو سبعين مليون جنيه استرليني في السنة.

- يقول رجال شركة البترول في الأحمدي: إن سيارة واحدة من كل سيارتين في بريطانيا تسير بواسطة بترول الكويت.

أما الجريدة البريطانية الثانية التي نشرت موضوعًا عن الكويت في اليوم الثاني من شهر يوليو لسنة ١٩٥٥م، فهي «الإيكونومست» وهي جريدة ذات شهرة عالمية تهتم أكثر ما تهتم بالشؤون الاقتصادية، ومنها اقتصاديات النفط.

وكان عنوان الموضوع هو: «التقدم الاجتماعي في الشرق الأوسط»، استهلته بحديث عام عن حركة التعمير والإنشاء في بلاد البترول بصفة عامة وذلك منذ ثلاث سنوات سابقة لكتابة المقال، وأكدت الصحيفة أن البناء والتعمير هما في الوقت الحاضر (آنذاك) المجال الذي يتركز حوله النشاط الحيوي الاقتصادي وبخاصة في تلك المدن القريبة من آبار النفط.

ففيما يتعلق بالمباني السكنية فقد كانت شركة النفط هي البادئة في إنشاء عدد من المساكن اللائقة بموظفيها وعمالها لأن عمل هؤلاء كان في مناطق صحراوية ليس فيها مجال للسكن دون أن تقوم الشركات المستخدمة لهم بإعداد المساكن لهم، وقد لفت هذا النشاط نظر الدولة فصارت تجهز هي الأخرى مساكن لائقة لموظفيها ومواطنيها، بل لقد صار عدد من المواطنين يهتمون ببناء مساكن خاصة بهم ومن هنا كانت دائرة العمل في هذا المجال مكتملة.

وانتقلت الصحيفة إلى مجال آخر من مجالات الحديث عن التطورات الحادثة في الكويت وفي المنطقة التي تضم الدول المنتجة فمن ذلك ما ورد في المقال عن يقظة الرأي العام، وذلك بإقبال الناس على التعليم، والانفتاح على الثقافات العالمية، والاطلاع على طرق التفكير لدى مختلف الأمم، مما وسع الآفاق وزاد في قوة التفكير، وذلك بالإطلال على العالم من جانبه الأرحب.

ثم يقول: «وأصبح من المناظر المألوفة في الشرق الأوسط أن يجلس المتخرجون في المدارس والجامعات في زيهم العربي إلى مكاتب الحكومة، وأن تذهب نساء العرب للعلاج في المستشفيات وأن ترى تلميذًا يرسم لوحة عن الذباب وضرره على الصحة وماذا يجب اتخاذه من الاحتياطات للوقاية من أضراره، وأن ترى مجموعة كبيرة من العرب تخرج في السيارات في رحلات خلوية أيام الجمع».

ويضيف بعد ذلك: «وكتب المتعلمون وخريجو جامعات مصر وغيرها، في الصحف المحلية في الكويت والبحرين وغيرها من بلاد الشرق الأوسط، وتناقشوا بصراحة في أنديتهم، وفي جميع الأمور التي تمس شؤونهم».

ولعل من الجدير بنا أن نذكر هنا ما نلاحظه على الكاتب من اهتمام بإعطاء النفط دورًا كبيرًا في شتى شؤون الحياة فإن كثيرًا من الأمور التي ذكرها، وأشار فيها من طرف خفي إلى أنها جاءت بعد التدفق النفطي ووصول عائداته إلى البلاد إنما هي أمور عادية جارية في البلاد، فذهاب النساء إلى العلاج في المستشفيات ليس غريبًا في البلاد وقد تم البدء بإنشاء مستشفى الإرسالية الأمريكية في سنة ١٩١٢م.

ومنذ ذلك الوقت والنساء يقبلن على العلاج عنده وبخاصة بعد أن افتتح فرعًا خاصًا لهن، والعناية بالوقاية الصحية كانت موجودة - أيضًا - منذ زمن طويل يمتد إلى ما قبل تدفق النفط أما الخروج في الرحلات الخلوية فهو غير جديد ألبتة،

ذلك أن من عادة الكويتيين التي لا تزال سارية حتى اليوم القيام برحلات البر والتخييم فيه خلال عطلات الربيع.

ومع هذه الإشارات غير الإيجابية فإننا نجد دلائل أخرى على وصف الحال القائم في سنة كتابة المقال، فالأمر لا يخلو من فائدة ولذلك اهتمت جريدة «الكويت اليوم» الرسمية بتقديمه إلى قرائها.

ليس هذا المقال سردًا تاريخيًّا لما مرّ بالكويت خلال سنة ١٩٥٥م، وإنما هو إشعار بالنظرة التي كانت الصحافة العالمية تنظر إليها بها. وهنا نستطيع أن نلحظ الإعجاب الواضح بالتقدم الكويتي في تلك الفترة وبخاصة ما ورد في المقال الأول الذي نشرته صحيفة «التيمس». وهناك مقالات كثيرة كتبت عن هذه الفترة لو جمعت من مظانّها لعثرنا فيها على معلومات قيمة.

****

الأديب الشاعر الدكتور عبدالله الطيب في الكويت[1]

هذا الرجل من الرجال الذين نعتز بهم، فهو عالم جليل، واسع العلم موسوعي بمعنى الكلمة يقول الشعر ويكتب في مجالات شتى، أستاذ جامعي له دور كبير في تطوير التعليم العالي في السودان حيث موطنه وفي عدد من الدول الأفريقية.

كان شيخنا الأستاذ السيد أحمد صقر يدرسنا في المعهد الديني مادة الأدب، وكان حريصًا أن يبلغنا بأسماء الكتب التي ينبغي علينا الإطلاع عليها إذا أردنا العلم من أجل العلم لا من أجل الامتحان فحسب. وهو يقول إن الإمتحان يكفي له كتابكم المقرر عليكم، ولكن العلم بحر واسع لن تنالوه إلا بكثرة الإطلاع.

وكانت من الكتب التي نصحنا بقراءتها كتاب من تأليف الدكتور عبدالله الطيب هو: «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها»، ولم أتمكن من الحصول على هذا الكتاب إلا في أواخر سنة ١٩٥٧م حين ذهبت إلى القاهرة للدراسة، وكنت سعيدًا به، وبما فيه من معلومات مهمة، وسعدت به أكثر حين رأيت العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر يثني عليه كثيرًا ويقول عنه إنه من أهم الكتب في بابه.

وما إن أنهيت قراءة الكتاب حتى رأيت مؤلفه وهذه الرؤية كانت من المصادفات السعيدة بالنسبة إليّ. كان قد قدم إلى القاهرة، وأول ما فعله هو زيارة صديقه الأستاذ محمود شاكر، وكانت تلك الأمسية التي لقيته فيها من أحلى الأمسيات لما دار فيها من أحاديث شيقة بين قمتين من قمم العلم: شاكر والطيب.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٩م.

واستمرت اللقاءات بيني وبينه، ثم صار يأتي إلى الكويت، فأجد زيارته فرصة للتمتع بما يحويه قلبه وعقله من معلومات يأخذها المرء سهلة وميسرة ويستمع إليه وكأنه يستمع إلى رجل من رواة الأدب والشعر القدماء لقد كان الدكتور عبدالله الطيب تجديدًا لأولئك الرجال الذين افتقدهم تاريخنا مدة طويلة وكان في عمله ورغبته في نشر العلم صنوًا للأستاذ محمود شاكر، بل وكان سهولة التفافنا حوله، ورغبته بلقائنا تُؤكِّدُ تلك المماثلة بين الرجلين الكبيرين.

«المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» كتاب ضخم يقع في أربعة مجلدات طبع أول ما طبع في مصر وكان يتكون – آنذاك – من ثلاثة مجلدات، ثم زاد الرابع، وأعاد طبعه في الكويت خلال سنة ١٩٩٦م برعاية الشيخة حصة صباح السالم الصباح، التي كانت تولي المؤلف اهتمامًا كبيرًا يليق بمكانته العلمية، وهذا الاهتمام منها بالكتاب وبصاحبه مما تشكر عليه، وهي التي عودتنا على المبادرات الطيبة في مجالات الثقافة والآثار وغيرهما.

على كل حال فإن هذا الكتاب جدير بالدراسة والاهتمام، وهو مفتاح يفتح لك ديوان العرب وهو الشعر على مصراعيه وهو إلى جانب إيضاح الطريق فيه إشارات كثيرة مفيدة، وفيه مختارات من الشعر جميلة، وهو لا يفصل مرحلة من مراحل الشعر عن الأخرى لأننا نجده في الجزء الرابع يتحدث على سبيل التمثيل عن محمود حسن إسماعيل وعن الشابي بدءًا بالبارودي وشوقي، بل ولا ينسى البياتي والسياب ونازك الملائكة ونزار قباني ومحمد الفيتوري، بعد أن كان قد ذكر في الأجزاء الثلاثة الأولى نماذج من شعر عدد من الشعراء المتقدمين ممثلًا بها لأغراض كتابه الذي تحدث فيه عن بحور الشعر، وعن الجرس اللفظي فيه، وعن الأغراض والمقاصد وأطوار الأساليب.

وكان الدكتور الطيب قد فرغ من تأليف الجزء الأول من كتابه «المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها» في سنة ١٩٥٢م، وحظي الكتاب بمقدمة كتبها الدكتور طه حسين أثنى فيها كثيرًا على الكتاب وعلى مؤلفه، وكان مما جاء فيه قوله: «هذا كتاب ممتع إلى أبعد غايات الإمتاع، لا أعرف أن مثله أتيح لنا في هذا العصر الحديث، ولست أقول هذا متكثرًا أو غاليًا، أو مؤثرًا إرضاء صاحبه، وإنما أقول عن ثقة وعن بينة، ويكفي أني لم أكن أعرف الأستاذ المؤلف قبل أن يزورني ذات يوم، ويتحدث إليّ في كتابه هذا، ويتركه لي أيامًا لأظهر على بعض ما فيه، ثم لم أكد أقرأ منه فصولًا حتى رأيت الرضى عنه والإعجاب به يفرضان علي فرضًا، وحتى رأيتني ألحّ على الأستاذ المؤلف في أن ينشر كتابه».

ولد عبدالله الطيب بن عبدالله المجذوب في سنة ١٩٢١م بقرية التميرات غربي مدينة الدامر جنوبي ملتقى نهر النيل بنهر عطبرة في شمالي السودان، تلقى تعليمه في مدينة الدامر القريبة من القرية التي ولد فيها ثم انتقل إلى مدينة كسلا ثم بربر حيث أكمل المرحلة الثانوية وانتقل إلى الخرطوم حيث أكمل تعليمه بكلية غوردون التي صار إسمها فيما بعد جامعة الخرطوم، وقد حصل على شهادة الشرف في سنة ١٩٤٨م وانتقل إلى لندن حيث حصل من جامعتها على الدكتوراه في سنة ١٩٥٠م.

ومنذ عاد من دراسته وهو يعمل أستاذًا في الحقل الجامعي، وكان له نشاط في المجال الثقافي والتربوي، وقد أثرى الحياة العلمية والثقافية بمؤلفاته ومحاضراته ومشاركاته في الندوات المتعددة، وقد كان قبل أن يعمل بالجامعة مدرسًا في المرحلة الثانوية بالسودان ثم صار رئيسًا لقسم اللغة بمعهد التربية، وعمل محاضرًا في جامعة لندن منذ سنة ١٩٥٠م حتى سنة ١٩٥١م. ولما عاد صار محاضرًا ومدرسًا بجامعة الخرطوم كما ذكرنا آنفًا. وانتدب للعمل أستاذًا للتعليم العالي بجامعة

سيدي محمد بن عبدالله بفاس المغربية منذ سنة ١٩٧٧م حتى سنة ١٩٨٦م. وكان قبلها قد اختير عميدًا لكلية الآداب بجامعة الخرطوم في سنة ١٩٧٤م.

وفي حديث الموسوعة العربية العالمية عنه ما يدل على نشاطه الفائق، وقدرته الفريدة في العمل فقد جاء فيها: «وقد وضع عبدالله الطيب اللبنات الأولى لكثير من صروح التعليم في السودان وخارجه، ففي عام ١٩٦٤م انتدب لإنشاء كلية عبدالله بايرو وبكنو بنيجيريا وكان أول مدير لها، وقد أصبحت، فيما بعد، جامعة مستقلة (جامعة بايرو)، وفي عام ١٩٧٥م عين مديرًا لجامعة جويا وكلف إنشاءها، كما كلف تأسيس مجمع اللغة العربية بالسودان ١٩٩٠م، وتم افتتاحه ونيطت به رئاسته (١٩٩٣م)، وهو عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

نال لقب الأستاذ الممتاز مدى الحياة من جامعة الخرطوم (١٩٧٩م)، كما منح الدكتوراة الفخرية من الجامعة ذاتها (١٩٨١م)، ومن جامعة بايرو بنيجيريا (١٩٨٨م)، ومن جامعة الجزيرة بالسودان (١٩٨٩م).

عضو محكم في اللجان العلمية لترقية أساتذة الجامعات لكثير من الجامعات العربية والإسلامية والعالمية كما اختير محكمًا في اللجان العلمية لبعض الجوائز مثل جائزة الملك فيصل العالمية بالمملكة العربية السعودية.

شارك في مؤتمرات علمية كثيرة داخل السودان وخارجه، وله مشاركات جمة في الإذاعة والتلفاز منها: تفسير القرآن الكريم كاملًا، ودروس في السيرة وأعمال أدبية وثقافية أخرى كثيرة».

الدكتور عبدالله الطيب له مؤلفات كثيرة غير كتابه «المرشد» الذي تحدثنا عنه في بداية هذا المقال، إذ له أكثر من أربعين مؤلفًا، وله عدة دواوين فهو شاعر له شعر رائق يحرص الكثيرون من القراء على متابعته وقراءته والتمتع به، وله إلى

جانب ذلك كتاب حوى ذكرياته عن نيجيريا حين كان يعمل بها، وفيه شيء عن تاريخ هذه البلاد وبيان أحوالها وأحوال أهلها. وفي الكتاب إلى جانب ذلك مختارات شعرية جميلة، وفيه أيضًا بعض أشعار المؤلف.

كان شعره رقيقًا لا يتردد في استعمال الألفاظ السهلة إلى جانب الألفاظ الجزلة، ولا المعاني العالية إلى جانب المعاني القريبة جدًا من أذهان الناس، واسمعه يقول:

شفتاكَ كاكاو وأنتَ ملبس
وأريدُ منكَ الضمَّ والتقبيلا
سألتُ وتحسبُني بَخِلْتُ ولم أكنْ
يا كانمية[1] إذ سألتَ بخيلا

وكان مع هذا يقوم بترجمة القصائد الإنجليزية إلى العربية، ويصوغها شعرًا حتى تظن أنه هو الذي قالها ابتداءً، وله عدد كبير من هذا النوع تجد بعضه في كتابه «بين النير والنور».

ومن جميل شعره قصيدته التي سماها «غربة وذكرى» وهي إحدى قصائد ديوانه الذي صدر له تحت عنوان «أصداء النيل» المطبوع في طبعته الأولى سنة ١٩٧٥م فيها:

طالَ اغترابُ الوحيدِ عن وطنِهِ
وحَنَّ هدءُ الدُّجى إلى سكنِهِ
وأذكرُ الأقربينَ فانهملَ الدمعُ
كسحَّاحِ وابلٍ هَتِنِهِ
لا خيرَ في البعدِ لا ينالُ به الـ
ـمرءُ سوى ما يزيدُ في حَزَنِهِ

(١) ويقصد بقوله كانمية: أنها منسوبة إلى بلد في نيجيريا اسمها: كانم.

والدهر كرّارةٌ نوائبُهُ

لا تُؤمَنُ الغائلاتُ من مِحَنِهِ

مَنّاكَ وعدًا حتى اغتررتَ به

فقد غرمتَ العزيزَ في ثَمَنِهِ

وبالجملة فإن قارئ هذين الكتابين سوف يطلع على مرحلة من مراحل سني عبدالله الطيب فيعرف الكثير عن السودان وعن نيجيريا، وسوف يعرف جغرافية هذين البلدين وعلى الأخص من خلال كتاب «من نافذة القطار» لأن القطار يمر في سيره على أماكن عدة يقوم الكاتب بوصفها لقارئة فكأنه يراها. إضافة إلى التعريف بعدد من الأشخاص، والمرور بكثير من الملح والنوادر كل ذلك بأسلوب راق أنيق يسعد القارئ بتتبعه ولا يستطيع أن يتجاوز نصًا من النصوص دون إكمال قراءته.

مثل كثير من العباقرة تعرض الدكتور عبدالله الطيب للأذى ولكن هذا الأذى الذي ألمّ به إنما هو من أقرب الناس إليه وهم زملائه في الجامعة الذين نغصوا عليه حياته وكادوا له وذلك بسبب حسدهم له فهو الأكثر علمًا والأوسع فهمًا وإدراكًا، وهو المشهور في البلدان العربية والبلدان الأفريقية، وفي بريطانيا، وهو ذو المؤلفات التي يحرص الناس على اقتنائها وقراءتها بل ودراستها، لما فيها من نفع كبير لا يجدونه عند كثيرين من الكتّاب غيره.

ومع ذلك فإنه لم يتأثر لذلك فقد وجدناه يتلقى هذه الأعمال السيئة وهو باسم الثغر فهو يتحلى دائمًا بالصبر والأناة، ويبتعد عن الإنفعال، وقلما رأينا منه رد فعل على هذه التصرفات التي يأتينا خبرها من بعيد، وحين نراه في زيارة له للكويت لا يظهر على محياه أي أثر لما دار، فهو رجل يعرف قيمته، ويعرف محبة الناس له، ويدري أن كل من يكيد له إنما هو حاسد.

سار في طريق العلم لا يلوي على شيء يقرأ ويبحث ويعلم ويؤلف ويحضر الندوات والمحاضرات والمؤتمرات ولا يتردد في القيام بأي أمر من هذه الأمور في أي بلد كان، إلى أن وافاه الأجل المحتوم فانتقل إلى رحمة الله في شهر يونيو لسنة ٢٠٠٣م بعد مرض شديد، وغيبوبة دامت بضعة شهور، لقد مضى مأسوفًا عليه، وعلى ما يمثله من علم وأدب وثقافة وكرم أخلاق، ووفاء وإخلاص نادرين، وكان نصيبنا الأخير منه المحاضرة التي ألقاها عندنا في سنة ١٩٩٩م وعندما غادر الكويت كان هذا آخر عهدنا به، رحمه الله وأثابه، وعوض الأمة العربية والإسلامية عنه خيرًا مساويًا للخير الذي كان عبدالله الطيب يمثله.

بعد وفاة الدكتور عبدالله الطيب، صدر كتاب تناول حياته ونظرياته في الأدب والحياة تحت عنوان «عبدالله الطيب، ذلك البحر الزاخر» ألفه الدكتور زكريا بشير إمام وهو أستاذ جامعي سوداني على صلة بالطيب وعلاقة طويلة معه، أصدر الكتاب في سنة ٢٠٠٤م وتحدث فيه عن البيئة التي عاش فيها الفقيد، وعوامل تكوينه، وتعليمه والمفاتيح الرئيسية لشخصيته، وكان الكتاب كبير الحجم تتجاوز صفحاته الثلاثمائة وأربعين صفحة، وهو مليء بكل ما يهم الباحث الذي يريد أن يعرف الكثير عن عبدالله الطيب وآرائه، وقراءاته وشعره.

ومن هنا نتناول ردود الفعل في الكويت بعد وفاة الطيب الذي كان الكثيرون عندنا يكنون له من المحبة والتقدير الشيء الكثير، بقدر ما كان يحب الكويت وأهلها.

سارعت مجلة العربي إلى إصدار ملف خاص عنه ضمن عدد نوفمبر لسنة ٢٠٠٤م. شارك فيه عدد من محبي الرجل ومقدري علمه وقدراته الفكرية، وكانت الشيخة حصة صباح السالم الصباح ممن بادر إلى كتابة أفكار عنه ركزت فيها على انطباعاته الشخصية، وعلاقتها معه بصفتها المشرفة العامة على دار

الآثار الإسلامية في الكويت وهي الدار التي طالما استزارت الرجل للمشاركة في أنشطتها المتعددة.

لقد نال الدكتور عبدالله الطيب إعجاب الشيخة حصة صباح السالم الصباح لما وجدته عنده من علم وتمكن فيه، وخلق كريم وسجايا طيبة لفتن نظرها عندما كان متحدثًا في جامعة كيمبرج البريطانية قبل أكثر من عشرين سنة وقالت: «دهشت لهذا التمكن اللغوي، مقرونًا بثقة دعت الحضور لصمت التوقير، ورغبة الاستزادة من العلم والفهم».

وكانت هذه المناسبة هي البداية التي ربطت بين صاحبنا وبين دار الآثار الإسلامية بالكويت فحضر مشاركًا في الندوات ملقيًا للمحاضرات وكانت سعادة الشيخة بمشاركة رجل مثله كبيرة، ولكن سعادتنا به كانت أكبر فقد كنا حريصين على الالتقاء به وتجديد صلاتنا معه، ولقد كانت الشيخة مثالًا صادقًا للوفاء حين زارته وهو على الفراش في مرضه الأخير في أحد مستشفيات لندن، تقول: «وجدته قد ذهب في غيبوبة لم تذهب بوقار وجلال سمته، استقبلتني زوجته بأسارير مرحبة، واقتربت من أذنه تبلغه بحضوري، وطلبت منه أن يهمس بكفه علامة الإدراك.

وضعت كفي الحانيه في كفه الواهنة، تلقى الرسالة في أناة، وانتظرنا الإجابة في قلق، أجاب بضغطة هينة، أسعدتني بقدر ما أدمعتني.

أدركت أنها اللحظة الفارقة بين الأولى والآخرة.. إنها لحظة الفراق».

وممن شارك في كتابة ملف مجلة العربي الذي أشرنا إليه أخي الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، الذي كان على صلة قديمة بالفقيد، منذ لقائه به في منزل الأستاذ محمود شاكر رحمه الله، ومقال الدكتور عبدالله يحكي عن علاقته

بالدكتور عبدالله الطيب، ويصور لنا تلك المجالس العامرة بالعلم والأدب والفكر الراقي المتمثلة في مجلس الأستاذ محمود، وقد وصف ما دار في إحدى الجلسات ما يصور العلاقة بين أولئك الجالسين، وبين قدر الدكتور الطيب في نفس أستاذنا أبي فهر، كما تحدث عن اتصاله به في جلسات المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة وتحدث عن ذلك فقال: «كان عبدالله الطيب من بين الأعضاء المواظبين على حضور المؤتمر السنوي للمجمع، كانت له يقظة وانتباه ومشاركة واعية في الجلسات التي تناقش فيها المصطلحات، ويقدم مقترحاته بلباقة مصحوبة بالشواهد الدالة على ما ذهب إليه وتساعده في ذلك ذاكرة فذة قادرة على استحضار ما شاء من تراث العرب القديم المنثور والمنظوم».

لقد فقدنا العلامة الدكتور عبدالله الطيب، ولكننا لم نفقد علمه، ولم نفقد ذكرياتنا عنه وعن مجالسه الممتعة ولا الفوائد الجمة التي نلناها في تلك المجالس، وبخاصة مجالسه معنا في الكويت حيث يكون مرتاحًا للقاء سعيدًا به لأنه يعرف مدى محبتنا له، كما أننا لم نفقد آثاره الفكرية المكتوبة في عدد كبير من الكتب، ولا أشعاره الجميلة، ولا ما صوره لنا من أطوار حياته فيما كتبه عن سيرته الذاتية في أي مكان حلّ. لقد كان عبدالله الطيب كما قال الدكتور زكريا إمام في كتابه بحرًا زاخرًا مليئًا بالعلم، حريصًا على إيصال علمه إلى كل من يتطلع إليه طالب المعرفة.

رحم الله فقيدنا بقدر ما قدم لنا ولأمته.

****

حرف الحاء في اللهجة الكويتية (١)[1]

لنخرج بهذا المقال عن الطرق التي تعودنا سلوكها في المقالات السابقة. فهذا مقال منوع تكتنفه اللهجة الكويتية من كل جهة، ولكنه يضم أشياء متعددة.

حرف الحاء هو السادس في ترتيب حروف الهجاء، وهو حرف من الحروف التي تخرج من الحلق وهي ستة يجمعها قول صاحب الأرجوزة المعروفة باسم «تحفة الأطفال» وهي في علم تجويد القرآن الكريم:

همزٌ فهاءُ ثم عينٌ حاءُ

مهملتان ثم غينٌ خاءُ

وقد تداولت اللهجة الكويتية استعمال هذا الحرف في كل مخاطباتها، وجاءت منه أسماء عدد من الأشخاص والأماكن، وجاءت منه بعض الأمثال العامية، كما جاء ضمن أسماء الأعشاب التي تعيش في البيئة أو ما حولها، وأخيرًا في ألفاظ الخطاب العادي.

لن نستطيع أن نلم بكافة ألفاظ لهجة الكويت المحتوية على حرف الحاء، ولكننا سوف نلجأ إلى الاختيار والإيجاز. وسوف نقوم بتقسيمها كما يلي:

١ - ما جاء في أسماء الأشخاص.

٢ - ما جاء في أسماء الأماكن.

٣ - ما جاء في الأمثال.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٧/١٦م.

٤ - ما جاء في أسماء الأعشاب والأدوية.

٥ - ما جاء في ألفاظ الكلام العام.

٦ - ما جاء في أسماء الأسماك.

وسوف نختار من الألفاظ ما يبدأ بالحرف المذكور حتى لا نضطر إلى التوسع في ذكر كثير من الأمور، وفي ذلك الكفاية لكثرة ما سوف يجده القارئ من ألفاظ ذكرناها بحسب اختيارنا هذا.

والواقع أن نواحي استعمالات اللهجة كثيرة، وألفاظها لا حصر لها، وأي مدعٍ بأنه سوف يحيط بها فإنه غير موفق إلى الصواب. ولقد اكتفينا بالمجالات الستة السابق ذكرها بصفتها أهم ما يمكن أن يجده الكويتي في لهجته، ولكن هذه هي بداية عمل سوف يكون واسعًا إن تتبعناه، ولا أعد بهذا التتبع لسبب بسيط هو أن هذا ليس موضعه وأنه يحتاج إلى جهد جهيد.

وعلى كل فإن ما سوف نقدمه في هذا المقال والمقالين اللذين سوف يأتيان بعده إنما هي إشارات تفيد من يريد أن يتابع البحث حتى يصل فيه إلى نهايته إن أراد ذلك.

هنا نعود إلى المجالات الستة بادئين فيها بحسب الترتيب الذي أوردناه.

أولاً: ما جاء في أسماء الأشخاص

نعرض هنا عشرة أسماء لشخصيات كويتية تبدأ كلها بحرف الحاء، وليس هؤلاء هم كل من ينطبق عليهم هذا الشرط، ولكننا اخترنا بعضًا منهم بصورة جزافية، علمًا بأننا قد عرضنا معلومات كثيرة في مقالات سابقة عن بعض من لم نذكر هنا. وهذا بيان ما تقدم:

١ - الشيخ حمود بن جابر الأول، كان قائداً حربيًا مشاركًا في كثير من المعارك التي حدثت دفاعًا عن الكويت، واستشهد في حرب الصريف سنة ١٩٠١م.

وهو ابن الشيخ جابر بن عبدالله الذي يلقب بجابر العيش لكرمه وتقديمه الأرز للمحتاجين تولي الحكم في سنة ١٨١٤م وتوفي في سنة ١٨٥٩م. كانت له أنشطة بارزة لمصلحة البلاد، وازدهرت التجارة في عهده كثيرًا، واستقبل عددًا من الزوار الأجانب الذين أعجبوا باستقرار الكويت وهدوء الأحوال فيها.

٢ - الشيخ حمد المبارك الصباح، وهو أحد أبناء الشيخ مبارك الصباح، ولد في سنة ١٨٩٤م، وكان محبوبًا من والده لما يجد فيه من تفهم ورجاحة عقل وشجاعة، وكان ينوب عن الشيخ أحمد الجابر الصباح في أثناء غيابه، توفي شابًا في سنة ١٩٢٨م.

٣ - حمد عبدالعزيز الحميدي، معلم شديد الاجتهاد في عمله، حريص على تكوين نفسه بالإنكباب على الدراسة، ولد في حي القبلة سنة ١٩١٧م، ودرس في عدة مدارس أهلية (كتاتيب)، ثم درس في المعهد الديني، حيث عرفته مع عدد آخر من الزملاء، وعندما تم افتتاح معهد النور للمكفوفين، ولما كان مكفوف البصر فقد توجه إلى هذا المعهد حيث تعلم فيه القراءة والكتابة على طريقة «بريل» الخاصة بالمكفوفين.

درس بعد ذلك في القاهرة ضمن البعثة الكويتية هناك، ونال دبلومًا في تعليم المكفوفين ثم عمل في سلك التدريس إلى أن تقاعد في سنة ١٩٨٢م، كان ساعيًا باستمرار - لخدمة فاقدي البصر، ألّف لهم رسالة حول بدء تعليم الطفل المكفوف شاركه في تأليفها زميله عيسى اللوغاني، كما أسهم في إنشاء جمعية المكفوفين، وكان عضوًا فيها ورئيسًا لمجلس إدارتها مدة طويلة.

انتقل إلى رحمة الله في يوم الخميس الموافق للرابع عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٣م.

٤ - حسن جوهر حيات، من المشتغلين بالسياسة منذ سنة ١٩٦٢م حين صار عضوًا في المجلس التأسيسي الذي أعد دستور الكويت، ثم صار عضوًا في مجلس الأمة الأول (١٩٦٧ - ١٩٧٠م)، ومجلس الأمة الثاني (١٩٦٥ - ١٩٧٠م) ومجلس الأمة الثالث (١٩٧١ - ١٩٧٥م)، كان رجلاً هادئًا وديعًا، محبًا لأصدقائه حريصًا على مداومة الاتصال بهم، وكان يقدم أفكارًا طيبة في كلا المجلسين اللذين كان عضوًا فيهما، وهو إلى جانب ذلك محبوب بين الناس، توفي في اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٧٨م، رحمه الله.

٥ - حسين عبدالله حمد العجيمان، كان من سكان الجهراء، وهو من مواليد سنة ١٨٩٧م، وهو ملا يدرس في مدرسة أهلية خاصة به. وكان يسعى في هذه المدرسة إلى أن يعوض الطلاب الذين اتجهوا إلى المدرسة الحكومية بدروس في القرآن الكريم ومبادئ الدين الحنيف، واللغة العربية، وكان يتولى ذلك في فترة صباحية فقط خلال العطلة المدرسية الصيفية. وكان إلى جانب ذلك مؤذنًا ثم إمامًا وخطيبًا في مسجد الجهراء القديم، توفي في سنة ١٩٨٤م، رحمه الله.

٦ - حليمة فرج العمر. إحدى المدرسات القديمات ولدت في سنة ١٨٩٠م، وتلقت تعليمها في كتاتيب ذلك الزمان، وكان مما درسته فيها القرآن الكريم واللغة وسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والتفسير.

اتجهت إلى القيام بمهمة التعليم، فكانت تستقبل فتيات الفريج في بيتها بتشجيع من زوجها صالح سالم التواجر، وكانت تتولى التدريس مرتين في اليوم صباحًا ومساءً بمفردها، ولكن أختها المطوعة مكية أو صديقتها المطوعة فاطمة المطاوعة كانتا تنوبان عنها عندما تكون في رحلتها إلى الحج. كانت ذات شخصية قوية، تحترمها طالباتها، ويهبن حزمها. وقد أمضت مدة طويلة في هذا العمل الشريف بحيث مرت عليها أجيال من الطالبات حتى صار عدد من أنهين دراستهن عندها كبيرًا جدًا ولم تتوقف عن العمل في كتابها إلا بعد أن شاخت وأصابها الوهن، ثم توفيت في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٧٨م.

٧ - حجي بن جاسم الحجي. شاعر وأديب من مواليد سنة ١٩٠٣م، درس في الكويت حيث مسقط رأسه، وارتحل في طلب العلم في الأحساء وقد أقام هناك فترة ثم عاد إلى وطنه، له شعر نشر الشيخ عبدالعزيز الرشيد نماذج له، وله عمل جيد في مكتب الكويت بدبي الذي عيّن مديرًا له في اليوم الثامن عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٣م وعندما عاد من هذه المهمة تم اختياره لعضوية اللجنة العقارية في دائرة بلدية الكويت، ثم صار أحد أعضاء الهيئة العامة لمساعدة الخليج والجنوب، وتفرغ بعد أن غادرها لعمله التجاري، وتوفي رحمه الله في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو لسنة ١٩٧٤م.

وشعر حجي جاسم الحجي الذي نشره له الرشيد متنوع الأغراض، ففيه شعر النصائح وشعر الشكوى، والغزل، وغيرها من الأغراض، ومما جاء في كتاب «تاريخ الكويت» قصيدة نظمها حجي جاسم الحجي يحيي فيها النادي الأدبي، ويذكر الآمال المعقودة على هذا النادي وعلى الشباب المتكاتفين حوله منها قوله:

أَفِقْ يا علْمُ من نومٍ عميقٍ
فإن القومَ أضحوا ناهضينا
ويا شمسُ المعارفِ أسْعِفيهِ
فنحوكِ هُمْ غدوا مُتطلعينا
أَمِدَّهُمُ إذا سألوكِ عِلْمًا
وأخلاقًا بها تَحْيا البَنُونا
وَداويهِمْ إذا سألوكِ برأً
يُزَجّي عنهمُ الدّاء الدَّفينا

وهكذا ...

وله بيتان يتحدث بهما إلى الزمان حديثًا لا يتناسب مع سنِّه في ذلك الوقت فهو يقول:

صَحِبْتُكَ يا زمانُ بشرطِ ألاّ
تُعاكِسَني بأمرٍ من أموري
وأن تَرنو إليَّ بعينِ طَوْعي
كما يَرنو الصَّغيرُ إلى الكبيرِ

وقد ذكر عنه الرشيد في آخر حديثه: «وقد كان لهذا الشاب الناهض - أيضًا - نثر رقيق وخيال واسع في ميدانه، فهو يستحق الإعجاب إذن بنثره وشعره».

٨ - حمد الزوير الهاجري، ولد في سنة ١٨٨٧م في شرقي العاصمة، واستحسن عندما كبر الانتقال إلى الفحيحيل، فباع بيته المجاور للمدرسة الشرقية، وعاش هناك، كان من المشاركين في معركة الجهراء التي نشبت في سنة ١٩٢٠م إبان عهد الشيخ سالم المبارك الصباح، عمل في الغوص حتى كان

من نواخذة الفحيحيل المشهورين وامتلك سفينتين تقومان بهذا العمل الذي استمر به إلى أن إنهار سوق اللؤلؤ في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي. واهتم بالزراعة، فكانت له مزارع تنتج الكثير من المزروعات.

توفي - رحمه الله - في سنة ١٩٦٢م.

٩ - حمدان أحمد الحمدان، أحد المعلمين القدماء، ولد في سنة ١٨٧٨م، وكان من أسرة معروفة بحب العلم والإقبال على عمل الخير وكان والده الشيخ أحمد بن حمدان الحمدان مؤسس المسجد الأول في قرية الفنطاس، وقد عمل الوالد في هذا المسجد مؤذنًا وإمامًا ومعلمًا.

درس الملا حمدان على يدي والده، وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، شارك في كثير من الأعمال الوطنية كقيامه بخوض معركتي حمض (١٩١٩م) والجهراء (١٩٢٠م) وشارك في بناء سور الكويت الثالث.

توفي - رحمه الله - في اليوم السابع من شهر فبراير لسنة ١٩٦٨م.

١٠ - د.حمود عبدالله الرقبة، أستاذ جامعي ونائب ووزير له خدمات كبيرة للبلاد، ولد في اليوم الثامن عشر من شهر يوليو لسنة ١٩٥١م، وحصل على شهادة الدكتوراه من بريطانيا، وصار عميدًا لكلية الهندسة والبترول بجامعة الكويت، ثم مديرًا عامًا لمعهد الكويت للأبحاث العلمية، ودخل الوزارة في شهر إبريل لسنة ١٩٨٨م، واستمر فيها على مرحلتين الأولى في وزارة الكهرباء والثانية في وزارة النفط، وكان آخر المرحلتين في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لسنة ١٩٩٢م. ساهم مساهمة كبرى في عملية إطفاء حرائق النفط، وكانت عضويته في مجلس الأمة في سنة

١٩٩٦م. له أنشطة كثيرة في مجالات شتى، وقد توفي - رحمه الله - في اليوم السادس والعشرين من شهر مايو لسنة ٢٠٠٧م.

كانت عملية إطفاء حرائق النفط التي أشعلها في آباره صدام حسين وزبانيته ملحمة وطنية بكل المقاييس احتشد لها الجميع بالعمل وبالدعاء، وقد تم الإطفاء بأسرع ما توقعت المؤسسات العالمية التي تخصصت في أمور إطفاء حرائق الآبار النفطية. واحتفلت الكويت احتفالاً كبيرًا بهذه المناسبة.

وقد نال الدكتور الرقبة الكثير من الثناء في الداخل والخارج ومنح درجة الدكتوراه الفخرية من فرنسا لهذا السبب.

هذه هي نهاية الحلقة الأولى من حلقات مقال «حرف الحاء في اللهجة الكويتية»، وسوف تأتي الحلقة الثانية في العدد القادم إن شاء الله.

****

ملحاق خير

صرفتني الاهتمام بالمعلومات التي ضمنتها المقال السابق من الأزمنة والأمكنة الذي كان موضوعه: «الأديب الشاعر الدكتور عبدالله الطيب في الكويت» عن أمر مهم يتعلق باتصاله بالكويت، وهذا الأمر له علاقة وطيدة بعمله الأكاديمي الذي برز فيه. وقد لفت نظري إلى هذا التقصير أخي الأستاذ الدكتور مرزوق يوسف الغنيم، حيث هاتفني ليقول لي أنني سهوت عن إيراد شيء عن الفترة التي جاء فيها إلى الكويت، وصار أستاذًا زائرًا خلالها في كلية التربية التابعة للهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب، ومما يشار إليه أن الأخ مرزوق كان عميدًا لتلك الكلية خلال فترة الزيارة.. وكنت أنوي الإشارة إليها ولكن تزاحم المعلومات عن الدكتور الطيب هي التي أدت إلى انصراف ذهني عن هذه المسألة المهمة.

جاء الدكتور عبدالله الطيب إلى الكويت بصفته أستاذًا زائرًا للكلية المذكورة يوم كانت تسمى معهد التربية للمعلمين، وذلك خلال سنة ١٩٨٦م، وكان له عمل مرموق في أرجاء الكلية استفاد منه الطلبة الذين حضر لهم وتحدث إليهم، واستمع إلى أسئلتهم ورد عليها، كما كان له أثر كبير في المناقشات التي دارت حول كثير من قضايا اللغة والأدب مع أساتذة الكلية. وعلى العموم فقد كان شهرًا نافعًا أثرى الدكتور الطيب خلاله البحوث العلمية وشحذ الأذهان، وكان حضوره موضع سعادة لمن حضر إليه واستمع إلى محاضراته وإلى المناقشات التي تمت في ختامها، هذا وقد

ألقى محاضرة عامة ضمن محاضرات موسم المعهد الثقافي لسنة ١٩٨٤ - ١٩٨٥م، كان موضوعها «الشاعر التيجاني يوسف بشير» وهو من كبار شعراء السودان، وقد ألقاها مساء يوم الأربعاء الثالث من شهر أبريل لسنة ١٩٨٥م. ونشرت في الكتاب الذي يضم محاضرات الموسم، وتناولت كافه جوانب حياة الشاعر وفنه.

آسف للتقصير، وأشكر أخي الدكتور مرزوق يوسف الغنيم.

****

حرف الحاء في اللهجة الكويتية (٢)[1]

بدأنا في مقالنا الماضي الجزء الأول من حديثنا عن «حرف الحاء في اللهجة الكويتية» وها نحن نستأنف ذلك الحديث وفق المنهج الذي أشرنا إليه فيما سبق فنقول:

ثانيًا: ما جاء في أسماء الأماكن

هذا ذكر لعشرة مواضع في الكويت، ويبدأ اسم كل منها بحرف الحاء وفق ما اشترطناه مع غيرها. وهي ليست كل المواضع الكويتية التي تبدأ بهذا الحرف، ولكننا اخترنا اختيارًا عشوائيًا كما عملنا مع المسائل الأخرى، ثم إنه ينبغي التنويه هنا إلى أن بعضها قد اندثر وذهب اسمه أدراج الرياح، ولولا خريطة معارف الكويت التي صدرت في سنة ١٩٥٨م، وبعض المراسلات الرسمية لما عرفنا شيئًا عن هذا البعض.

وعلى كل حال دعنا نبدأ عرضنا:

١ - **حسو الظبي**؛ هو من المواقع الصحراوية، يقع في شمالي البلاد إلى الغرب من جزيرة بوبيان على طريق العبدلي، يبعد عن العاصمة مسافة سبعين كيلومترًا، وهو - حاليًا - خال من السكان، وكان موردًا للمياه قديمًا.

٢ - **الحنابية**، هو الموقع الذي تقع عليه مزارع العبدلي اليوم أو هو جزء من ذلك الموقع، قريب من حدود الكويت مع العراق، يبعد عن العاصمة - شمالاً - مسافة مائة وعشرين كيلومترًا وكان اسم هذا الموقع يتردد في مراسلات الشيخ أحمد الجابر الصباح بسبب كثرة المشكلات التي يفتعلها العراقيون من رسميين وغير رسميين على حدودنا.

٣ - **حومة**، موقع صحراوي يقع في وسط الكويت إلى الغرب منها، شمالي جال اللياح، وتتكون منطقة حومة من عدة أقسام هي: شقة حومة، وخبرة حومة، ورديفات حومة، وسبب هذه التسميات هو الشكل الذي تمثله أراضي هذه المنطقة وحومة من الأماكن المعروفة قديمًا، وكانت تسمى «الحومان» وقد ذكرها الشاعر الأموي ذو الرمة في إحدى قصائده حين كان يصف الطريق الأعلى المار بكاظمة.

٤ - **حصوان**، موقع على خور الصبية، غربي بوبيان، شمالي غربي الكويت خال من السكان إلا أن التعمير المزمع الشروع به في منطقة الصبية قد يغير وضعه يبعد هذا الموقع عن العاصمة مسافة سبعين كيلومترًا، ولا سكان فيه.

٥ - **الحمار**، موقع من المواقع الصحراوية، يقع في شمالي الكويت، يمكن أن يشاهده المرء على يسار الطريق المتجه إلى العبدلي، والاسم مأخوذ من التشكيلات الصخرية التي يتكون منها المكان خال من السكان، يبعد عن العاصمة مسافة خمسة عشر ومائة كيلومترًا على سبيل التقريب.

٦ - **الحجيجة**، موقع له ذكر في تاريخ الكويت الحديث والقديم في شمالي الكويت الشرقي أمام خور الصبية، يبعد عن العاصمة مسافة مائة وعشرين كيلومترًا، وهو خال من السكان، ولكنه قد يتحول إلى مكان مأهول بعد التطوير المتوقع حدوثه في المنطقة المجاورة له، وهي الصبية.

٧ - **حجاج البنت**، موقع في منطقة العدان الطبيعية يشرف على البحر، يبدو أن هذا الاسم قد أطلقه الشوق إلى الوطن، فالموقع مرتبط بالغوص، وهو على شكل

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٢٣م.

شبه هلالي يحتضن البحر وعندما يراه الغواصون العائدون بعد رحلتهم المعهودة وهو يلوح من بعيد يقولون: «بين حجاج البنت» أي ظهرت حواجب البنت، ولفظ حجاج هو المقابل في اللهجة للحواجب، وبين: معناها بدا من بعيد.

واللفظ عربي الأصل ورد ذكره في المعاجم، وفي الشعر، ومن ذلك ما جاء في قول الشاعر المخضرم النابغة الجعدي:

كأنَّ حجاجَ مُقلَتِها قَليبُ

مِن السَّقبينِ[1] يُخلِفُ مُستقاها

٨ - **الحدبة**، وهي مظهر من المظاهر التي نراها عندما نقف أمام ساحل جون الكويت، وتقع الحدبة أمام بيت البدر المعروف حاليًا بالقرب من متحف الكويت الوطني وهي عبارة عن قطعة كبيرة من الصخور ممتدة داخل البحر من الغرب إلى الشرق بالقرب من الشاطئ، وعليها إشارة حمراء لكي تدل على ضحالة ماء البحر عندها ولكن هذا المظهر زال أخيرًا بسبب تحضير الطريق إلى ميناء الشويخ.

٩ - **حلو**، ربما سمي هذا الموقع بهذا الاسم لأنه كان معروفًا بوجود بئرين مياههما مالحة، ولعل ذلك من أسماء الأضداد كما اعتادت اللغة العربية أن تفعل ذكره لوريمر وقال إنه على بعد ميلين جنوبي الدسمة (الجنوبية)، وهذا الموقع مذكور في الخرائط، ولكن الاسم هناك يكاد يكون منسيًا اليوم.

١٠ - **حنيضل**، هو موقع من المواقع الكويتية المعروفة قديمًا، ولكنه غير مذكور في الخرائط، ولا يعرف عنه شيئًا إلا عدد قليل من الناس، من كبار السن خاصة.

اتفق ديكسون مع لوريمر على أن هذا الموقع عبارة عن مجموعة من الآبار على الشاطئ تبعد مسافة ميلين إلى الشمال من الفنطاس.

(١) السقبين: موضع، يخلف: يسقي.

ثالثًا: ما جاء في الأمثال

الأمثال جمع مثل وهو العبارة التي تقال في موقف ما لكي تذكر بموقف مشابه جرى في يوم من الأيام سابق على وقت الموقف المضروب له المثل ووردت في اللغة العربية أمثال بأعداد لا تحصى وألفت حولها كتب كثيرة أبرزها وأشهرها كتاب مجمع الأمثال للميداني وهو مكون من مجلدين كبيرين.

والأمثال المستعملة في الكويت جزء من التراث الشعبي الكويتي، ودلالة على خبرة المتكلم وسعة معرفته، وكما حدث مع أمثال اللغة العربية الفصحى فقد ألفت بضعة كتب حول أمثال اللهجة الكويتية أكبرها حجمًا وأشملها كتاب «الأمثال المقارنة» للأستاذ أحمد البشر الرومي، وهو مكون من أربعة مجلدات.

وهذه بعض أمثال اللهجة الكويتية مما جاء حرف الحاء في أوله:

١ - حلاة الثوب رقعته منه وفيه

هذا مثل مشهور في الكويت، يتداوله الناس دائمًا، ومن حيث بدايته فإن الثوب إذا صار فيه تمزق فهو لا يحلو إلا بأن يرقع بقطعة مشابهة لقماشه ومن حيث مضرب المثل فإنه يقال في حالات كثيرة منها عندما يحاول الأهل إغراء شاب من أولادهم بالزواج من إحدى قريباته لأنها أكثر ملاءمة فإنهم يشبهونها بالرقعة التي ترقع بالثوب الممزق، والمثل يدل على التكافؤ المنتظر بين الزوجين.

٢ - حجة وقضاة حاجة

وهذا المثل يضرب للشخص الذي يقوم بأداء فريضة الحج، ثم يغتنم فرصة سفره ليقوم بعمل شيء آخر إلى جوار ذلك، وصار يقال حتى في المناسبات العادية، يقول الشخص: أنا ذاهب لزيارة صديقي فلان، وسوف اغتنم الفرصة لشراء شيء

من الحانوت المجاور لبيته، حجة وقضاة حاجة، فشبه زيارة الصديق بالحج وشبه الشراء بقضاء الحاجة.

٣ - حلول الجمعة لا ينفع ولا يضر

أغلب ظني أن من ابتكر هذا المثل هُمْ تلاميذ المدارس الأهلية القديمة، ذلك لأن الأهالي اعتادوا أن يلزموا أولادهم بشرب الحلول (المسهل) مرة في كل سنة، لأنهم يرون أنه مفيد إلى السنة القادمة.

ولما كان التلميذ لا يستطيع المداومة في المدرسة إذا شرب الحلول، ولما كان شربه في يوم الجمعة يحرمه من اللعب فقد جاءت هذه المقولة التي فيها أن حلول الجمعة لا فائدة منه ولا ضرر، والأجدى شربه في يوم آخر، وهكذا كان، وصرنا نتجرع ذلك الدواء المر في يوم غير يوم الجمعة هذا ويمكن أن يطلق هذا المثل على أمور كثيرة منها أن يقال: فلان مثل حلول الجمعة لا فائدة ترجى منه، إذا كان لا يفيد في أمر من الأمور، وهكذا.

٤ - حامض على بوزك

يقصد بالبوز الشفتين، ويضرب المثل في الأمر الذي يمنعه صاحب عن صديقه أو أحد من معارفه، يريد أنَّه لن يهنأ به لأنه حامض بين شفتيه، والمقصود به أن صاحبه لا يمكن أن يتنازل له عما يمتلك.

٥ - الحب يطلع على بذره

كل إنتاج زراعي إنما يأتي على البذر الذي يوضع في الأرض الزراعية من أجل تنمية الزرع، وقد شبه واضع المثل الإنسان بالبذر فكل ما يكون في والده من

الصفات فإنها تكون في الولد، وإذا وجد شخص غير سوي وكان والده مثل ذلك فيل كيف لا يكون الولد مثل أبيه والحب يطلع على بذره.

٦ - حتى القطاوة تشتهي محمر

يضرب هذا المثل في الشخص التافه يتمنى أمورًا عالية لا يمكن أن يصل إليها مثله ولذا شبهوه بالقط الذي يشتهي المحمر، والمحمر أكلة كويتية معروفة وهي من الأكلات التي يشتاق إليها الناس فترة بعد أخرى، وتصنع من الرز المحلى بالدِّبس أو السكَّر والسمك والمرق.

٧ - حداد من غير فحم

يضرب هذا المثل في الشخص الذي يريد أن يقوم بعمل ما ولكنه لا يمتلك القدرة المادية عليه كالحداد الذي يريد أن يعمل وليس لديه فحم لإشعال النار التي تقوم بتسخين الحديد له وعلى سبيل المثال فإن التاجر لا يستطيع المتاجرة بدون رأس مال.

٨ - حشر مع الناس عيد

مثل معروف يقصد به أنه إذا حلّ البلاء بالجميع فلا داعي للتذمر فأنت تشبه الناس في أوضاعهم.

٩ - الحي يحييك والميت يزيدك غبن

يقصد بلفظ الحي الشخص اللبيب النشط الذي يؤدي العمل الذي تكلفه به بسرعة ومهارة أما الكسول فهو يشبه الميت وهو عكس الحي فإنه يكسبك الهم لأنه لا ينجز شيئًا وإن أنجزه فبتأخير شديد.

١٠ - حط فلوسك في الشمس واقعد بالظلال

دع مالك يعمل لك، فما دمت تدفعه لحاجتك فإن حاجتك مقضية حتى لو جلست في الظل وتركته يعمل لك ما تريد وهذا المثل يضرب للبخيل الذي يريد أن يحصل على الأشياء دون أن يدفع شيئًا في مقابلها.

رابعًا: ما جاء في أسماء الأعشاب البرية

يتعامل أهل الكويت مع النباتات وبخاصة البرية منها، حيث يتم استعمالها في مختلف العلاجات، ويعتمد عليها في كثير من الأمور الحياتية، وهذه الأعشاب منها ما تجود به صحراء الكويت في وقت الربيع والشتاء بصورة خاصة، ومنها ما يستورد من مناطق متعددة في خارج الكويت، وهذه النباتات لها أسماؤها في اللهجة الكويتية وإذا كان بعضها قد بدأ يضمحل، وينقطع وروده إلينا فإن اسمه باقٍ محفوظ نقدم هنا من أسماء النباتات ما يلي:

١ - **الحرمل**؛ جاء وصفه في كتاب «تذكرة داوود» بأنه نبت يرتفع قدر ثلث ذراع، له ورق يشبه ورق شجرة الصفصاف، وأنه مفيد للذين يشعرون بالبرد، وأمراضه كالصداع وغيره، وهو دواء نافع لكثير من الأمراض ذكر داوود الأنطاكي له عددًا من الاستعمالات.

٢ - **حلبة**؛ تعودنا على أن نرى الحلبة حبوبًا صفراء غامقة، واعتاد الناس على تقديمها للوالدات من أجل إدرار اللبن للرضع، وتغلى ويشرب ماؤها لمكافحة البرد للجميع، وهي مادة معروفة وكثيرة الاستعمال عندنا إلى اليوم، ولكنها من النباتات التي تؤكل أوراقها وهي خضرة في بعض البلدان ولك بإضافتها إلى المأكولات وبخاصة المرق، وصف داوود الأنطاكي هذا النبات بقوله: «تنبت دون ذراع لها زهر أصفر يخلف ظروفًا دقيقة حادة تتفتح عن بذور الحلبة المعروفة».

ذكر مؤخرًا أن الحلبة مفيدة للتخفيف من مرض السكري، ولذا صار لها في عدد من البلدان أهمية، وأصبحت تطحن وتوضع في كبسولات لكي يسهل ابتلاعها.

٣ - **حنظل**؛ ويسمى عندنا «الشري» وهو نتاج نبات يمتد على الأرض ينتج نتاجًا له شكل الكرة مشابه لولا فرق الحجم للبطيخ الأخضر، وعند نضجه يتحول إلى اللون الأصفر، يؤخذ ويجفف ويستعمل استعمالات كثيرة منها معالجة الإمساك، وفيه حبوب صغيرة جدًا تسمى «الهبيد» كانت تأتينا محمصة جاهزة للأكل من خارج البلاد ونلتذ بأكلها.

٤ - **حوذان**؛ نبات صحراوي جميل الشكل منبسط على الأرض وكل نبته منه لها زهرة صفراء، وكان كثيرًا ما ينبت في بادية الكويت وعلى الأخص في الأماكن غير الرملية ولكنه انقطع الآن بفضل مخربي البيئة.

٥ - **حوا**؛ نبات بري، صالح للأكل يكون مستديرًا لاصقًا في الأرض له أوراق مستطيلة تشبه في وضعها النخلة إلا من حيث الصغر والالتصاق، وكل نبتة في آخر الموسم تزهر زهرة صفراء جميلة.

٦ - **حمض**؛ وهو نبات ترعاه الأبل، وتوقد به النار، وكان هو والعرفج الوقود الأساسي في البيوت وذلك قبل التطور الأخير، واسم الحمض معروف قديمًا وصفه ابن منظور في كتابه لسان العرب وصفًا جيدًا.

٧ - **الحميض**؛ ويسمى في العربية الفصحى الحمَّاض، ذكر ابن منظور أنه نبت جبلي شديد الحموضة، له ثمر مثل حب الرمان، يأكله الناس، وهو في الكويت كثيرًا ما ينبت بين شقوق المطلاع، ولكنه اليوم يزرع في البيوت بعد أن جلب بذره من الخارج.

٨ - **حنبزان**؛ نوع من النباتات البرية معروف في الكويت يشبه نباته الفجل ولكنه أصغر حجمًا، له رؤوس مخروطية بمثابة الجذور له يأكلها الناس وتأكل الدواب الخضرة النامية منه على سطح الأرض، وهو نبات معروف منذ القدم وله ذكر في كتاب لسان العرب.

٩ - **حنبصيص**، هو نوع من النباتات التي كانت تنبت في صحراء الكويت، وأصبحت لا ترى فيها - هذه الأيام - إلا نادرًا، وهو من أعشاب الرعي تتناولها كافة أنواع المواشي وترتاح لها.

١٠ - **حناء**؛ نبات لأوراقه فوائد للنساء يضعنه في أيديهن فيكسبها لونًا أحمر، ويضعنه كذلك في شعورهن للسبب ذاته، وهو من شجر ينمو في الكويت، ولكن ما يستعمل من أوراقه - حاليًّا - يأتينا من الخارج.

هنا ينتهي القسم الثاني من حديثنا عن حرف الحاء في اللهجة الكويتية وسنوالي إكمال الموضوع في المقال القادم إن شاء الله.

****

حرف الحاء في اللهجة الكويتية (٣)[١]

نستأنف حديثنا عن موضوع حرف الحاء في اللهجة الكويتية لنكمل بهذا المقال ما بدأناه في المقالين السابقين ونبدأ بفقرة جديدة هي:

خامسًا: ما جاء من ألفاظ اللهجة الكويتية

تكاد اللهجة الكويتية أن تكون متعانقة تمامًا مع اللغة العربية الفصحى، ولا غرو في ذلك فإن الأولى هي ابنة الثانية والمتحدثون بها هم أبناء العرب الذين كانوا يتحدثون بالفصحى فيما بينهم وقد قدمت في هذا الشأن كتابين أحدهما: «ألفاظ اللهجة الكويتية في كتاب لسان العرب» والثاني هو: «ألفاظ اللهجة الكويتية في كتاب إصلاح المنطق» وكلاهما يدلان على ذلك، ولا بأس هنا من عرض عشرة ألفاظ من تلك المتطابقة مع الفصحى أو التي لها أصل من ألفاظ لهجتنا العامية، وذلك كما يلي:

١ - **الحصحص**؛ وهو الحصى الصغار الذي ينبسط على الأرض في بعض الأماكن معروف في لهجتنا بهذا اللفظ، وكان الموقع الذي يحتله دوار الأمم المتحدة اليوم يسمى الحصحص لوجود هذا النوع من الحصى فيه.

وقد جاء في كتاب لسان العرب ما يلي: «والحصحص بالكسر؛ الحجارة، وقيل التراب» وقد خصصته اللهجة بالحجارة الصغيرة التي تصل إلى حجم ذرات التراب.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٧/٣٠م.

٢ - **حدر**؛ إذا كنت في أعلى المسكن وسألت عن شيء ما قيل لك: هو حدر؛ أي أسفل، وكل ما هو متحدر من علو إلى سفل كما قال ابن منظور فهو حدر ولذا كانوا يقولون عندنا للعائد من البر: حدر، لأنه عاد من الأماكن المرتفعة في الصحراء إلى المدينة المجاورة للبحر.

٣ - **الحزازة**؛ مرض جلدي يكون في الرأس جاء في اللغة أن موضعه يكون مشابهًا للنخالة وهي معروفة لدينا قديمًا، وكانت تعالج بأدوية شعبية ومن اللفظ نفسه كلمة: الحزة، وهي - أيضًا - فصيحة ونقصد بها الوقت تقول: آتيك مثل اليوم هالحزة، أي مثل هذا الوقت الذي أحدثك به من اليوم المقبل.

٤ - **حمس**؛ يقول صاحب لسان العرب: «والحمسة القلي، وحمس اللحم إذا قلاه» واللفظ مستعمل في اللهجة على هذه الصفة وبهذا المعنى.

٥ - **حسحس**؛ قال صاحب لسان العرب: «حسه وحسحسه إذا جعله على الجمر» وهذا اللفظ مستعمل في اللهجة فيقال حسحست اللحم على النار إذا لم يكن شواؤه كاملاً، ويقال - أيضًا - شلوطته للمعنى ذاته.

٦ - **حبس**؛ الحبس بكسر الحاء الحجارة التي توضع حول شيء على الأرض يراد حفظه من المارة، كما يمكن أن يطلق على الحجارة التي تسد بها بعض المنافذ، يقول ابن منظور في كتابه لسان العرب: «والحبس، بالكسر، حجارة تكون في فوهة النهر تمنع طغيان الماء»، ولا يخفى أن هذه العبارة توضح شيئًا من استعمالات (الحبس) ولا تمنعنا من استعمال ما درج في اللهجة.

٧ - **حرش**؛ نقول في لهجتنا: هذا ثوب حرش، وهذا بساط حرش إذا كانا غير ناعمين، وفي مادة (حرش) يقول ابن منظور: «وقيل: كل شيء خشن أحرش، وحرش».

٨ - **حوش**؛ نقول للطفل يوم العيد كم حوشت من العيادي؟ فيقول: حوشت عدة دنانير فهذا اللفظ يستعمل ويقصد به جمع الشيء واللفظ فصيح.

٩ - **حسافة**؛ لفظة تطلق في اللهجة عند الأسف فإذا فات الإنسان شيئًا وأسف لفقده قال: حسافة عليه، واللفظ فصيح، ومنه قول الشاعر:

إذا سُئِلوا المعروفَ لَمْ يبخلوا به
ولم يَرْجعوا طُلاَّبَهُ بالحَسائِفِ

ومن لفظ حسف في لهجتنا ورد قول الشاعر فهد بورسلي ضمن قصيدته التي مطلعها:

اه يا مرعوبْ
من تفاريجِ الولايف
كدر المشروبْ
صاحبي نابي الرَّدايف

وفيها:

ذَنْبي معيوبْ
بالتُّوجد والحسايِفْ
من يسد النُّوب
يا فحل ويش نتَ شايف

وقد جمع الحسافة على: حسايف كما جرت بذلك اللهجة وكان الفنان محمود الكويتي قد غنى هذه الأبيات.

١٠ - **حت**؛ جاء هذا اللفظ في اللغة الفصحى بمعنيين أحدهما: بمعنى الإزالة، والثاني: بمعنى الضرب.

وفي اللهجة حتيت ما على السفرة من بقايا، أي أزلتها بالحك، «وحتيت الرجل كفا إذا ضربته بكفك على أحد خديه».

سادسًا: ما جاء في أسماء الأسماك

لصيد الأسماك دور مهم في حياة الكويت، فهو مهنة تعيش على إيرادها أسر كثيرة، وهو غذاء نافع يقبل عليه الناس إقبالاً شديدًا، وصيده نوعان أحدهما صيد مصلحة تجارية ليبيع الصيادون إنتاج جولاتهم في أسواق السمك المنتشرة في البلاد والنوع الثاني هو صيد النزهة حيث تعوّد كثير من المواطنين على الخروج إلى الصيد في قوارب صغيرة لا تذهب بعيدًا في داخل البحر لمدة ساعات قليلة، وبعضهم بصيد الأسماك من على ساحل البحر بواسطة الخيوط والميادير ولهذا النوع من الصيد محلات تبيع أدواته بمختلف أشكالها وتقوم ببيع وتصليح القوارب، وتيسر للراغبين في رحلات الصيد البحري كل ما يحتاجون إليه وهؤلاء يجلبون صيدهم إلى بيوتهم، ويهدون ما زاد عن حاجتهم.

كانت الأسماك في جون الكويت والجزء المقابل لها من الخليج كثيرة في الأزمان الماضية، وكانت تباع بأثمان رخيصة، وأذكر أنه عندما يأتي المساء على باعة سوق السمك فإنهم يقومون بتوزيع ما لديهم مما تبقى من السمك مجانًا لأنهم لا يستطيعون الاحتفاظ به لعدم وجود الثلاجات كما هو حاصل الآن وإذا كان سمك الزبيدي في هذه الأيام من أغلى أنواع السمك، فإنه في الماضي كان كثيرًا جدًا وكان سكان جزيرة فيلكا يعتنون بصيده وتمليحه وبيعه مجففًا مملحًا على بعض السفن الكويتية المغادرة إلى رحلات السفر وكان يباع بأسعار زهيدة تتراوح بين مائة وخمسين فلسًا ومائتين وخمسة وعشرين فلسًا بحسب توافر الكميات منه وذلك لكل مائة سمكة، وكانت الآلاف من هذا النوع الفاخر تباع على السَّفَّارة في المواسم.

آن الأوان للعودة إلى حرف الحاء فيما يتعلق بأنواع الأسماك، وهذا هو اختيارنا من أسمائها:

١ - **حاسوم**؛ يعيش هذا النوع بالقرب من الساحل، وبخاصة المناطق الرملية منه وهي سمكة إنسيابية الشكل ملفوفة، ذات فم صغير ولون شفاف يميل ظهرها إلى اللون الرمادي، وبطنها أبيض لامع، وكافة جسمها مغطى بقشور صغيرة خشنة، يعيش على الشوائب العالقة بمياه البحر ومن المؤسف أن هذا النوع في طريقه إلى الانقراض من الكويت.

٢ - **حاقول**؛ سمكة جميلة جسمها ممتد إلى حوالي ثلاثين سنتيمترًا يضاف إليه ما يشبه المنقار، وهو منشاري الشكل طويل نسبيًا لون جانبيها فضي لامع وعلى ظهرها خط أزرق بامتداد جسمها.

٣ - **حف**؛ هو من أشهر الأسماك لاحتوائه على كمية كبيرة من الأشواك، والحف مستطيل الشكل مضغوط من الجانبين له قشور فضية لامعة يصل طول جسمه في بعض الأحيان إلى مائة وعشرين سنتيمترًا، وهو من الأسماك المعروفة عند العرب القدماء، وكانوا يقلبون الحاء إلى هاء، وهذا النوع من السمك صار من الأمثال فيقال للرجل الطويل النحيف: كأنه حف والناس عندنا لا يرغبون في أكل هذا النوع من السمك ولعل ذلك بسبب الأشواك الكثيرة التي فيه.

٤ - **حلوايوه**؛ هذا النوع يشبه الزبيدي إلا أن لونه أسود، وطعمه مختلف وهو يخالط الزبيدي في البحر يجلب إلى السوق بأعداد قليلة، والإقبال عليه ليس قويًا.

٥ - **حمام**؛ سمكة صغيرة نسبيًا، كثيرة الأنواع، لا يقبل الناس على أكلها، ولذلك فإن صيادها هو آكلها الوحيد، إلا أنها في الوقت الحاضر صارت تباع بكثرة لندرة السمك وكثرة غير الكويتيين الذي لا يفرقون بين الأنواع المختلفة المعروضة في السوق، أو أنهم معتادون على أكلها في أوطانهم.

٦ - **حمرة**: سمكة ذات لون أحمر يميل إلى البرتقالي كانت هي الأخرى من الأنواع المستبعدة ولكنها تباع كثيرًا في هذه الأيام للسبب الذي ذكرناه آنفًا وقد عُرِفَتْ أنها من أسماك الأعماق، ولكنها كثيرة تتوافر في السوق بشكل جيد.

٧ - **حياسة**: هذه السمكة من فصيلة سمك القرش (الجرجور) ولكنها تختلف عن هذا النوع بكونها غير مفترسة فهي ذات أسنان صغيرة، ويقال إن سبب تسميتها بهذا الاسم أنها تلتف على بعضها عندما يطبق عليها الشبك، والحوس أو الحيس في اللهجة من معانيه اللف والدوران وهي سمكة رديئة لا يرغب الصياد بها ولا بأكلها.

٨ - **حامر**: سمكة لونها قريب من لون (الحمرة) التي تقدم ذكرها، ولكنها تميل إلى الطول حيث تصل إلى حوالي أربعين سنتيمترًا، وهي تعيش في الأماكن العميقة مثلها في ذلك مثل شبيهتها (الحمرة) ولحمها غير طيب، ولا أحد يرغب في أكله.

٩ - **حصان البحر**: أقرب ما يكون إلى الحيوان له شكل حصان في القسم الأول من جسمه يبدأ باللون البني الفاتح ثم ينتهي عند الذيل باللون الرمادي، يعيش بين الصخور المرجانية ويلتصق بأغصان الأعشاب البحرية وليس مما يؤكل.

١٠ - **حمارة**، سمكة ذات شكل غريب متعددة الألوان يصل امتداد جسمها إلى ثلاثة وعشرين سنتميترًا، وهي لا تصلح للأكل تعيش في المياه غير العميقة بين الصخور الهشه.

هذا والحديث عن الأسماك طويل وذلك بسبب التجارب الكثيرة التي خاضها أبناء الكويت في مجال صيدها، ولذا فقد أصدر مركز البحوث والدراسات الكويتية كتابًا بعنوان «الحداق» موسوعة صيد الأسماك في الكويت» ومنه استفدت كثيرًا

في تقديم المعلومات عن الأسماك العشر التي أوردت ذكرها، وقد ألّف هذا الكتاب الأخ محمد يعقوب بكر البكر، وراجعه المرحوم عبداللطيف عبدالرزاق الديين وقد جاء كتابًا مفيدًا في بابه مليئًا بالصور والبيانات المهمة.

ما كنت أظن أن حرفًا من حروف الهجاء سوف يأخذ عند الحديث عنه كل هذا المجال الذي أخذه حرف الحاء، على الرغم من أننا اقتصرنا على ستة أنواع فقط من الاستعمالات التي وردت عنه.

وهذا يدلنا دلالة مهمة هي أنه كم هي اللغة العربية غنية بالألفاظ ذات المعاني المتعددة، وكم هي اللهجة الكويتية غنية كذلك وهذا ما يستدعينا مستقبلاً إلى متابعة موضوع مشابه إذا سنحت الفرصة إن شاء الله.

وليس ما ذكرته هو كل الألفاظ التي وردت في اللهجة العامية بادئة بحرف الحاء ولها أصل عربي، فقد أحصيت في كتاب «لسان العرب» لابن منظور ما يقرب من سبعة وخمسين لفظًا منها.

وهناك الكثير مما لو أردنا ذكره لطال بنا الحديث فمن الألفاظ الكويتية: حل ومن معانيها إذا قال أحدهم لآخر: حللني فمعناها اجعلني في حل، وهذا اللفظ الأخير فصيح وقد ورد اللفظ في شعر الشاعر فهد بورسلي حين تحدث عن نفسه (ابن راشد) قال:

هاض ابن راشد شعاع له ضوى
يكسر العينين نوره من بعيد
ليت ابن راشد يجوز من الهوى
طار عقله، طار بالطرز الجديد

وفي آخر الأبيات يورد البيت الذي فيه لفظ (حلل) فيقول:

حللوني تالف جسمي ذوى

واطلبوا دمي من الظبي الفريد

ومن جمل الدعاء المستعملة في اللهجة وهي تبدأ بحرف الحاء جملة «حسبي الله» ومنها قول فهد بورسلي:

سلموالي على اللي

سم حال فراقه

حسبي الله على اللي

حال بيني وبينه

وهذه الأغنية مشهورة في الكويت جدًا ولا تزال تردد في الإذاعة وعلى الألسنة ومنها قوله:

عقب ما هو نديمي صار شوفه شفاقه

الله أقوى على اللي عشر وأربع سنينه

اشتهى عشرتي وأنا عشقته أعشاقه

في زمان مضى واليوم ويني ووينه

****

حرف (الكاف) في اللهجة الكويتية[1]

تحدثنا في مقال سابق عن حرف (الحاء) في اللهجة الكويتية وقلنا أنه من الحروف التي تخرج من أقصى الحلق، أما اليوم فحديثنا عن حرف (الكاف)، ومخرجه من وسط الحلق ملتصقاً بسقفه الأعلى، وهو الحرف الثاني والعشرون من حروف الهجاء وأقرب حرف إلى مخرجه هو حرف (القاف).

قد تكون هذه المعلومة بديهية، قريبة إلى الأذهان، ولكن ذكرها هنا أمر لابد منه باعتبار ذلك مدخلاً إلى ما نريد الحديث عنه، وهناك ألفاظ كثيرة في لهجتنا تبدأ بحرف الكاف وسوف لا يكون لدينا متسع من المكان هنا لذكر كل ما يتعلق بها، ولكننا نكتفي من الحديث عن الكاف ببعض الأمور التي تُقَرِّبُ ما نقصده، وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا المنحى قد يؤدي بنا إلى الحصول على ما يشبه القاموس الذي يستوعب حروف الهجاء وما تضم من ألفاظ اللهجة، إلا أننا لا نعد القارئ بالاستمرار في هذا السبيل لأن الأمر يحتاج إلى مزيد من التفرغ والمتابعة، وإن كنا نأمل في إضافة حرف واحد فقط إلى الحاء والكاف وهو حرف (الباء) الذي سوف يكون له دوره في الحديث فيما بعد، فنكون بذلك قد اخترنا ثلاثة من الحروف أولها في أقصى الحلق والثاني في وسطه والثالث يخرج من طرفه ما بين الشفتين.

ونبدأ الآن بالحديث عن حرف الكاف، وهنا نأتي له بخمسة فروع هي:

١ - ما جاء من ألفاظ أجزاء السفينة وما يتعلق بها.

٢ - ألفاظ عامة من اللهجة الكويتية.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٦م.

٣ - بعض الأمثال الكويتية الدارجة.

٤ - ما جاء من الألفاظ الخاصة بأدوات المنزل.

٥ - ما جاء من أسماء الأماكن.

وسوف نتحدث عن كل ذلك وفق الترتيب الرقمي الذي مَرّ آنفًا، وذلك كما يلي:

أولاً: ما جاء من ألفاظ أجزاء السفينة وما يتعلق بها

١ - الكيت

تضم سفن السفر الكبيرة عادة زورقين أحدهما الماشوة، وهي مخصصة لنقل البحارة حين تقف السفينة في مكان بعيد عن الميناء، أما الزورق الثاني فهو ما يُسمّى الكيت بياء مائلة. وهو صغير الحجم يستعمله النوخذة من أجل الانتقال إلى الميناء أو إلى زيارة زملائه النواخذة في السفن الأخرى الراسية بالقرب منه، ويحافظ البحارة على نظافة هذا الزورق ويعتنون بجمال شكله، ومن ذلك تزيينه ببعض الزخارف والمحافظة على جدّته.

٢ - الكانة

خشبة متوسطة الطول تستخدمُ لتحريك السِّكّان في السفن الصغيرة، وذلك عن طريق غرسها في فتحة معدّة لذلك في رأس السِّكّان، ثم يقوم أحد البحّارة بتحريكها حسب الاتجاه المطلوب للسفينة.

٣ - الكشتيل

موضع في السفينة يعدّه البحارة في مؤخرة سفن الغوص، وهو شبيه بالسرير يستخدم لنوم النوخذة، وفي سفن السفر الكبيرة للكشتيل معنى آخر إذ يقوم نجار السفينة بصنعه وهو عبارة عن سطح مرتفع قليلاً في مقدمة السفينة، يستخدم من أجل غسل الأواني.

٤ - كمر

هو لوح من الألواح المحيطة بالسفينة الكبيرة من الخارج، وهو بارز قليلاً لما لا يزيد على سنتيمتر واحد، ويقع على ارتفاع متر واحد تقريبًا فوق خط غاطس السفينة. والكمر يشير إلى زيادة حمولة السفينة إذا تعدى ماء البحر غاطس السفينة ثم ارتفع إليه.

٥ - كمال

جهاز لا غنى لسفن السفر عنه، فهو يقيس ارتفاع الشمس ويستعمل لمعرفة خطوط العرض في البحر، ويطلق عليه اسم: السُدس.

٦ - كلفات

معنى هذا اللفظ هو إدخال فتيل بين كل لوحين من ألواح السفينة، وذلك لضمان عدم وصول الماء إلى الداخل، وهذا العمل يحكم هيكل السفينة ويجعلها في مأمن من تسرب مياه البحر إليها.

وقد ورد ذكر هذا العمل بالوصف الذي ذكرناه في كتاب لسان العرب، ولكن اللفظ الفصيح يضع جيمًا بدلاً من الكاف فيقال: جلفاط.

٧ - كنخه

هذه عملية يقوم بها البحارة الماهرون، وتتم بربط الخشبة الممتدة على ظهر السفينة «الفرمن» بالصاري، وإحكام هذا العمل يؤدي إلى سهولة حركة الاتجاه من اليمين إلى الشمال «الخايور».

٨ - كوس

الريح القوي الذي يهب من الجنوب، وهو يؤدي - عادة - إلى هياج في البحر، ويفضل رجال السفن الشراعية عدم الإبحار في حالة هبوب هذا النوع من الرياح لأنه يسبب الرطوبة التي تثقل الشراع فيجعل المسير صعبًا.

٩ - كثح

وتنطق الكاف جيمًا مكشكشة، والجاثح هو رذاذ ماء البحر المتطاير على مقدمة السفينة أثناء سيرها وذلك عندما تصطدم بأمواج عالية، وهذا اللفظ فصيح في الأصل.

١٠ - كابر

يستعمل الكابر في صيد السمك، وهو قضيب طويل من الحديد، له طرفان أحدهما حاد على شكل حربة ولكنه بزوايا حادة، والثاني عبارة عن حلقة يدخل فيها الحبل فيشد عليه، يضرب به السمك الطافي، ويرخي الحبل على طريقة الصيد بواسطة الخيط المعتاد.

لمزيد من الدراية بهذا النوع من الألفاظ، راجع: «معجم المصطلحات البحرية في الكويت»[1].

ثانياً: ماجاء من الأمثال الكويتية وابتداؤه بحرف الكاف

١ - كان شرط كان سلام

ينبغي على المتعاقدين أن يذكرا كافة شروطهما ولا يتركا شيئًا يؤدي تركه إلى الخلاف، فإن وجود الشرط المانع سبب للسلام في نهاية الأمر.

٢ - كل ساقط له لاقط

يدل هذا المثل على أننا لا ينبغي أن نستهين بشيء مهما صَغُر، فإن الحبة الصغيرة التي تسقط على الأرض تجد لها من الطير من يلتقطها، وكذلك الأمور الأخرى التي تجد لها من الناس من يستفيد منها على الرغم من صغر شأنها فعلى المرء ألا يستهين بشيء مهما كان.

(1) للأستاذ أحمد البشر الرومي، نشر: (مركز البحوث والدراسات الكويتية).

٣ - كنت نايم مستريح حطيت لي ديك يصيح

يعبر هذا المثل عن الراحة، ويدل على أن الإنسان البعيد عن المتاعب، يبحث له عمّا يتعبه في بعض الأحيان وهذا رجل كان ناعم البال هادئًا في بيته، فاشترى لنفسه ديكا ملأ المكان عليه بالضجيج.

٤ - كل طير يشبعه منقاره

المقصود في هذا المثل أن الإنسان يأخذ من الطعام ما يحتاج إليه لكي يشبع، وهو يدعو إلى عدم الإلحاح على الضيف بالأكل فكل إنسان يأكل بحسب ما يُغنيه.

٥ - كُنْ نسيب ولا تكون ابن عم

هذا مثل شهير في الكويت، يدل على أن نسيب القوم منهم، وإذا تمت علاقة النسب فهي كما يرى المثل أقوى من علاقة القرابة بين أبناء العمومة.

٦ - الكبير يدلّل والصغير يعلّل

تهون الأم على ابنتها أن تتزوج من رجل كبير في السن زاعمة أن الكبير يبذل الدلال لزوجته الشابة أكثر مما يبذله الشاب الذي يشبعها من المضايقات، والمثل إغراء للفتاة بقبول الزوج المتقدم إليها على الرغم من كبر سنِّه.

٧ - كثر الدق يفك اللحام

يرى المثل أن كثرة الإلحاح على الشيء يؤدي إلى تحقيق المراد، كما أن الدق المتتابع على موضع اللحام بين حديدتين يؤدي إلى فك ذلك اللحام لفرط الإلحاح على استمرار العمل والتوصل إلى الفك بين المتلاحمين، وكذلك الإنسان فإنه يصل إلى تحقيق رغباته إذا استمر في إصراره على تنفيذها.

٨ - كثُر من الصديق ترَى العدو أكثر

يُرغِّب هذا المثل الناس بالإكثار من الأصدقاء الذين سوف يكونون لهم سندًا عند الضيق، ويقول المثل إنه مهما كان عدد أصدقائك فإن عدد الأعداء أكثر لذا فلا بد من اصطفاء الأصدقاء لمجابهة الأعداد الكثيرة من الأعداء.

٩ - كل حافي علينا لافي

لا داعي لشرح هذا المثل فنحن نراه متحققًا في حياتنا اليومية.

١٠ - الكحل في عين الرّمدة خسارة

الكحل من وسائل تجميل العين، وإذا وضع على عين المرأة التي تشكو من داء الرمد فإنه لا يفيد جمالاً، وكذلك عمل الخير إذا عملته لمن لا يستحق فإنه ضائع كما ضاع الكحل في عين تشكو من الرمد.

ثالثًا: ما أوله حرف (الكاف) من ألفاظ اللهجة الكويتية

١ - الكود

هو الكمية المتجمعة من كل شيء، وفي الفصحى كما ذكر صاحب كتاب «لسان العرب» ما معناه: «والكود كل ما جمعته، وجعلته كثبًا من طعام وشراب ونحوه، والجمع أكواد» وكذلك هو في اللهجة.

٢ - كفخ

يقال في اللهجة: كفخت فلانًا أي ضربته، واللفظ عربي فصيح (انظر: اللسان مادة: كفخ).

٣ - الكد

الكد في اللهجة هو العمل، والكادود هو الذي يقوم بالعمل في دأب وشدة، وهذا العمل يطلق عليه في اللهجة: المكدة، واللفظ فصيح، قال ابن منظور: «الكد: الشدة في العمل وطلب الرزق».

٤ - الكشة

الكشة: بكسر الكاف وتشديد الشين مفتوحة وفرة الشعر في مقدمة الرأس، يقال: لقيت فلانًا وله كشة. وهي فصيحة.

٥ - كرّع

يقال: فلان كرَّع في الماء، إذا شرب من الإناء الكبير مباشرة بفمه، واللفظ فصيح

٦ - الكروة

الكروة هي الأجرة التي يدفعها المستأجر لصاحب العين المؤجرة. واللفظ فصيح.

٧ - كمش

أمسك الإنسان الشيء بشدة، ومن القول المشهور عندنا: حبش كمش خشم خميس، وهذا مما يقصد به اختبار المتكلم، ومعرفة مدى قدرته على ذكر الكلمات المتنافرة بسرعة.

٨ - الكورية

الكورية عدد من الأعداد يساوي عشرين، وهو لفظ مستعمل في عد (الجندل) وهو الخشب المستطيل الذي كان مستعملاً في أسقف البيوت، وللمفارقة فإن مما يباع بالكورية الغتر.

٩- كفو

لفظ مديح لشخص يستحق ذلك، فإذا عمل هذا الشخص عملاً جيدًا قيل له: كفو أو كفو عليك.

١٠- كرش

إذا كبر بطن الشخص بسبب السمنة قيل عنه: كرّش، أي صار له كرش بارز.

رابعًا: ما جاءت بدايته بحرف «الكاف» من الألفاظ الخاصة بأدوات المنزل:

١- كاروكة

الكاروكة مهد للطفل على هيئة سرير معلّق، إذا هزته الأم هدأ الطفل، وارتاح لحركة الاهتزاز.

٢- كاشونة

الكاشونة وعاء من الخوص يشبه السلة له غطاء يخرج من جانبيه إلى الأعلى من فتحتين في الغطاء حبل أو أكثر بوساطته تحمل الكاشونة لنقلها من مكان إلى آخر ويستعمل هذا الوعاء لحمل التمر والرطب والفاكهة لجلبها من السوق ومن ثم الاحتفاظ بها في البيت لحين الاستعمال.

٣- الكنجية

وتنطق الجيم جيمًا قاهرية. وهذه عبارة عن غرفة صغيرة الحجم قليلة الارتفاع يتساوى سطحها مع سطح المنزل، تُبنى فوق إحدى الغرف أو الحمام، وتستعمل للتخزين، وبخاصة للأشياء الصغيرة التي يخشى عليها الضياع.

٤- كتويل

دليل لمعرفة اتجاه الريح، يوضع على المسكن، كما يوضع على السفن. ويتكون الكتويل من الخشب أو من صفائح الحديد الخفيفة، التي توضع على عمود ينتهي بمسمار محدد تشبك فيه القطعة المشار إليها بحيث يتاح لها التحرك دائريًّا مع حركة الريح.

وهذا الجهاز البسيط كان معروفًا منذ القدم وكانت العرب تطلق عليه اسم: أبو رياح.

٥- كوسر

الكوسر هو زاوية من زوايا البيت الخارجية، يقال في الوصف إذا سرت قليلاً أكسر على يدك اليمنى أي ضع الكوسر «الزاوية» على يمينك وادخل إلى الطريق الفرعي.

هذا اللفظ معروف في الفصحى، وكان يقال: فلان جاري مكاسري، أي أن كوسر بيته بجوار بيتي يجمعنا وإياه كوسر واحد.

٦- كرب

الكرب هو الجزء الأساسي لسعف النخل، ويستعمل إذا جفف عدة استعمالات منها شيء لإشعال النار للطبخ ومنها ما يوضع مع شباك صيد السمك حتى تعلو فوق سطح البحر.

يقول ابن منظور في «لسان العرب»: «الكرب أول السعف، الغلاظ العراض، التي تيبس فتصير مثل الكتف، واحدتها كربة».

٧- كبت

الكبت ما يسمّى اليوم دولاب الملابس، وكان في السابق من أدوات العروس المهمة، وكان دخوله إلى بيتها بمثابة إعلان في الفريج عن الفرحة بهذه المناسبة.

٨- كبشتان

جزء علوي صغير مكشوف، يكون في آخر غرفة النوم، له عدد من الاستعمالات منها حفظ الملابس والوسائد، وبعض الأشياء اللازمة للغرفة.

٩- كرفاية

الكرفاية هي السرير، وعلى الأخص إذا لم تكن تعلوه قوائم مرتفعة وليس عليه غطاء علوي ترفعه هذه القوائم.

١٠- كيتلي

هذا اللفظ هندي في الأصل، ومعناه الإبريق، وهو مصنوع من النحاس أو الألمنيوم وله مقبض علوي، ويكون كبير الحجم، ومن استعمالاته أن يسخّن فيه الماء من أجل الشاي، ولذا يكون غالبًا بجوار الفحم على (الدوة) في ساعات احتساء الشاي أو القهوة.

خامسًا: ما جاء مبتدئًا بحرف (الكاف) من أسماء الأماكن الكويتية

١- كاظمة

موقع من المواقع الكويتية غني عن التعريف، كتبت عنه كثيرًا وبخاصة في جريدة «الوطن»، وهو كما عُرف عنه موضع تاريخي له ذكر في تاريخ العرب وأخبارها وأشعارها.

وتقع كاظمة على طرف جون الكويت الغربي.

٢- كبد

موقع به تلال يقع في جنوب غربي العاصمة على مسافة ٥٢ كيلو مترًا منها، وبه محطة إرسال إذاعة الكويت، وبجواره موقع يُسمىّ (كبيدة)، وحوله (ثميلة كبد).

٣- كراع المرو:

موقع صحراوي به كثبان ممتدة على شكل ذراع منحنٍ يقع في شمال غربي الكويت جنوبي جال اللياح، ويبعد عن العاصمة مسافة ٧٤ كيلو مترًا.

٤- كويكب

موضع فيه آبار مياه مستساغة، على الجانب الشمالي الغربي من جون الكويت، خلف طريق الصبية مباشرة، وتقع كاظمة في الجنوب الشرقي منه.

٥- كيفان

من المناطق السكنية المعروفة، سُمّي الموقع باسم مورد الماء (كيفان) الذي كان موقعه في ضاحية عبدالله السالم بالقرب من مسجد السهول المعروف.

ذكر لوريمر أن على الجانب الشرقي لرأس الأرض موضعاً يُسمّى (كيفان)، به أكواخ للصيادين الذين يمارسون مهنة صيد السمك هناك، وذكر ديكسون رأس كيفان قائلاً: «هي مجموعة آبار في الجهة الجنوبية من رأس الأرض (وهو الأصح) وحولها عدد من أكواخ الصيادين».

٦- كُبّر

جزيرة كُبّر هي إحدى جزر الكويت، تقع في وسط البحر من الجهة الشرقية لمنطقة الشعيبة، ويقابلها برًا كذلك ميناء الأحمدي والفحيحيل، وهي من مواطن النزهة المألوفة لدى أبناء البلاد، وتعشش فيها الطيور البحرية معظم شهور السنة.

****

حرف الباء في اللهجة الكويتية[1]

تحدثنا فيما سبق عن حرفي (الحاء) و(الكاف) في اللهجة الكويتية، ثم وعدنا بالحديث عن حرف (الباء) وبينا سبب اختيار هذه الأحرف الثلاثة في حينه، وهذا هو أوان الحديث عن الحرف الثالث.

آثرت هنا أن أورد حديثي عن هذا الحرف بأسلوب يختلف عما سبق حتى لا يكون هناك تكرار يدخل السأم على القارئ، وقد وجدت بغيتي عند الأستاذ الفنان أيوب حسين الأيوب الذي اهتم بتراث الكويت حتى لقد أنتج عددًا كبيرًا من اللوحات ضمنها كتابه الضخم الذي اطلق عليه اسم: «التراث الكويتي في لوحات الفنان أيوب حسين» وقد تناول فيه عددًا من الموضوعات حوتها اللوحات التي أبدعها هذا الفنان المبدع، وصنع للكتاب فهرسًا نسقه بحيث يسهل لقارئه الوصول إلى ما يريد بأقصر طريق، وذلك لأنه قسم الموضوعات الكثيرة إلى أقسام يضم كل قسم عنوانًا يدل عليه، ولذا فأنت ترى فيه - على سبيل المثال - ما يلي:

اشتمل الفهرس التفصيلي للوحات على سبعة وثلاثين نوعًا منها لوحات مناسبات وعادات اجتماعية، ولوحات أسواق ودكاكين، ولوحات تعبر عن السواحل، ولوحات تعبر عن الألعاب الشعبية، ولوحات تدل على الدواوين، ولوحات تدل على السكك والطرقات، ولوحات للمساجد، وأخرى عن البيوت وما فيها، وعمّا في داخل الغرف من أثاث أو مظاهر إنشائية، تضاف إليها لوحات معبرة عن الأعمال والخدمات المنزلية، ولوحات تعبر عن المدارس.

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٨/١٣م.

وهكذا إلى أن يأتي القسم الذي يضم لوحات عن الغوص، وبعد استكمال تصفح الكتاب المكون من ستمائة واثنتين وستين صفحة، تضم خمسمائة وأربع عشرة لوحة فإننا نستطيع أن نقول إنه لا بد وأن تكون في كل بيت كويتي نسخة من هذا الكتاب المعبر عن تاريخ وبيئة الكويت، ونماذج من حياة أهلها.

ومن الجدير بالذكر أن مركز البحوث والدراسات الكويتية هو الذي نشر هذا الكتاب النفيس في سنة ٢٠٠٥م فحفظ به تراث الكويت، وتراث الرجل، وصارت في أيدينا تلك اللوحات الرائعة المعبرة التي يطلع من خلالها كل جيل من أجيالنا القادمة، فيرى صورة الأمس وهي ناصعة جميلة بفضل فناننا أيوب حسين، وكل ما نود إثارته هنا هو أن نتمنى على المركز النشيط أن يضيف في طبعات قادمة للكتاب ما يستجد من لوحات حيث أن الأستاذ ولله الحمد غزير الإنتاج ولا يزال يوافينا بين حين وآخر بما يسعدنا من آيات هذا الفن الجميل، ولقد كان آخر معرض شهدناه له هو المعرض الفني الثامن للبيئة الكويتية الذي أقيم على صالة الفنون بضاحية عبدالله السالم اعتبارًا من اليوم الثامن عشر لشهر مارس لسنة ٢٠٠٨م ولمدة عشرة أيام، وكان يضم ما يكاد يقرب من الخمسين لوحة كلها روائع فنية تدل على مقدرة الفنان وأسلوبه الراقي في الرسم، وحرصه على دقائق الأمور بحيث لا يفوته شيء من الأشياء التي ينبغي أن تكون أمام عيني الواقف أمام لوحته حيث يجد فيها رسمًا يكاد يكون حيًا لفرط حساسية الفنان وقدرته الفنية.

والأستاذ الفنان أيوب حسين الأيوب صديق قديم ترجع معرفتي به إلى سنة ١٩٦٥م حين انتقلت للعمل في وزارة التربية، وكان - آنذاك - يعمل في سلك التدريس ناظرًا لمدرسة ابن زيدون، وهو من مواليد سنة ١٩٣٢م، درس في صف المعلمين بالمدرسة المباركية وتخرج فيه سنة ١٩٤٩م، واشتغل في التدريس في سنة ١٩٥٠م وتدرج من مدرس إلى وكيل مدرسة إلى ناظر لمدة ثلاثين سنة، وبعد أن أمضى هذه المدة الطويلة في خدمة التعليم تقاعد عند بداية السنة الدراسية ١٩٧٩ - ١٩٨٠م.

وتفرغ بعدها لفنه ولحياته الخاصة، ولئن ذكرنا عدد اللوحات التي تضمنها كتابه الذي أشرنا إليه، فإن عدد اللوحات التي أنجزها خلال حياته المباركة أكثر مما جاء في ذلك الكتاب، فمجمل اللوحات يصل إلى سبعمائة لوحة.

شارك الأستاذ أيوب في كثير من المعارض منذ سنة ١٩٥٨م، ولم يتردد في الاشتراك عندما يُدعى إلى ذلك سواء أكانت المشاركة في داخل الكويت أم في خارجها، بالإضافة إلى معارضه الخاصة الثمانية التي بدأ أولها في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٧٤م، وبدأ آخرها وهو الثامن في اليوم الثامن عشر من شهر مارس لسنة ٢٠٠٨م، وقد أشرنا إليه قبل قليل، وفي سنة ١٩٥٦م عمل في متحف الكويت الوطني وأشرف على تأسيسه وأمده بعدد من النماذج كان يصنعها بيده، وحصل على عدد من الدروع وشهادات التقدير، غير أنني أرى أن أهم ما ناله هو محبة الجمهور الذي يقبل على معارضه ويحرص على اقتناء ما يستطيع اقتناءه منها، ومن فاتته اللوحة الأصل دبّر لنفسه صورة لها مما يقدمه الفنان من كتيبات مع كل معرض، أما مشاركاته الأخرى فكانت في تأليف الكتب التي تعنى بالتراث الشعبي وبالألعاب الشعبية وباللهجة المحلية وقد أنجز منها حتى يومنا هذا سبعة كتب.

ما قدمته هنا صورة مختزلة جدًا من سيرة الفنان فأعماله لا تحصى ونشاطه مضرب الأمثال، ومشاركاته في أعمال التحكيم دليل على الثقة به وهو أهل لها، أما الجوائز وشهادات التقدير فهي كثيرة، وإن كانت أبرز واحدة من الجوائز هي جائزة الدولة التقديرية لسنة ٢٠٠١م في مجال الفنون التشكيلية.

الأستاذ الفنان أيوب حسين الأيوب معلم كبير أدى دوره كاملاً في هذا العمل الجليل، وفنان خدم الكويت بحفظه لتراثها، ونال تقدير الجميع لذلك.

وهنا نعود إلى بداية الحديث حين قلت إنني آثرت أو أورد هذا المقال بشكل مختلف، وإنني وجدت بغيتي عند الأستاذ الفنان أيوب حسين، فكيف تم ذلك؟ هذا هو ما عزمت عليه:

هذا الكتاب الضخم الذي يحتوي على عدد كبير من اللوحات الفنية البديعة فيه عدد كبير مما يبدأ منها بحرف الباء، وكل لوحة تكاد تكون موضوعًا متكاملاً لأنها إما أن تعبر عن مكان أو عادات أو تاريخ لحوادث معينة فلو اخترنا أعدادًا محدودة منها واسقطنا عليها الضوء لحصلنا على موضوع واسع الجوانب يغطي حرف الباء بأسلوب مخالف للأسلوب الذي ابتعناه في حرفي الحاء والكاف.

هذه مجموعة اللوحات المختارة، وما يمكن أن يقال حولها من تعليق يتناول الوصف التاريخي لا الفني المرتبط بها، وقد ارتأيت تقسيمها إلى قسمين هما:

أولاً: ما يتعلق بالأماكن والمساكن.

ثانيًا: ما يتعلق بالعادات والتاريخ.

وهذا هو القسم الأول منهما:

١- براحة مبارك

البراح في الفصحى: المتسع من الأرض، وفي اللهجة: البراحة هي الأرض المتسعة بين البيوت وبراحة مبارك في الحي الشرقي من العاصمة، ويبدو في اللوحة شكل البراحة جليًا: أرض متسعة قليلاً تحف بها المساكن، وتتفرع منها طرقات ضيقة، وقد يكون فيها - كما هو ظاهر هنا - دكان أو أكثر يقدم لأهل الفريج المحيط بالبراحة ما يحتاجون إليه، وفي البراحة موضع قد يكون على شكل دكة مستطيلة كما يبدو في يسار اللوحة أو ركن من منزل «عاير» كما هو جارٍ في «برايح» أخرى.

وفي المساء يلعب الأطفال في البراحة عند المساء حتى إذا جاء وقت صلاة المغرب ذهبوا إلى بيوتهم لأن وجبة العشاء كانت تقدم بعد الصلاة مباشرة، وهم يعودون إلى اللعب مرة أخرى، وكانوا يرددون وهم ذاهبون لتناول عشائهم:

من تعشى تمشى

والوعد في البراحة

٢ - باب السور

هذا الباب هو أحد أبواب سور الكويت الثالث، وقد كنا فصلنا في السابق حديث أسوار الكويت مما لا داعي إلى ذكره، مرة أخرى، وكان هذا السور قد بني في سنة ١٩٢٠م وهو أوسع من السورين السابقين له، لأن المدينة اتسعت في وقت بنائه، وبوابات السور هي المداخل الوحيدة إلى المدينة عدا الجهة الساحلية وكان الداخلون والخارجون بين العاصمة والخارج يمرون بهذه الأبواب إلى أن هُدّ السور مأسوفًا عليه في سنة ١٩٥٧م.

واللوحة تمثل إحدى البوابات وأمامها سيارة من طراز قديم تستعد للمرور، كما تمثل شكل البوابة الذي يعتمد على باب كبير من جزءين، وبجواره غرفة الحارس وفوق ذلك سطح تزينه أشكال من البناء فيها زخرفة جميلة.

٣ - قصر بيان

هذه الأطلال الماثلة في اللوحة عبارة عن بقايا قصر بيان وهو قصر بناه الشيخ أحمد الجابر الصباح في الموقع الذي بُنِيَ فيه فيما بعد مستشفى مبارك، وكان مبنيًا من الطين ومكونًا من عدة أجزاء لكل جزء منها استعماله الخاص، وكان الشيخ أحمد يقضي فترة الربيع في هذا المكان لأنه كان بعيدًا عن العمران، وكانت المباني فوق تل، وحوله الكثير من الأعشاب البرية التي تزين المنطقة من حوله، وقد أهمل القصر بعد وفاة الشيخ إلى أن تداعى، وبخاصة وأن بناءه كان من الطين على العادة القديمة في البلاد، وعندما عنت الحاجة لموقع المستشفى كان موقع القصر هو أنسب المواقع له فتم بناؤه في هذا الموقع، ولا يزال يؤدي خدماته للمنطقة - وما حولها.

تظهر اللوحة بعض المباني، ويبدو منها أن كل مبنى منفصل عن الآخر وإن كانت جميعها متقاربة، تحيط تلك المباني بساحة رملية فيها بعض الأشجار والأعشاب البرية.

٤ - شارع البدع

البدع موقع على ساحل البحر جنوبي الرأس وهو مرتبط بمنطقة سلوى الواقعة غربًا عنه، وأغلب المساكن الموجودة في البدع إنما هي استراحات للنزهة وقضاء الإجازات، وقد تغير استعمال الأراضي مؤخرًا ليضم فنادق ومطاعم، وفي مقابل البدع داخل البحر موقع يعرفه صيادو الأسماك يسمى قطعة البدع، ويتميز عن كل شيء حوله بوجود صخور متقاربة في قاع البحر تعيش الأسماك بينها، وتتغذى بالأعشاب التي تنمو حولها.

وقد يكون بدع بكسر الباء وسكون الدال، مأخوذ مما جاء في الفصحى من قولهم بدع الركية أي البئر بمعنى حفرها واستنبط ماءها.

واللوحة التي رسمها الأستاذ أيوب حسين ووضع لها عنوانًا هو: «شارع البدع نهارًا» تمثل الطريق المحيط بالبحر من جهة البدع، وهو طريق جميل مبلط تنيره أعمدة الكهرباء ونرى في اللوحة عددًا من المتنزهين على الساحل وبعض المباني التي برزت في ذلك الوقت، ولو رسم الفنان هذا الموقع حاليًا لوجدنا شيئًا آخر بسبب التطور الكبير الذي حدث للمنطقة.

٥ - باب خوخة

الأبواب من أهم ما يميز المباني، ولذا كان الاهتمام بالأبواب كبيرًا في السابق، وكان النجارون يتفنون في صناعتهم لها، وكان الذين يحبون التميز من الأهالي يحرصون على ذلك، وأنواع الأبواب كثيرة منها ما يسمى باب بوخوخة الذي نرى شكله في اللوحة التي رسمها الفنان أيوب، والخوخة عبارة عن باب صغير يوضع في وسط الباب الكبير لسهولة الدخول والخروج، دون أن يحتاج أهل البيت لفتح الباب الكبير، ولفظ (الخوخة) عربي قديم معروف بهذا المعنى الذي ذكرناه.

وفي اللوحة الباب الكبير، وبداخله الخوخة، وهو مزين بمسامير مصفوفة بطريقة تزيينيه، ويتحلى الإطار الذي نسميه «الجرجوب» بحفر على الخشب جميل، وفي أعلى الباب توجد «المطقة» الذي يدق عليها لمناداة من يفتح للقادمين.

٦ - بيت كويتي قديم

رسم الأستاذ أيوب هذه اللوحة وعلّق عليها بما يلي: «اعتاد بعض الأغنياء مسح جدران بيوتهم بالأسمنت عند أول انتشاره مع القيام بتزيينها بالوحدات الزخرفية الغائر منها والبارز مع بناء الغرف العلوية وما بها من شبابيك»، وهذا الوصف كان لإبراز ما في اللوحة التي يرى المتأمل فيها حسن الصنعة في الأصل وفي الرسم، ويعتبر بناء هذا النوع من المباني السكنية تطورًا كبيرًا في فن البناء، حتى إذا قارنه المرء بما كان سائدًا قبله وجد الفرق الشاسع بينهما.

وانتقل الأستاذ أيوب إلى وجهة أخرى في الموضوع نفسه وهو «البيوت» فهذه لوحة أخرى عنوانها «من بيوتنا القديمة» اختار لها أن تعلن عن محتويات البيت من الداخل، فترى الحوش والليوان والغرف المحيطة به، والسطح، وحبل الغسيل والسفرة والحصير والحب وباقي أدوات المياه، واللوحة صورة ناطقة عن شكل البيوت القديمة من داخلها، فهذا هو كل ما تحتوي عليه يقول الفنان: «هذا نموذج لبيت كويتي قديم شاهدته في الثلاثينيات».

٧ - بالوعة الزاد

من الأشياء البارزة في ساحة البيت، أو في جانب منها ما نسميه: بالوعة الزاد، وهي عبارة عن حوض مستدير أو مربع الشكل مبني من الأسمنت، له جوانب ترتفع قدر نصف قدم وفيها خرم ينزل الماء منه إلى خزان أرضي ثم يتسرب في الأرض، وسميت بالوعة لأنها تبتلع المياه الناتجة عن غسيل الأواني المنزلية، أما

الزاد فهو الطعام أو الأكل، وسميت بهذا الاسم للتفريق بينها وبين بالوعة الحمام، والقصد من إفرادها: إتاحة مجال واسع لغسل الأواني مع وجود أكثر من إمرأة تقوم بذلك، ثم لكي يتم عزل المياه الناتجة من الأوساخ البشرية عن المياه التي تنتج عن غسل أواني الطعام، وقد يكون فيها شيء من بقاياه.

قام الأستاذ أيوب حسين برسم لوحة جميلة سماها: «بالوعة الزاد» وقد وصفها بقوله عن المنظر الماثل: «يظهر تعاون بعض أفراد الأسرة في إنجاز الأعمال المنزلية، ويبين الجليب والبالوعة والمسبح والهيب والهاون والسعف وبعض الأواني».

وإضافة إلى ما ذكر فإننا نرى في اللوحة نخلة صغيرة يتيمة في الزاوية، وسلمًا خشبيًا، وحبلاً نشر عليه الغسيل من ملابس أهل البيت، فهو لوحة جامعة لما كان يطلق عليه - قديمًا - ذاك الحوش، وهو يختلف عن الحوش الرئيسي الذي يحافظ أهل البيت على بقائه نظيفًا منسقًا.

أما القسم الثاني الذي وعدنا بالحديث عنه، وهو خاص بالعادات والتاريخ فكما يلي:

١ - البطاقة، أو سنة البطاقة

ويقصد بها بطاقة التموين التي توزع بموجبها المواد التموينية المقررة من الدولة، وتكون بأسعار ملائمة جدًا للمستهلكين، واللوحة التي نشاهدها تمثل ما جرى في تلك السنة التي اصطلح الناس على تسميتها: سنة البطاقة، وهي السنة التي بدأ بها الأخذ بهذا النظام وإن كان تطبيقه امتد أكثر من سنة، ونرى في اللوحة التي رسمها الأستاذ أيوب حسين مظاهر العمل في التموين حيث يتقاطر الناس على أحد الدكاكين المخصصة لهذا الغرض من أجل أخذ احتياجاتهم من المواد التموينية.

كانت الحرب العالمية الثانية من أهم أسباب التضييق على الكويتيين في عيشهم، لقد بدأت السلع في الاختفاء من الأسواق، وصارت الأسعار ترتفع يومًا بعد آخر، حتى باتت معيشة الناس صعبة جدًا، ولقد تدارك الشيخ أحمد الجابر الصباح حاكم الكويت - في ذلك الوقت - هذا الوضع، وأقدم على خطوة تقضي على هذا البلاء قبل أن يزداد ويتحول إلى ما هو أشد؛ فطلب من الحكومة البريطانية أن تقوم بتزويد البلاد بجميع حاجاتها من الأغذية والأقمشة، لأن السفن الحربية كانت تهدد السفن التي اعتادت أن تنقل إلى الكويت حاجاتها، ولأن الجانب البريطاني كان مسيطرًا على المناطق التي ترد منها تلك الحاجات؛ لم تتردد بريطانيا في الموافقة على أن تمد الكويت بما تريد من المواد مشترطة أن يتم ذلك وفق نظام يقنن بالبطاقات حاجات الأفراد، بحيث لا تتسرب هذه البضائع إلى السوق السوداء.

وقد التزمت الكويت بهذا الشرط الذي فيه - أيضًا - مصلحة لها، وضمان لاستمرار الإمدادات من الأغذية والأقمشة إلى أن ينجلي أمر الحرب العالمية هذه.

في أواخر سنة ١٩٤٢م تأسست أول دائرة تموين في تاريخ الكويت تحت اسم «دائرة التموين» مهمتها الإشراف على توزيع المواد وفق نظام البطاقات رئيسها الشيخ عبدالله السالم الصباح، وكان أول مدير لهذه الشركة هو السيد ناصر السعد المقهوي، وأصدرت بطاقات وزعت على كل رب أسرة تحتوي على بيان عدد أفراد الأسرة والكمية المخصصة لها من كل مادة، وكان عدد ما وزع من تلك البطاقات ثلاثين ألف بطاقة سدت حاجة ستة وثمانين ألف نسمة.

وقامت الإدارة بافتتاح فروع لها في جميع الأحياء وقدمت خدماتها للجميع دون استثناء، ومضت في عملها على خير وجه، حتى انتهت الحرب العالمية الثانية، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي، فانتهت الحاجة إلى أعمال الدائرة مما دعا إلى إنهاء عملها.

٢-البنديرة

البنديرة هي سارية العلم التي نصبت في قصر السيف يرفع عليها علم الكويت وتزود جوانبها بحبال مائلة من أعلى إلى أسفل تحمل أعلامًا صغيرة مختلفة الألوان لمجرد الزينة، وكان هذا المظهر من مظاهر الاحتفالات قديمًا بينما العلم يبقى طوال العام يرفع يوميًا في الصباح ويتم إنزاله في المساء بموجب مراسم يقوم بها أفراد من الحرس الأميري.

أحب الصبيان الكويتيون هذا المظهر الجميل، وبدأوا في تقليده فصاروا ينصبون على سطوح منازلهم بنديرات شبيهة بما هو في قصر السيف وإن كانت أصغر حجمًا بطبيعة الحال، وفي اللوحة نرى الأستاذ أيوب يقدم لنا أحد الأولاد وهو يقوم بإنزال العلم في المساء، وقد دل الهلال البازغ في السماء على الوقت تمامًا.

٣-البشير

كان اهتمام الكويتيين - ولا يزال - كبيرًا بالحج إلى بيت الله الحرام ولكنه في الماضي يأخذ مظاهر مختلفة، لأن الحاج كان يقطع الفيافي والقفار على جمله طوال فترة الرحلة التي كانت تستغرق ما لا يقل عن شهرين من الزمان، وعندما ينتهي موسم الحج يكون الناس في البلاد في شوق شديد إلى حجاجهم، يزداد ترقبهم لعودتهم يومًا فيومًا ولم يكن الحجاج يعودون في وقت واحد كما جرت العادة في رحلة الغوص، بل كانوا يأتون على أفواج بحسب ظروف الطرق، ولما كان كل حاج مرتبطًا بحملة من الحملات فإن صاحب الحملة يرسل شخصًا على وجه السرعة ليبشر الأهالي بقرب وصول من معه من الحجاج، ويسمى هذا الشخص «البشير» الذي ما إن يصل إلى البلاد حتى يحيط به الناس من كل جانب يسألونه

ثم يعيدون سؤاله عمن يكون لهم من الحجاج، ولا يطمئن بال أحدهم إلا بعد أن يذكر له «البشير» طرفًا من أخبار من حج من أهله أو أصحابه، وكان «البشير» يتلقى الهدايا في مقابل ذلك.

وهذه هي لوحة البشير التي رسمها الفنان أيوب حسين الأيوب، ويرى الرجل وقد أناخ بعيره في ساحة من ساحات الحي، ووقف أمام أحد البيوت ليبشرهم بقرب قدوم الحجاج من أهل هذا البيت، ويرى - أيضًا - وهو يتلقى هديته من أحد ذوي الحجاج وهي عبارة عن بشت مزين بالزري، ويلاحظ أن (البشير) يلبس كل بشت يهدى إليه في لحظته ولذا فإننا نرى عليه أكثر من بشت وهو في اللوحة يتلقى هذا البشت الآخر الذي سوف يضيفه على ما سبقه نلاحظ النساء وقد وقفن للاستطلاع كما وقف الأطفال لكي يروا هذا المشهد المهم في حياتهم.

٤ - بوطبيلة

لم ينس الناس إلى يومنا هذا (بوطبيلة) على الرغم من أنه قد انقطع عن القيام بجولاته الرمضانية، فقد بقي مظهرًا من مظاهر الكويت القديمة، لا يغادر الذاكرة أبدًا.

سمي بوطبيلة لأنه كان يمسك طبلاً صغيرًا يدور به على الأهالي في ليالي رمضان ليوقظهم للسحور، ومن ثم لصلاة الفجر، وكانت ضرباته المنتظمة على طبيلته معروفة تدل عليه حتى ولو كان يطوف في الظلام الدامس. وهو إلى جانب طوافه الليلي؛ يقوم اعتبارًا من بداية النصف الثاني من رمضان إضافة إلى أيام العيد بالطواف صباحًا ومعه حمار له لكي يتلقى من الأهالي مكافأة على جهده الذي بذله في الليل وفي اللوحة قدم الأستاذ أيوب حسين صورة تكاد تكون ناطقة لهذا المظهر الذي كان يتكرر كل سنة، فنرى بوطبيلة مع حماره وهو محاط بعدد من الصبيان، واقفًا أمام أحد الأبواب مرددًا (عادت عليكم والشر ما يجيكم) فيتلقى ما قسم له من أصحاب البيوت التي يطوف بها.

٥ - بياع الطيور

كان الاهتمام بصيد الطيور العابرة كبيرًا في الكويت القديمة، وكانت هذه الطيور تمرّ بالبلاد على فترتين، الأولى منهما فترة الربيع حيث كانت الطيور تمر بكثرة، ثم تهبط على الأماكن ذات الخضرة من أجل الراحة تمهيدًا لاستئناف الرحلة إلى أماكن أخرى من العالم، والفترة الثانية في الخريف الذي يسمى عندنا (الصّفري) وهو في المدة ما بين شهري سبتمبر ونوفمبر من كل عام، وتأتي الأعداد قليلة في هذه المرة، وتقع ضمن أنواع محدودة من الطيو بخلاف ما كان في الفترة الأولى يفرح الشباب وصغار السن منهم على وجه الخصوص بقدوم الطيور ويسعون إلى اصطيادها بوسائل منها (الشبج) وهو عبارة عن ربطة من فروع الشجر تضم إلى بعضها وتوضع في أعلى المنزل، ويوضع بها عدد من الصلاليب، وهي جمع صلابة، والصلابة تتكون من عصاتين ربطت إحداهما بالأخرى من الأسفل، وبينهما في الأعلى خيط يشبه الأنشوطة يمتد إلى عود صغير يسمى المد إذا وقع عليه الطير أنفلتت الأنشوطة وأمسكت به، فيسرع صاحب الشبج إلى انتزاعه من الصلابة ومن أدوات الصيد الفخ وهو حديدة هلالية أو ذات شكل مستطيل ذي أضلاع ثلاثة، مرتبطة بإطار يشبهها من الخيزران، يمتد بين طرفيها شريط مطوي من المطاط، في الوسط مستطيل خشبي قصير يشد فيه الإطار الخيزراني، وتوضع فوق الفخ عند فتحه في مكان معين منه بعض الحشرات أو الدود التي يهبط الطير سريعًا لالتقاطها فيطبق عليه الفخ، ومن أدوات الصيد النباطة، ويتم الصيد بها عن طريق إطلاق الحصى على الطير وهناك بعض من المواطنين قد تحولت الهواية عندهم إلى مهنة موسمية يزاولونها، وذلك بصيد الطيور عن طريق الشباك التي توضع فوق الأشجار ولاسيما أشجار السدر، وهؤلاء يصطادون كميات كبيرة يبيعونها مذبوحة في الأسواق، أما الصغار فإنهم يبيعون الطيور حية بعد وضعها في قفص، وأهم موقع لبيع الطيور الحية كان بالقرب من مسجد ابن بحر، غربًا عنه، هذا ويقبل الناس في هذا الموسم على أكل الطيور مشوية ومقلية، ويتباهون بصيدها، ويسعدون به.

هذا ومن الطيور أنواع عديدة معروفة بأسمائها وأشكالها كالحمامي، والرماني، والأشول، وسويدة راس، والسمنة وغيرها من الأنواع.

وهذه اللوحة البديعة التي اتقنها الأستاذ الفنان أيوب حسين تصور عملية بيع الطيور بعد اصطيادها، وهي تمثل عرض الطيور في أقفاص خاصة بها تسمى «كاشونة طيور» وقد وقف أحد الأطفال يلعب بالعصفور الذي اشتراه، وهناك أناس لا يحبذون لعب الأطفال بالطيور، ومنهم الشاعر صقر الشبيب الذي قال قصيدة طويلة بهذا المعنى ومنها:

كلُّ طفلٍ بكفه عصفورُ
من أذاها يكاد فيها يَبورُ
مُتأذٍ من قبضةِ الطفل
والطِّفلُ له من أذى الطيورِ سُرورُ

٦- بشتختة وغواناتها

المقصود بالبشتختة هنا الجهاز المستعمل في تشغيل الإسطوانات الصوتية «الغوانات» وكان يعمل بإدارة مقبض خاص يتم بإدارته امتلاء الجهاز بالقوة العاملة عن طريق سلك داخلي يلتف ثم يعود إلى وضعه عند انتهاء العمل وله سماعة خارجية أو داخلية، ويجري تحريك إبرة خاصة مثبتة في طرف يد يحركها مشغل البشتختة فيضعها على أول الإسطوانة حتى يبدأ العمل.

في وقت لم تتقدم فيه الوسائل المتوافرة حاليًا من راديو وتلفزيون وخلافه فإن الناس كانوا يقبلون على شراء أو استئجار البشتختات والإسطوانات وبخاصة في المناسبات، وكان في الكويت سوق عامر لهذا العمل، وفي بعض الأماكن دكاكين متفرقة تؤدي خدمة التأجير.

هذا هو ما رأينا الإشارة إليه فيما يتعلق بحرف الباء، ونكرر الشكر للأستاذ الفنان أيوب حسين الأيوب الذي أتاح لنا هذه الفرصة.

****

الدكتور سليمان حُزَيّن في الكويت(١)

هذه عودة إلى الحديث عن الموسم الثقافي الذي أقامته دائرة معارف الكويت في سنة ١٩٥٥م وما تلاها، فقد تحدثنا عنه في أماكن متفرقة وسوف نذكره عند الحديث عن الدكتور أحمد زكي، ونعود إليه اليوم بمناسبة الحديث عن الدكتور سليمان حزين، الذي كان من أبرز المثقفين والعلماء العرب في وقته، وكان مشهورًا بالعلم والفضل، وله خبرة كبيرة في مجال التربية والثقافة، ومعروفًا لدى الكويت بقوة صلته بها وحبه لها ولأهلها، وذلك هو ما أبرزته الأيام التي لحقت أيام الموسم الثقافي، وفي هذا الموسم ألقى الدكتور سليمان حزين محاضرتين في قاعة مدرسة الشويخ الثانوية، وكان قد جاء مسبوقًا بشهرة كبيرة، ولذا فقد كان الإقبال على سماع محاضرتيه كبيرًا جدًا، وقد لفت أنظار الحاضرين أن المحاضر كان يلقي المحاضرتين ارتجالاً وعلى الرغم مما فيهما من تفصيلات ومراجعات، فإنه كان يتدفق في إلقائه لهما شادًا الأنظار والأذهان إلى حديثه، وكانت المحاضرة الأولى بعنوان: «الثقافة العربية»، وأما الثانية فكانت بعنوان: «العرب والسياسية العالمية»، ولا مجال هنا لتفصيل ما جاء في المحاضرتين لضيق المجال ولكننا نكتفي بالقول إن حيوية الموضوعين، والأسئلة التي قدمت في نهايتهما إلى المحاضر وردوده القيمة، وانتباه الحاضرين إلى كل ما ألقي على مسامعهم فيها كلها الدليل على تمكن هذا الرجل من مادته إضافةً إلى قدرته الفائقة على بسط أفكاره، واستطاعته إيصالها إلى مستمعيه بكل يسر.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠/٨/٢٠٠٨م.

عندما طبعت دائرة معارف الكويت محاضرات الموسم الثقافي في كتاب جاءت المحاضرتان في المجلد الأول منه، وقد قدمت اللجنة المكلفة بإعداد الكتاب محاضرنا الدكتور سليمان حزين بقولها:

• دكتوراه في الجغرافيا من جامعات إنجلترا.

• وقد تقلّد في المحيط العلمي مناصب خطيرة فقد كان أستاذًا للجغرافيا بجامعة القاهرة ومديرًا عامًا لإدارة الثقافة فوكيلاً مساعدًا لوزارة التربية والتعليم وهو الآن يشغل منصب مدير جامعة أسيوط.

• يعدّ الدكتور من قادة الفكر في العالم العربي وهو محاضر لبق يتدفق في بيان أخاذ ويطوف في آفاق رحبة من الفكر الناضجة الغزيرة.

• مثّل مصر في طائفة من المؤتمرات، وأمدّ المكتبة العلمية بعدد من الكتب القيمة، أغلبها باللغة الإنجليزية ومن بينها:

١ - العرب والشرق الأقصى.

٢ - الجغرافيا التاريخية للفيوم.

وفي هذه العبارات ما يدل على إعجاب الهيئة المنظمة للموسم الثقافي بهذا العالم الذي اعتبرته من قادة الفكر في الوطن العربي، وأنه محاضر لبق متدفق البيان عندما يتحدث، له أسلوب أخاذ يطوف في آفاق رحبة من المعرفة التي اكتسبها، وامتلأ بها عقله وأبرزها فكره، وهي التي وجهت الأنظار إليه.

ولكل ما تقدم عنه، كان الدكتور سليمان حزين موضع إشادة من الجميع، ولاسيما من الهيئات التي شارك في تأسيسها أو في عضويتها، ومن ذلك أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أقام له جلسة خاصة ابّنه فيها بعد وفاته وقد ألقى كلمة

الافتتاح لهذه الجلسة الدكتور شوقي ضيف الذي كان رئيس المجمع - في ذلك الوقت - وبدأ كلمته بقوله: «نجتمع اليوم لتأبين المرحوم الأستاذ الكبير سليمان حزين، وهو علم في مقدمة أعلام كلية الآداب بجامعة القاهرة في القرن العشرين، وقد تخرج فيها، وكان متفوقًا بين الناجحين، فأرسلته كلية الآداب إلى إنجلترا ليحصل على درجة الدكتوراه فحصل عليها في سنة ١٩٣٥م».

وتحدث الدكتور شوقي ضيف عن آثار تفوق الدكتور حزين حين أوفدته جامعة مانشستر إلى اليمن ثقة منها بمقدرته العلمية، وقدرته على القيام بالمهمة التي أوكلتها إليه أما الكلية التي أوفدته للدراسة وهي كلية الآداب بجامعة القاهرة فقد عاد إلى العمل بها بعد مهمته في اليمن فعيّن مدرسًا ثم أستاذًا، وعندما قررت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية إنشاء قسم للجغرافيا بها لم تجد من لديه من القدرة مثل ما لدى الدكتور سليمان حزين فقام بمهمته هذه خير قيام، وقد وجدت الجهات المختصة في الدولة أنه لا بد من الاستفادة من هذا الرجل على نطاق واسع فتم تعيينه مديرًا للثقافة في وزارة المعارف، وبقي في هذا العمل إلى أن رقي إلى درجة وكيل الوزارة ولكن العمل الجامعي كان من أهم ما يتطلع إليه، ولذا فقد بادر إلى تأسيس جامعة أسيوط حين دعته الدولة إلى القيام بتأسيسها، فتم له ذلك، وصارت هذه الجامعة بسبب غرسه الطيب من أكبر الجامعات في الوطن العربي.

واستطرد الدكتور شوقي ضيف معددًا أنشطة صاحبنا المختلفة فذكر منها رئاسته للمجمع العلمي الفرنسي منذ سنة ١٩٦٧م، ثم ذكر اختيار الدولة له ليكون وزيرًا للثقافة وقد كانت بذرة هذه الوزارة هي الدائرة التي كان يديرها في وزارة المعارف كما ذكرنا آنفًا وقد كان عمله في وزارة الثقافة مشهودًا، وهو الذي وضع لها الأساس التي سارت عليها إلى يومنا هذا ترأس فيما بعد المجمع العلمي المصري فجعله مركزًا علميًا نشطًا يشترك فيه العلماء المصريون بجهود كبيرة وبخاصة في مجال المحاضرات السنوية التي يقدمونها برعايته.

وذكر الدكتور ضيف من أعمال الدكتور حزين أعمالاً أخرى كلف بها فأداها على خير وجه منها أن الأمم المتحدة قد كلفته بإدارة المركز الديموغرافي الخاص بشمال أفريقيا، وأن الحكومة المصرية اختارته لعضوية المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في أول تشكيل لهذا المجلس الذي استمر الدكتور سليمان حزين في عضويته حتى بعد أن تم تحويله إلى: المجلس الأعلى للثقافة.

وشارك في العمل على تأسيس عدد من الجامعات غير المصرية منها انتدابه للمشاركة في تأسيس جامعة الكويت.

أما اختياره لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة فكان ذلك في سنة ١٩٧٨م، وكان مشاركًا في كافة أعماله وبخاصة أنه كان مقررًا للجنة الجغرافيا فيه وكان عمله واضحًا في المصطلحات التي أقرتها هذه اللجنة.

ولم تكن هذه هي كلمة التأبين التي قدمها المجمع بمناسبة وفاة الدكتور حزين، بل كانت هناك كلمة المجمع فدعا الرئيس في نهاية كلمته الدكتور محمود حافظ نائب رئيس المجمع ليلقي كلمة التأبين الرسمية التي عبرت عن الأسف الشديد لفقد هذا العالم النادر المثال.

في محاضرته الأولى في الكويت التي كانت بعنوان: «الثقافة العربية» تحدث الدكتور سليمان حزين عن تقديره للكويت ومحبته لها، ورغبته بالاشتراك في الموسم الثقافي، منذ جاءته الدعوة إليه، وذكر أن ظروفًا خاصة منعته إلى أن أتيح له أن يحضر ويشارك في دورة الموسم الثانية، ومنذ البداية قال: «فجئت إلى هذا البلد الذي ما زرته مرة إلا رغبت في زيارته مرة تالية، جئت إلى هذا البلد الصغير بحجمه، الكبير بآماله» وتحدث عن تواجد عدد كبير من أبناء العرب في مختلف التخصصات يعملون ويجدون في عملهم، وقد كان العدد الأكبر منهم -

بشكل خاص - من المتخصصين في مجال الثقافة والتربية والتعليم وعندما بدأ في الحديث عن موضوعه ذكر أنه تشرّف في الصباح بلقاء الشيخ عبدالله السالم الصباح، واستمتع بحديثه الطلي في موضوع الثقافة، وعن أهمية بناء الأمة العربية على أساس بعث أمجادها، وأول هذه الأمجاد كان في الجانب الثقافي.

ومن الصعب هنا أن نستعرض كامل المحاضرة لأنها ذات جوانب متعددة وتستغرق الكثير من الصفحات، ولكننا لابد وأن نورد ما ذكره في ختامها، وهو قوله: «ولحسن الحظ أننا نجد أنفسنا الآن في بلد عربي، قد يكون صغيرًا بحجمه، أو بعدد سكانه، ولكنه نموذج مصغر لما أحب أن أرى عليه الأمة العربية في المستقبل، هذا البلد هو الكويت».

أما محاضرته الثانية التي كانت بعنوان: «العرب والسياسة العالمية» فهي محاضرة شديدة الاتصال بتخصصه الجغرافي أورد فيها الكثير من المعلومات المهمة، واستطرد استطرادات كثيرة، ولكنها مرتبطة كلها بالموضوع، ولقد طبعت المحاضرة ضمن الكتاب الذي أشرنا إليه فجاءت في إحدى وعشرين صفحة، وإذا عرفنا أنه ألقاها ارتجالاً عرفنا مدى تمكن هذا الرجل من مادته المليئة بالمعلومات التاريخية والجغرافية، لم يتردد لحظة وهو يقدمها للجمهور لفرط إلمامه بها.

وإذا كان الدكتور سليمان حزين قد ذكر في محاضرته الأولى عن سبب مجيئه إلى الكويت مرات قبل المرة التي ألقى فيها المحاضرة، فإنه يشير إلى زيارات له متعددة إلى البلاد، وكان منها ما تم بعد الموسم الثقافي عندما جاء للمشاركة في العمل الذي بدأته دائرة معارف الكويت في أوائل سنة ١٩٦٠م، ففي هذا الوقت حضرت إلى هنا لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص منهم صاحبنا من أجل دراسة إمكان إنشاء جامعة في الكويت، وتقديم التوصيات المتعلقة بها إذا تبين أن من الخير إنشاء الجامعة.

وذكر الدكتور ضيف من أعمال الدكتور حزين أعمالاً أخرى كلف بها فأداها على خير وجه منها أن الأمم المتحدة قد كلفته بإدارة المركز الديموغرافي الخاص بشمال أفريقيا، وأن الحكومة المصرية اختارته لعضوية المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في أول تشكيل لهذا المجلس الذي استمر الدكتور سليمان حزين في عضويته حتى بعد أن تم تحويله إلى: المجلس الأعلى للثقافة.

وشارك في العمل على تأسيس عدد من الجامعات غير المصرية منها انتدابه للمشاركة في تأسيس جامعة الكويت.

أما اختياره لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة فكان ذلك في سنة ١٩٧٨م، وكان مشاركًا في كافة أعماله وبخاصة أنه كان مقررًا للجنة الجغرافيا فيه وكان عمله واضحًا في المصطلحات التي أقرتها هذه اللجنة.

ولم تكن هذه هي كلمة التأبين التي قدمها المجمع بمناسبة وفاة الدكتور حزين، بل كانت هناك كلمة المجمع فدعا الرئيس في نهاية كلمته الدكتور محمود حافظ نائب رئيس المجمع ليلقي كلمة التأبين الرسمية التي عبرت عن الأسف الشديد لفقد هذا العالم النادر المثال.

في محاضرته الأولى في الكويت التي كانت بعنوان: «الثقافة العربية» تحدث الدكتور سليمان حزين عن تقديره للكويت ومحبته لها، ورغبته بالاشتراك في الموسم الثقافي، منذ جاءته الدعوة إليه، وذكر أن ظروفًا خاصة منعته إلى أن أتيح له أن يحضر ويشارك في دورة الموسم الثانية، ومنذ البداية قال: «فجئت إلى هذا البلد الذي ما زرته مرة إلا رغبت في زيارته مرة تالية، جئت إلى هذا البلد الصغير بحجمه، الكبير بآماله» وتحدث عن تواجد عدد كبير من أبناء العرب في مختلف التخصصات يعملون ويجدون في عملهم، وقد كان العدد الأكبر منهم -

بشكل خاص - من المتخصصين في مجال الثقافة والتربية والتعليم وعندما بدأ في الحديث عن موضوعه ذكر أنه تشرّف في الصباح بلقاء الشيخ عبدالله السالم الصباح، واستمتع بحديثه الطلي في موضوع الثقافة، وعن أهمية بناء الأمة العربية على أساس بعث أمجادها، وأول هذه الأمجاد كان في الجانب الثقافي.

ومن الصعب هنا أن نستعرض كامل المحاضرة لأنها ذات جوانب متعددة وتستغرق الكثير من الصفحات، ولكننا لابد وأن نورد ما ذكره في ختامها، وهو قوله: «ولحسن الحظ أننا نجد أنفسنا الآن في بلد عربي، قد يكون صغيرًا بحجمه، أو بعدد سكانه، ولكنه نموذج مصغر لما أحب أن أرى عليه الأمة العربية في المستقبل، هذا البلد هو الكويت».

أما محاضرته الثانية التي كانت بعنوان: «العرب والسياسة العالمية» فهي محاضرة شديدة الاتصال بتخصصه الجغرافي أورد فيها الكثير من المعلومات المهمة، واستطرد استطرادات كثيرة، ولكنها مرتبطة كلها بالموضوع، ولقد طبعت المحاضرة ضمن الكتاب الذي أشرنا إليه فجاءت في إحدى وعشرين صفحة، وإذا عرفنا أنه ألقاها ارتجالاً عرفنا مدى تمكن هذا الرجل من مادته المليئة بالمعلومات التاريخية والجغرافية، لم يتردد لحظة وهو يقدمها للجمهور لفرط إلمامه بها.

وإذا كان الدكتور سليمان حزين قد ذكر في محاضرته الأولى عن سبب مجيئه إلى الكويت مرات قبل المرة التي ألقى فيها المحاضرة، فإنه يشير إلى زيارات له متعددة إلى البلاد، وكان منها ما تم بعد الموسم الثقافي عندما جاء للمشاركة في العمل الذي بدأته دائرة معارف الكويت في أوائل سنة ١٩٦٠م، ففي هذا الوقت حضرت إلى هنا لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص منهم صاحبنا من أجل دراسة إمكان إنشاء جامعة في الكويت، وتقديم التوصيات المتعلقة بها إذا تبين أن من الخير إنشاء الجامعة.

وفي اليوم الرابع عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٦٠م قدمت اللجنة الثلاثية تقريرها، وتم طبعه في مطبعة حكومة الكويت وتوزيعه على المهتمين بالتربية وشؤونها.

ومن ضمن ما يدل على قديم علاقته الطيبة بالكويت ما ورد في الخطاب الذي ألقاه السيد عبدالقادر النعماني مدير بعثة الكويت الطلابية في مصر عندما وقف في حفل التكريم الذي أقامته إدارة البعثة للشيخ عبدالله الجابر الصباح في اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٥٣م، وذكر فيه شيئًا من العلاقات التربوية والثقافية بين الكويت ومصر، فبين بعض الجهود التي قدمها الدكتور سليمان حزين من أجل تقوية الصلات بين البلدين في مجال عمله باعتباره كان في ذلك الوقت مديرًا لإدارة الثقافة العامة في وزارة المعارف العمومية المصرية ومما قاله السيد النعماني: «وقد كان لحضرة الدكتور سليمان حزين أكبر الأثر في إيفاد البعثة المصرية إلى الكويت في العام الماضي، وكانت مؤلفة من الأستاذ محمد علي رضا المدير العام لتعليم البنات، والأستاذ حافظ حمدي وكيل إدارة التعاون الثقافي الشرقي، اللذين ساهما أكبر المساهمة في إيجاد هذه العلاقة التعليمية بين مصر والكويت، والتي أثمرت في إيفاد الأساتذة المصريين هذا العام إلى الكويت برئاسة الأخ الكريم حضرة الأستاذ عبدالمجيد مصطفى».

فيما يتعلق بإنتاج الدكتور حزين العلمي، فإننا لاحظنا أن دائرة معارف الكويت ذكرت له كتابين من تأليفه هما العرب والشرق الأقصى، والجغرافيا التاريخية للفيوم، وكلاهما قد صدر باللغة الإنجليزية، كما ورد في كتاب الدائرة.

وقد وجدت له كتابين لا يخرجان عن تخصصه، إحدهما بعنوان: «حضارة مصر» وهو يتجه في بدايته إلى وضع منهج للبحث في الجغرافيا الحضارية والإنسان باعتبارهما من مقومات الحضارة المصرية ثم الأقاليم المصرية وأثر

الموقع الجغرافي في كل منها، وأمور كثيرة مرتبطة بموضوع الحضارة، والكتاب كما جاء على غلافه الأخير غير تقليدي في منهجه، ولا في منحى تأملاته أو ترتيب أبوابه فهو في هذا مختلف عن أي كتاب جغرافي آخر. وأما الكتاب الثاني فهو «مستقبل» الثقافة في مصر العربية ولهذا الكتاب ارتباط بتخصصه باعتباره واسع المعرفة عاملاً في مجال الثقافة منذ كان مديرًا لإدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية بمصر حتى صار وزيرًا للثقافة فيما بعد، عندما تغيرت الأحوال.

يتألف الكتاب من أكثر من خمسمائة صفحة، وثلاثة عشر فصلاً، اطَّره المؤلف بأُطر من الحكم والأدعية، وختمه بعدد من الحكم يصل عددها إلى ثلاثين حكمة تنم عن خلاصة تجاربه في الحياة وقد تحدث عن سر اختياره لموضوع كتابه هذا بقوله: «الفكر والعلم والتعليم والثقافة كلها دعامات أساسية في بناء الفرد، وبناء الأمة، وهي كلها هداية من الله سبحانه، ونعمة، ولكن علينا أن نذكر أن تنمية هذه النعمة هي من عمل الإنسان وواجبه».

تحدث في الفصول الثلاثة الأولى عن جذور الثقافة في مصر بما في ذلك مسيرتها التاريخية والمؤثرات التي أثرت فيها، ثم تحدث في موضوعات متنوعة لها علاقة بالموضوع العام الذي يندرج تحت عنوان الكتاب مع اهتمام كبير بالتعليم العام، والجامعي، باعتبار أن التعليم أساس من أسس الثقافة.

وفي ختام الكتاب فصل اطلق عليه المؤلف اسم: «من سيرة مصري من أهل الفكر والثقافة العربية» ويتألف هذا الفصل مما يقرب من مائة وخمس عشرة صفحة ضمنت سيرته الذاتية منذ ولادته إلى أن تخرج وبدأ بالعمل.

لا تجد سيرة ذاتية لشخص ما أوضح ولا أدق من السيرة التي يكتبها الكاتب عن نفسه، وها نحن نجد الدكتور سليمان قدم لنا ما نحتاج إليه من أطوار حياته منذ ولد، وقد وصف نفسه في عنوان السيرة بأنه رجل مصري من أهل الفكر

وفي اليوم الرابع عشر من شهر فبراير لسنة ١٩٦٠م قدمت اللجنة الثلاثية تقريرها، وتم طبعه في مطبعة حكومة الكويت وتوزيعه على المهتمين بالتربية وشؤونها.

ومن ضمن ما يدل على قديم علاقته الطيبة بالكويت ما ورد في الخطاب الذي ألقاه السيد عبدالقادر النعماني مدير بعثة الكويت الطلابية في مصر عندما وقف في حفل التكريم الذي أقامته إدارة البعثة للشيخ عبدالله الجابر الصباح في اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٥٣م، وذكر فيه شيئًا من العلاقات التربوية والثقافية بين الكويت ومصر، فبين بعض الجهود التي قدمها الدكتور سليمان حزين من أجل تقوية الصلات بين البلدين في مجال عمله باعتباره كان في ذلك الوقت مديرًا لإدارة الثقافة العامة في وزارة المعارف العمومية المصرية ومما قاله السيد النعماني: «وقد كان لحضرة الدكتور سليمان حزين أكبر الأثر في إيفاد البعثة المصرية إلى الكويت في العام الماضي، وكانت مؤلفة من الأستاذ محمد علي رضا المدير العام لتعليم البنات، والأستاذ حافظ حمدي وكيل إدارة التعاون الثقافي الشرقي، اللذين ساهما أكبر المساهمة في إيجاد هذه العلاقة التعليمية بين مصر والكويت، والتي أثمرت في إيفاد الأساتذة المصريين هذا العام إلى الكويت برئاسة الأخ الكريم حضرة الأستاذ عبدالمجيد مصطفى».

فيما يتعلق بإنتاج الدكتور حزين العلمي، فإننا لاحظنا أن دائرة معارف الكويت ذكرت له كتابين من تأليفه هما العرب والشرق الأقصى، والجغرافيا التاريخية للفيوم، وكلاهما قد صدر باللغة الإنجليزية، كما ورد في كتاب الدائرة.

وقد وجدت له كتابين لا يخرجان عن تخصصه، إحدهما بعنوان: «حضارة مصر» وهو يتجه في بدايته إلى وضع منهج للبحث في الجغرافيا الحضارية والإنسان باعتبارهما من مقومات الحضارة المصرية ثم الأقاليم المصرية وأثر

الموقع الجغرافي في كل منها، وأمور كثيرة مرتبطة بموضوع الحضارة، والكتاب كما جاء على غلافه الأخير غير تقليدي في منهجه، ولا في منحى تأملاته أو ترتيب أبوابه فهو في هذا مختلف عن أي كتاب جغرافي آخر. وأما الكتاب الثاني فهو «مستقبل» الثقافة في مصر العربية ولهذا الكتاب ارتباط بتخصصه باعتباره واسع المعرفة عاملاً في مجال الثقافة منذ كان مديرًا لإدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف العمومية بمصر حتى صار وزيرًا للثقافة فيما بعد، عندما تغيرت الأحوال.

يتألف الكتاب من أكثر من خمسمائة صفحة، وثلاثة عشر فصلاً، اطَّره المؤلف بأُطر من الحكم والأدعية، وختمه بعدد من الحكم يصل عددها إلى ثلاثين حكمة تنم عن خلاصة تجاربه في الحياة وقد تحدث عن سر اختياره لموضوع كتابه هذا بقوله: «الفكر والعلم والتعليم والثقافة كلها دعامات أساسية في بناء الفرد، وبناء الأمة، وهي كلها هداية من الله سبحانه، ونعمة، ولكن علينا أن نذكر أن تنمية هذه النعمة هي من عمل الإنسان وواجبه».

تحدث في الفصول الثلاثة الأولى عن جذور الثقافة في مصر بما في ذلك مسيرتها التاريخية والمؤثرات التي أثرت فيها، ثم تحدث في موضوعات متنوعة لها علاقة بالموضوع العام الذي يندرج تحت عنوان الكتاب مع اهتمام كبير بالتعليم العام، والجامعي، باعتبار أن التعليم أساس من أسس الثقافة.

وفي ختام الكتاب فصل اطلق عليه المؤلف اسم: «من سيرة مصري من أهل الفكر والثقافة العربية» ويتألف هذا الفصل مما يقرب من مائة وخمس عشرة صفحة ضمنت سيرته الذاتية منذ ولادته إلى أن تخرج وبدأ بالعمل.

لا تجد سيرة ذاتية لشخص ما أوضح ولا أدق من السيرة التي يكتبها الكاتب عن نفسه، وها نحن نجد الدكتور سليمان قدم لنا ما نحتاج إليه من أطوار حياته منذ ولد، وقد وصف نفسه في عنوان السيرة بأنه رجل مصري من أهل الفكر

والثقافة العربية، أما أنه مصري فإن الكتابين اللذين قدمناهما يدلان دلالة واضحة على انتمائه إلى هذا البلد الطيب، وأما إنه من أهل الفكر فهو واضح في كافة أعماله، ولذا تم اختياره مسؤولاً عن الثقافة لفترة طويلة في وطنه، وَأَمَّا إنه حريص على الثقافة العربية وإنه واحد من أهلها فإن كافة ما قدم يدل على هذه الصفة فيه فهو متمسك بعروبته حريص على التعبير عنها في كل مجال، ولذا فإننا وجدنا في هذا الفصل من كتابه ما يدلنا على ذلك كله، وقد تحققت لنفسه كافة الصفات التي عبّر عن اتصافه بها كما سوف نرى.

ولد صاحبنا في فجر يوم الإثنين الرابع والعشرين من شهر مايو لسنة ١٩٠٩م، وكان مولده في السودان بمدينة وادي حلفا، حيث يعمل والده في سلك التدريس ولكنه سرعان ما انتقل إلى كنف جده في مصر وهناك بدأ دراسته الأولى في كتّاب القرية، وقد وصف هذا الكتاب وشيخه والعريف العامل معه وصفًا دقيقًا يعطي القارئ فكرة واضحة عن كتاتيب تلك الأيام، ثم واصل دراسته فيما بعد في السودان بعد أن اشتد عوده قليلاً، وما أكثر التفصيلات التي نجدها عن حياته في فترة دراسته بمدينة أم درمان، ثم انتقل مرة أخرى إلى مصر في سنة ١٩٢١م ليواصل دراسته، إلى سنة ١٩٢٥م، حيث التحق بالجامعة التي تحدث عنها حديثًا طويلاً، ذاكرًا أنظمتها معددًا أسماء أساتذتها الذين كان منهم - آنذاك - كل من أحمد لطفي السيد، وطه حسين، ومنصور فهمي، ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين وزكي مبارك وكلهم كانوا من فطاحل رجال العلم في تلك الأيام.

تخرج الدكتور سليمان حزين في قسم الاجتماع والفلسفة في سنة ١٩٢٩م، وفي سنة ١٩٣٠م، غادر بلاده من أجل الدراسة في الخارج، وهنا تأتي استطرادات كثيرة يصف فيها أحوال الدراسة والبلاد التي حلّ بها وعلاقاته مع أساتذته وغير ذلك، وقد عاد من دراسته في اليوم الأول من شهر يناير لسنة ١٩٣٦م ليعمل مدرسًا في الجامعة التي تخرج فيها وهي التي أرسلته إلى البعثة التي نال شهادة الدكتوراه من خلالها وعندما تحدث عن حياته العملية، وانطلاقاته في مجال العمل الثقافي

العربي أورد ما سبق أن أشرنا إليه بما يتعلق بصلته القديمة بالكويت فقال: «ثم جاء دور جامعة الكويت في سنة ١٩٦٠م وكان صاحبكم (يقصد نفسه) قد اتصل بدولة الكويت قبل ذلك بنحو عشر سنين لاختيار المدرسين المصريين، والمساهمة في رسم خطط التعليم، وافتتاح عدد من المدارس الكويتية الحديثة» ولقد عاد - مرة أخرى - إلى موضوع علاقاته مع دولة الكويت، وذكر المرات الكثيرة التي قدّم فيها إلى هذا البلد من أجل أعمال تتعلق باهتماماته التربوية والثقافية ثم تنقل إلى الأعمال الجانبية التي كان يقوم بها في الجانب الاجتماعي العام فأسهب ولكنه أفادنا بالكثير من المعلومات وفي أعقاب الغزو العراقي للكويت نهض الدكتور حزين بمبادرة شخصية منه إلى الدعوة إلى ندوة عنوانها أزمة الخليج من منظور جغرافي دعا إليها عددًا من المهتمين وبخاصة ممن تتلمذ على يديه من أساتذة الجامعات، وقد نشرت أعمال هذه الندوة فيما بعد خلال سنة ١٩٩١م.

ولئن كنا قد تحدثنا عن بعض كتبه وبعض أعماله فإن له أعمالاً لا يحيط بها حصر، إذ كان كتلة من النشاط في كافة المجالات يشارك في المؤتمرات وفي اللجان الخاصة ويلقي المحاضرات ويقوم بالتدريس ويؤسس الجمعيات ذات العلاقة باهتماماته، وما فاتتنا الإشارة إليه أنه كان رئيس اتحاد الجغرافيين العرب منذ سنة ١٩٦٢م حتى سنة ١٩٩٨م، وكان رئيس الاتحاد الجغرافي الآسيوي الأفريقي منذ سنة ١٩٥٦م حتى سنة ١٩٩٨م، ورئيس المركز الديموغرافي التابع للأمم المتحدة المختص ببحوث السكان ودراستها في البلاد العربية والعالم النامي، وذلك منذ سنة ١٩٦٨م حتى سنة ١٩٩٨م، وكان رئيسًا للجنة الاجتماعية الدائمة التابعة لجامعة الدول العربية منذ سنة ١٩٥٠م، حتى سنة ١٩٧٠م، وحضر عددًا كبيرًا من المؤتمرات الدولية وصل عددها إلى خمسين مؤتمرًا كلها تختص بالعلوم الإنسانية.

وأخيرًا توفي هذا العالم الكبير بعد أن أدى رسالته العلمية والاجتماعية كاملة، وذلك في شهر ديسمبر لسنة ١٩٩٩م. رحمه الله.

****

الكويت ومؤتمر القمة العربي الأول ١٩٦٤م(١)

كان وهمًا وأمانيَّ

وحلمًا

كان طيفًا!

هكذا ترنم الشاعر العبقري كامل الشناوي يوم إعلان الوحدة بين مصر وسورية في سنة ١٩٥٨م، ولكننا ترنمنا بهذا النشيد مرة أخرى في سنة ١٩٦٤م إذ كانت هذه السنة هي السنة التي تنادى فيها ملوك ورؤساء الدول العربية للاجتماع بعد توقف دام زمنًا طويلاً لم يلتقوا فيه، ولم يبحثوا فيه ما يعترض دولهم من مشكلات. وبسبب هذا التوقف وهذه المشكلات الحادة كان اللقاء بالنسبة لنا وهمًا وكان أماني، وحلمًا بل كان طيفًا، ولكنه تحقق وتم الاجتماع كما كان العرب جميعًا يأملون.

يُدعى هذا اللقاء: مؤتمر القمة العربية الأول كما هو معروف في أوراق جامعة الدول العربية، ولكنه للحق والتاريخ ليس كذلك فإن الأول هو مؤتمر القمة الطارئة التي عقدت في منتجع إنشاص المصري في شهر مايو لسنة ١٩٤٦م، وقد دعا الملك فاروق ملك مصر – آنذاك – إلى اللقاء من أجل مناصرة القضية الفلسطينية التي كانت الشغل الشاغل للعرب في ذلك الوقت، واستغرق الاجتماع يومين هما الثامن والعشرون والتاسع والعشرون من شهر مايو للسنة ذاتها، وكان مقره في قصر الملك فاروق في إنشاص وحضرت القمة جميع الدول المشتركة في

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٨/٢٧م.

الجامعة العربية – آنذاك – وهي سبع: مصر وشرق الأردن والسعودية والعراق واليمن ولبنان وسورية. ولم ير الحاضرون ضرورة صدور بيان ختامي لاجتماعهم، وفي مقابل ذلك صدرت عنهم مجموعة من القرارات تركزت حول قضية فلسطين وعروبتها، واعتبرت القمة هذه القضية هي قلب القضايا القومية، وقررت مساعدة الشعوب العربية المستعمرة على نيل استقلالها، وإيقاف الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين، كما قرر المجتمعون التكاتف حول فلسطين والدفاع عنها إذا تعرضت إلى هجوم غادر، وما دروا أنها سوف تتعرض إلى أكثر من ذلك بفضل التخبط الذي جرى في معالجة القضية طوال السنين ومنذ بداية شرارتها الأولى.

كان هذا – فعليًّا – هو مؤتمر القمة العربي الأول ولم يأت الثاني إلا في شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٦م حين دعا الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون إلى قمة طارئة تعقد في لبنان إثر الإعتداء الثلاثي على مصر في تلك السنة، وقد حضر هذا اللقاء تسعة من الرؤساء العرب، وجرت خلال يومي الثالث عشر والرابع من التاريخ المذكور، وقد دعت القمة إلى مناصرة مصر ضد العدوان الثلاثي، وأقرت سيادتها على قناة السويس، وأيدت نضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي.

بعد ذلك توقفت لقاءات الأمة، وبدا في الجو شيء من الفتور في العلاقات العربية – العربية، ووصلنا إلى مرحلة كنا نرى فيها لقاء القمة حلمًا لن يتحقق، ولكن التصرفات الإسرائيلية – في ذلك الوقت – هي التي بعثت النفوس من سباتها، وأيقظت روح النخوة العربية، فتم انعقاد مؤتمر القمة الذي أطلق عليه (الأول) بناء على دعوة من الرئيس المصري جمال عبدالناصر، وقبل أن نتحدث عن المؤتمر والظروف التي قادت إليه ينبغي إن نشير إلى السبب الذي جعل جامعة الدول العربية تعتبر هذا اللقاء مستحقًا لاسم المؤتمر الأول، وذلك كما يلي:

١ - هذا هو أول مؤتمر يعقد في رحاب جامعة الدول العربية.

٢ - ضم أكْبَرَ عدد من ملوك ورؤساء الدول حيث التحق بالجامعة عدد كبير من الدول المتحررة، ومنها دولة الكويت.

٣ - كَوّن المؤتمر مجلسًا أعلى يتولى إدارة القمم والدعوة إلى انعقادها دوريًا، وبذا تكون الاستمرارية التي تم الاتفاق عليها في هذا المؤتمر من أبرز مظاهره وما عاد العرب في حاجة إلى الانتظار كما جرى في السابق، بل صار اللقاء بين الرؤساء طبيعيًا ومتواترًا.

٤ - تفرعت عن المؤتمر ولقاءاته المتعددة مشروعات ومنظمات مهمة قادت العمل العربي المشترك في عدة مجالات.

وهكذا نرى أن مؤتمر القمة الذي انعقد في سنة ١٩٦٤م يستحق أن يطلق عليه اسم المؤتمر الأول لما تم وراءه من أعمال عربية مهمة، ولأنه كان بداية لما لا يقل عن خمسة عشر مؤتمرًا من نوعه.

أصدرت وكالة (كونا) الكويتية للأنباء كتيبًا تحت عنوان «وثائق مؤتمرات القمة العربية» كان فيه متابعة لمؤتمراتها منذ سنة ١٩٦٤م إلى سنة ١٩٨٢م. صدر الكتيب المشار إليه في شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٢م، وقد أوجز هذا الكتيب منذ البداية دوافع قيام هذا المؤتمر، ومن دعا إليه وكيف تم الانعقاد، وهذا هو ما ورد هناك:

«في الربع الأخير من عام ١٩٦٣م، وبعد أن تدهورت العلاقات بين عدد من الدول العربية وشقيقاتها وفي أجواء التحدي الإسرائيلي بتحويل مجرى نهر الأردن والتحكم في روافده لخدمة أغراض الاقتصاد الصهيوني في فلسطين المحتلة، تمهيدًا لتمدد الاستعمار الإستيطاني الذي تمارسه إسرائيل على حساب الوطن

العربي كان لابد وأن يفعل العرب شيئًا لمعالجة ومواجهة ذلك الموقف الخطير الذي وجدوا أنفسهم فيه.

وفي مدينة بورسعيد، خلال الاحتفال بعيد النصر في مساء ١٩٦٣/١٢/٢٣ ألقى الرئيس الراحل جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة (مصر) خطابًا دعا فيه ملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية إلى عقد اجتماع عاجل يطرحون فيه خلافاتهم جانبًا، ويواجهون مسؤولياتهم القومية نحو قضاياهم المصيرية.

ومع أن الأجواء الداكنة التي كانت تلف الوطن العربي كله - يومذاك - لم تكن تشجع على تحقيق مثل هذا الاجتماع وبالمستوى الرفيع الذي حَدَثَ به، لأن العلاقات الشخصية بين بعض الملوك والرؤساء قد بلغت درجة من التردي والإنهيار يصعب تجاوزها وإغفالها.. فإن ردود الفعل المباشرة من عواصم الدول العربية جاءت كلها إيجابية، مؤكدة أن الملوك والأمراء والرؤساء العرب سيلبون دعوة الرئيس عبدالناصر وسيحضرون المؤتمر الذي دعا إليه.

وفي تلك الليلة ذاتها أعلن الرئيس الراحل أن وزارة خارجية الجمهورية العربية المتحدة قد طلبت من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية توجيه الدعوات في إطار الجامعة لحضور المؤتمر الذي سمي فيما بعد بمجلس ملوك وأمراء ورؤساء الدول العربية، وعُرف إعلاميًّا بمؤتمر القمة العربي.

وقد انعقد المؤتمر في الفترة من ١٣ حتى ١٧ يناير - كانون الثاني ١٩٦٤م في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة».

هذا موجز عن مؤتمر القمة العربي الأول منذ نشأت فكرته إلى أن بدأ انعقاده، وما تلا ذلك فهو كما يلي:

في اليوم الثالث عشر من شهر يناير لسنة ١٩٦٤ انعقد مؤتمر القمة المشار إليه في مبنى جامعة الدول العربية بالقاهرة كما قد ذكرنا فيما سبق، وبدأت الجلسة الأولى بخطاب ألقاه أمين الجامعة في ذلك الأوان السيد عبدالخالق حسونة، وقد تضمن خطابه الذي كان قصيرًا الكثير من المعاني المهمة التي لابد من الإشارة إليها في ذلك المقام المهم، فقد ألمح إلى السبب الداعي لانعقاد المؤتمر، وبيّن الظروف الصعبة التي تمرّ بها الأمة العربية، وأشار إلى أن الأمة كلها كانت متطلعة إلى انعقاد مثل هذا المؤتمر، وأن جامعة الدول العربية لتشكر للملوك والرؤساء ما أضفوه على الجامعة من قوة تفتتح بسببها صفحة من صفحات العمل العربي المشترك من خلال جامعة العرب، وهذا هو النص الحرفي لخطاب الأمين العام:

«إنه ليوم تاريخي في حياة أمتنا الخالدة، أن يتم الله عليها نعمة هذا الاجتماع الكبير، يلتقي فيه ملوكها ورؤساؤها أجمعون، ليدعموا الروابط القومية الوثقى، ويتدارسوا الأخطار التي تتهددنا، ويَرُسوا قواعد السياسة العربية الموحدة في مواجهتها، وأن هذا الاجتماع الرفيع الذي لم تشهد أمتنا له من قبل نظيرًا، وما لقيته دعوته المباركة من تجاوب إجماعي سريع هو في ذاته برهان جديد على وحدة أمتنا، وهو آية النصر الذي كتبه الله لنضالها العادل المشروع.

لقد أفصحت الأمة العربية عن إرادتها أن يكون هذا الاجتماع العظيم بداية مرحلة جديدة في تاريخها، تمهد السبل لاكتمال تضامنها وقوتها، وترسم السياسة العربية المثلى في مواجهة الخطر التوسعي الصهيوني، ممثلاً في إحدى صوره الجديدة الخطيرة، صورة تحويل مجرى نهر الأردن، ما يترتب عليه من سلب العرب حق الانتفاع بمياههم، وجلب المزيد من قوى التعصب والشر وتثبيت القلعة الاستعمارية العدوانية في العالم العربي وتصفية حقوق عرب فلسطين المقدسة.

أما جامعة الدول العربية، فإنها تعجز عن الوفاء بحق الشكر والعرفان وتؤمن بأن القوة التي أضفيتموها عليها، تفتح صفحة ذهبية جديدة في حياتها، وتؤتي أعظم الثمرات لخيرها، ولخير الصوالح العربية العليا المشتركة.

سدد الله خطاكم، ورعى جهودكم، وحفظكم ذخرًا لأمتنا، وكتب لها الأمن والعزة والنصر، وللعالم التقدم والرخاء والسلام».

وبعد هذه الكلمة ألقى الرئيس المصري جمال عبدالناصر كلمة رحب فيها بالحاضرين، وشكر لهم استجابتهم لدعوته التي ليس وراءها من مقاصد إلا مصلحة الأمة العربية، وقال في تلك الكلمة: «قبل أن نبدأ أعمال هذا المجلس الذي ترقبه الأمة العربية باهتمام وأمل، أرجوكم أن تأذنوا لي في توجيه شكري وشكر شعب الجمهورية العربية المتحدة إليكم جميعًا.

فإن الاستجابة الكريمة والفورية التي لقيتها الدعوة لهذا المؤتمر تملؤنا بالتقدير والعرفان.

ولقد شرفنا أن تعبروا أرض الجمهورية العربية المتحدة وأنتم على طريقكم لهذا المؤتمر في حرم الجامعة العربية.

وإن الشعب الذي تقيم الجامعة العربية في وسط أرضه يضفي الآن أغلى مشاعره وأعز أمانيه على هذه القاعة.

وأدعو الله من أجلكم جميعًا توفيقًا ونصرًا».

وتدارس الحاضرون كافة الأمور المتعلقة بسبب اللقاء، واتخذوا عددًا من القرارات المهمة التي أنجز بعضها وتابعت مؤتمرات القمة اللاحقة البعض الآخر، فقد أشار هؤلاء إلى أن قيام إسرائيل هو الخطر الأساسي الذي أجمعت الأمة

العربية بأسرها على دفعه، ولذلك فإنه لابد من وضع الخطط اللازمة لمعالجة الجوانب السياسية والإقتصادية والإعلامية، وهي مقدمات للاستعدادات العسكرية كما نوه بذلك البيان الختامي للمؤتمر.

وفي هذه الناحية الأخيرة تقرر إنشاء قيادة عربية موحدة لجيوش الدول العربية فورًا، وفق تنظيمات سابقة أقرها مجلس الدفاع العربي المشترك في شهر يونية لسنة ١٩٦١م، ووفق الترتيبات المعتمدة من قبل رؤساء أركان حرب الجيوش العربية في شهر ديسمبر لسنة ١٩٦٣م. كما عيّن المؤتمر قائداً من الجمهورية العربية المتحدة ترشحه حكومتها، وعليه متابعة باقي إجراءات التكوين، وله أن يختار المقر المناسب لها في أي بلد يشاء بعد اكتمال تشكيل القيادة في جامعة الدول العربية بالقاهرة وذلك خلال شهرين من تاريخ صدور القرار.

وأشار البيان إلى توصيات اللجنة الفنية المكلفة بدراسة موضوع مياه نهر الأردن، ووافق عليها، وأمر بتنفيذها بما في ذلك إنشاء هيئة خاصة ذات صفة اعتبارية في إطار جامعة الدول العربية تسمى «هيئة مياه نهر الأردن وروافده» تكون مهمتها الأساسية التخطيط والتنسيق وملاحظة تنفيذ المشروعات العربية الهادفة إلى استغلال نهر الأردن وروافده، وهي المشروعات التي تعتزم جامعة الدول العربية القيام بها فورًا، وفي البيان تفصيل لتشكيل هذه اللجنة من حيث مجلس إداراتها، وموظفيها، واعتماد الحساب المالي الخاص بها.

وعندما جاء الحديث عن الجانب المالي قسمت المشروعات إلى قسمين أحدهما عاجل، وخصص له مبلغ ستة ملايين ومائتان وخمسون ألف جنيه إسترليني، على أن يتم سداده من قبل الدول العربية كل بحسب مقدرته وعلى أن يودع نصف المبلغ بأسرع وقت، ثم يودع الباقي بعد سنة كاملة بالتحديد. وأما القسم الثاني وهو الآجل من المشروعات فهو يتطلب حوالي خمسة وستين مليون جنيه إسترليني، تقوم

الهيئة المكلفة باستثمار مياه نهر الأردن وروافده بتحديدها وفق الدراسة التي سوف تقوم بها، وبعد هذا حَدّد البيان طبيعة المصروفات العسكرية، ومقدارها وطرق جمع المبالغ الخاصة بها، ودور كل دولة في تقديم ما يخصها من هذا الجانب، وقد جاء فيه أن المبلغ المطلوب للتعزيزات العسكرية قد حدد بخمسة عشر مليون جنيه إسترليني يدفع لمدة عشر سنوات كان على الكويت - كالعادة - أن تدفع النصيب الأكبر منه وهو خمسة ملايين جنيه.

تناول البيان تنظيم العمل الفلسطيني تمهيدًا لإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية التي تولاها - منذ ذلك الوقت - أحمد الشقيري، وكان ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية.

وأخيراً شكلت لجنة لمتابعة قرارات المؤتمر برئاسة أمين عام الجامعة وعضوية ممثلين شخصيين للملوك والرؤساء والأعضاء فيها إضافة إلى ممثل فلسطين، كما اتخذ المؤتمر قرارًا بأن يقوم وزراء خارجية الدول الأعضاء بالجامعة وفي أسرع وقت برحلات إلى عدد من البلدان لبذل المساعي الهادفة إلى إيقاف الأعمال الإسرائيلية فيما يتعلق بالمياه، كما تقرر أن يعقد وزراء الإعلام في الدول الأعضاء اجتماعًا في مقر الجامعة لمعالجة الجانب الإعلامي.

من الملاحظ أن هذا الاجتماع تحول إلى مجلس يدعى: «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية» يلتقي مرة واحدة على الأقل في السنة، وقد تقرر في هذا اللقاء أن يكون الاجتماع التالي في شهر أغسطس لسنة ١٩٦٤م في مدينة الإسكندرية.

ولقد كانت مقدمة البيان الختامي مقدمة جميلة معبرة عن المرحلة، وعن مشاعر المجتمعين الذين كانوا يعرفون أن العالم العربي في انتظار قراراتهم، وأن العالم الخارجي يتابع ما قد يسفر عنه لقاؤهم الذي تم بعد طول انقطاع في ظروف

غير ملائمة، وقد نجحوا في إعطاء صورة جيدة عن العمل المشترك، وتناسوا الخلافات. ولقد جاء في تلك المقدمة أنهم تدارسوا التهديدات وأعمال العدوان المتصلة التي مارستها إسرائيل منذ إخراجها الشعب الفلسطيني من فلسطين، مع إصرارها على التنكر لقرارات الأمم المتحدة المؤكدة لحق هذا الشعب في العودة إلى وطنه، كما تستهين بالإدانات المتكررة التي سجلتها عليها الأجهزة التابعة لهذه المنظمة العالمية، وجاء - أيضًا - أن محاولة تحويل مياه نهر الأردن ما هي إلا جزء من الأعمال المنافية التي تقوم بها إستهدافًا منها لتحقيق مطامعها في التوسع على حساب فلسطين والمنطقة بأسرها.

ثم تضيف المقدمة

«وقيامًا بواجب الدفاع المشروع وإيمانًا بحق الشعب العربي الفلسطيني المقدس في تقرير مصيره والتحرر من الاستعمار الصهيوني لوطنه، وبأن التضامن العربي هو السبيل إلى درء المطامع الاستعمارية، وتحقيق المصلحة العربية العادلة المشتركة، ورفع مستوى العيش للسواد الأعظم وتنظيم برامج الإنشاء والإعمار، وقد اتخذ القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيوني الماثل، سواء في الميدان الدفاعي أو الميدان الفني، أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره.

كما أسفرت اجتماعاته عن إجماع الملوك والرؤساء العرب على إنهاء الخلافات، وتصفية الجو العربي من جميع الشوائب، وإيقاف حملات أجهزة الإعلام وتوثيق العلاقات بين الدول العربية الشقيقة، ضمانًا للتعاون البناء الجماعي ودرءًا للمطامع التوسعية العدوانية التي تهدد العرب جميعًا على السواء.

ورأى أن عقد مزيد من هذه الاجتماعات على أعلى المستويات تقتضيه المصلحة العربية العليا.

ويعلن الملوك والرؤساء أن الأمة العربية تهيب بدول العالم وشعوبها التي تقدس حقوق الأفراد في أوطانها، والشعوب في الانتفاع بمواردها وتقرير مصيرها، أن تكون خير عون لها في دفع العدوان الإسرائيلي الجديد».

وقد اهتمت الكويت كثيرًا بالمشاركة في مؤتمر القمة العربي الأول باعتباره أول مؤتمر من نوعه يعقد على النطاق العربي وبهذا المستوى منذ أمد بعيد، وباعتباره - أيضًا - المؤتمر الأول الذي تحضره بعد استقلالها في سنة ١٩٦١م. وقد تشكل وفد كبير برئاسة الشيخ عبدالله السالم الصباح كان من ضمنه سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر وسمو الشيخ صباح الأحمد الجابر، والشيخ مبارك العبدالله الجابر الصباح وسفير الكويت لدى القاهرة - وقتذاك - الأستاذ عبدالعزيز حسين.

واهتمت مجلة العربي بهذا الحدث إذ كتب رئيس تحريرها الدكتور أحمد زكي في عددها الصادر في أول شهر مارس لسنة ١٩٦٤م مقالاً ضافيًا عن المؤتمر ضمّنه الكثير من أنشطة الشيخ عبدالله السالم منذ وصوله واستقبال الرئيس جمال عبدالناصر له في مطار القاهرة، إلى مشاركاته في الاجتماعات الأصلية والجانبية، وكذلك الزيارات التي شارك فيها غيره من الوفود، وقد عاد الوفد الكويتي إلى البلاد وهو مملوء بالسعادة لنجاح المؤتمر من جهة ولنجاحه في أداء دور فعال من خلاله، وقد عبّر عن سعادته هذه في بيان صدر عن الشيخ عبدالله باعتباره رئيس الوفد الكويتي وأمير البلاد.

لئن كان هذا المؤتمر هو الأول من نوعه، وكان من أولوياته البحث في شؤون فلسطين فإن هذا البلد المغتصب يحظى دائمًا بنصيب كبير من أعمال المؤتمرات السابقة وتعطى قضيته الأولوية على كافة القضايا.

أما المؤتمر المهم الذي عقد في السودان في أعقاب حرب سنة ١٩٦٧م المسماة بالنكسة فقد عقد في اليومين الثالث والعشرين من شهر أغسطس، والأول من

شهر سبتمبر للسنة ذاتها، وكان اللقاء في زمن مأساوي، يقتضي عملاً مهمًا، ورفعًا لمعنويات الجماهير العربية التي كانت تنتظر نتائجه بفارغ الصبر. وقد تم فيه التصالح بين بعض أطرافه، وتمت فيه - أيضًا - الدعوة إلى إزالة آثار العدوان الإسرائيلي، وأعلنت في أعقابه اللاءات العربية الثلاث المشهورة وهي لا صلح ولا تفاوض مع إسرائيل ولا اعتراف بها، ولكننا رأينا - للأسف الشديد - أن الزمن قد أنسى البعض هذه اللاءات وعملوا بخلافها، وبقي من القرارات القرار الخاص بالموافقة على تصدير النفط العربي الذي أوقف خلال الحرب، وكان لابد من اتخاذ هذا القرار، على أن يسري فورًا لأن المستفيدين وهم من غير منتجي النفط كانوا أكثر حرصًا على ذلك لما يعود عليهم بتنفيذه من نفع مادي قرره لهم المؤتمر.

ولا ننسى أن نؤكد أن الشيخ عبدالله السالم الصباح كان له دور بارز في تقريب وجهات النظر، وتصفية الأجواء مما عاد بالخير الذي ظهر في النتائج.

هذا حديث لابد منه عن مشاركة الكويت في مؤتمر القمة العربي الأول في سنة ١٩٦٤م.

****

مؤتمر القمة الإسلامي الخامس في الكويت ١٩٨٧م[1]

أصبح انعقاد مؤتمرات القمة الإسلامية ظاهرة متكررة ومهمة في عالمنا الإسلامي. وذلك لأن الأحداث التي مرت بهذا العالم كانت تدفع بالمسلمين دفعًا إلى أن يوحدوا صفوفهم وإلى أن يعملوا على مواجهة المشكلات التي يختلقها أعداؤهم بين وقت وآخر، ولاسيما ذلك العدو المتربص بالعرب والمسلمين، العامل على هدم مقدساتهم ومحو شخصيتهم وتاريخهم. وهذا العدو دون غيره هو الذي دفع المسلمين إلى التنادي فيما بينهم إلى الالتقاء في مؤتمرات القمة الإسلامية، فالعدو الصهيوني الذي نشير إليه هنا كان من أهم ما دفع المسلمين إلى الالتقاء وذلك وفق ما يلي:

كان اقتراف الصهاينة لجريمة إحراق المسجد الأقصى من أجل تدميره والقضاء على رمز من الرموز التي يتوجه إليها المسلمون بقلوبهم ويعتزون بها وذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٩٦٩م سببًا مباشرًا لقيام المؤتمر الإسلامي الذي أصبح فيما بعد كيانًا متكاملاً، وعملاً مستمرًا. فقد اجتمع - يومذاك - وزراء خارجية أربع عشرة دولة من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية، وذلك في مقر الجامعة بالقاهرة بعد أربعة أيام فقط من حدوث الجريمة.

وقدمت المملكة العربية السعودية في هذا المؤتمر اقتراحًا سرعان ما تبناه المؤتمرون، مؤداه الدعوة إلى عقد مؤتمر قمة يحضره رؤساء الدول الإسلامية لمناقشة كافة الأمور المتعلقة بأحوال المسلمين، ولاتخاذ إجراءات من شأنها جمع كلمتهم، والتصدِّي لمحاولات العدوان عليهم وانتهاك مقدساتهم.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٣م.

وفي الرباط اجتمعت لجنة تحضيرية ما بين يومي الثامن والتاسع من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٩م، وكانت مؤلفة من المغرب والمملكة العربية السعودية من الجانب العربي، والصومال والنيجر عن الجانب الأفريقي، وإيران وماليزيا وباكستان عن الجانب الآسيوي، وقد أعد المجتمعون قائمة بأسماء الدول التي سوف تتم دعوتها إلى حضور مؤتمر القمة الإسلامي الأول، واتفقوا على خمسة بنود تكون محور ما يدور في هذا المؤتمر وهي:

١ - كارثة حريق المسجد الأقصى.

٢ - وضع مدينة القدس.

٣ - وجوب انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية المحتلة.

٤ - إعادة حقوق الشعب الفلسطيني المغتصبة، وتأييد حقه الكامل في النضال.

٥ - التعاون بين الدول الإسلامية.

وكانت نتيجة ذلك أن انعقد مؤتمر القمة الإسلامي الأول في مدينة الرباط عاصمة المغرب في الفترة ما بين اليوم الثاني والعشرين إلى اليوم الخامس والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٦٩م بحضور ما يقرب من أربعة وعشرين رئيس دولة، مع حضور وفدين يمثلان رابطة مسلمي الهند، ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد ترأس المؤتمر ملك المغرب - آنذاك - الحسن الثاني، واختتم أعماله ببيان سمّي «إعلان قمة الرباط» ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ أصدر المؤتمر توصية بعقد اجتماع لوزراء خارجية الدول الإسلامية خلال شهر مارس لسنة ١٩٧٠م، وذلك من أجل مناقشة نتائج العمل المشترك الذي التزمت به دول المؤتمر على المستوى الدولي، ومتابعة ما تضمنه البيان المشترك الذي صدر فيما سبق، وقد بدأ الاجتماع المنتظر لوزراء خارجية الدول الإسلامية في مدينة جدة خلال شهر مارس كما هو مقرر أصلاً، وكان هذا بداية لمؤتمرات لهم متعددة منتظمة أو طارئة

تدعو إلى التئامها طبيعة الأحداث التي تجري في المنطقة، ولذا فقد كان بعض هذه المؤتمرات ينعقد قبل مؤتمر القمة المقرر بوقت قصير، وكان بعضها الآخر ينعقد منفردًا ثم تعرض توصياته على المؤتمر اللاحق عند انعقاده. ولا يزال نشاط منظمة المؤتمر الإسلامي مستمرًا ليس لمتابعة أعمال مؤتمرات القمة فحسب بل لمتابعة الكثير من اللجان المهمة والصناديق المالية ومراكز البحوث المتعددة، والمؤسسات العلمية والتربوية والتجارية، واللجنة الإسلامية للهلال الأحمر الدولي، واللجنة الدولية للتراث الإسلامي، والاتحاد الرياضي للتضامن الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي والمجلس الإسلامي للطيران المدني، واللجنة الإسلامية الدولية للقانون. كل ذلك تضاف إليه عشر مؤسسات ولجان أخرى متعددة الأغراض أنشئت كلها في إطار المنظمة التي تنشط دائمًا في أداء رسالتها ومتابعة هذا الخضم الهائل من الأعمال المنوطة بها.

كان المؤتمر الإسلامي الرابع منعقدًا في مدينة الدار البيضاء المغربية، في الفترة ما بين اليوم السادس عشر من شهر يناير إلى اليوم التاسع عشر منه لسنة ١٩٨٤م. وفي جلسة هذا المؤتمر الختامية تحدث المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت - وقتذاك - فخاطب المؤتمرين قائلاً: «إنه من دواعي سروري وفخري أن أتقدم إلى المؤتمر بدعوة من أخوته شعب وحكومة الكويت. بأن يعقد اجتماعه القادم في بلدكم الكويت حيث سنحاول أن نقدم بعض ما استطاعت الدول التي سبق لها استضافة المؤتمر من رعاية ومن تسهيلات، ومن تهيئة جو نرجو أن يعين على المزيد من الخطوات على طريق العمل الإسلامي المشترك، وإنني لعلى ثقة أنكم ستلتقون بشعب يكن لكم كل التقدير ويعقد على جهودكم الآمال الكبار.

ويسعدني أن يلتقي على أرض الكويت العربية المسلمة ممثلو العالم الإسلامي وحملة الأمانة الإسلامية.. فعلى بركة الله نغادر هذا البلد الأمين حاملين معنا أجمل الذكريات، وعلى بركته نلتقي إن شاء الله في بلدكم الكويت متطلعين إلى مزيد من العمل الإسلامي لخير بلداننا وأمتنا والعالم أجمع».

واستجابة لهذه الدعوة فقد تقرر أن تعقد دورة المؤتمر الإسلامي الخامسة في الكويت خلال سنة ١٩٨٧م، تلبية لدعوة أمير دولة الكويت، تم انعقاد الدور الخامس للمؤتمر الإسلامي في الكويت خلال الفترة من اليوم السادس والعشرين إلى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٨٧م. وقد حضر هذا اللقاء جمع كبير من رؤساء الدول وممثلوهم. كما شارك ممثلو الأجهزة الفرعية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، وممثلو الأجهزة التي انبثقت عن المنظمة ذاتها، وعدد كبير من المراقبين من مختلف الأجهزة الدولية والمنظمات العاملة في المجال العام الدولي ومنها على سبيل المثال منظمة الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية وجامعة الدول العربية، ومنظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة، ومنظمة اليونسكو، ورابطة العالم الإسلامي وعدد آخر كبير.

افتتح الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح الجلسة الأولى للمؤتمر، ثم طلب من الوزير الأول للمملكة المغربية الدكتور عز الدين العراقي أن يلقي الكلمة نيابة عن رئيس القمة الإسلامية الرابعة الملك المغربي الحسن الثاني، فنهض إلى إلقاء كلمة كان ضمنها قوله: إنه يتعين على العالم الإسلامي أن يتحرك إلى الأمام بإيمان ثابت مستقيم دفاعًا عن حقوق الأمة الإسلامية وحريتها، ودعا إلى تنسيق الجهود في سبيل تحرير الأراضي العربية والفلسطينية المحتلة والقدس الشريف.

ثم تسلم الشيخ جابر الأحمد رئاسة المؤتمر في دورته الخامسة حيث تم انتخابه بالاجتماع من أجل القيام بهذه المهمة الكبيرة وقد ألقى الرئيس كلمة افتتاحية رحب فيها باسم شعب الكويت وحكومتها وباسمه شخصيًا بالقادة المشاركين في المؤتمر، وشكرهم على انتخابه رئيسًا للقمة.

وأكد أن المسلمين في شتى بقاع العالم يجمع بينهم الإيمان المشترك، وهم مدعوون إلى الوحدة والتضامن من أجل التغلب على العقبات التي تعترض تقدمهم، كما أنهم مدعوون إلى تجاوز النزاعات الثنائية والخلافات الداخلية فيما بينهم. وانتهز الرئيس هذه الفرصة لكي يحث العالم الإسلامي على السعي من أجل السلام وبناء غد مشرق للأمة الإسلامية تستمده من إيمانها بالله، ومن تراثها الثقافي.

ولم يغفل في خطابه المساس بالقضايا العالمية فقال إنه على الصعيد الدولي يجب على منظمة العالم الإسلامي أن تعمل من أجل وحدة البشرية، وكرامة الإنسان، والقضاء على التعصب.

كما دعا إلى تحقيق أمن كل الدول صغيرة كانت أم كبيرة، وإلى خفض نفقات التسلح، وتحويل جزء من هذه النفقات إلى أغراض التنمية. ودعا - أيضًا - إلى التعاون الدولي لمكافحة الإرهاب، على أنه ينبغي التمييز بين الإرهاب والكفاح المشروع للشعوب العاملة على تحرير نفسها وتقرير مصيرها. وكان مسك الختام أنه أعرب عن أمله في أن يرتفع القادة الحاضرون فوق خلافاتهم، وأن يقوموا بمناقشة جميع القضايا المطروحة بروح من الأخوة والتسامح والتضامن.

وبعد أن قام الرئيس بإلقاء هذه الكلمة الشاملة نهض الرئيس السنغالي عبده ضيوف ليقدم اقتراحًا باعتبار هذا الخطاب الافتتاحي وثيقة رسمية من وثائق المؤتمر، وقد وافق الجميع على ذلك.

تدارست القمة الخامسة في الكويت عددًا كبيرًا من القضايا واستمعت إلى عدد من المتحدثين منهم أمين عام منظمة الأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويلار، وسمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح الذي قدّم تقرير المؤتمر الوزاري التحضيري الذي سبق انعقاد المؤتمر، واطلع الحضور على تقرير لجنة القدس التي توالت اجتماعاتها برئاسة الملك المغربي الحسن الثاني، وأخيرًا اتفق الجميع على إطلاق اسم «مؤتمر التضامن الإسلامي» على هذا المؤتمر وذلك لكثرة القضايا التي أثارها، ولكثرة عدد المشاركين فيه، ولاتجاهه إلى مساندة قضايا عدد من الحركات الإسلامية في كل مكان وبخاصة قضية مسلمي قبرص الذين حضر عنهم السيد رؤوف دنكطاش وألقى كلمة عبّر فيها عن قضية شعبه، وعن تعاون القبارصة المسلمين مع أمين عام منظمة الأمم المتحدة، الأمر الذي قابله المؤتمر الخامس بكل ارتياح. ومن المتحدثين من ممثلي الحركات التحريرية الإسلامية السيد نور ميسواري رئيس جبهة تحرير مورو الوطنية، حيث علم الحاضرون من حديثه مدى ما وصلت إليه الحركة من تقدم وبخاصة بعد توقيع اتفاق جدة في اليوم الثالث من شهر يناير لسنة ١٩٨٧م بين الحركة وحكومة الفلبين.

وهذه هي بعض القضايا السياسية العامة التي بحثها المؤتمر وورد الحديث عنها في بيانه الختامي:

اعتمد مؤتمر القمة قرارًا بشأن قضية فلسطين والشرق الأوسط، يؤكد أن قضية فلسطين هي جوهر الصراع العربي الإسرائيلي، وأن السلام العادل والشامل في المنطقة لا يمكن أن يقوم إلا على أساس انسحاب العدو الصهيوني الكامل وغير المشروط من جميع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة، واستعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما فيها حقه في العودة و تقرير المصير وإقامة دولته الفلسطينية المستقلة فوق ترابه الوطني بعاصمتها القدس الشريف وتحت

قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثله الشرعي والوحيد، وأكد المؤتمر أن أي حل لهذا الصراع يجب أن تشترك فيه منظمة التحرير الفلسطينية على قدم المساواة مع بقية الأطراف الأخرى اشتراكًا متكافئًا، وكذلك في جميع المؤتمرات والنشاطات والمحافل الدولية المعنية بقضية فلسطين وبالصراع العربي الصهيوني.

وأكد المؤتمر رفض كل الاتفاقيات والمبادرات الانفرادية واعتبر أن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧م لا يشكل أساسًا كافيًا لحل قضية فلسطين والشرق الأوسط ودعا إلى العمل الجاد والمتواصل من أجل تنفيذ خطة السلام العربية وأكد ضرورة عقد مبكر للمؤتمر الدولي للسلام في الشرق الأوسط برعاية الأمم المتحدة باشتراك جميع الأطراف المعنية بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية على قدم المساواة ومشاركة الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن سعيًا إلى تحقيق تسوية عادلة ودائمة للقضية الفلسطينية ونزاع الشرق الأوسط كما دعا القرار إلى تشكيل لجنة تحضيرية لتسهيل عقد المؤتمر الدولي.

ودان المؤتمر سياسة الولايات المتحدة الأمريكية لاستمرارها في تقديم الدعم اللا محدود في كل المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية وغيرها للعدو الصهيوني.

ودعا مؤتمر القمة الدول الإسلامية إلى تعزيز اتصالاتها مع المجموعة الأوروبية قصد حثها على اتخاذ مواقف أكثر تقدمًا وانطلاقًا من احترام الشرعية الدولية وميثاق الأمم المتحدة وقراراتها التي كفلت للشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية الثابتة.

وأكد المؤتمر أن جميع التشريعات الصهيونية في القدس الشريف وبقية الأراضي الفلسطينية المحتلة ومرتفعات الجولان السورية باطلة وملغاة.

واعتبر - أيضًا - أن جميع المستوطنات التي أنشأها أو سينشئها العدو الصهيوني في جميع الأراضي المحتلة بما فيها مدينة القدس الشريف باطلة وغير شرعية.

ودعا المؤتمر الدول الأعضاء إلى مضاعفة جهودها من أجل القضاء على التمييز العنصري والصهيونية.

وحيّا المؤتمر شعبي ناميبيا وجنوب أفريقيا ودول العالم الثالث الصديقة المحبة للسلام والمساواة وبخاصة دول حركة عدم الانحياز ودول منظمة الوحدة الأفريقية.

واعتمد مؤتمر القمة قرارًا بشأن مدينة القدس الشريف، جدد فيه الالتزام الكامل بما جاء في برنامج العمل الإسلامي وجميع القرارات الصادرة عن لجنة القدس، بشأن تمسك الأمة الإسلامية بالحفاظ على الطابع العربي والإسلامي للمدينة المقدسة والالتزام بالعمل على تحريرها ودعا إلى إقامة التآخي بين مدينة القدس الشريف وجميع العواصم والمدن الإسلامية.

وأخذ المؤتمر علمًا بمشروع إنشاء مستشفى عربي في القدس بديلاً عن مستشفى الهوسبيس الذي أغلقته سلطات الاحتلال الإسرائيلي في إطار تهويد مدينة القدس دون مبرر وقد أيد المؤتمر هذا المشروع الإنساني وحث الدول الأعضاء على المشاركة في تنفيذه.

واعتمد المؤتمر قرارًا بشأن مرتفعات الجولان السورية أعلن فيه أن احتلال إسرائيل لهذه المنطقة وقرارها بفرض قوانينها وإدارتها على مرتفعات الجولان المحتلة عمل عدواني، ودان التدابير القمعية الإرهابية ضد المواطنين السوريين هناك.

واعتمد المؤتمر قرارًا بشأن التحالف الاستراتيجي بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، أعلن فيه أن هذا التحالف من العوامل التي تسهم في تصعيد التوتر في المنطقة، ودعا الدول الأعضاء إلى اتخاذ الإجراءات الفعالة لمواجهة الأخطار الناجمة عن هذا التحالف.

واعتمد المؤتمر قرارًا بشأن صندوق القدس ووقفيته أكد فيه أهمية الدور الحيوي والفعال الذي يؤديه صندوق القدس ووقفيته في دعم صمود الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة، ودعا الدول الأعضاء إلى الالتزام بتغطية رأسمال صندوق القدس ووقفيته بمئة مليون دولار لكل منهما.

واعتمد المؤتمر قرارًا بشأن وضع مخيمات الفلسطينيين في لبنان دعا فيه إلى الوقف الفوري لإطلاق النار ووقف جميع الاعتداءات على المخيمات وطالب برفع الحصار عنها وبعودة المهجرين إليها ودعا إلى تأييد ومتابعة جهود جامعة الدول العربية بهذا الخصوص.

ووافق المؤتمر على مشروع النظام الأساسي لمحكمة العدل الإسلامية الدولية التي ستعمل على حل المنازعات التي قد تنشأ فيما بين الدول الإسلامية التي تلجأ إليها طوعًا، وتستند إلى الشريعة الإسلامية والمبادئ العامة للقانون الدولي، سعيًا إلى توثيق وشائج الإخوة بين هذه الدول. ودعا الدول الأعضاء إلى التصديق على النظام الأساسي لهذه المحكمة.

وأعرب المؤتمر عن قلقه وانزعاجه البالغين إزاء ظهور وتفاقم ظاهرة الإرهاب الدولي بكل أشكالها في مختلف أرجاء المعمورة. وأعلن رفضه للمحاولات المغرضة التي تبذلها القوى المعادية للإسلام لربط الإرهاب وتصعيده بالمسلمين ودان المؤتمر إدانة قاطعة كل أعمال الإرهاب الدولي الإجرامية، وأعلن استعداد الدول الإسلامية للتعاون فيما بينها ومع المجتمع الدولي للقضاء على الإرهاب الدولي.

ودان المؤتمر في قرار آخر محاولات طمس الفرق بين الإرهاب والكفاح التحريري المشروع للشعوب، وأيد عقد مؤتمر دولي تحت إشراف الأمم المتحدة لوضع تعريف للإرهاب الدولي.

واعتمد المؤتمر قرارًا أكد فيه مجددًا تأييد الدول الأعضاء المستمر لأهداف منظمة اليونسكو وغاياتها النبيلة، وتقديرها للجهود التي يبذلها المدير العام لليونسكو، السيد أحمد مختار أمبو، لتحقيق هذه الأهداف.

وفي المجال الاقتصادي اعتمد المؤتمر قرارًا بشأن تنفيذ خطة العمل لتعزيز التعاون الاقتصادي فيما بين الدول الأعضاء، يدعو الدول الأعضاء إلى تقديم المعونة اللازمة إلى اللجنة الدائمة للتعاون الاقتصادي والتجاري واللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي للتعجيل بتنفيذ خطة العمل سعيًا إلى تعزيز التعاون العلمي والتقني فيما بين الدول الأعضاء، وأعرب المؤتمر عن ارتياحه إزاء إنشاء نظام أطول أجلاً لتمويل التجارة في إطار البنك الإسلامي للتنمية ودعا الدول الأعضاء إلى المشاركة في هذا النظام في وقت مبكر.

واعتمد المؤتمر قرارًا بشأن اللجنة الدائمة للتعاون العلمي التكنولوجي أعرب فيه عن ارتياحه لما تحقق من تقدم في تنفيذ المقررات الصادرة عن الدورات الثلاث التي عقدتها اللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي تحت رئاسة الرئيس محمد ضياء الحق. سعيًا إلى تعزيز وتوسيع التعاون فيما بين الدول الأعضاء في الميادين العلمية والتكنولوجية. وأثنى المؤتمر على ما أبدته بعض الدول الأعضاء المعنية من رغبة في إنشاء شبكات إسلامية مشتركة في الميادين العلمية والتكنولوجية. كما أثنى على رغبة بعض الدول الأعضاء المعنية في إنشاء وكالة مشتركة فيما بين الدول الإسلامية لتنشيط البحوث وذلك لتعزيز التعاون في مضمار التكنولوجيا المتقدمة. ووافق المؤتمر على اقتراح بشأن تعزيز القدرات العلمية والتكنولوجية

لأقل البلدان الإسلامية نموًا وطالب الدول الأعضاء بتقديم كل عون معنوي ومادي ممكن لتنفيذ خطة عمل اللجنة الدائمة للتعاون العلمي والتكنولوجي.

وليس كل ما ذكرناه هو ما جاء في البيان الختامي للمؤتمر فهو يضم الكثير من القضايا السياسية والاقتصادية والإعلامية والثقافية، ولكن بعض تلك القضايا تخطاها الزمن حاليًا فلا موجب لذكرها بعد تغير الكثير من الأحوال ولكن مجمل القرارات يدل على الجهود الكبيرة التي تم بذلها من أجل الوصول إلى هذه النتائج الباهرة، ولاشك في أن قيادة المؤتمر الحكيمة والأجواء التي أتيحت للمؤتمرين والرغبة الصادقة لدى الجميع كانت من أهم أسباب نجاح القمة الإسلامية الخامسة التي احتضنتها الكويت ورعاها أميرها.

وفي ختام المؤتمر - وهو ما ورد في البيان الختامي - أعلن المؤتمرون عن قبول دعوة الرئيس السنغالي عبده ضيوف لعقد الدورة السادسة للمؤتمر في بلاده، كما أعرب المؤتمر عن خالص شكره وعميق امتنانه لصاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت ورئيس المؤتمر لما أبداه من حكمة ونفاذ بصيرة واقتدار في إدارة أعمال المؤتمر على النحو الذي كفل نجاحه وجعل روح التعاون الإيجابي والبناء تسود مداولاته.

وأعرب المؤتمر - أيضًا - عن تقديره لما هيأته حكومة الدولة المضيفة من تنظيم دقيق وما أعدّته من ترتيبات ممتازة أسهمت إسهامًا قيمًا في سير أعمال القمة بيسر وفعالية.

كان الشيخ جابر الأحمد الصباح سعيدًا بانعقاد هذا المؤتمر الكبير في الكويت، وسعيدًا بحضور هذا الحشد من رؤساء الدول والمنظمات الذين حرصوا على الحضور والمشاركة في كافة فعاليات المؤتمر، وإذا كان التعبير الصادق عن هذه المشاعر هو ما سمعه الجميع من رئيس المؤتمر فإن في بعض كلماته ما يدل

على المشاعر الجياشة التي كانت تعتمل في صدره وهو يستقبل هؤلاء ويجلس معهم ويستمع إلى مناقشاتهم، ويحس بالسعادة الغامرة وهو يرى وطنه يجمع كل هؤلاء بين جوانحه باذلاً بعض ما يستطيع في سبيل أمته الإسلامية.

ولعل في بعض العبارات التي وردت في كلمة الشيخ عند الجلسة النهائية للمؤتمر ما يدل على كل ذلك، مما يشعرنا بإحساس الرئيس بالمسؤولية الكبيرة التي وقعت على عاتقه، فهو لم يعد رئيس هذه الجلسات فحسب، بل هو رئيس المؤتمر الخامس إلى أن ينعقد المؤتمر السادس ليحل محله الرئيس الجديد، يقول الشيخ جابر الأحمد ضمن كلمته الختامية:

«لقد اتخذنا في هذا المؤتمر قرارات، والقرارات كائن حي يولد وينمو وإن ولادته في إقراره، وإن نموه في تنفيذه، والأمل أن تكون قراراتنا كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكُلَها كل حين بإذن ربها.

بهذا يصبح اللقاء ثابت الخطى مشرق الجبين متطلعًا إلى الغد، وآمل أن تلتقي جميع الدول الإسلامية في مؤتمر القمة المقبل في داكار دون أن تحول طوارئ بين بعضها والحضور فاللقاء في ذاته صورة إخاء، وبين لقائنا هذا واللقاء المقبل أدعو الله أن يوفقنا إلى مزيد من توثيق الروابط بيننا، والتغلب على الخلافات، وتجاوز العقبات، وتكثيف اللقاءات المتخصصة المساعدة على تحقيق السلام والتعاون الإسلامي».

اضطلع الشيخ بالمسؤولية خلال السنوات التي أعقبت ذلك ثم سلم الأمانة إلى الرئيس عبده ضيوف حينما انعقد المؤتمر الإسلامي السادس في السنغال، وقد ترك خلال هذه الفترة آثارًا كبيرةً لعل من أهمها رعايته لموسوعة قاموس القرآن الكريم الذي صار عنوانًا للجهود التي بذلها الشيخ خلال قيادته للقمة الإسلامية، وقد سبق لنا الحديث عن هذا القاموس في مقال آخر.

كما أضاف إلى قاموس القرآن الكريم هدية أخرى لها وزنها الكبير في المجال العلمي والثقافي ويعتبر تقديمها بالصورة التي ظهرت عليها بمثابة خدمة للأمة الإسلامية جمعاء، تلك هي «موسوعة العالم الإسلامي»، التي نفذتها بناء على أوامر رئيس المؤتمر وزارة التخطيط الكويتية، وقد جاءت هذه الموسوعة في ثلاثة مجلدات كبيرة وهي أول عمل يستكشف الأوضاع السكانية والغذائية والتعليمية والصحية والاجتماعية في دول منظمة المؤتمر الإسلامي، وقد زودت بخرائط عامة شرحت أوضاع العالم الإسلامي بإيجاز، متضمنة خريطة كل دولة من دول المنظمة، فهي كنز من المعرفة لا غنى عنه لباحث أو قارئ، ولو لم يكن جهد الأمير الراحل وراءه لم ير النور، ولقد انتهى المؤتمر في وقته، وانتهت فترة ولاية الشيخ جابر الأحمد لهذا المؤتمر بانعقاد المؤتمر السادس، ولكن عمله خلال تلك الفترة لا يزال بارزًا وموضع تقدير.

****

مؤتمر مجلس التعاون الخليجي الخامس في الكويت ١٩٨٤م[1]

لا يحتاج مجلس التعاون الخليجي إلى الحديث عن نشأته، وعن ضرورة هذه النشأة، وما يمكن أن يُسدي من منافع لأبناء هذه المنطقة العربية. فقد عشنا فترة من الزمن ونحن نترقب نشأة هذا الصرح المهم ونتمنى أن يتم إنجازه بأسرع وقت ممكن، ثم عشنا فترة النشأة وسعدنا بقيام المجلس الذي وضع لهذه المنطقة من بلاد العرب ثقلاً سياسيًّا واقتصاديًّا متينين، وجعل لأبنائها مستندًا يستندون إليه في الملمات، فقد كان الوضع قبل نشأته داعيًا إلى التحرك في مجال توحيد الصفوف لكثرة ما كان يدور في المنطقة من مشكلات، ولقد أثبت الزمن ضرورة قيام مجلس التعاون كما أثبت حنكة الذين قاموا بإنشائه، فجاء قويًّا من أول يوم له.

القيادة العليا لمجلس دول التعاون الخليجي بيد رؤساء هذه الدول، ولهم اجتماعات دورية على هيئة مؤتمرات قمة أو مؤتمرات أخرى تشاورية، وقد تم انعقاد أربعة مؤتمرات من هذا القبيل في الكويت فقد احتضنت المؤتمر الخامس الذي انعقد في سنة ١٩٨٤م، والثاني عشر الذي كان انعقاده في سنة ١٩٩١م، ثم الثامن عشر في سنة ١٩٩٧م، فالرابع والعشرين في سنة ٢٠٠٣م.

ونود أن نتحدث في هذا المقال عن المؤتمر الخامس الذي هو أول ما عقد من المؤتمرات الخاصة بقمة دول الخليج العربية في الكويت، وكان الشعب الكويتي متعطشًا إلى رؤية هذا التجمع الكبير لأبناء المنطقة، ولذا كان ترحيب الكويت أميرًا

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٩/١٠م.

وحكومةً وشعبًا، من أهم ما ميّز هذا المؤتمر، وجعل له دورًا مهمًا في الإعلام عن أهمية هذا النوع من اللقاءات، مع بيان ما تؤدي إليه من تقوية لأواصر المحبة بين شعوب الدول الأعضاء وزيادة التعاون فيما بينها.

إذن فلنتحدث عن المؤتمر الخامس الذي عقد في الكويت ما بين يومي السابع والعشرين والتاسع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٤م، ولقد استعدت الكويت لهذا الحدث استعدادًا كبيرًا، وقبل وقت مناسب كانت تهيئ مكان الاجتماع وأماكن إقامة الضيوف، وتعدّ برنامج اللقاء بحيث يتاح لكل ضيف الاطلاع على ما يريد الاطلاع عليه في البلاد، ولقد تم كل شيء في وقت مناسب بحيث لم يحن أوان اللقاء الا وكل شيء جاهز على أحسن وجه.

وفي اليوم المحدد لوصول أقطاب الاجتماع كان المرحوم الشيخ جابر الأحمد الجابر على رأس مستقبليهم في مطار الكويت الدولي، وهكذا وصل كل من:

١ - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

٢ - الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة.

٣ - خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود.

٤ - السلطان قابوس بن سعيد.

٥ - الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

وبذلك يكون الحضور كاملاً بوجود الشيخ جابر الأحمد الصباح، ولم يبق إلا البدء في أعمال المؤتمر الخامس لقمة دول الخليج العربية.

وقبل البدء في المؤتمر كانت هناك أمور لابد وأن تذكر في هذا السياق وهي:

١ - قيام سمو الشيخ جابر الأحمد الجابر بإرسال دعوات خطية إلى كافة الدول المشاركة ممثلة في رؤساء هذه الدول، منها على سبيل المثال الدعوة

الموجهة إلى الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني التي حملها الأخ عبدالرحمن سالم العتيقي المستشار بالديوان الأميري الذي استقبله الشيخ خليفة ولي العهد القطري بمكتبه بالدوحة في صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر لسنة ١٩٨٤م حيث سلم رسالة الدعوة.

٢ - وفي هذه الأثناء أشادت الأمانة العامة لمجلس التعاون بالاستعدادات الكويتية الهادفة لإنجاح القمة الخامسة، وأعربت كذلك في بيان لها صدر في اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٤م عن تمنياتها باستثمار العدد الضخم من الصحافيين والإعلاميين الذين دعتهم الكويت لتغطية هذه الدورة لصالح مسيرة المجلس.

وكانت وزارة الإعلام قد خصصت إذاعة تحت اسم «صوت مجلس التعاون» تبث برامجها من خلال جميع إذاعات دول المجلس، وقد نالت هذه الخطوة استحسان الأمانة العامة وتأييدها.

٣ - سبق انعقاد القمة اجتماع لوزراء خارجية الدول المشاركة، وقد بدأ الاجتماع في يوم العشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٤م وانتهى في اليوم الحادي والعشرين وكان يبحث كافة الاستعدادات، ويهيئ القضايا التي سوف يبحثها مؤتمر قمة مجلس التعاون، وهذا الاجتماع كان برئاسة صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وكان - آنذاك - نائبًا لرئيس الوزراء وزيرًا للخارجية، وقد صرّح الشيخ صباح بعد انتهاء اجتماع وزراء الخارجية قائلاً: «تمت بعون الله وتوفيقه اجتماعات المجلس الوزاري لدول مجلس التعاون في دورته التحضيرية للقمة الخامسة، حيث استعرض الإخوة الوزراء الموضوعات المطروحة على جدول أعمالها، بروح ودية تجلت فيها كامل الرغبة والجدية في تناول كافة القضايا بما يتناسب وأهمية الدورة الخامسة لأصحاب الجلالة والسمو».

٤ - صدرت من زعماء مجلس التعاون عند وصولهم إلى الكويت عدة تصريحات منها ما ورد في البيان الصحفي الذي أدلى به الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وأعرب فيه عن سعادته، بحضور هذا الاجتماع مع أشقائه قادة مجلس التعاون، وذكر في البيان أن انعقاد القمة الخامسة دليل واضح على إدراك الجميع للأهمية الكبرى للتعاون بين الدول الأعضاء، وأن ذلك بمثابة تجديد للحرص على العمل الأخوي المشترك، أما أمير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة فقد أعرب عن سعادته لمشاركته في هذا المؤتمر وحمل تحيات شعب البحرين إلى الكويت أميرًا وحكومةً وشعبًا، وأدلى السلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان ببيان فور وصوله إلى مطار الكويت أعرب فيه عن سروره وهو على أرض الكويت من أجل أن يستكمل مع الأشقاء قادة المجلس مسيرة التعاون المشترك.

وقال ما نصه: «سوف يكون لسمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت دور مهم في تيسير أعمال مؤتمرنا هذا وتحقيق أهدافه»، أما خادم الحرمين الشريفين فقد أدلى بتصريح طويل ذكر فيه أهمية هذا اللقاء كما أكد أن المجلس جاء تجسيدًا للروابط الوثيقة بين هذه الدول، واستجابة لرغبات وتطلعات شعوبها التي تؤكد الروابط الدينية والحضارية والثقافية والامتداد الجغرافي كلها السبب الحقيقي لتقدم المجلس ونجاح أعماله وتحدث أمير دولة قطر في السياق نفسه قائلاً: «لدى وصولي إلى بلدي الثاني الكويت لحضور الاجتماع الخامس للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية يسرني غاية السرور أن أوجه أطيب تحية إلى أخي صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت، وأركان حكومتها الموقرة، مع صادق تمنياتي وتمنيات الشعب القطري لسموه وللشعب الكويتي الشقيق الذين نكن لهما أخلص المحبة والتقدير».

كانت الأحاديث التي أدلى بها الزعماء، وكان نجاح اجتماعات وزراء الخارجية التي سبقت القمة إرهاصات تدل على نجاح المؤتمر المرتقب وهذا هو ما حدث بالفعل.

وبدأ عمل المؤتمر:

عقدت الجلسة الافتتاحية للدورة الخامسة في الساعة السادسة وخمس دقائق من مساء اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٤م بقاعة الاجتماعات بفندق حياة ريجنسي التي أمرت حكومة الكويت بإعداده خصيصًا لهذا المؤتمر، وحضر هذه الجلسة قادة دول مجلس التعاون والوفود المرافقة لهم، وعدد من كبار الضيوف، وأعضاء السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي، وعدد كبير من ممثلي الإعلام بكافة تخصصاته.

وعند تكامل جلوس القادة في أماكنهم داخل القاعة وانتهاء المصورين من تصوير هذا الحدث، أعلن الشيخ جابر الأحمد الجابر افتتاح المؤتمر، وألقى على الحاضرين الكلمة الافتتاحية التي بدأها بقوله: «الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.

إخـوانـي

أحييكم في داركم تحية تحمل إليكم الترحيب من شعب الكويت وحكومته، والشكر على اللقاء فوق أرضه والدعاء بالتوفيق فيما تحملون من مسؤوليات الحاضر والمستقبل.

ومع افتتاح الدورة الخامسة للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية نتوجه إلى الله العلي القدير بالحمد والثناء على ما أكرمنا به من نعمة الإخاء والتعاون، وكيف أصبحت حقائق ماثلة، وأعمالاً بناءةً تنمو مع الأيام، وتجري في عروقها دماء الحياة المتجددة».

واستمر رئيس المؤتمر في حديثه هذا ذاكرًا أن مجلس التعاون إنما هو استجابة صادقة لحقائق الحياة في هذا الجزء من العالم، وصياغة معاصرة لما كانت دوله تمارسه بالود والتقاليد الموروثة عن آباء كرام عاشوا على التعاون والتشاور والتكافل.

ثم ذكر أن العمل من خلال مجلس التعاون لدول الخليج العربية هو مسؤولية مشتركة دعائمها القوة واليقظة والنظام، وهدفها بناء عالم جديد من الخير والمحبة والسلام دون أن يفكر أحد في أن المجتمع الخليجي منفصل عن الأمة العربية بل هو جزء أصيل منها، ولذا فإن هذا المجلس سند يدعم الوحدة العربية، وأن هذا المجتمع الخليجي الجديد هو هديتنا إلى أبنائنا وإلى أبناء العروبة، بل هو وصية يحملها جيل إلى جيل على طريق مدروس ومخطط لمجالات أوسع في التعاون الإسلامي والعالمي.

وبعد هذه الكلمة الجامعة التي اقتطفنا أجزاءً منها بدأ المجلس جلسته الأولى بالاستماع إلى تقرير الأمين العام الذي ذكر فيه الانجازات التي تمت في السنة الماضية، وبعد اعتماد هذا التقرير رفعت الجلسة إلى صباح اليوم التالي حيث بدأت مناقشة جدول الأعمال الذي تضمن ثلاثة بنود رئيسية عن الشؤون الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

وخلال الفترة الخالية من الاجتماعات كانت تتم لقاءات أخوية بين قادة التعاون على جانب مستقل عن المسائل المطروحة على المؤتمر، كما أعد لهم عرض مسرحي جرى في مساء اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٤، وكانت المسرحية المعروضة من بطولة عدد من الفنانين الكويتيين وعلى رأسهم الفنان الكبير عبدالحسين عبدالرضا، وجسدت جوانب من تطور المجتمع في منطقة الخليج مؤكدة على العادات والتقاليد السائدة فيه.

كان اسم المسرحية هو (فرحة أمة) وقد تم عرضها في الفندق الذي جرت فيه اجتماعات المؤتمر.

وقد تحدث سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر قبل بدء العرض المسرحي بصفته وزيرًا للخارجية والإعلام - آنذاك - فرحب بالحاضرين قائلاً: «إن وزارة الإعلام وهي تقدم هذا العمل المسرحي إنما تعبر عن إيمانها بالدور الفعال الذي يمكن أن يؤديه الفن المسرحي في تطوير المجتمع والتأثير في بنيته الاجتماعية، وتشكيل واقعه المنشود».

وفي الليلة التي تلت ليلة الحفل، حضر القادة مع الوفود المرافقة حفلاً فنيًا أقامه تلفزيون الكويت، وقد أحيته فرقة التلفزيون وقدمت فيه الكثير من الفنون التراثية المشتركة مع دول الخليج.

وعاود الزعماء تبادل الزيارات فيما بينهم في الأوقات الخالية من الاجتماعات، ولا شك في أن هذه اللقاءات ذات أثر في تثبيت العلاقات وتقوية أواصر المحبة والتقارب بين الجميع، وهي نتيجة طيبة من نتائج المؤتمر.

في الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم التاسع والعشرين من شهر نوفمبر السنة ذاتها بدأ القادة يتوافدون على قاعة الاجتماعات لحضور الجلسة الختامية للمؤتمر.

وقد بدأت وقائع الجلسة بكلمة ألقاها رئيس المؤتمر الشيخ جابر الأحمد الصباح، أعاد فيها شكر القادة لتلبيتهم دعوة الكويت بحضور هذا المؤتمر، وأكد أن الاجتماع كان مناسبة ظهرت فيها صور المودة والتعاون بين أبناء الخليج، وكانت كلمة الرئيس - على اختصارها - مليئة بالمعاني العالية، وقد ختمها بقوله: «إن أيامكم في الكويت عيد الإخاء والتعاون، يمتلئ بها القلب، وينطلق بها اللسان شكرًا

لله، نسأله سبحانه أن يحفظ علينا نعمة الإخاء، وأن يكتب لنا التوفيق، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا».

وما إن انتهت هذه الكلمة الفياضة بأحاسيس المودة، والفرح بنجاح المسعى الذي تكلل بالنتائج الباهرة للمؤتمر في دورته الخامسة حتى بدأت تلاوة البيان الختامي، الذي عبّر فيه المؤتمر - بداية - عن ارتياحه البالغ للخطوات التي انتهجتها الدول الأعضاء في سبيل الوصول إلى مزيد من التنسيق بين مواقفها، ومزيد من تأكيد الأواصر مما يعمّق شعور الانتماء عند المواطنين في هذه المنطقة، ويرسخ إيمانهم بأنهم جزء لا يتجزأ من إطار واحد، ومع رجاء المجلس في أن يؤدي كل ذلك إلى تحقيق آفاق أوسع من التوازن السياسي والاقتصادي مما يحقق الأهداف المرجوة.

وبعد استعراض كافة القضايا التي طرحت على بساط البحث شكر الكويت أميرًا وحكومةً وشعبًا للمشاعر الصادقة التي حفت بالمجتمعين وعكست إيمان الكويت بأهداف المجلس وحرصها على أن يحافظ على نهجه القويم.

ثم أعلن البيان أن القمة السادسة سوف تعقد في شهر نوفمبر لسنة ١٩٨٥م بمدينة مسقط عاصمة سلطنة عمان، وذلك بدعوة من السلطان قابوس بن سعيد الذي رحب في كلمة له بكافة القادة ضيوفًا أعزاء على وطنه.

إن نشأة مجلس التعاون لدول الخليج العربية ملحمة من العمل الوطني السليم في سبيل تهيئة مستقبل أفضل لأبناء الدول الأعضاء، وقد أخذ القادة وقتًا طويلاً في سبيل التحضير لقيامه، ولكن هذا الوقت لم يضع سدى فقد جاء المجلس قويًا سليمًا من العيوب، وها هو إلى اليوم يوالي أنشطته ومؤتمراته، وتتفتح أمامه أعمال متعددة كلها تصب في مصلحة المنطقة وشعوبها.

ولي في الختام كلمة لابد من ذكرها، وهي أن هناك خشية كبيرة من أن يفقد مجلس التعاون خصوصيته وأن يتحول إلى مؤسسة شبيهة بالمؤسسات العربية الأخرى التي تكثر فيها المزايدات والأطماع، وما ذلك إلا إذا تحقق ما يدعو إليه البعض من إدخال دول أخرى لا تتماشى أنظمتها ولا أساليب العمل في حكوماتها مع ما هو جارٍ في الدول الست أعضاء المجلس، ويكفينا النظر إلى تهالك هذه الدول وهي معروفة لدى الجميع على الانضمام إلى المجلس لا يدفعها إلا الرغبة في الاستفادة من جهود الدول المؤسسة له ومن أموالها حتى ولو كانت شعوب المنطقة غير راضية بذلك الانضمام الذي سوف يهدم تلك الجهود المضنية التي أوصلت إلى بناء مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

****

في بلاد الإسلام[1]

دعنا نخرج قليلاً عن خط سيرنا، فقد تعودنا على الحديث عن كل ما يتعلق بالكويت من حيث التاريخ والجغرافية والأحداث، ومن حيث ذكر الزوار الذين أتوا إلى البلاد في غابر الأزمان أو في آخرها. ولكننا اليوم نتحدث في موضوع آخر لا يدفعنا إلى الخوض فيه إلا أهميته، والاعتقاد بضرورة إطلاع القارئ عليه.

هناك عدد من البلدان يتردد اسمها في أيامنا هذه، وخصوصًا فيما يتعلق بالحروب، والأحداث المأساوية التي تحيط بها. وقد لا يعرف الكثيرون ماضي هذه الأماكن ولا موقعها في التاريخ الإسلامي، وقد اخترنا ثلاثة منها لكي نقدمها هنا بصفتها نموذجًا لعدد كبير جدًا من المواضع التي وردت في تاريخنا، وكان لها ذكر ذائع عند بدء انتشار الإسلام في خارج جزيرة العرب.

والأماكن التي اخترنا الحديث عنها ثلاثة هي:

١ - تبليسي عاصمة جورجيا.

٢ - كابل أو كابول عاصمة أفغانستان.

٣ - قندهار إحدى مدن أفغانستان الكبرى.

أما تبليسي فإن اسمها يتردد في هذه الأيام بشكل صارخ بسبب الحرب القائمة بينها وبين روسيا، وهي حرب كان من المتوقع حدوثها بسبب الخلافات الكثيرة بين البلدين حول عدد كثير من القضايا وبسبب أطماع الروس التي لا

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١٧/٩/٢٠٠٨م.

تنتهي، ولانزال نسمع صرخة الحكومة الجورجية التي تدعو إلى استنفار العالم ليقف معها بعد أن قامت روسيا بتطويق تبليسي تمهيدًا لاقتحامها. وإذا كانت أمور الحرب قد بدأت بالتراجع لأن روسيا تدعي بأنها وصلت إلى ما تريد الوصول إليه في حملتها العسكرية هذه فإن الجمر لايزال تحت الرماد، والقضايا الكبيرة المعلقة بين البلدين وبين جورجيا وبعض المناطق الساعية إلى الانفصال عنها لاتزال قائمة، والراجح أن الأمر لن يستتب ما لم يتم التوصل إلى حل شامل لجميع القضايا التي تسببت بذلك البلاء الذي حلّ ببلد صغير بالنسبة لروسيا يعاني هو نفسه من مشكلات أخرى لابد من إيجاد حل لها ضمن الحل الشامل الذي أشرنا إلى ضرورة التوصل إليه.

ولعل من أسباب الخلاف الجورجي - الروسي، أن جورجيا كانت جزءًا من الاتحاد السوفياتي السابق حتى استقلت في سنة ١٩٩١م، والمتابع لحركة تفكك الاتحاد المذكور والسرعة التي تم بها - آنذاك - فإنه سوف يقدّر أنه لابد وأن تترك رواسب من الماضي لا تمحى بسهولة.

ينطق الروس كلمة تبليسي: تفليس، وهو النطق العربي نفسه لهذه الكلمة.. وسوف نرى ذلك في المراجع العربية، تقع عاصمة جورجيا على نهر كورا في شرقي البلاد، وبها من السكان ما يقرب من مليون ومائة وأربعين ألف نسمة، وتنقسم المدينة إلى قسمين أحدهما قديم والآخر حديث، وتشتهر جورجيا بعدد من الصناعات منها صناعة المنسوجات القطنية والصناعات الجلدية، والآلات والمنتجات المعدنية والنفط.

ذكرت (تفليس) في عدد من الكتب العربية ولاسيما في كتب معاجم البلدان، وكتب التاريخ، وقد وصفت في كتاب معجم البلدان بأنها: «مدينة قديمة أزلية، طولها اثنتان وستون درجة، وعرضها اثنتان وأربعون درجة»، وقد وصف الشاعر

القديم مسعر بن مهلهل هذه المدينة وصفًا دقيقًا وذكر على الأخص جوها ومياهها الغزيرة التي تصدر من ينابيع كثيرة حارة، ولذلك قيل أن كلمة تبليسي في لغة جورجيا تعني «عيون المياه الدافئة».

افتتح المسلمون هذه البلاد في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان قائد المسلمين - آنذاك - هو حبيب بن مسلمة، وكان قد افتتح قبلها عددًا من البلدان ثم اتجه إليها، وفي الطريق لقيه بعض أهلها فطلبوا الصلح والأمان، ووثيقة الصلح مذكورة بكاملها في كتاب معجم البلدان (٢/٣٦).

وعندما ضعفت الدولة، وأهملت ثغورها تولى عدد من مجاوري تفليس محاربة المسلمين، وسيطروا عليها في سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) وهؤلاء هم الذين يناوئون الآن الحكومة المركزية في جورجيا وهم الأبخاز الذين يطالبون باستقلال أبخازيا، وكان استيلاء هؤلاء على تفليس مستمرًا إلى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٦م) حين خرجوا من البلاد بالقوة المسلحة.

الموقع الثاني هو (كابول) وتنطق أو تكتب أحيانًا (كابل) بضم الباء، وهي اليوم عاصمة أفغانستان، وتقع على نهر يعرف باسمها، وتحيط بها الجبال من كل جانب وكان عدد سكانها قد بلغ حوالي ثلاثة ملايين نسمة، تحيط بأفغانستان دول منها باكستان والهند وترتبط العاصمة بكافة البلاد بواسطة طرق صحراوية ممتدة، وبها مطار دولي مهم.

لمدينة كابول قسم قديم يضم مباني بنيت من الأحجار الطينية، وقد سلكت البلاد طريقها إلى التقدم منذ سنة ١٩٣٢م عندما أنشأت جامعتها الكبيرة وأكاديميتها العسكرية في وقت واحد.

خضعت أفغانستان للاحتلال البريطاني ثلاث مرات كان آخرها في سنة ١٨٧٩م. واستقرت الحياة فيها إلى أن شهدت انقلابًا عسكريًّا أدخلها في متاهات مظلمة، إذ تدخل الاتحاد السوفياتي لينقذ المنقلبين على النظام الملكي، ولكن وجوده جرّ المشكلات إلى البلاد منذ ذلك الوقت، وحتى بعد أن رحل الروس من البلاد، إذ استمرت الحرب الأهلية في كافة أنحاء البلاد.

اسم كابول متداول في الكتب العربية القديمة، وصفها ياقوت وصفًا دقيقًا، تحدث عن أهلها، وعن منتجاتها الزراعية، وذكر أن المسلمين افتتحوها في عهد الخليفة الأموي، الوليد بن عبدالملك، ودخل أهلها الإسلام وبقيت في عهدة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية وعند إنهيار هذه الدولة تعاقبت عليها الدول الإسلامية الصغيرة التي نشأت إثر تفكك دولة بني العباس وهذه الدول هي:

- **الدولة السامانية.**
- **دولة بني بويه.**
- **الدولة الغزنوية.**
- **الدولة الخوارزمية.**
- **الدولة الصفوية.**

وقد ذكر ياقوت أن كابل من الأماكن التي ورد ذكرها في الشعر القديم فقد ذكرها الأعشى الشاعر، وعبدالله بن قيس الرقيات وغيرهما، وذكر من أهلها بعض رجال الحديث النبوي وبعض علماء الفقه الإسلامي.

من المدن الكبيرة في أفغانستان مدينة ذات شهرة كبيرة لما دار فيها من أحداث تتعلق بالحروب الأهلية التي قامت في الفترة التي أشرنا إليها عند الحديث عن (كابول)، وهي مدينة قندهار التي هي اليوم إحدى محافظات البلاد التي يصل

عددها إلى أربع وثلاثين ولاية، ورد ذكر قندهار في أحد مواقع الإنترنت، وقد جاء فيه: «قندهار: ثانية مدن أفغانستان حجمًا بعد العاصمة (كابول)، تقع على رافد جنوبي نهر (هيلماند) في جنوب البلاد، وتتحكم في الطريق الذي يعبر ممر (بولان)، ويصلها بمدينة كويتا بباكستان، وترتبط بالعاصمة بطريق بري مرصوف، وهي السوق الرئيسية لجنوبي أفغانستان، وفيها ضريح الشاه أحمد خان الذي أسس حكم الدولة الدورانية التي حكمت البلاد منذ سنة ١٧٤٧م حتى سنة ١٨٣٥م، وعلى الضريح قبة مغطاة بصفائح الذهب، تحيط بها المآذن المحلاة بالقيشاني، وتشتهر قندهار بزراعة الفاكهة».

لم تكن قندهار على طريق السفن الشراعية الكويتية لأنها لا تطل على البحر، ولكن أهل الكويت يعرفون هذا البلد بالاسم فقط، ويضربون به المثل في بعد المسافة، فإذا أرسل أحدهم شخصًا إلى مكان قريب فتأخر بالعودة إليه قال له: لم تأخرت هل ذهبت إلى قندهار؟ هذا ولم أعرف أحدًا زار هذه البلاد في الماضي غير أخي سليمان خالد الغنيم، كان ذلك في سنة ١٩٦٦م أثناء عمله في وزارة الخارجية وقد سافر ضمن وفد اقتصادي مكون من ثمانية أشخاص إلى كابول، وهبطت الطائرة بهم في مطار قندهار، وبعد أن باتوا ليلتهم بها، انتقلوا في صباح اليوم التالي إلى العاصمة الأفغانية (كابول) بوساطة السيارات.

وقندهار من الأماكن القديمة التي ذكرت في معاجم البلدان العربية، وصفها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، ولكنه لم يستقص الحديث عنها غير أنه ذكر أنها بلدة مشهورة في الفتوح، وكان القائد المسلم عباد بن زياد هو الذي فتح قندهار بعد أن مرّ بعدد من البلدان في طريقه إليها وكانت هذه الحرب شديدة الوطأة على الطرفين، وقتل فيها رجال من المسلمين، وقد ذكر الشاعر يزيد بن مفرغ هذه الحروب التي كان في نهايتها افتتاح قندهار فقال:

كم بالجُرومِ وأرضِ الهندِ من قَدَمٍ

ومن جماجمِ قتلى لَيْتَهُم قُبِروا

ومن سرابيلَ أبطالٍ مُضَرَّجَةٍ

ساروا إلى الموتِ ما خاموا ولا ذُعِروا

بقندهارَ ومن تُكْتَبْ مَنِيَّتُهُ

بقندهارَ يرجَّم دونَهُ الخَبَرُ

والشاعر يزيد بن مفرغ الحميري شاعر جيد الشعر ليس له ديوان ولكن بعض الأدباء جمع شعره من المراجع المختلفة فطبع عدة طبعات بحسب عدد الجامعين، وبين يدي مجموعة الدكتور عبدالقدوس أبوصالح (مطبعة السالة ١٩٧٥م) والأبيات في ص ١٢٠ منها، وقد توفي ابن مفرغ في سنة ٦٩ هجرية. ومعنى كلمات الأبيات كما يلي:

الجروم: البلاد الحارة، السرابيل: جمع سربال وهو القميص أو كل ما يلبس على البدن، مضرجة: ملطخة بالدم، يرجم دونه الخبر: يتم تناقل الأخبار غير الصحيحة عنه، لبعد المسافة وصعوبة وصول الأخبار الحقيقية إلى ذويه.

وقد أورد جامع شعر ابن مفرغ كافة الأقوال التي تتعلق بهذه الأبيات بدءًا من قيادة عباد بن زياد السابق ذكره لجيشه، فنقل عن كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري قوله: «وغزا عباد بن زياد ثغر الهند وسجستان، فأتى سناروذ، ثم أخذ يمرّ بعدد من البلدان إلى أن وصل قندهار بعد أن قطع المفازة، وهي الصحراء القاحلة، فقاتل أهلها وفلّهم وفتحها بعد أن أصيب رجال من المسلمين، وقد أورد صاحب كتاب الأغاني هذه القصيدة فقال إنها قد غنيت بلحن وصوت المغني القديم ابن جامع.

وبعد، فإننا نتساءل هنا: أليس من حق أولئك الرجال الذين خاضوا معارك الفتوح أو وجهوا إليها أن نذكرهم ونعرّف بهم أجيالنا الحاضرة والقادمة؟ بلى: لابد من ذلك وهذا بيان ما ذكر:

١ - الخليفة عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين وهو غني عن التعريف، رضي الله عنه.

٢ - الوليد بن عبدالملك بن مروان، أحد خلفاء الدولة الأموية، تولى الحكم بعد أبيه وكان تحت إمرته عدد من القادة المعدودين منهم موسى بن نصير وطارق بن زياد، وكانت له أعمال باهرة في مجال نشر الإسلام حتى وصل الإسلام إلى بلاد الهند وطرفًا من الصين، وله أعمال اجتماعية، وعناية بالمحتاجين، وهو باني المسجد الأموي المعروف بدمشق، وتوفي في سنة ٧١٥م.

٣ - حبيب بن سلمة الفهري من كبار القادة الفاتحين ولد بمكة ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم، وخرج إلى الشام في أيام أبي بكر الصديق مجاهدًا، وشارك في كثير من المعارك، كان معاوية بن أبي سفيان يستشيره في كل أموره، توفي سنة ٦٦٢م، وله من العمر خمسون سنة.

٤ - عباد بن زياد ابن أبيه، كان أميرًا من أمراء الحروب، أصل إقامته بالبصرة، ولكنه عندما ولاه معاوية على سجستان إنتقل إليها، ثم قام بغزو الهند، وفي أيام الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان والد الخليفة الوليد كان عباد في الشام يستشيره الخليفة في كثير من الأمور، توفي في سنة ٧١٧م.

مضت تلك الأيام، ولم يبق لنا من آثارها إلا ذكراها، وما كتب في الكتب عن الأحداث التي مرت بها، ولكننا نرى خلال قراءاتنا رجالاً كانوا أهلاً للقيادة، وكانوا حملة رسالة يحرصون على إبلاغها. رحمهم الله.

****

ملحاق خير

شارع محمد بن القاسم من الشوارع الرئيسية في الكويت وهو شارع يمتد من موقع وزارة التربية (الشويخ) في الشمال إلى جليب الشيوخ في الجنوب، وهو طويل جدًا وعريض، يخترق عددًا من المناطق ويمر بعدد من الجسور أحدها الجسر الواقع على الدائري الرابع وهو آخر جسر من جسور هذا الطريق الدائري من ناحية الغرب. وقد يتساءل المرء عن السبب الداعي إلى اطلاق اسم هذا الرجل على مثل هذا الشارع الكبير؟ ومن هو محمد بن القاسم؟

يستحق الرجل التكريم وأكثر فهو بطل من أبطال العرب الكبار، وكان في تصرفاته الحربية ما يشبه المعجزة، ويكفي أنه خاض عدة حروب وكلها حروب كبرى وهو في السنة السابعة عشرة من عمره، فقد ولد محمد بن القاسم الثقفي في السنة الثانية والسبعين للهجرة، وتم فتح السند على يده في السنة التاسعة والثمانين للهجرة أيضًا.

كان منذ بداية حياته متطلعًا إلى المجد، فهو من أسرة يكثر فيها الأبطال، كان منها الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان واثقًا من قدرات هذا الفتى، ولذا فقد أسند إليه مهمة كبرى وهي فتح السند، وقد تقدم إليها مزودًا بكل ما يحتاج إليه قائد جيش من رجال وأعتده ووسائل نقل برية وبحرية، كتب عنه أحد الخبراء

العسكريين المحدثين قائلاً: كانت لمحمد قابلية متميزة لانتخاب الأهداف الملائمة في المجالات السوقية والتعبوية، ولذا كان اتجاهه في الفتح سلميًا.. وجعل أهدافه الاستراتيجية متتالية مرتبة بحسب أهميتها، كما كان ناجحًا في اختيار الأهداف، إذ أقدم على استهداف صنم كبير كان في مدينة الديبل (كراتشي) فأثر بإبادته لهذا الصنم على معنويات أعدائه.

وكان محمد يثير في رجاله - دائمًا - بواعث الإيمان والعقيدة السليمة القوية، ويبذل جهده في تقوية معنوياتهم. لذا فقد استحق هو وجنده النصر.

وكان الباعث إلى إرسال هذا الجيش الفاتح برئاسة قائد غير عادي هو الاعتداء الذي تعرض له عدد من المسلمات في سفينة تحملهم مع هدايا أخرى بعث بها ملك سيلان إلى الحجاج وإلى الخليفة الوليد بن عبدالملك مما أغضب الحجاج، ودفعه إلى الانتقام. وقد قدم الحجاج لهذا الجيش إمدادات كثيرة رغبة في نجاح المهمة، فكان له ما أراد. وتعددت انتصارات ابن القاسم وشملت عددًا من المناطق في السند (جهة الباكستان) وفي مكران (جهة بلوشتان). وبينما كان قائمًا بعمله توفي الحجاج، ثم توفي الوليد بن عبدالملك ففقد صاحبنا اثنين من كبار الداعمين له. وجاء إلى الخلافة سليمان بن عبدالملك الذي كان يكره الحجاج وكل من يمت له بصلة، وأول ما قام به من أعمال هو الالتفات إلى محمد بن القاسم وجلبه مقيدًا، ثم تعذيبه حتى الموت.

إن التاريخ ليذكر الأعمال الباهرة التي قام بها هذ الفتى العربي المسلم، ويذكر أيضًا الأعمال الذميمة التي قام بها سليمان بن عبدالملك، فما هكذا يكافأ

بطل من أبطال العروبة والإسلام، ولذا فإن المرء ليشعر أن في تسمية شارع في الكويت باسم هذا البطل نوع من إعادة الاعتبار، وإن كان التاريخ لم يهمل الحديث عنه بالإكبار والتقدير، فورد ذكره في كثير من الكتب ومنها كتاب ألفه عنه الأديب الشاعر محمد عبدالغني حسن تحت اسم: «بطل السند».

يلاحظ القارئ أننا قد عمدنا إلى كتابة هذا الملحق لأن موضوعه مرتبط بموضوع الفتوح الإسلامية من جهة ولأن أفغانستان متاخمة للأرض التي دارت فيها المعارك التي قادها محمد بن القاسم.

****

الشاعرة دعد الكيّالي في الكويت[1]

من حق هذه المرأة أن نتحدث عنها، فقد أمضت زهرة حياتها في الكويت، تعلم بناتنا في عدد من مدارسنا، وتنظم الشعر متأثرة فيه بالبيئة التي تعيش فيها، وتكتب المقالات في الصحف المتاحة في ذلك الوقت المتقدم. ولعل من أوائل ما يشير إلى جهدها الأدبي تلك الرسالة التي بعثت بها إلى مجلة البعثة، ونشرتها هذه الأخيرة في العدد الصادر في بداية شهر مايو لسنة ١٩٥١م. وفي الرسالة تقول دعد عبدالحي الكيالي للمجلة: «.. فقد يكون بعضكم قد قرأ لي في (الأديب) أو (الرسالة) أو (الثقافة) أو غيرها من المجلات العربية، ولكني أرى لزامًا عليّ وأنا التي أعتنق فكرة القومية العربية، وأدين بها أن أقول: أجل، إنني أرى لزامًا عليّ وقد نزلت في الكويت القطر العربي الشقيق أن أهدي للبعثة الغراء بعض نتاجي الأدبي كتحية لها، تحية تعارف وإعجاب وتقدير.

وإنني إذ أتمنى للكويت العزيز أجمل التمنيات في ظل أميره المعظم أرجو أن تتفضلوا بقبول فائق الاحترام».

وعلى الرغم من أن مجلة البعثة قد نشرت هذه الرسالة في شهر مايو فإننا نجدها تنشر - قبل ذلك - قصيدة من قصائد هذه الشاعرة في العدد الصادر في أول شهر مارس، وفي هذه القصيدة التي جاءت تحت عنوان: «قلبي تشوق للوطن» تتذكر وطنها «فلسطين» قائلة:

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٢٤م.

بالله إن أشرَقْتَ يا
بدرَ الدُجى فوقَ السَّكَنْ
بلّغ تحياتي إليه
وَقُلْ سَيَقْتُلنا الحزن

وقد كتبت هذه الأبيات في الكويت.

والأغرب من ذلك أن المجلة قدمت للقصيدة بكلمة طيبة أطرت فيها العمل وذكرت جهود الشاعرة السابقة، كما قدمت لها الشكر لإرسالها القصيدة إليها. وقد كان نص التقديم الذي نشير إليه هنا شديد القرب من النص الذي ورد فيما بعد في شهر مايو فكأنه تكرار له لا يزيد عليه إلا بكلمة الشكر الأخيرة.

وعلى كل حال فقد عرفنا من ذلك أن الشاعرة كانت ذات إنتاج أدبي نثري وشعري، وكانت تنشر في المجلات المرموقة، وأنها كانت تعمل في سلك التدريس في الكويت ابتداء من سنة ١٩٥١م، أحبت دعد الكيالي الكويت، وأقامت بها إلى حين وفاتها، وكتبت الكثير عن إقامتها في هذا البلد، وعن تعلقها به ومن ذلك مقالها الذي كان بعنوان «أحببت الكويت» وقد نشر في مجلة البعثة في شهر أبريل لسنة ١٩٥١م، ومنه نعرف أنها أحبّت الكويت منذ وصلت إليها.

تحدثت في هذا المقال عن الخطوات التي قطعتها الكويت - آنذاك - في مضمار التقدم، وذكرت أنها كانت خطوات واسعة مؤكدة أن ما سمعته عن الكويت قبل سنتين وما تراه في سنة ١٩٥١م مختلف، وأن هذا الاختلاف في صالح هذا البلد العربي. وذكرت أن مدارس الكويت منظمة ومفتوحة للجميع، وهي تمنح اللوازم المدرسية بكاملها للطلاب والطالبات دون تفرقة. وتحدثت عن المستشفيات

قائلة: «أما مستشفياتها فهي والحق يقال آيه من آيات الدقة والروعة والنظام، يحق لكل مريض أن يتعالج فيها وأن يأخذ ما يتطلبه مرضه من دواء دون أن يدفع أي مقابل».

وتحدثت عن الكويتيين ووصفتهم بأوصاف كريمة مشية على سلوك الجميع وحرصهم على أداء الشعائر الدينية وعلى التواضع وحسن الخلق. ثم تحدثت عن تلميذاتها فذكرت ما يتمتعن به من ذكاء فطري، واستعداد لتقبل الدروس، ثم تقول: «وإنني لألمح في الكويت ذكاءً وقادًا ومواهب رفيعة ونفوسًا عاليةً صافية، فالكويت على الرغم من حداثتها وصغر مساحتها أنجبت شعراء تفخر بهم العربية، وإن في شعرهم لجمالاً مستمدًا من جمال بلادهم، وإن فيه لأصالة مُستمدة من أصالة عروبتهم».

ثم ختمت المقال بالدعاء للكويت وأهلها وحكامها. ولقد كانت تعمل - آنذاك - في المدرسة الوسطى للبنات، ثم تعددت المدارس التي عملت بها حتى وصلت إلى مدرسة الشعيبة في جنوبي البلاد. وكانت تكتب من كل مكان تقيم فيه أو تعمل به، فتذكر انطباعاتها، ومشاعرها وتعبر عن كل ما يجول بخاطرها من أفكار. وقد كان من أول ما كتبته ذلك المقال الذي نشرته تحت عنوان: «إلى الكويت» تناولت فيه شتى الخواطر التي مرت بها وهي تستقل الطائرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٩٥٠م من بيروت متجهة إلى الكويت. وتكاد أن تكون هذه الخواطر فلسفية، لم يوقظها من الخوض في محادثة نفسها إلا وصول الطائرة إلى الكويت، حيث تقول: «ها نحن ذا ننزل منها أخيرًا، فنسير بخطوات ثابتة على أرض الكويت، وقد التفنا بعباءاتنا».

لقد كانت تستمتع كثيرًا بوقوفها أمام ساحل الخليج العربي متأملة مستمتعة برائحة البحر، وصفاء المنظر المحيط. وقد كتبت عدة مقالات واصفة هذا الوضع المثير، ولكنها كتبت قصيدة جميلة بعنوان «على ساحل الفنطاس» تقول في بعضها:

على ساحل البحر فوق الرما
ل مشيتُ كطير الفضاء الطَّليقِ
ولون المياه يناغِمُ رو
حي ويُنْعِشُها بالشُّعاعِ الرَّقيقِ
على شاطئ البحر عند الأصيـ
ـل مشيتُ أطالعُ سفر السَّماء
وبيضُ الطُّيور تُغرِّدُ نشوى
وقلبي يساجِلُها بالغناء
نسيتُ الزَّمانَ نسيتُ المكانَ
وسِرْتُ كطفلٍ لعوبٍ طروب
أُناجي الضِّياءَ وأسكُب قلبي
نشيدًا يعانقُ طيفَ الغُروب

وفي هذا الموقف المتأمل لا تنسى أن تستعيد ذكريات طفولتها في وطنها فلسطين فتقول:

جلست على الشَّطِ أبني بيوتًا
من الرَّمل فاشتَدَّ شوقي الدَّفين
لملعبُ صَفْوي ومغدَى صباي
ومغني القرنفلِ والياسمين

وتستمر في الحديث عن موطنها، وعن الأحاديث الطفولية التي مرت بها، فقد كانت تلك الأيام غير بعيدة عن سنة النكبة التي نكبنا بها في فلسطين، وكان جرح هذه الشاعرة طريًّا ينزف دمًا، فتأبى أن تغادرها ذكريات الوطن.

ولم تكن هذه هي أول إشارة إلى إحساسها بفقد الوطن والحنين إليه، فقد أكثرت من ذلك، وكانت قصائدها المتعلقة بهذا الموضوع أشبه بالبكاء، وأقرب إلى الأنين، وهي تحس من خلال ذلك بأن الغربة شديدة مهما وجدت في الكويت من تقدير ومحبة:

إليكَ أبثُّ يازيتون شجوَ الغربةِ القاسي
إليكَ أبث ما قاسيت مِن وجدٍ ومن ياس
على قَدمَيْكَ سوف أُريحُ يازيتونتي راسي

وكان شعرها جميلاً ومؤثرًا ولذا فإنها وجدت نفسها جديرة بالاشتراك في مسابقة الأناشيد التي أقامتها دائرة معارف الكويت، وفازت القصيدة التي قدمتها وحصلت يومها على جائزة مالية قيمة، وكانت دعد الكيالي - حينذاك - ناظرة لمدرسة الفنطاس للبنات.

وعلى الرغم من اهتمام دعد الكيالي بكتابة الشعر، وعلى الرغم من إبداعها فيه، فإنها كانت تكتب المقال الأدبي النثري بنوعيه: الخواطر، والأبحاث.

وقد أشرنا في مجال الخواطر إلى شيء من هذا ولكننا نجد لها في مجال المقالة إنتاجًا من نوع آخر، فقد كانت تكتب مقالات فكرية تنحو بها ناحية إشغال الفكر في موضوع من الموضوعات ثم تقوم بطرح كل ما يدور حوله متوصلة بعد ذلك إلى النتائج المطلوبة، وقد نشرت لها مجلة «الرائد» في شهر أبريل لسنة ١٩٥٣م مقالاً تحت عنوان «ألوان من الخصومة» تحدثت فيه عن أنواع الخصام

الذي يحتدم بين الناس منذ خصام الشعراء الهجائين إلى الخصام الموصل إلى الحروب. وتضرب أمثلة بعدد ممن اتجهوا إلى هذ النوع من الخصام الشديد الواقع على الناس متمثلة في ذلك بنابليون الذي خاض الحرب في كُلّ مكان لكي يثبت أنه لا يوجد مستحيل على الاطلاق، غير أن التحدي المهم المفيد هو - كما تقول دعد - تحدي الباحثين في المجال الطبي للميكروبات، وصنوف الأمراض، وهو تحدٍ حميد لكل ما يجلب الشفاء للإنسان، وشبيه بذلك ما يتم من اكتشافات علمية في مجالات أخرى، وشبيه به - أيضًا - التنافس في مجال الفنون وهذا النوع من التنافس يؤدي إلى إنتاج جيد تسعد به الإنسانية جمعاء، وتختم مقالها قائلة إن التنافس أو الخصومة كالبكتيريا منها النافع ومنها الضار فعلى بني الإنسان أن يكون جُلّ اهتمامهم في التسابق إلى فعل الخير، وإنتاج المفيد.

ومثل هذا المقال، مقال آخر لها نشرته مجلة «الرائد» - أيضًا - في شهر نوفمبر لسنة ١٩٥٣م تحت عنوان: «فتش عن الحافز الأول» وفحواه أن الغرائز هي الدافع الأول لكل عمل نقوم به أو سلوك نسير عليه. وقد ضربت أمثلة تاريخية لمواقف متعددة تؤيد وجهة نظرها هذه.

وفي مجال الأبحاث كانت لها ممارسات، ولكنها على - عمقها - لا تتوسع في الموضوع الذي تبحثه، وذلك لأنها تكتب ما تكتب من أجل نشره في الصحف، وهذه لا تطيق الأبحاث المطولة وقد عرفت دعد الكيالي ذلك فعملت على عدم تجاوز الحدود المسموح بها من حيث المساحة المكانية للمقال.

من مقالاتها «البحثية» مقال نشرته في مجلة البعثة ضمن العدد الصادر في اليوم الأول من شهر أكتوبر لسنة ١٩٥٣م بعنوان «بين إمام وخليفة» وكان يدور حول الخلاف الذي نشب بين الخليفة المأمون والإمام أحمد بن حنبل في موضوع

معروف لدى الجميع وقد جاء المقال في ثلاث صفحات، وكان آخره قولها: «فرحم الله الإمام ابن حنبل، ورحم الله الخليفة المأمون، فقد كانا - كلاهما - من أصحاب الضمائر الحية، والعقائد السامية، وكم هي قاسية تلك الأقدار التي سخرت من خليفتنا العالم، فجعلته أداة للنيل من إمامنا الجليل».

ويبدو أنها كانت مهتمة بعصر الخليفة المأمون، فلها بحث آخر تحت عنوان: «المأمون والعلوم الكونية» خصصته للحديث عن هذا الخليفة العالم الحريص على نشر العلوم وتشجيع العلماء، الذي قاد حركة ترجمة واسعة نقلت الكثير من كتب العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية فازدهرت في عصره حركة علمية لا يزال ذكرها ساريًا. وقد نالت على بحثها هذا إحدى جوائز محطة إذاعة الشرق الأدنى التي كانت تذيع في وقتها ذاك. وكانت حريصة على بحث مختلف الجوانب الخاصة بموضوعها، ثم وضعت في الختام أسماء عشرة مراجع من الكتب المهمة رجعت إليها في عملها هذا.

ولم تكتف دعد الكيالي بالنشر في صحف الكويت بل نشرت مقالات لها في مجلة البحرين، وكان منها مقال عُنْوانُهُ «المثقفون» وقد نشرته في العدد الرابع الذي صدر من المجلة في سنة ١٩٥٣م، وذكرت أنها أذاعته من محطة إذاعة الشرق الأدنى، كما حددت معه عنوانها في مدرسة الفنطاس.

إلى هنا نكتفي بما قدمناه فيما يتعلق بإنتاجها المنشور في الصحف وقد وجدناه إنتاجًا متنوعًا يشتمل على القصيدة، وعلى الخواطر وعلى الأبحاث. ووجدنا منها إصرارًا على الكتابة والمتابعة والنشر، جعلها تهتم - أيضًا - بجمع كثير مما نشرته في كتاب صغير تحت عنوان «سكينة الإيمان» صدر في سنة ١٩٥٤م، ونظرًا لكثرة الموضوعات التي تضمنها الكتاب على صغره فإننا نكتفي

بالإشارة إلى ثلاثة موضوعات أولهما: كتبته في اليوم السادس والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٥١م، وهو بعنوان «على شاطئ الفحيحيل» وهو موضوع سبق لها نشره في إحدى المجلات الكويتية. تتحدث فيه إلى البحر وإلى الطيور المحوِّمة على جوانبه، تتأمل جماله وتستنشق روائحه الشافية. وقد ألحقت هذا المقال بمقالين آخرين على النمط ذاته فيهما مناجاة للبحر، وسرور بالوقوف أمامه.

بدأت الشاعرة دعد الكيالي عملها في الكويت مدرسة للغة الإنجليزية في السنة الدراسية ١٩٥٠ - ١٩٥١م وكانت قد تلقت دراستها الجامعية في جامعة القاهرة، وتعرفت على زوجها هناك، وجاءا معًا إلى الكويت. وتنقلت بين عدد من المدارس كما أشرنا فيما سبق، ولكن رغبتها في كتابة الشعر والمقالات كانت قوية، ولذا فقد كان إنتاجها غزيرًا وكان حرصها على نشر ما تكتب كبيرًا، وبقيت على نشاطها هذا إلى أن توفيت ودفنت في الكويت، رحمها الله.

ممن أشار إلى دعد الكيالي الشاعرة الشهيرة نازك الملائكة، وكانت دعد تعمل في العراق قبل مجيئها إلى الكويت وقد كتبت الشاعرة نازك في اليوم الحادي والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٥٠م ضمن مذكراتها اليومية قائلة: «عصرًا حضرت دعد الكيالي، وقرأت عليّ بعض قصائدها، فتلوت عليها «يوتوبيا الضائعة» و«الخيط المشدود»، وكانت ملاحظتها عليها كما يلي: «هذه كلها صور أوروبية» وهي بهذا مثل الآخرين تسمِّي ما هو مبتكر أوروبيًّا».

ولفتت أعمال دعد الكيالي نظر الأديب الكاتب محمد عبدالمنعم خفاجي فكتب في المجلد الأخير (الثامن) من مجلة البعثة مقالاً بعنوان «دعد الكيالي في كتابها الأول، سكينة الإيمان» تحدث فيه عن نشاطها المتعدد الوجوه متسائلاً في البداية قائلاً: «مَنْ هذه الفتاة العربية التي تتحدث وفي حديثها فكرة وبين جوانحها سكينة، وعلى لسانها ألحان شجية، تغني أناشيد القوة والحياة والإباء؟».

وبعد عدد من التساؤلات على هذا النمط، يرد على نفسه بقوله: «إنها الأديبة الكاتبة الشاعرة «دعد الكيالي» العربية الفلسطينية المغتربة، زميلة فدوى طوقان في الجهاد الأدبي، وصاحبة هذه الموسيقى الحية..».

يستمر في الحديث عنها ويضعها بين قريناتها من الأديبات والشاعرات الأخر، منهيًا حديثه بإيراد السمات الخاصة التي تتميز بها كتابات دعد التي كانت فيها صادقة العاطفة متحملة للآلام مُعَبِّرة عنها، وعلى كل حال فقد كان مقال الأستاذ خفاجي صادق البيان ملمًا بكل زوايا كتابها مشيرًا إلى ما ضم من تعبير صادق عن عواطفها وعن أحاسيسها.

لقد آن الأوان لكي نتذكر هذه المرأة العربية الصادقة مع نفسها، المعلنة عن أشواقها لوطنها المحبة للمكان الذي عاشت فيه واستطاعت أن تنشر فيه تلك المقالات والقصائد الجميلة، رحم الله دعد الكيالي وأثابها.

****

الشيخ مبارك الصباح وعلاقاته الخارجية[1]

خاض الشيخ مبارك عددًا من المعارك داخل وخارج حدود الكويت بقصد الدفاع عن وطنه، وتثبيت أركانه، وقد كان نصيبه من هذه الحروب غير مختلف عن مصائر الذين يسلكون هذا الطريق فقد انتصر وانهزم، وخرج في مرات أخرى لا له ولا عليه، ولكنه في كل الحالات كان قويًّا، لم تفت في عضده هزيمة ولم يغتر بنصر، لقد بقي هذا الرجل إلى آخر حياته يسعى إلى توطيد أركان الحياة الآمنة لمواطنيه، ويرفع من شأن بلاده، وذلك فيما نراه من اهتمام بتكوين العلاقات الطيبة مع الكثيرين من الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم من حكام ورؤساء قبائل وسياسيين لهم دورهم في مجتمعاتهم.

والمتتبع لمراسلات الشيخ مبارك يجد فيضًا من الاتصالات المختلفة كلها تهدف إلى قضاء مصالح الكويت، وحماية أهلها، والدفاع عمن يقع عليه ظلم أو اعتداء منهم. وبعضها يهدف إلى إجراء الصلح بين المتخاصمين خارج الكويت وداخلها، أو إثارة المطالبات المستحقة، أو تثبيت الحدود، أو ما إلى ذلك من أمور تقتضيه متابعتها التراسل مع ذوي العلاقة، ونوضح فيما يلي القضايا التي تدل على النشاط السياسي لمبارك، وعلى مواقفه المصاحبة لهذا النشاط.

اهتم الشيخ مبارك كثيرًا بثبيت حدود وطنه وجعلها القضية المركزية التي كان يلح عليها، وكانت مطالباته للحكومة البريطانية كثيرة إذ طالما استنجزها وعودها

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ١/١٠/٢٠٠٨م.

التي قدمتها إليه في المساعدة على حل مجمل القضايا التي تواجه بلاده، وكانت مراسلاته الكثيرة دليلاً على ذلك الاهتمام الذي أشرنا إليه، وهي التي دفعت الإنجليز إلى مواصلة العمل على إنجاز ما يمكنهم إنجازه في هذا السبيل، دون أن يعترينا الشك في أن مصالحهم الذاتية هي التي قد تكون دفعتهم إلى ذلك. وكان قيام العثمانيين بإرسال بعض جنودهم إلى أطراف البلاد الشمالية ولا سيما بوبيان وأم قصر من أهم المشكلات التي واجهها مبارك، وكانت مصالح البريطانيين التي كانت - في ذلك الوقت - تتطلب الهدنة مع العثمانيين، من أهم أسباب عدم تقدم الشيخ إلى حلها بطرد العثمانيين من أراضيه، وهنا يقول شكسبير الذي لا يمكن أن نقول إنه كان يحابي مباركًا لأن له نصوصًا أخرى ليس فيها إلا الإساءة إلى هذا الرجل: «إن مباركًا كان على وشك طرد العثمانيين من أم قصر تمامًا فيما بين عام ١٩٠٢ وعام ١٩١٢م، لكنه منع نفسه من ذلك».

ثم أضاف: «لم يرغب في أن يفقد الدعم البريطاني بسبب إثارة مواجهة عسكرية مع الأتراك».

وفي مطلع سنة ١٩٠٢م كان لورد لانزدون يقول: لقد أرهقنا أنفسنا وحملناها ما لا تطيق مع شخصية مراوغة، وماكرة تتمثل في شخص هذا الشيخ الفظ، غير الجدير بالثقة، فلا أحد يعرف أين تبدأ أملاكه، وأين تنتهي، كما أن التزاماته تجاهنا غير محددة المعالم تمامًا مثل حدود إمارته».

فأما أنه أرهقهم فذلك يدرج في صالحه، فهو يسعى إلى مصلحة بلاده، وأما أنه غير جدير بالثقة، فيرد عليه استمرار العمل معه، طيلة حياته دون أن نسمع من غير هذا الشخص ما يدل على عدم الثقة به، وأما أين تبدأ حدود بلاده وأين تنتهي، فقد كتب الشيخ مبارك كتابًا إلى السلطات العثمانية، وسلّم نسخة منه إلى المعتمد البريطاني، يوضح حدوده التي يدافع عنها، وليس ذنب مبارك أن لانزدون

لم يطلع على هذا الكتاب الموجود في مكتب المعتمد البريطاني، والذي أدرج ضمن وثائق الممثلية البريطانية في الكويت.

ولكننا نجد – في الوقت نفسه – برقية رقمها ٨٤٣ بتاريخ السادس عشر من أغسطس لسنة ١٩١٢م صادرة من المقيم السياسي البريطاني في بوشهر إلى مكتب الهند في لندن وفيها إشارة واضحة إلى وضع أم قصر ورد فيها: «فيما يختص بأم قصر، وحتى الاحتلال التركي الحالي لها، فإن الآبار كانت مسكونة غالبًا من قبل عرب الكويت، وكل المنازعات التي كانت تنشأ هناك تسند معالجتها للكويت وليس إلى الزبير».

ومعنى هذا أن الوصف الذي قدمه لأم قصر ينطبق على صفوان، وبالتالي أن العرب الذين يسكنون في صفوان وما حولها، هم من أهل الكويت يخضعون لأميرها، وهو الذي يبت في القضايا والمنازعات التي قد تنشأ بينهم.

وقد أكد ذلك بقوله: «والخط الذي يربط صفوان مع الرتق يبين الحدود الشمالية للمراعي المستغلة من قبل عرب الكويت».

وهو توضيح آخر لحدود الكويت التي خرج اليوم جزء منها إلى العراق بموجب قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ الفقرة الثالثة، الصادر بتاريخ ١٩٩١/٤/٣م.

وقد سقنا هذه الأقوال لندلل على أن الإنجليز لم يسعوا إلى متابعة مسألة الحدود إلا بضغط من مبارك، وإلحاح منه على تنفيذ وعودهم، ولم يكن شكسبير ولا غيره يراعي مصلحة شخصية لأحد فكل هؤلاء رجال ملتزمون بواجبات وظائفهم، ومصالح وطنهم، ونتيجة لجهود الشيخ مبارك، فقد اتجهت جهود البريطانيين إلى قضية تعيين الحدود على الصورة التي ذكرناها سابقًا.

ثم يتردد هنا سؤال يقول من أحضر الإنجليز إلى الخليج؟ وهو سؤال يتضمن الكثير من الاتهام، ومع ذلك فالرد واضح وهو كما يلي:

عند زيارة مستر جاسكين للكويت في سبتمبر من سنة ١٨٩٧م كانت مطالب الشيخ مبارك التي قدمها للجانب البريطاني واضحة «فقد ذكر أنه هو وشعبه يريدون – لكي يمنعوا الأتراك من ضم الكويت بعد أن ثبت أنه لا يمكن الاعتماد عليهم – أن يضعوا أنفسهم تحت الحماية البريطانية تمامًا كشيخ البحرين وشيوخ عمان المتصالحة».

فهل هذا القول الذي أكده لوريمر يدل على أن الشيخ مباركًا هو الذي أدخل الإنجليز إلى منطقة الخليج، أم أن الإنجليز كما هو واضح كان لهم وجودهم قبل سنة ١٨٩٧م، وهل كان مبارك يرغب في الحماية البريطانية لو لم ترغمه ظروف الضغط العثماني على ذلك.

ومرة أخرى نتساءل أليس ما يقال عن أن مباركًا هو الذي أحضر الإنجليز إلى الخليج إنما هو مجرد هراء.

إن من أهم ما يمكن قوله لدحض أقوال البعض التي يرددونها دون دراسة أن نذكر أن من المعروف أن البريطانيين كانوا في الخليج من قبل وصول مبارك إلى الحكم بل زار بعضهم الكويت رسميًا، والتقى هؤلاء بالشيخ جابر بن عبدالله الصباح الذي تولى الحكم في سنة ١٨١٤م، ونظرة في الموسوعة التي تركها ج.ج لوريمر تعطي القارئ صورة كاملة عن التغلغل البريطاني في الخليج وأشكال هذا التغلغل مما يدعونا إلى عدم إلقاء تبعة ذلك على مبارك.

ثم إن لدينا ذلك الإقرار الرسمي الذي كتبه ووقعه الشيخ صباح بن جابر بن عبدالله الصباح نيابة عن والده في سنة ١٨٤١م، والذي دخلت الكويت بموجبه في منظومة بلدان الساحل المهادن، وكان ذلك برعاية الإنجليز الذين سعوا إلى توثيق

هذا الاتفاق لحماية سواحل المنطقة من القلاقل، وهذا الإقرار لا يدل فقط على الاتصال مع الإنجليز منذ ذلك الوقت، بل ويدل على عدم وجود أية تبعية من قبل الكويت للدولة العثمانية وإلا لما وقع الشيخ على ذلك الإقرار دون أي تردد.

لم يكن الجانب الفرنسي على دراية كاملة بالأوضاع في الكويت في عهد مبارك، ولذا كان الاتجاه عند هذا الجانب مؤيدًا لوجهة النظر العثمانية، وذلك لعدم الدراية كما قلنا من جهة، وللمنافسة القوية مع البريطانيين من جهة ثانية. ولكن ما حدث فيما بعد غيّر وجهة النظر الفرنسية إلى اتجاه آخر حين نقل عن جاسوس فرنسي جاء إلى الكويت في ذلك العهد، وعاش فيها مختلطًا مع أهلها بسبب إجادته اللغة العربية وادعائه بأنه مسلم مما سهل له الكثير من الأمور بما في ذلك الاتصال بالشيخ مبارك الذي يقول عنه هذا الفرنسي «إن مباركًا كحاكم دولة مستقل يحاول بإخلاص الحفاظ على صلته بالسلطان العثماني كأمير للمؤمنين، ولكن كان عليه أن يلتفت حوله للحصول على الدعم الخارجي حينما حاول العثمانيون تغيير وضع الكويت».

لقد حرص مبارك على لقاء هذا الشخص لأنه يعرف علاقته بالسلطات الفرنسية، ويريده أن ينقل عنه ما يفيد عن موقفه تجاه الحكومتين البريطانية والعثمانية، حتى يحصل على موقف فرنسي محايد على الأقل.

وكان الألمان يدركون أن الموقف الذي أبداه الشيخ مبارك من تركيا كان سليمًا، وذكر القنصل الألماني في بغداد رسالته بتاريخ ٢٣ يوليه لسنة ١٨٩٦م إلى المستشار الألماني في برلين شيئًا عن الشعور السائد لدى الحكام العرب تجاه التسلط العثماني، وخص الشيخ مبارك بالذكر بصفته حاكمًا من أولئك الحكام، فقال: «إن الشيخ مبارك الصباح مثل كل الحكام العرب، قد نفد صبرهم من الحكومة التركية،

لأن هؤلاء الحكام العرب يرون أن الترك قد أساءوا إلى مصالحهم، واعتدوا عليهم كثيرًا، فلم يحققوا أيًّا من مظاهر التقدم في ظلهم، ولم يعمل الأتراك من جانبهم على تحسين أحوالهم».

وقد أثارت رغبة ألمانيا في مدّ سكة حديد الأناضول إلى كاظمة على جون الكويت المنبثق من الخليج العربي الكثير من المشكلات، وأخذت دورًا كبيرًا في المفاوضات المتشابكة التي لم تصل إلى نهاية، ففي البداية حاولت ألمانيا أن تحصل على موافقة الشيخ مبارك على استعمال أرض كاظمة وما حولها لهذا الغرض وقدمت له العديد من الإغراءات دون أن تحصل منه على نتيجة، إذ رفض رفضًا باتًا كل ما تقدمت به البعثة التي رأسها ستمريخ القنصل الألماني العام في القسطنطينية، والتي ضمت عددًا من المختصين، وكانت هذه البعثة قد زارت الشيخ مباركًا أثناء وجودها في الكويت ما بين التاسع عشر والعشرين من شهر يناير لسنة ١٩٠٠م عدة زيارات وبحثت معه هذا الأمر، وبإيجاز شديد نقول إن رجال البعثة أكدوا طبيعة نواياهم فيما يتعلق بمد الخط الحديدي إلى الكويت. والتسهيلات التي سيوفرها هذا الخط للتجارة، وتطوير المنطقة والمنافع العامة التي ستعود على الجميع نتيجة لتنفيذه، وأنه في صباح اليوم الثاني لحضورهم أجروا معه حديثًا وديًّا على انفراد، أخبروه فيه أن لديهم امتيازًا حصلوا عليه من سلطان تركيا لإقامة خط حديدي في أملاكه، وأن السلطان معني بالأمر إلى أقصى حد، وأنه قدم الضمانات له. وقالت البعثة إنه رغبة منها في نجاح المشروع فهم يرغبون في مد الخط إلى خليج كاظمة، وشراء كاظمة شراءً كاملاً، والحصول على تنازل عن منطقتي شويشب (كويكب) وأم غطي، وإن زيارتهم الحالية لا تستهدف إلا إبلاغه تحيات السفير الألماني، ومحاولة التوصل إلى تفاهم فيما يتعلق بالأرض المذكورة، وإنهم يودون الحصول على تعاونه ومساندته، وإنهم يرغبون - أيضًا - في أن يستخدم تأثيره الودي على العديد من المشايخ العرب الذين سيمر الخط الحديدي عبر أراضيهم في وادي الفرات ودفعهم إلى التعاون مع الشركة لما يعتقدونه من نفوذه وتأثيره عليهم، وأنهم سيدفعون بسخاء مقابل أي أرض يتم شراؤها أو التنازل

عنها. كما سيقومون بتقديم التعويض المناسب للقبائل الصغيرة والشيوخ الذين يستخدمون هذه الأراضي كمرعى، وأن التجارة في هذه الأماكن ستتسع وتتزايد إلى درجة كبيرة، وأن دخله سيتحسن بالتالي إلى درجة كبيرة أيضًا، كما سترتفع قيمة الملكية عشرين مرة وأن المكان سيتحول إلى مركز للتجارة، أو إلى بومباي أخرى في الواقع، وأن العمل سيتوفر للجميع، وأنه سيتم إنشاء خط من السفن التجارية الكبيرة لتغذية الخط الحديدي ولنقل البضائع والمسافرين، وأنه إذا توصل إلى اتفاق مع شركة السكك الحديدية ووافق على اقتراحاتها فسوف يحصل هو وخلفاؤه على مساندة الشركة، برًا وبحرًا، وسوف تتمركز بارجة هناك لحمايته.

وقد رد الشيخ مبارك على ذلك بأنه لا يريد، لا هو ولا سائر العرب أن يقيم أجانب في أراضيهم، وأنه لن يوافق على هذه المقترحات لأن العرب لن يوافقوا على استيلاء الأجانب على مراعيهم وأراضيهم من أجل الخط الحديدي.

ومن الجدير بالذكر أن رد مبارك على الألمان في الوثائق البريطانية يتطابق مع ما ورد في الوثائق الروسية، ويقول بونداريفسكي في نهاية حديثه عن هذا الموضوع: «رفض مبارك نهائيًا فكرة سكة الحديد الألمانية».

وقد أثار هذا الموقف ثائرة السلطات الألمانية على مبارك وعلى الكويت بشكل عام، حتى قال سفيرها في القسطنطينية: «إن الكويت كانت من وجهة نظر ألمانيا جزءًا من الإمبراطورية العثمانية».

وبالطبع فإن هذا القول لم يصدر عن السفير إلا بعد ذلك الموقف الذي وقفه الشيخ مبارك ضد المشروع الألماني، وإلا فكيف ترسل ألمانيا وفدًا رسميًا لمباحثة الشيخ تاركة من تعتقد أنه تابع لهم، إن المصالح تبدل المواقف.

يلاحظ القارئ عدم تطرقنا في هذا المقال لعلاقات الشيخ مبارك مع روسيا، وهذه لها حديث خاص سوف يأتي فيما بعد إن شاء الله.

****

الأديب الدكتور شوقي ضيف في الكويت[1]

هذا الرجل معدود من أعلام الأدب، له باع طويل فيه، كنت أقرأ له منذ الصغر حين كانت دار المعارف بمصر تصدر سلسلة من الكتب تحت عنوان «نوابغ الفكر العربي» وكان الدكتور شوقي ضيف مؤلفًا لعدد من كتبها، وأذكر منها كتاب «ابن زيدون» الذي طبعت طبعته الثانية عشرة في سنة ١٩٩٩م، وهذا دليل على الرغبة الشديدة لدى القراء في متابعة ما يكتبه هذا الأستاذ الذي أثرى المكتبة العربية بعدد كبير من الكتب. وتزامن صدور هذه السلسلة، مع أخرى مشابهة ولكنها تتناول «فنون الأدب العربي» وصدر منها للمؤلف عدة كتب منها «المقامة» و«النقد» و«الرحلات». ولأسلوب الكاتب، وحسن تناوله لهذه الموضوعات فقد كانت قراءة هذه الكتب سهلة، والإفادة منها سريعة، وبخاصة في ذلك السن المبكر الذي بدأتُ فيه بقراءتها، وبخاصة وأنها بدأت تصدر منذ سنة ١٩٥٤م. وكان مجمل ما صدر في السلسلتين اللتين أشرنا إليهما لا يقل عن ستين كتابًا في موضوعات متعددة سهلة التناول ميسرة لطالب العلم. وكان القسم الأكبر منها من تأليف الدكتور شوقي ضيف.

ولقد كانت البداية جيدة بالنسبة لي، فقراءة هذه الكتب المنوعة الجيدة العرض، الرائعة الأسلوب، قد أعطتني إضافة إلى ما نلت منها من فوائد اندفاعة إلى غيرها من الكتب متدرجًا في ذلك حتى تنوعت قراءاتي وزادت عمقًا. وبمتابعتي لهذا الرجل عن طريق ما تنشره له دار المعارف بمصر، وجدت أن أعماله متنوعة صنفتها الدار الناشرة كما يلي:

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/٨م.

- الدراسات القرآنية
- تاريخ الأدب العربي
- مكتبة الدراسات الأدبية
- الدراسات النقدية
- الدراسات البلاغية واللغوية
- نوابغ الفكر العربي
- فنون الأدب العربي
- التراث المحقق
- سلسلة اقرأ

فهذه مجموعة من المتنوعات في شتى فنون الأدب العربي، خاض صاحبنا غمارها وألف فيها، مع عناية وتَقَصٍّ، وأسلوب شيق، وجمال عَرْض. ومما يلفت النظر في مؤلفاته كتاب من جزأين نشرتهما له سلسلة اقرأ، وهي سلسلة كتب عريقة تنتجها دار المعارف. وقد تناول في هذا الكتاب سيرته الذاتية. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي استطعنا من خلالها أن ننفذ إلى حياة الدكتور شوقي ضيف ونعرف شيئًا عن نشأته ودراسته وأعماله ورحلاته وعلاقاته بالناس وأهم من ذلك كله بالنسبة لنا هنا: قُدُومُه إلى الكويت، وكيف تم؟ وماذا رأى؟ وماذا عمل؟ ولن يجد من يتتبع أطوار حياة هذا الرجل أفضل من هذا الكتاب للإلمام بذلك.

ولد الدكتور شوقي ضيف في القاهرة، وتخرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وذلك في سنة ١٩٣٥م. وكان تخرجه في قسم اللغة العربية. وقد واصل دراسته حتى حصل على شهادة الماجستير ثم على الدكتوراه في سنة ١٩٤٢م. واشتغل بالتدريس في الكلية التي تخرج فيها مستمرًا حتى سنة ١٩٧٠م حيث

تقاعد. ثم صار أستاذًا بقسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الكويت لمدة أربع سنين، كان قبلها مدرسًا في كلية الآداب بالجامعة الأردنية.

انتخب عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم صار رئيسًا للمجمع حتى سنة ١٩٩٦م.

نال في سنة ١٩٨٣م جائزة الملك فيصل العالمية، كما نال الجائزة التشجيعية ثم الجائزة التقديرية في الأدب من مصر فجائزة الرئيس حسني مبارك في سنة ٢٠٠٣م، وكان ذلك تتويجًا لأعماله الكثيرة التي كانت موردًا صافيًا ينهل منه طلاب العلم. أما آثاره المباشرة، فإننا نجد له عددًا من الطلاب تخرجوا على يديه، أشرف على رسائلهم الجامعية ورعاهم فصاروا اليوم علماء تفخر بهم الجامعات التي يعملون بها بفضل توجيهاته واهتمامه.

هذا فضلاً عن مشاركته في عضوية المجالس المتخصصة في مصر، وكان عددها لا يقل عن عشرة مجالس، يصعب هنا ذكرها جميعًا، وذكر أعماله التي قام بها من خلالها.

كتب عنه أحد الكتاب ما يلي: «أديب، كاتب، باحث ومحقق، كتب في أكثر فنون الأدب العربي قديمًا وحديثًا، كما أرّخ لعصوره. وله باع طويل في النقد الأدبي، وبصر في علوم العربية: نحوًا وبلاغةً. جازوت مؤلفاته المطبوعة الخمسين كتابًا، فضلاً عن جمهرة كبيرة من البحوث والدراسات، بثها في مجلات المجامع العلمية العربية، وفي مجلات الجامعات العربية وغيرها».

وعندما كتب الدكتور إحسان عباس - رحمه الله - سيرته الذاتية أورد ما حدث له مع الدكتور شوقي ضيف فقال: «ولما عدت إلى القاهرة رحلت إلى حي منيل الروضة، واستأجرت شقة تكلف أجرتها ٧,٥ جنيهات شهريًا، وكان الدكتور شوقي ضيف يسكن قريبًا مني، فنشأت بيني وبينه صداقة وأخوّة متينة الأواصر».

وكان الدكتور شوقي هو المشرف على دراسة الدكتور إحسان لنيل شهادة الماجستير وكان موضوعها «الأدب العربي في صقلية الإسلامية»، وقد حدثت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى وهو على هذا الحال، فانقطعت عنه الموارد المادية وصار هو وأسرته التي تصحبه في ورطة شديدة، يقول: «جاءني الرجل النبيل الدكتور شوقي ضيف وسألني: ماذا قررت أن تصنع: قلت له: كان القرار في يد الجيوش العربية التي دخلت فلسطين فسلّمتها وعادت سالمة إلى قواعدها. وقال: أين استقر أهلك؟ قلت: لا أدري، قال: لديّ حل مؤقت، أن تقبل التدريس في مدرسة العائلة المقدسة، فأنا أعرفهم ودرست عندهم وقد اقترحت اسمك لهم. قلت: فضلك عليّ كبير، وأنا أعجز حقًّا عن أداء حقك من الشكر وذهبت وإياه إلى المدرسة المذكورة وقدمني للأب المسؤول رئيس قسم اللغة العربية، واتفقت معه على أن أدرس. جزءًا يسيرًا من الوقت لقاء ٢٢ جنيهًا، وأن يتعلم ابني في مدرستهم دون أن يدفع أقساط التعليم».

وما ذكره الدكتور إحسان عباس يبين لنا مدى حدب الدكتور شوقي على طلابه، وحرصه على راحتهم حتى يتمكنوا من الاستمرار في طلب العلم. وما ذكره الدكتور إحسان ما هو إلا مثال لأعمال كثيرة كان يقوم بها شوقي ضيف لأبنائه الطلاب.

وقد كُتبت عن الدكتور شوقي ضيف مؤلفات منها كتاب اشترك في تأليفه لفيف من أساتذة الجامعات العربية، وأعده وقدم له: طه عمران وادي، وهو كتاب ضخم يقع في ٥٤٩ صفحة، وتم نشره في سنة ٢٠٠٣م.

وقد جاء في الكتاب ما خلاصته: «الدكتور شوقي ضيف عالم موسوعي جليل، وأستاذ جامعي رصين، يندر أن تجد له مثيلاً في جيله: عطاء وثراء وحسن خلق، ولا تعود أهميته إلى كثرة ما ألّف فحسب، بل لأنه - أيضًا - أستاذ لأجيال مختلفة من أساتذة الأدب واللغة على امتداد الوطن العربي كله».

كان المشرف على رسالته لنيل شهادة الدكتوراه هو عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، الذي أشاد بالرسالة فقال: «وإذا كنت حريصًا على أن أقول شيئًا في التقدمة، فإنما هو تسجيل الشكر الخاص للجامعة التي أنتجت الدكتور شوقي، والدكتور شوقي الذي أنتج هذه الرسالة».

وكانت هذه الرسالة بشيرًا بما سوف ينتجه الدكتور شوقي فيما بعد، حيث نرى أن من أهم ما كتب هو ما يُعدُّ مشروع حياته، إذ أمضى فيه ما يقرب من ثلاثين سنة. ذلك هو: «موسوعة تاريخ الأدب العربي التي شملت موضوعات متعددة في هذا المجال الرحب، وسدت فراغًا كبيرًا كان يشعر به الدارسون وبخاصة أنها جاءت من رجل له باع طويل في هذا الموضوع، ولم يقم بكتابتها في تعجل بل أمضى زمنًا وهو يبحث ويكتب حتى جاءت الموسوعة على أفضل وجه. ففي تاريخ الأدب العربي تناول كافة العصور منذ العصر الجاهلي حتى عصر الدول المتفرقة. وفي الدراسات الأدبية كتب عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي وأردفه بكتاب من المنهج نفسه تناول فيه النثر، وكتب عن التطور والتجديد في الشعر الأموي، ودراسات في الشعر العربي المعاصر، وكتاب شوقي شاعر العصر الحديث، وغير ذلك من الموضوعات التي يرتبط بعضها بالبعض الآخر لكي تكون الموسوعة المشار إليها كاملة بين أيدي القراء».

وقد تُرجم كتابه «الأدب العربي المعاصر» إلى اللغة الصينية، كما ترجم كتابه «عالمية الإسلام» إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية»، أما كتابه عن النقد، فقد ترجم إلى الفارسية.

ومن الدراسات التي صدرت عنه غير الكتاب التذكاري الذي أشرنا إليه، ما يلي:

- **شوقي ضيف: رائد الدراسة الأدبية والنقد العربي للدكتور عبدالعزيز الدسوقي.**

• قراءة أولية في كتابات الدكتور شوقي ضيف لأحمد يوسف علي.

• الآراء النقدية في النحو والبلاغة للدكتور شوقي ضيف نالت بها طالبة إيرانية درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بطهران.

ولايزال إنتاج هذا العالم الجليل محط الأنظار، ولا تستبعد أن يستمر صدور دراسات أخرى عنه وعن علمه، فهو وما ترك وراءه من آثار خزانة من خزائن العلم والأدب وسوف يجد الباحثون مجالات كبيرة للكتابة عنها.

وبعد وفاته كان الدكتور شوقي ضيف على ألسنة العلماء والأدباء الذين عرفوه عن قرب وقرأوا له، ورأوه كيف يعمل، وكيف يتابع ما يقوم به من أعمال. ومن هؤلاء الأخ الدكتور شاكر الفحام رئيس المجمع اللغوي السوري الذي قال: إنني وأنا أتصَفّح آثار الأستاذ الدكتور شوقي ضيف وما تميزت به من أصالة وإبداع أحس بالمكانة السامية التي احتلها في حياتنا الأدبية في مصر وفي الوطن العربي، وكان إلي جانب ذلك غزير الإنتاج لا يتوقف عن العطاء، لقد قدم للدراسات الأدبية واللغوية إضافات ونظرات جديدة، فتنقل بها إلى آفاق أرحب، فمن ذلك اهتمامه بقضية تيسير النحو التعليمي، وقضية تعليم العربية وتقريبها إلى الناشئة».

أما أستاذي العالم اللغوي الدكتور كمال بشر فقال: «لقد كتب شوقي ضيف أعماله بفكر وبأسلوب يجمع بين القديم والجديد، وما إلى ذلك، لقد كان فقيدنا الراحل معلمًا ومرشدًا ورائدًا في دنيا العلم والثقافة».

ومن الجزائر جاء صوت الدكتور عبدالرحمن الحاج صالح رئيس المجمع اللغوي الجزائري قائلاً: «لا أعرف للدكتور ضيف تأليفاً إلا وقد تسابق الناس على اقتنائه والاطلاع عليه، وكنت كمتخصص في علوم اللسان معجباً بما كتبه عن تاريخ المدارس النحوية والعربية، فهو لا يطمئن إلى كل ما راج في حياتنا من الأحكام المجحفة».

كان يشار إلى هذا الرجل الكريم - دائمًا - على أنه موسوعة علمية أدبية وإبداعية. ولذلك فإن اختيار جامعة الكويت له ليكون أستاذًا من أساتذتها أمر ترجع فوائده إلى الجامعة وطلابها الذين لا يزالون - وقد تخرجوا فيها - يذكرون هذا الأستاذ الذي حرص على تكوينهم علميًّا على أفضل وجه.

يقول أحد مواقع شبكة الإنترنت: «وفد الدكتور شوقي ضيف أخًا وصديقًا حميمًا على دولة الكويت في سنة ١٩٧٠م، واستقبل بحفاوة بالغة كتعبير من المسؤولين الكويتيين عن المكانة السامية التي يحتلها في قلوب تلاميذه ومحبيه».

أمضى في الكويت أربع سنوات جامعية، قام خلالها بالتدريس وإلقاء المحاضرات، وشارك في عدد من الندوات والمؤتمرات المحلية، وخرّجَ عددًا من طلاب وطالبات الدراسات العليا وفق تخصصه، وعندما غادر نهائيًّا كان كل من عرفه يأسف لفراقه ويتمنّى بقاءه سنوات أخرى. ولكن الأمر لم يكن سهلاً، فهناك في مصر عدد كبير من الأعمال في انتظاره، ولذا فإنه لم يلبث بعد عودته إلا سنوات معدودة حتى صار أمينًا عامًا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وإذا أردنا أن نعرف شيئًا عن عمله وانطباعاته عن الكويت التي عاش فيها تلك السنوات الأربع، فإننا لا نجد أفضل منه معبرًا عن ذلك، قلنا فيما سبق أنه ألّف كتابًا يحتوي على سيرته الذاتية، كان هذا الكتاب تحت اسم «معي» وقد يكون هذا الاسم غريبًا، ولكنه اختاره عن قصد، فله كتاب اسمه «مع العقاد» فرأى أن يكون كتابه هذا معه شخصيًّا فسمّاه بهذا الاسم. والكتاب مكون من جزأين من القطع الصغير، أصدرته دار المعارف ضمن سلسلة «اقرأ»، وقد كانت بين الجزأين مدة طويلة إذ صدر الأول منهما في سنة ١٩٨١م، وصدر الثاني في سنة ١٩٨٨م. يقول الدكتور شوقي في الجزء الثاني من كتابه: «وفي صيف سنة ١٩٧٠م ألحّ على صاحبي جامعة الكويت.. واستجاب إليها إذ لم ير بأسًا في الالتقاء بالشباب في تلك الجامعة ممَّنْ يُعِدُّون معقد الرجاء في الكويت والخليج العربي».

ثم يقول: «وحمل حقائبه إليها في منتصف شهر سبتمبر، وما إن اقتربت الطائرة من مطار الكويت، وكان الوقت مساءً . حتى رآى من نافذة الطائرة اللهب الصاعد من آبار البترول».

تحدث بعد ذلك عن الجو الحار المشبع بالرطوبة الذي يكون خانقًا في مثل هذا الوقت من السنة. ولاحظ التطور الحضاري في البلاد من حيث المظهر العام للبلاد من مبان كبرى وفنادق فخمة وأسواق واسعة. كما تحدث عن موضوع المياه فقال إن الحال في القديم كان صعبًا، ولكن هذه المادة الحيوية أصبحت الآن ميسرة بفضل آلات تقطير المياه الضخمة، التي بسببها تم الحصول على كميات مياه أمكن إيصالها إلى المساكن بوساطة الأنابيب.

ولاحظ - أيضًا - أن الحياة القديمة والحديثة تسيران مترافقتين، وبخاصة في الملابس وبعض العادات. ثم عرّج على ذكر الغوص والسفر في الماضي وفق ما سمعه أثناء وجوده في البلاد.

ثم تحدث بعد ذلك عن بدء النشاط الثقافي الإضافي فقال: إن موسم المحاضرات في جامعة الكويت قد حلّ سريعًا وكان عليه أن يلقي محاضرة عامة يحضرها الطلاب والجمهور فألقى محاضرة عنوانها «الصوفية والجهاد».

ولم يرد أن يطيل الحديث في موضوع أيامه الكويتية ربما لأنه لم يرد أن يتكلم عن نفسه أكثر من ذلك ولكننا نعرف أنه قام بجهود طيبة، وعمل لا ينسى، ولقد ضمني معه أكثر من مجلس خاص في سكنه الجامعي، فكان يتحدث عن كثير من الأمور التي كان عليه أن يؤديها أو كان قد أداها وكلها أعمال في مصلحة أبنائه الطلاب وفي مصلحة جامعة الكويت.

ولم يكن حضور الدكتور شوقي ضيف إلى الكويت قد بدأ في السنة التي صار فيها أستاذًا بجامعة الكويت فقد جاء إلى الكويت في أواخر خمسينيات القرن الماضي ضمن وفد بلاده إلى مؤتمر الأدباء العرب الرابع الذي عقد في الكويت في الفترة من ٢٠ إلى ٢٨ من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م.

لقد ولد الدكتور أحمد شوقي عبدالسلام ضيف في اليوم الثالث عشر من شهر يناير لسنة ١٩١٠م، وتوفي في اليوم الحادي عشر من شهر مارس لسنة ٢٠٠٥م، عن عمر يناهز التسعين سنة. تاركًا فراغًا كبيرًا، وإرثًا علميًّا سوف نبقى وتبقى الأجيال القادمة في حاجة إليه. رحمه الله

****

الشيخ مبارك الصباح وعلاقاته مع روسيا(١)

تسابقت الدول الكبرى في فترة حكم الشيخ مبارك الصباح على منطقة الخليج، وعلى الكويت بوجه خاص، وقد كان التنافس فيها بين هذه الدول هو السبب في ذلك، فكل دولة تريد أن يكون لها موطئ قدم في هذه المنطقة الحساسة، وكان الشيخ مبارك من الحصافة بحيث يستفيد من هذا التنافس لمصلحته ومصلحة وطنه، وإذا كنا قد قرأنا في مقالين سابقين من «الأزمنة والأمكنة» عن علاقاته مع عدد من الدول، فإن من الملائم هنا أن نتحدث عن الموقف الروسي من الكويت.

من المعلوم أن روسيا كانت - في ذلك الوقت - تحت حكم القياصرة، ولم تكن الثورة الشيوعية قد استولت على عرش هؤلاء حتى سنة ١٩١٧م، ومع ذلك فقد كانت روسيا - آنذاك - دولة كبرى، كانت لها جيوشها، وعلاقاتها الدبلوماسية النشطة مع كافة دول العالم، كما أن لها أعمالها التجارية والصناعية الكثيفة التي تسعى دائمًا إلى الترويج لها.

لذا فلا عجب أن تقوم بالاندفاع نحو الخليج وهي تجد فيه نشاطًا بحريًّا وتجاريًّا كبيرًا، وتجد اهتمام الكويت بتجارة النقل البحري والبري، والترانزيت بحيث صارت هذه الأعمال هي صلة الوصل مع عدد من الدول، ومن هذا المنطلق بدأ الاتصال الروسي معنا، وكان هذا يلبي رغبة الشيخ مبارك لسببين أولهما: ما يمكن أن يستفيده السوق الكويتي من المتاجرة مع بلد كبير، والثاني: التلويح بهذه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٠/١٥م.

العلاقة المستجدة، حتى يستطيع أن يحصل من الإنجليز على دعم مواقفه. وبالفعل فقد أدت هذه السياسة إلى المسارعة في عقد اتفاق سنة ١٨٩٩م مع بريطانيا مما حقق أهداف الرجل الذي كان يبحث لوطنه عن الاستقرار والهدوء بعد كثير من المشاق التي لم يغفلها تاريخ الكويت.

كان إعجاب الدبلوماسي الروسي كروغلوف بالشيخ مبارك كبيرًا وكان حريصًا على تنمية العلاقة معه ومع الكويت تبعًا لذلك، وقد كتب في تقرير له: «نحن أمام أمر واقع، وحقيقة تاريخية جدية، تطرح نفسها أمام سياستنا، وطلبًا يستوجب تقييمه الفوري والرد عليه، يطالبنا بذلك الشيخ مبارك، الأمير الحر الثري، المالك العربي لجون القرين، المفتاح إلى صحراء الجزيرة العربية، وإلى وادي دجلة والفرات، الأمير الذي دافع حتى الآن بكل هذا النجاح عن بلاده، وحريته من تطاول أعدائه، سواء أكانوا الإنجليز أم الأتراك الذين قدروا منذ زمن طويل أهمية الكويت».

وكان انتشار مثل هذه الآراء في مواقع السياسة الخارجية الروسية سببًا لاتخاذ خطوات على جانب من الأهمية تضمنت افتتاح قنصليات في المنطقة، وترقية عدد من الدبلوماسيين إلى مناصب أرفع، وهم هؤلاء الذين لفتوا أنظار قيادتهم إلى أهمية المنطقة، والكويت بالذات، وكان افتتاح الخط الملاحي التجاري من الأمور التي تمخضت عنها تلك التحركات، وقد أثار نبأ قيام السلطات الروسية بتسيير خط لنقل البضائع والركاب من روسيا وإليها اهتمام منطقة الخليج بعامة، وأعرب كبار التجار الذين تحدث إليهم أوسنيكو سكرتير السفارة الروسية في بغداد عن سعادتهم بهذا الحدث، وقالوا له: «نود الآن أن نرى بتعطش شديد بضائعكم ومنتجات بلدكم، ونتائج أعمالكم السليمة»، وأعربوا عن أن هذه البداية سوف تكون أساسًا لعلاقات متينة يبنيها التبادل التجاري على مر السنين، وسوف نتحدث مرة أخرى في هذا المقال عن كيفية البدء بهذا الخط الملاحي.

كانت السلطات الروسية ترقب الأوضاع في الكويت منذ سنة ١٨٩٦م حين تولى الشيخ مبارك الصباح الحكم، وتراقب التحركات البريطانية التي زادت كثافتها وانتهت بتوقيع الاتفاقية الشهيرة، وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية كانت سرية إلا أن السفير الروسي لدى الدولة العثمانية السيد زينوفييف قد علم بها، كما علم بمدى التأثير الذي سوف تجره على الجزء الشمالي الغربي من الخليج، ولذا فقد كلف أحد رجاله بمراقبة التصرفات البريطانية، وقد نهض هذا الرجل بالمهمة ولكنه فوجئ بستار من الكتمان يحيط بما يرغب في العلم به، فوجد أن أفضل طريقة هي أن يلجأ إلى أحد التجار الروس للقيام بالمهمة ذاتها لأن الشك سوف يكون بعيدًا عنه وسوف يحصل عن طريقه على ما يريد من معلومات دون أية عقبات، جاء التاجر الروسي أفانيسوف إلى الكويت بحجة شراء فرو الحملان، وقد جاء محملا بوصية له من المرسل فحواها: الاكتفاء بالمراقبة، وعدم التدخل بأي حال من الأحوال في الأمور السياسية.

اصطحب أفانيسوف تاجرًا آخر هو علييف، وقدما إلى الكويت في شهر مارس لسنة ١٨٩٩م، (لاحظ أن الاتفاق مع بريطانيا كان في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير لسنة ١٨٩٩م).

لقي الرجلان استقبالاً طيبًا في الكويت، واستقبلهما الشيخ مبارك، وقد ورد بهذا الخصوص حديث سجله أرشيف وزارة الخارجية والسفارة الروسية في الآستانة وفيه «وقد أبدى مبارك خلال حديثه مع التاجرين الروسيين اهتمامًا بالغًا بأخبار الوضع الدولي والموقف في الشرقين الأدنى والأوسط، وخطط بناء خط بغداد الحديد، وأسفرت الزيارة عن إقامة علاقة بين الكويت والقنصلية الروسية في بغداد، علمًا بأن (مبارك) كان حريصًا جدًا على عدم إفشاء سر الاتفاقية مع بريطانيا، واعتبرت السفارة أن زيارة أفانيسوف للكويت كانت مفيدة جدًا، ولذا فقد قررت مكافأته بميدالية فضية».

بعد هذا نجد اهتمام روسيا بأمر العلاقات مع الكويت يزداد، مما دفع سفير روسيا في طهران إلى تقديم اقتراح يدعو إلى أن تضيف السفينة الحربية «غيلياك» الكويت إلى برنامج زيارتها التي تزمع القيام بها إلى الخليج.

وقد نتج عن ذلك اتفاق وزارتي البحرية والخارجية الروسيتين في شهر أكتوبر لسنة ١٨٩٩م على اتخاذ قرار بزيارة السفينة المذكورة للكويت في مطلع سنة ١٩٠٠م، وذلك ضمن جولتها التي توقفت فيها في عدة موانئ في المنطقة المحيطة بالخليج. كان الروس حريصين على كتمان هذا الأمر وبخاصة عن الإنجليز، ولكن الأمر وصل إلى هؤلاء عندما وصلت السفينة إلى ميناء عدن في شهر نوفمبر لسنة ١٨٩٩م، ومن هناك تسرب الخبر إلى الصحافة، التي جعلت لإثارتها للأمر أهمية كبيرة دفعت السلطات البريطانية إلى إرسال سفينة حربية هي الطراد «ملبومينا» إلى الخليج.

ونتيجة لما حدث بين الطرفين فقد ساد الارتباك عملية وصول «غيلياك» إلى الكويت ولكنها وصلت أخيرًا بفضل الجهود التي بذلها الدبلوماسيون الروس في المنطقة، وكان ذلك في اليوم السادس عشر من شهر مارس لسنة ١٩٠٠م، وفي هذا الشأن جاء في الوثائق الروسية ما يلي:

١ - كانت التعليمات الصادرة صريحة وصارمة بإتمام زيارة الكويت في حالة واحدة فقط، وهي أن تحظى السفينة باستقبال جيد. وقد وجدت من عناية الشيخ مبارك الشيء الكثير على خلاف ما حدث مع بعثة ستيمريخ الألمانية التي جاءته للمفاوضة بشأن كاظمة وذلك لأنه يعرف أن السفينة الروسية لم تأت لطمع في البلاد أو في جزء منها كما حدث من البعثة الألمانية التي لقيت أسوأ صدى منه.

٢ - عندما وصلت السفينة الروسية إلى جون الكويت وجدت السفينة الإنجليزية (سفنكس) وقد سبقت في الوصول بعد وصول خبر (غيلياك)، ولكن ذلك لم يمنع الشيخ مبارك من الاهتمام بالبحارة الروس ومنحهم الهدايا وإتاحة الفرصة لهم كي يتجولوا في العاصمة.

٣ - بعد مغادرة (غيلياك) بقي اثنان من الدبلوماسيين الروس في ضيافة الشيخ مبارك، وتحدثا معه طويلاً، كما أبدى لهما وجهة نظره في كثير من الأمور، وبخاصة تلك المشكلات التي يعانيها من الإنجليز حيث فقد الثقة بهم وأبدى أسبابه الواضحة لذلك.

٤ - في اليوم التاسع عشر من شهر مارس لسنة ١٩٠٠م غادر الدبلوماسيان الروسيان الكويت وسط حفاوة كبيرة ومراسم وداع مهيبة. وكانت مغادرتهما إلى البصرة على الطريق الصحراوي، وقد قام أحدهما وهو (كروغلوف) بتبادل رسائل ودية مع الشيخ، واعتبرت هذه الزيارة مدخلاً لعلاقات طيبة بين البلدين.

٥ - في إثر هذه الصلات التي تم بدؤها حديثًا مع الكويت بدأ الاهتمام في روسيا بالمنطقة كلها فأرسلت وزارة المالية الروسية مندوبين كبيرين لبحث إمكان فتح خط ملاحي مع المنطقة ولا سيما الكويت، وعلى الرغم من الإشكالات التي حدثت عند قدوم هذين الرجلين إلا أن الاجتماع الذي عقد هناك في شهر ديسمبر لسنة ١٩٠٠م اتخذ قرارًا بتسيير أربع رحلات تجارية سنويًّا لبواخر الجمعية الروسية للملاحة والتجارة من أوديسا إلى الخليج العربي اعتبارًا من سنة ١٩٠١م. ووضعت وزارة المالية الروسية كل إمكاناتها في سبيل إنجاح هذا الخط الجديد.

٦ - استمرارًا من الحكومة الروسية في مسيرتها إلى تعميق الصلات مع منطقة الخليج قامت في النصف الثاني من سنة ١٩٠١م بإرسال طرادها (فارياغ) إلى الموانئ الخليجية، وكان هذا الطراد من أحدث السفن الروسية تبلغ حمولته ستة آلاف وخمسمائة طن، وهو مسلح بأربعة وثلاثين مدفعًا، وستة من الأجهزة الطوربيدية، وبه طاقم مكون من خمسمائة وسبعين شخصًا. وقد حولت الحكومة خطة سير هذا الطراد الذي كان في طريقه إلى الشرق الأقصى فقامت بتوجيه سيره إلى منطقتنا فزار الكويت، وشاهده الناس وزاروه وشاهدوا ما فيه من مدهشات وأعجبوا بفرقته الموسيقية وإضاءته الشديدة، وأعجبوا أكثر بسماحة البحارة الروس وحسن استقبالهم للزوار.

بدأ بعد ذلك فصل جديد من فصول العلاقات الكويتية الروسية في زمن حكم الشيخ مبارك الصباح. وكانت الظروف التي حدثت إثر معركة الصريف في سنة ١٩٠١م سببًا في تحرك الدبلوماسية الروسية من جديد. ففي هذه الأثناء أرسل سكرتير السفارة الروسية في بغداد التاجر الروسي عباس علييف إلى الكويت، وكان قد زارها فيما مضى بقصد استطلاع الأوضاع في تلك الفترة، ولكن هذا المرسل لم يجد مباركًا - آنذاك - في الكويت، فغادر تاركًا رسالة يبلغ بها الشيخ بأنه سوف يغادر إلى البصرة لقضاء عدة أيام. وعندما عاد مبارك إلى البلاد وأطلع على رسالة علييف كتب له رسالة يطلب منه الحضور قائلاً: «إن ذلك ضروري جدًا» وهنا عاد الرجل حاملاً رسالة من سكرتير السفارة يبلغه فيها بتحياته وسروره بعودة الشيخ سالمًا.

وعندما غادر المرسل الروسي الكويت حمّله الشيخ مبارك رسالتين إحداهما إلى السكرتير المشار إليه أوسنيكو والثانية إلى كروغلوف وجاء في الوثائق الروسية عن الرسالتين ما يلي: «وكتب مبارك في خطابه الأول يقول: إنني صديقكم المخلص،

إلى حد كبير أنتم لا تتصورونه، وفي الختام أكد الشيخ أنه مستعد وبكل سرور لتنفيذ كل ما تحتاجون إليه في بلادكم: وفي الخطاب الثاني كرر عبارته السابقة حول صداقته الكبيرة، وأبلغ الطرفين، بأنه أوصى علييف بأن يبلغهما بكل ما يدور في ذهنه من أمور في تلك الفترة».

وقد أراد الجانب الروسي أن يحصل على شيء مكتوب من الشيخ يلخص فيه أفكاره التي نقلها بواسطة المندوب الروسي، فأرسل هذا الشخص للمرة الثالثة إلى الكويت حيث حصل على ما خلاصته: «أنه (أي مبارك) في بلد من أب وجد مستقلين، ولا يوجد تداخل لأية دولة معه، وأن ما يربطه بتركيا مجرد مكاتبات عادية بسبب أملاكه في البصرة دون أية التزامات»، وأضاف: «عندما شرفتم طرفنا في العام الماضي، وهو ما كنت أتمناه، قدّمتُ لكم الخدمة والمراعاة حبًا لدولتكم العلية وسيرتها الحسنة، ولنقاء دولتكم لكل من يعمل معكم بإخلاص واحترام».

ولم تكن مراسلات الشيخ مبارك هذه بعيدة عن أنظار القيادة الروسية في (بطرسبورغ) فقد كان عملاؤها يرسلون إليهم أولاً فأولاً كل ما يصلهم من خطابات خطية وشفهية إضافة إلى ما يحصلون عليه من معلومات، وقد تمت دراسة كل ذلك في اجتماعات وزارة الخارجية هناك، وبعد مداولات كثيرة ومهمة، واستعراض للأوضاع المحلية إضافة إلى عدم رغبة روسيا في إثارة خلاف جديد مع بريطانيا التي كانت قد عقدت مع الكويت اتفاقية الثالث والعشرين من شهر يناير لسنة ١٨٩٩م. فقد توصل المجتمعون إلى صيغة مؤداها ما ورد في الوثائق الروسية حيث جاء فيها: «لم تكن (الحكومة الروسية) ترغب في ذات الوقت في أن تدفع مباركًا إلى قطع صلته نهائيًا بها، بل كلفت القنصل الروسي الأول في البصرة (أداموف) بأن يصرح للشيخ نيابة عن الحكومة الروسية بالتالي: سوف نستخدم نفوذنا في الآستانة من أجل أن نكون مستعدين دائمًا للدفاع عن مصالحه المشروعة، وعن

مطالبه من الحكومة التركية، وسوف نمنع الأخيرة من التطاول على الاستقلال الذي تتمتع به الكويت، ومن ناحية أخرى نحن ننصحه - خدمة لمصالحه ذاتها - بعدم إفساد علاقاته مع تركيا، وأن يأخذ حذره من تحريضات الإنجليز الذين ينتظرون - فقط - الفرصة المواتية لفرض هيمنتهم على كل ساحل الخليج العربي».

وكان هذا الموقف ذا دلالة على جدية الجانب الروسي في الموقف تجاه الكويت، وتقديرهم للشيخ مبارك الصباح الذي وجدوه صادقًا معهم، وعلموا أنه يعاني من ضغوط الجانب البريطاني الذي كان يريد الحصول منه على أكبر قدر من المكاسب. ولذا فقد علّق بونداريفسكي على هذا الموقف الأخير بقوله: «على أي الأحوال لم يكن طلب مبارك الموجه إلى روسيا خدعة، ولم يكن شيخ الكويت، بطبيعة الحال يسعى إلى وضع الإمارة تحت الحماية الروسية لكن طلبه المساعدة يدل - بلا ريب - على تطلعه إلى تخفيف الضغوط الإنجليزية عليه».

****

رجال لا ينساهم الوطن: عبدالله عبدالعزيز السدحان[1]

من أبرز الدوائر الحكومية الكويتية، ومن أقدمها نشأة، دائرة بلدية الكويت التي تأسست في سنة ١٩٣٠م، واضطلعت منذ نشأتها بعدد كبير من الأعمال إلى أن نشأت دوائر أخرى حملت عنها بعض العبء ولكنها لاتزال تعمل بهمة ونشاط وتؤدي دورها في خدمة الوطن والمواطنين، وقد سبق لنا نشر مقال تحدثنا فيه عن نشأة هذه الدائرة المهمة النشطة وكان ذلك المقال من الاتساع بحيث غطى الكثير من الجوانب الذي يود القارئ أن يطلع عليها، ولذا فإننا نكتفي هنا بهذا المدخل. أما السبب الذي دعانا إلى إثارة هذا الموضوع فهو حديثنا في هذا المقال عن رجل من رجال بلدية الكويت كان مديرًا لها، وكانت له أعمال بارزة عرف عند الناس من خلالها، هذا الرجل هو عبدالله عبدالعزيز السدحان الذي كان مديرًا لدائرة بلدية الكويت منذ شهر ديسمبر لسنة ١٩٥١م، حتى شهر مارس لسنة ١٩٥٣م، وكان رئيس المجلس البلدي في هذه الفترة هو الشيخ عبدالله السالم الصباح لسنة ١٩٥١م ثم تلاه الشيخ فهد السالم الصباح في سنة ١٩٥٢م مستمرًا إلى سنة ١٩٦١م. وكان أعضاء المجلس مجموعة مختارة من رجال الكويت المخلصين.

أما فترة عمل عبدالله السدحان فقد كانت فترة بدأت الكويت فيها بشق طريقها إلى التقدم في شتى المجالات، فكان ذلك مما يشكل عبئًا على هذه الدائرة إذ كثرت المشروعات التي كان من أهمها إعداد وافتتاح الطرقات ورصفها، وتجهيز الأراضي للدوائر الحكومية الأخرى التي بدأت أعمالها في الاتساع مثل دائرة

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٢/١٠/٢٠٠٨م.

المعارف ودائرة الصحة العامة. فكان نشاط بلدية الكويت في عهد صاحبنا متناغمًا مع أنشطة الدوائر الأخرى في البلاد.

سوف نعرض هنا السيرة الذاتية للسيد عبدالله السدحان بإيجاز شديد، ثم نلحق ذلك بشيء من التفصيل المتاح عن حياته. ولد في الحي القبلي من مدينة الكويت في سنة ١٨٩٢م، وعندما بلغ السابعة من عمره توجه إلى الدراسة في إحدى المدارس الأهلية كما هي عادة أمثاله من أبناء الكويت في ذلك العهد. وكانت مدرسته الأولى هي مدرسة عبداللطيف العمر، وقد تعلم فيها كل ما كانت تقدمه لأمثاله، وقد أفاد منها شيئًا نفعه في مستقبل حياته ذلك أنه تعلم فنون تجارة الحبوب اقتداءً بوالده الذي كان تاجرًا من تجار هذه المادة المهمة، وكان عبدالله يرغب في أن يسلك في حياته العملية مسلك والده، وقد قام بالفعل بهذا العمل بعد أن انتهى من الدراسة التي تنوعت بعد المدرسة الأولى التي أمضى فيها مدة من الزمن تصل إلى إحدى عشرة سنة، وما أن غادرها حتى التحق بالمدرسة المباركية فنال فيها قسطًا كبيرًا من التعليم، وكان خلال ذلك يدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة كالفرلي الذي وصل إلى الكويت ضمن من حضر للعمل في مستشفى الإرسالية الأمريكية، وكان الشباب الكويتيون - في ذلك الوقت - حريصين على دراسة هذه اللغة لأن الاتصالات الخارجية في المجال التجاري كانت تفرض الحاجة إلى إجادة لغة لا تتم المراسلات التجارية إلا بها. بعد أن أنهى عبدالله السدحان دراسته أو ما وجده كافيًا من تحصيله لها تفرغ لتجارة مماثلة لما كان والده يقوم به فافتتح محلاً يبيع فيه الحبوب، ثم صار يبيع الأواني، ومختلف الحاجيات التي يحتاج إليها الناس يجلبها من الهند التي صار يسافر إليها مرارًا من أجل جلب البضائع التي يملأ بها محله، ويلبي بعرضها فيه حاجة الناس. وقد نوّع في تجارته بحسب حاجة السوق إلى أن قام بتأسيس مكتب تجاري يمد بوساطته التجار بحاجتهم من البضائع.

في السنوات الأولى من أربعينيات القرن الماضي كان العمل الحكومي قد بدأ يستقطب كثيرًا من شباب الكويت، ووجد المسؤولون أن الرجل الذي نتحدث عنه قد اكتسب من الخبرة في الحياة ما يؤهله لإدارة عمل مهم فتم تكليفه للعمل مديرًا لدائرة الأشغال العامة في سنة ١٩٤٥م، وقد استمر في عمله هذا حتى سنة ١٩٥٠م. ثم انتقل إلى دائرة الصحة العامة ليعمل مديرًا لها، وفي سنة ١٩٥١م تم اختياره ليكون مديرًا لدائرة بلدية الكويت ليعمل بها إلى سنة ١٩٥٣م، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، وبعد هذه السنة انتقل إلى العمل بإدارة شؤون المحاكم فصار مديرًا لها.

شارك عبدالله عبدالعزيز السدحان في عدد من اللجان الحكومية والمجالس المتخصصة منها عضوية مجلس دائرة الأوقاف العامة منذ تأسيس هذه الدائرة في سنة ١٩٤٩م، كما تم اختياره لعضوية لجنة الخلافات في سنة ١٩٥٣م، وصار عضوًا في المجلس البلدي منذ السابع من شهر أغسطس لسنة ١٩٥٤م إلى اليوم السادس عشر من شهر يوليو لسنة ١٩٥٥م، يضاف إلى ذلك عدد من اللجان التي كانت أعمالها كلها متممة لأعمال المجلس البلدي المتنوعة، وقد أمضى الرجل حياته في جد واجتهاد وعمل مستمر على المستوى الشخصي وعلى المستوى الرسمي، وأدى أعماله كلها بإخلاص واضح جلب له محبة الناس وتقديرهم. وأبقى له سمعة طيبة بين العاملين في مختلف الأجهزة الحكومية. ولقد بقي محافظًا على ذلك حتى توفي في اليوم الحادي والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٩١م رحمه الله رحمة واسعة.

في العددين اللذين صدر من مجلة البعثة في شهري ديسمبر لسنة ١٩٥٢م، ويناير وفبراير لسنة ١٩٥٣م، - بدأت في أول عدد ذكرناه - بإجراء حديث مع مدير بلدية الكويت السيد عبدالله السدحان. ثم أكملت لقاءاتها في العدد التالي متحدثة

إلى عدد من المدراء كان منهم مدير الجمارك السيد عبدالسلام شعيب، ومدير المعارف سليمان العدساني، ومدير الصحة السيد علي داوود الحمود.

كان الحديث مع السدحان واسعًا بحيث اقتضى الجزء الأكبر من المساحة المخصصة لهذه اللقاءات، واستقل بما نشر في سنة ١٩٥٢م، في الوقت الذي كان نصيب المدراء الآخرين مجتمعين هو ما نشر في سنة ١٩٥٣م، وللعلم فإن إصدار شهري يناير وفبراير لهذه السنة كان في عدد واحد لا فصل بين موضوعات الشهرين، وذلك لظروف خاصة بالمجلة آنذاك.

بدأت «البعثة» حديثها مع مدير البلدية عبدالله السدحان قائلة: «هذه أسئلة مختلفة، قدمها مراسل البعثة في الكويت إلى مدير البلدية السيد عبدالله السدحان الذي تفضل فأجاب عليها مشكورًا، ويتضح لنا من هذه الردود أن أغلب مشاريع البلدية لن تتحقق إلا بعد وقت طويل، ونحن نرجو أن تتوفر لدى البلدية كل الإمكانات حتى تستطيع أن تنتهي من مشاريعها بعد وقت وجيز».

كان السؤال الأول هو: هل للبلدية قانون تسير عليه؟ وقد رد المدير بأن القانون موجود ولكنه لا يفي بأغراض البلدية بعد مضي وقت لم يجر عليه فيه أي تعديل.

ومن الجدير بالذكر أن السيد السدحان قد شارك في إنجاز قانون جديد - فيما بعد - وكان هذا القانون متلافيًا لكافة نواحي القصور في القانون السابق.

وفي سؤال عن المشروعات المستقبلية التي تزمع بلدية الكويت القيام بها، رد المدير بأن المشروعات المعدة للمستقبل متعددة منها الطرق العامة، ومشروعات البناء المختلفة، والميناء البحري، وزيادة المياه العذبة والصالحة للزراعة من آبار الصليبة التي لا يزال المسؤولون يحاولون زيادتها ليستفاد منها أكبر فائدة ممكنة.

ويلاحظ من هذه الإجابة أن عددًا من الاختصاصات التي أشار إليها المدير لم تعد من الأمور التي تقوم بها البلدية فيما بعد، بل صارت من اختصاص جهات حكومية أخرى.

وتعطينا الإجابة على السؤال الثالث صورة عن وضع الأراضي الواقعة خارج السور، وهي التي لم يتم البناء عليها - آنذاك - كما هو حاصل الآن. وكان نص السؤال كالآتي: متى تسمح البلدية لأصحاب الأراضي خارج البلاد وداخلها في تعميرها؟ وقد جاءت الإجابة مفسرة لذلك:

«الأسباب التي دعت البلدية إلى الاعتراض على إنشاء المباني الخاصة حتى الآن هو أنها تنتظر الانتهاء من تثمين الأراضي الذي يجري بصورة مستمرة».

وقد أشار هنا إلى الأمر الذي حدث فيما بعد وهو الخاص بتشكيل المناطق السكنية التي استحدثت في خارج السور فيما بعد ولم تكن موجودة أثناء إجراء الحوار معه، وقد قال في هذا السبيل: «لقد قُسمت الأراضي خارج السور إلى ثماني مناطق للسكن، كل منطقة تتألف من ألف بيت بما في ذلك المنشآت التي تحتاجها كل منطقة كالمدارس، والمستوصفات ومراكز الشرطة، وقد تم تثمين منطقتين حتى الآن، وسوف تقسم هذه الأراضي التي تم تثمينها إلى قطع (قسائم) سوف توزع على أصحاب البيوت التي استولت عليها البلدية من داخل السور بالتثمين، بشرط أن يبنوا البيوت الجديدة طبقًا للشروط التي يضعها مهندسو البلدية».

هذا وقد تطرقت الأسئلة إلى عدة جوانب منها سؤال نشعر منه أن البلدية كانت قد أعدت مشروعًا كبيرًا لمدينة الكويت، ولكنها لم تقم بتنفيذه لصعوبة إخلاء الأهالي من مساكنهم. ومنها سؤال عن لجنة تثمين الأراضي، وهل لها سياسة ثابتة، وقال المدير هنا: «للجنة التثمين قاعدة ثابتة وهي تثمين الأرض وما عليها من البناء. فيقدر سعر للقدم المربع طبقًا لموقع الأرض وصلاحية البناء».

وفي سؤال عن مدى توافق اختصاصات بلدية الكويت مع اختصاصات مجلس الإنشاء؟ «أجاب المدير بأن البلدية تنفذ قرارات مجلس الإنشاء بعد عرض المشروعات على مجلسها وليس هناك من تعارض بين الجهازين».

ومما قاله أيضا ردًا على باقي الأسئلة قوله:

«جميع ما تستورده البلاد من المواد الغذائية كالفواكه والخضر لا يمكن أن يصرح بدخوله إلى البلاد إلا بعد تصريح من إدارة الصحة، وهناك تعاون بين الدائرتين بهذا الشأن».

هناك مشروع لرصف خمسمائة كيلو متر من الطرق وقد تأجل القيام بهذا المشروع انتظارًا للانتهاء من هدم المساكن وفتح الشوارع الجديدة وحفر المجاري الخاصة بها، وقد أشار إلى أن العمل سوف يبدأ في ذلك الوقت برصف بعض الشوارع في الصفاة وطريق الساحل.

يقول إنه منذ تولي إدارة البلدية وهو يسعى إلى الحصول على سيارات لنقل القمامة وإنه قد استطاع أن يحصل على اثنتي عشرة سيارة في ذلك الوقت، وسوف تلحقها أعداد أخرى، وعند ذلك سوف تتم عملية تنظيف دائمة لكل الأماكن التي يشكو السكان من تكاثر القمامة فيها.

ويقول: «لقد قرر المجلس البلدي إنشاء خطوط مواصلات داخل المدينة، وخطوطًا أخرى تربط المدينة بالقرى، بواسطة سيارات حديثة مريحة ولا يزال العمل جاريًا في هذا المشروع سعيًا إلى تنفيذه».

وفي ختام الحديث أشار السيد عبدالله السدحان إلى أن البلدية أنشأت دائرة خاصة تقوم ببناء وتعمير بيوت المحتاجين من السكان، وقد قامت بتعمير

قسم كبير من هذه البيوت، وسوف تقوم بإصلاح الباقي وهي لا تتوانى عن مساعدة أي شخص يطلب معونتها.

ونستخلص من الأسئلة والإجابة عليها مقدار الجهد الذي كان يبذله هذا الرجل النشط في عمله. وما تقدمه بلدية الكويت للأهالي من خدمات.

هناك معلومات عامة تتعلق بالسيد عبدالعزيز السدحان لابد من إيرادها في ختام مقالنا هذا. وحيث أنها معلومات منوعة فسوف ندرجها تحت أرقام متسلسلة، وسوف تكون مع نهايتها نهاية حديثنا عن هذا الرجل الوفي لوطنه:

١ - عرف السدحان بحب الخير، وعمل المعروف، سواء أكان ذلك عن طريق ما يقدمه للمحتاجين الذين يفدون إلى موقع عمله فلا يتأخر عن مد يد العون إليهم مبتعدًا بنفسه عما يقوم به بعض المسؤولين من حرص على عدم تقديم أية مساعدة. أم عن طريق مساهمته الخاصة التي يقدمها دون أن يشعر به أحد. وقد ترك بعد وفاته شاهدًا على عمله هو المسجد الذي أنشأه في منطقة الفيحاء التي كان يسكنها فيما سبق.

٢ - عندما عزم على الانخراط في سلك العمل الحر، قام باستئجار محل يقع بالقرب من مسجد ابن بحر القريب من سوق الخضرة حاليًا، وكان إيجاره ست ربيات شهريًّا، وقد بدأ فيه أولاً ببيع الحبوب واستمر على هذه الحالة لمدة ست سنوات غيّر بعدها تجارته إلى بيع الأواني المنزلية.

٣ - عندما ذهب إلى الهند من أجل جلب البضائع حلّ في ضيافة السادة حسين بن عيسى وأخويه وكانت لهم إقامة طويلة هناك فساعدوه على القيام بمهمته.

٤ - كما أشرنا إليه فيما سبق أنه عندما عاد من الهند وتهيأت له سبل العمل التجاري أتيحت له في الوقت نفسه فرصة العمل في القطاع الحكومي، فعمل في سنة ١٩٤٥م في دائرة الأشغال العامة بصفته مديرًا لها، وكان رئيسها - يومذاك - هو الشيخ عبدالله السالم الصباح. ومن الغرابة أن خروج عبدالله السدحان مدير هذه الدائرة قد تم إبلاغه به بموجب كتاب من الشيخ عبدالله السالم يقول فيه: «نظرًا لعدم وجود مشروعات مهمة في الوقت الحاضر، فقد رأينا توقيف أعمال دائرة الأشغال ابتداءً من نهاية شهر ربيع الأول لسنة ١٣٦٣هـ، وإننا لنشكركم على ما قمتم به من عمل طيلة أيام رئاستكم لهذه الدائرة» ووجه الغرائب هو توقف هذه الدائرة الحكومية وكأنها مشروع مؤقت.

٥ - استمر في العمل بهذه الدائرة لمدة خمس سنوات وقد ذكر أن الميزانية التي يعمل بموجبها لا تتجاوز الألفي روبية.

٦ - بناءً على رغبة الشيخ أحمد الجابر الصباح انتقل عبدالله السدحان إلى دائرة الصحة العامة، ولم يبق مدة طويلة في هذه الدائرة.

٧ - من أهم اللجان التي عملت في بداية خمسينيات القرن الماضي لجنة لحل المشكلات التثمين التي كان بيدها تقدير أثمان البيوت والأراضي التي تقرر الحكومة استملاكها. وكان عبدالله السدحان أحد أعضاء هذه اللجنة.

٨ - في سنة ١٩٥٣م بدأت الخلافات تظهر نتيجة للتوسع في بيع وشراء العقارات، وكذلك ازدهار التجارة فشكلت لجنة من ثلاثة أشخاص سميت اللجنة الثلاثية لهذا السبب كان أعضاؤها كلاً من عبدالله السدحان ومحمد

اليوسف النصف وأحمد البحر. وكانت هذه اللجنة تابعة للمحاكم التي يرأسها الشيخ عبدالله الجابر الصباح.

هذه هي سيرة رجل من رجال الكويت تحمّل المسؤولية في ثلاث دوائر حكومية، وعمل في تجارته الخاصة بكل الإخلاص والوفاء الذي تميز به التجار من أبناء وطنه وعندما قرّر التوقف عن العمل الحكومي، فإنه لم يكن بعيدًا عنه فقد كانت خبرته الطويلة في دائرة بلدية الكويت مدعاة إلى الرجوع إليه في كثير من الاستشارات طلبًا لإبداء رأيه المستنير في أية مسألة تعرض للعاملين في هذا الجهاز المهم. وكان يقدم آراءه واقتراحاته بطيب خاطر وبسعادة الشخص الذي يقدم خدمة لبلاده.

رحمه الله، وأثابه.

****

ملحاق خير

كان مقال الأسبوع الماضي من الأزمنة والأمكنة عن علاقات الشيخ مبارك الصباح مع روسيا، وقد فاتني أن أنوه عن أمرين مهمين يتعلقان بالمرجع الذي رجعت إليه في بعض المعلومات الواردة في المقال صحيح أنني ذكرت اسم الكاتب ووضعت صورته، ولكن ذلك لم يكن كافيًا، وقد أثار بعض التساؤلات، ولذا فإن من المستحسن ان أجَلّي ما أبهم يومذاك:

أولاً: المرجع هو كتاب «الكويت وعلاقاتها الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين» والمؤلف هو غيورغي بوندا ريفسكي الروسي الجنسية الذي توفي في سنة ٢٠٠٣م في الوقت الذي كان فيه يعمل في مختلف المجالات التاريخية والتوثيقية، فقد كان من أبرز المستشرقين الروس، وكانت المعلومات المتوافرة لديه كثيرة جدًا، ولذا فقد اختارته حكومة بلاده ليكون مستشارًا لها في الشؤون الإسلامية والعربية، كما كان أحد خبراء مجلس (الدومه) الروسي المتخصصين.

كانت صلة هذا الرجل بالكويت قوية عن طريق بحثه الدائب في وثائق الأرشيف الروسي، وكانت له علاقات مع مركز البحوث والدراسات الكويتية ولم تنقطع صلته بهذا المركز حتى وفاته. وكان تعمقه في دراسة تاريخ الكويت عن طريق الأرشيف المذكور سببًا في تعلقه بهذا البلد فكان مدافعًا عن حق الكويت في حريتها واستقلالها. وقدم في سبيل ذلك دراسات متعددة. ولذا فقد نعاه المركز في مجلته «رسالة الكويت» وكان مما قاله: «لقد عاش أكثر من ثمانين سنة كان فيها ملء الأسماع في تاريخ الشرق الحديث، وكان علامة فارقة بين الحق والباطل»!

ثانيًا: اهتم أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم اهتمامًا كثيرًا بالباحث، وأقام معه باسم مركز البحوث والدراسات الكويتية علاقات مثمرة، أنتجت ضمن ما أنتجت الكتاب الكبير والمهم الذي أشرنا إليه، وهو الخاص بعلاقات الكويت الدولية خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقام المركز بنشره وطرحه للناس وبخاصة المهتمين بالبحوث التاريخية فاستفاد منه الكثيرون لما يتصف به من صدق وقدرة على قراءة التاريخ، ومحبة للكويت. فالشكر كل الشكر لهذا الرجل في مثواه الأخير. والشكر للمركز والدكتور عبدالله يوسف الغنيم على تقريب هذا العمل وجعله في متناول أيدينا منذ سنة ١٩٩٤م.

****

الدكتور أحمد زكي في الكويت[1]

عرفت الدكتور أحمد زكي - أولاً - بصورة غير مباشرة عندما كنت أقرأ بعض ما يكتب، وعندما كنت أتابع قراءة مجلة «الإثنين والدنيا» التي كان في وقت ما يكتب مقالات فيها، وكانت مجلة لطيفة تجمع بين السياسة والأدب والفكاهة والعناية بالفنون بكافة أشكالها، ثم عرفته بالأسلوب ذاته عندما قمت بتدريس كتابه «سلطة علمية» لطلاب الصف الثالث الثانوي بمدرسة الشويخ الثانوية في سنة ١٩٦١م، كان كتابًا في العلوم ولكنه مكتوب بيد أديب قبل أن يكون عالمًا فهو يقدم المعلومات العلمية مبسطة حتى ليفهما الجميع دون أي التباس أو مشقة في الإلمام بها.

وسعيت مع الساعين في سنة ١٩٥٥م إلى سماع محاضرتيه اللتين ألقى أولاهما في قاعة المدرسة التي قمت بالتدريس فيها فيما بعد، وذلك ضمن برنامج وضعته دائرة معارف الكويت «وزارة التربية اليوم» تحت اسم: الموسم الثقافي وقد كان موسمًا حافلاً يحضره عدد كبير من محبي الثقافة بحيث تضيق بهم القاعة المخصصة للمحاضرات التي كان يدعى إلى إلقائها عدد من كبار الأدباء والعلماء العرب، وتتنوع خلالها الموضوعات بحيث ينتهي الموسم وقد ألم المتابعون له بمعلومات وفيرة تضاف إلى ما لديهم من معلومات.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٩/١٠/٢٠٠٨م.

إذن فقد عرفت الكويت أحمد زكي في هذا الموسم واستمعت منه إلى محاضرتين أولاهما: تحت عنوان تضمنه جزء من الآية الكريمة ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾ وهي الآية رقم ٨٨ من سورة النمل وهي محاضرة علمية في بحثها، ولكنه قدمها للحاضرين بأسلوب شيق قريب إلى الأذهان، وقد خرج الجميع وهم يثنون على المحاضر وعلى محاضرته، كان ذلك في يوم الأربعاء الثاني من شهر مارس لسنة ١٩٥٥م.

وكانت محاضرته الثانية تحت عنوان: أحياء في عالم الخفاء، وهي محاضرة يدل عليها عنوانها، وهي تفيض متعة، وتمتلئ بالمعلومات عن النظارات والعدسات وعن المجاهر فائدتها للعلم والعلماء.

ألقى هذه المحاضرة في قاعة مدرسة الصديق (مبنى وزارة الداخلية اليوم) وذلك في اليوم السادس من شهر مارس لسنة ١٩٥٥م.

لم ينس الذين حضروا إلى القاعتين واستمعوا إلى المحاضرتين هذا الرجل العالم الأديب الأنيق الأسلوب الغني بالمعلومات حتى إذا دعت الحاجة إلى اختيار رجل يقوم بمهمة إصدار مجلة كبرى في حجم مجلة العربي كان هذا الرجل ماثلاً للعيان.

اهتم صاحب السمو الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح بإصدار هذه المجلة، وأمر باتخاذ الإجراءات المناسبة حتى تظهر إلى قرائها بأحسن صورة ممكنة وكان للأستاذ الشاعر أحمد السقاف دور في هذا العمل إذ ما إن تلقى رغبة الشيخ حتى نهض إلى القيام بها، وفي مقال له صدّر به مجموعة مجلته كاظمة التي صدرت في سنة ١٩٤٨م، وأعاد طباعة أعدادها كاملة مركز البحوث والدراسات الكويتية يقول: «وفي خريف سنة ١٩٥٧م سنحت الفرصة لإصدار مجلة على مستوى الوطن العربي، فوضعت لها التصور المطلوب، وكنت حينئذ قد انتقلت إلى دائرة المطبوعات

والنشر التي تحولت بعد الاستقلال إلى وزارة الإرشاد والأنباء صيف سنة ١٩٦١م وصدرت مجلة العربي في شهر ديسمبر من سنة ١٩٥٨م».

قام الأستاذ السقاف بمجهود كبير في تأسيس هذه المجلة، وعلى الأخص حين ذهب إلى القاهرة من أجل انتقاء شخص يقوم برئاسة تحريرها وكان قد مر قبل وصوله إلى مصر بكل من سوريا ولبنان وبحث هذا الأمر مع من لقيه من الأدباء والعلماء، واستمع إلى أقوالهم وكلهم حبذ فكرة إصدار المجلة، وقد رشح واحد فقط ممن التقاهم الدكتور أحمد زكي لرئاسة تحريرها، وهذا هو العالم المتجرد من الهوى العلامة فؤاد صروف».

في القاهرة بدأ مهمته هذه بالاتصال بالدكتور أحمد زكي، فزاره في منزله في يوم الثلاثاء الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٧، وقد تناقشا في موضوع حضور الدكتور إلى الكويت لاستلام تحرير المجلة، وبعد أسبوع من التفكير أعطى أحمد زكي موافقته، ولم يترك الأستاذ السقاف القاهرة إلا بعد أن جال مع الدكتور أحمد زكي واتفق معه ومع عدة جهات على اختيار ما تحتاج إليه المجلة من بشر، ومن معدات وما يمكن أن يكون نواة أرشيف بدأ بأربعة آلاف صورة تم شراؤها من دار الهلال المصرية.

كان الدكتور أحمد زكي قد اشترط لقبوله العمل في الكويت أن يكون له الحق في الانسحاب في أي وقت يشاء، ذلك لأنه كان متهيبًا العمل في خارج مصر لأنه لم يتعود العمل خارجها ولكنه بقي في الكويت ما يقرب من سبعة عشر سنة قضاها في محراب العربي ليس له أمر آخر يشغله غيرها: يخطط لها، ويشرف عليها، ويكتب الكثير من مقالاتها وبخاصة المقال الرئيسي والمقالات العلمية.

كان في الكويت ينال الاحترام والتقدير من الجميع وكان سمو الشيخ صباح الأحمد الجابر ومن بعده الشيخ جابر العلي السالم يعاملان الرجل بما يستحقه

من تكريم هو أهل له؛ لعلمه وخبراته الكثيرة ومبادراته في المجال الذي اختير من أجله فجد في ذلك حتى صارت مجلة «العربي» تدخل كل بيت في كافة أرجاء بلاد العرب.

وقد لقيته هذه المرة لقاء مباشرًا حين انتقلت إلى العمل في وزارة الإرشاد والأنباء (الإعلام حاليًا)، فكان من سعادتي أن يتم هذا اللقاء بالرجل العالم الذي طالما تتبعت إنتاجه في كتبه وفي مجلة العربي، والذي استمعت إليه محاضرًا فبقيت في ذهني آثار كثيرة مما قال وما كتب، كنت يوم لقائي به في مكتبه في مجلة العربي القائم في مبنى الوزارة (حاليًا: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، وكنت يومها صغير السن لم تمض سنة على تخرجي في جامعة القاهرة التي كان رئيسًا لها في سنة ١٩٥٣م، ومع ذلك وجدت فيه أبًا حانيًا عطوفًا يزجي النصح ويفتح باب الأمل، ويدل على طريق العمل النافع.

الدكتور أحمد زكي من أبناء مدينة السويس المصرية، ولد فيها في اليوم الخامس من شهر إبريل لسنة ١٨٩٤م، وبدأ في الدراسة بمدرسة فرنسية مرورًا بالكتّاب القديم، وانتقلت أسرته إلى القاهرة في سنة ١٩٠٠م فنشأ بها، وارتبط بعاصمة وطنه.

وفي القاهرة انتظم في الدراسة في المدارس الحكومية بكافة مراحلها، وبعد حصوله على شهادة البكالوريا اتجه إلى الدراسة العلمية في الخارج، فكانت وجهته إلى إنجلترا حيث التحق بجامعة نوتنجهام، وبعد دراسة فيها انتقل إلى جامعة ليفربول وتخصص في علم الكيمياء.

وكانت دراسته على حسابه الخاص إلى أن بذل بعد الجهد طلبًا للالتحاق بالبعثة الحكومية، فتم له ذلك إلى أن أنهى دراسته الجامعية الأولى في سنة ١٩٢٣م، وأخيرًا تخرج في جامعة لندن حاصلاً على درجة الدكتوراه في العلوم سنة

١٩٢٨م، فصار ثالث ثلاثة من أبناء وطنه يحصلون على هذه الدرجة العلمية في ذاك الوقت البعيد، وعندما عاد في هذه السنة تم تعيينه أستاذًا مساعدًا في كلية العلوم حتى حصل في سنة ١٩٣٠م على درجة الأستاذية فكان بذلك أول أستاذ مصري في الكيمياء وعلى أثر ذلك تولى منصب مدير مصلحة الكيمياء، وقد امتد عمله في هذه المصلحة لمدة إحدى عشرة سنة، وقد طوّر العمل بها حتى حولها إلى معهد من معاهد الكيمياء المرموقة.

ما إن استقر الدكتور أحمد زكي في عمله الأول في جامعة القاهرة حتى بدأ يفكر في تكوين الجمعيات المتخصصة وفق ما رآه في بريطانيا، فأسس الجمعية الكيميائية المصرية في سنة ١٩٣٨م، وكان رئيسًا لهذه الجمعية منذ تلك السنة في فترة امتد مداها لمدة خمس وعشرين سنة وسعى الدكتور أحمد زكي فيما بعد إلى إنشاء مركز قومي للبحوث العلمية، وقد تم له ما أراد بالتعاون مع عدد من زملائه العلماء من أساتذة الجامعة، ففي سنة ١٩٤٥م تم تأسيس مجلس فؤاد الأول الأهلي للبحوث، وكان الدكتور أحمد أمينًا عامًا له، ولم يكتف بذلك بل سعى إلى تكوين عدد آخر من المؤسسات، وشارك في إنشاء لجنة التأليف والترجمة والنشر، وهي لجنة لها الفضل الكبير في نشر عدد رائع من أمهات الكتب، وشارك عددًا من رجال الفكر والعلم في مصر بإنشاء المجمع المصري للثقافة العلمية في سنة ١٩٢٩م، ثم صار عضوًا في مجمع اللغة العربية بمصر في سنة ١٩٤٦م، وتولى منصبين مهمين أحدهما: منصب مدير الجامعة التي عمل بها، والثاني هو المنصب الوزاري، فقد جرى تعيينه قبل الثورة وزيرًا للشؤون الاجتماعية، وكان أهلاً لهذين المنصبين.

كما أنجز الكثير من المؤلفات والمترجمات، وكلها ذات قيمة كبرى، يصعب علينا عرضها في هذه العجالة.

وحين كان في العقد الخامس من عمره اسندت إليه رئاسة تحرير مجلة الهلال الشهيرة وقد طورها واستكتب لها مجموعة من الأدباء والكتّاب فقدموا إنتاجهم لأول مرة إليها وكان منهم الدكتور طه حسين والأستاذ عباس محمود العقاد وغيرهما.

وكان عمله في مجلة «العربي» هو خاتمة المطاف في حياة حافلة بالعلم والثقافة والإنجاز.

في اليوم الأول من شهر ديسمبر لسنة ١٩٥٨م صدر العدد الأول من مجلة العربي، وكأن دائرة المطبوعات والنشر قد أبت أن تمر السنة قبل صدور المجلة المنتظرة فقامت بإصدارها ولو في آخر شهر منها ولقد جاء العدد الأول مفاجأة في اسمه، وفي حجمه، وفي محتوياته، وفي ما ضم من صور ملونة ذات بهجة وقد بدأ العدد الأول بكلمة موجهة إلى القارئ تقول: «هذا هو العدد الأول من مجلة العربي اقرأ كلمة رئيس التحرير فيها.. تعلم لماذا سميت المجلة بالعربي، ولماذا اتخذت لها الكويت منزلاً، وما هي المبادئ التي تستند إليها، والأهداف التي تستهدفها؟».

وتضيف الكلمة: «اقرأ كل شيء، واسأل نفسك، عن كل مقال، هل انتفعت به في زيادة معرفة؟ وفي تحريك عاطفة؟ في ابتسامة تروح عنك؟ وهل انتفعت به في نفسك؟ في جسمك؟ في أهلك؟ في حاضرك؟ في مستقبلك؟ في أمل من آمالك؟ وهل نفعت به مواطنًا عربيًا حيثما كنت في سطح الأرض؟».

بدأ العدد بكلمة رئيس التحرير، وكان فيها الرد على ما جاء في الفقرة الأولى التي مرّ ذكرها قبل قليل، وأما الفقرة الثانية فهي من مسؤولية القارئ الذي ينبغي عليه أن يقرأ وأن يتحقق من كل شيء، وقد فعل؛ والدليل على ذلك سعة انتشار المجلة وزيادة عدد قرائها عامًا بعد آخر.

كانت في العدد الأول بالإضافة إلى حديث رئيس التحرير عدة أقسام أولها: القسم العام ويضم عددًا من المقالات ذات الطابع العام، ثم الاستطلاعات الصحافية المصورة وأبرزها استطلاع عن جيش التحرير الجزائري وعن البحرين وعن القاهرة في منتصف الليل، يأتي بعد ذلك قسم خاص بالعلوم وآخر خاص بالطب ثم قسم الأدب وفيه مقال عن المعري وقصيدتان ثم يأتي باب القصص ثم المنوعات الذي يشتمل على لوحة الشهر التي رسمها الفنان جمال كامل وهي بعنوان: ألا ليت الشباب يعود يومًا، وفي هذا الباب بعض النكات المضحكة وامتحان للمعلومات ورسوم هازئة، وحديث عن آداب اللياقة، وينتهي بمسابقة العربي التي سوف تكون شهرية اعتبارًا من هذا العدد، وسوف تكون في حد ذاتها زادًا ثقافيًا مهمًا.

بعد ذلك يأتي باب مخصص لشؤون الأسرة، يتلوه باب هو الأخير في المجلة وهو باب الإذاعة والتلفزيون ويضم مقالين أحدهما: عن دور الإذاعة في توحيد الأمة العربية، والثاني: عن المسرح وما يمر به من مشكلات تودي به إلى الخطر.

هكذا نلاحظ أن مجلة (العربي) منذ عددها الأول وهي تقدم لقرائها زادًا ثقافيًا مهمًا بلغة عربية سليمة ميسرة تسهل متابعتها والفهم عنها، وبالتالي فهي تجمع القراء المنتشرين في أنحاء الوطن العربي حول معلومات واضحة محددة مكونة بذلك رأيًا عامًا مستنيرًا متقارب المشارب.

لقد كان العدد الأول من (العربي) منبئًا عن كل ما جاء بعده من أعداد ولقد كان الدكتور أحمد زكي شعلة تنير لجميع العاملين معه، وكان اهتمامه بتبسيط العلوم، وشرح الكثير من قضايا الطب، وتنوير المجتمعات العربية بالدور المهم الذي ينبغي عليها أن تضطلع به في شتى نواحي الحياة من سياسية واقتصادية

واجتماعية وغيرها، كل ذلك كان واضحًا في تنوع مقالات المجلة، وفي الكتابات الغزيرة التي كان الدكتور يتحفها بها، ولذا وصلت إلى ما وصلت إليه من شهرة وانتشار لم يكن الرجل يسير دون تنظيم فقد كان مخططًا من الطراز الأول ولقد نجحت خطته في العمل، ولذا فإننا نجد غرسه قائمًا حتى اليوم يحظى بما كان يحظى به من إعجاب وتقدير ومتابعة.

احتفلت الكويت بمرور خمسين سنة على صدور هذه المجلة الحية، ثم احتفت مكتبة الإسكندرية بها في احتفالية مهمة أصدرت خلالها كتابًا موثقًا مهمًا قدم له الأستاذ إسماعيل سراج الدين والأخ الدكتور سليمان العسكري رئيس تحرير العربي في الوقت الحاضر، وقد كان كتابًا مهمًا تشكر عليه جهة نشره من أسهم في ذلك.

****

الشيخ مبارك الصباح واتفاق الحماية[1]

كلنا نعرف أن الشيخ مبارك الصباح بذل جهودًا كبيرة في سبيل حماية وطنه، وضمان استقلاله، ولكن الأطماع العثمانية كانت تضغط في غير مصلحة الكويت، وتبذل كل ما تستطيع من أجل قطف الثمرة الكويتية الطيبة مرة بالتهديد والوعيد، وأخرى بالإغراء والترغيب، ولكن أكبر تلك الوسائل وأشدها أذى هي تلك المؤامرات التي ما فتئ الولاة العثمانيون يحيكونها ضد مبارك وحكمه، مما استهلك جهدًا ووقتًا ثمينين كان بالإمكان الاستفادة منهما لمصلحة الوطن وأبنائه. وفي هذه الأثناء وجد الشيخ نفسه في موقف حرج، ورأى أن الحزم يقتضي الوصول إلى صيغة سياسية تحمي بلاده من التهديد ومن الابتزاز، والرغبة في الاحتواء، فلم يجد سبيلاً إلا في طلب الحماية البريطانية التي تمت بتوقيع اتفاق سنة ١٨٩٩م، ولم يكن ذلك سهلاً ولكنه تم على أي حال.

والواقع أن مبارك الصباح لم يترك سبيلاً يضمن به مصلحة بلاده واستقلالها إلا سلكه، ولم يكن يثق تلك الثقة العمياء في كل ما يقدم له من وعود من أي طرف كان. وفي موضوع علاقته بالإنجليز لم يكن يخرج عن هذا المبدأ، وطلبه الدخول في حمايتهم، لم يكن هو الطلب الوحيد من نوعه، فقد كان يحاول بشتى الطرق أن يجد دولة محايدة يعتمد عليها لمواجهة عدوه اللدود ابن رشيد، ولذا نقدم هذه المقتطفات للدلالة على أنه لم يرم نفسه في أحضان الإنجليز كما تدعي بعض

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٥م.

المطبوعات العراقية، ولكن الأمور بطبيعتها، وبحسب تسلسل الأحداث، أوصلت إلى توقيع معاهدة سنة ١٨٩٩م بين الكويت وبريطانيا، ومن تلك المقتطفات:

١ - كلف الشيخ مبارك عباس عليف وهو مندوب روسي على علاقة معه بنقل رسالتين - إحداهما شفهية - ذكر فيها أنه قرّر أن يخرج من هذا الوضع المتوتر والمقلق الذي وضعته فيه مؤامرات الأتراك وحلفائهم من ناحية، والمقترحات السقيمة المفروضة عليه من قبل الإنجليز للدخول تحت حمايتهم من الناحية الأخرى. أما الرسالة المكتوبة فقال فيها إنه: «في بلده من أب وجد مستقلين، ولا يوجد لأية دولة تداخل معنا». وأضاف عن مدى ارتباطه بتركيا أن كل ما يربطه مجرد «مكاتبات عادية بسبب أملاكنا بطرفهم دون أية التزامات» كما أبدى استعداده بأن يمكّن الروس من اتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان أمن الكويت، ورفع العلم الروسي فوق أراضيه.

٢ - في خريف عام ١٨٩٨م أطلع مبارك الإنجليز على واقعة إجراء الفرنسيين مفاوضات معه حول إبرام إتفاقية سياسية.

٣ - في ٢٤ ديسمبر ١٩٠١م غادرت السفينة الحربية الروسية فارياج الكويت متجهة إلى لنجة وبندر عباس، وقدم قنصل روسي من بوشهر في أثناء وجوده في الكويت الهدايا وعرض المساعدة باسم الحكومة إلى الشيخ إذا ما طلبها من أجل المحافظة على استقلاله.

٤ - لم يكن مبارك يعتمد نهائيًا على الإنجليز، بل كان كثير الاختبار لموقفهم منه ومدى قيامهم بالتزاماتهم تجاهه، ومن ذلك طلبه الحماية من جهات أخرى، وتودده في بعض الأحيان إلى الحكومة العثمانية.

٥ - أطلق السلطان عبدالحميد على مبارك لقب قائمقام وأرسل موظفًا للحجر الصحي في سنة ١٨٩٧م، وقد قابل الشيخ مبارك هذا بامتعاض ولم يستعمل هذا اللقب في مراسلاته قط، وأجبر الموظف على المغادرة، واقترح على السلطات البريطانية أن يدخل تحت حمايتها وهذا ما تم له فيما بعد، وكان الدافع إلى هذا هو خوفه على استقلال بلاده بعد الخطوتين التركيتين المذكورتين سابقًا.

كانت رغبة مبارك الملحة في نبذ أية سيطرة على بلاده واضحة لدى الجميع، والمتتبع للأحداث التي دارت خلال فترة حكمه يجد حرصه الشديد على ذلك الأمر واضحًا تمام الوضوح. لقد كان حريصًا على توطيد الأمن في البلاد، وكان حصنًا يلوذ به الناس عند الشدائد، ومن المأثور عنه أنه عندما طُلب منه أن يقيم سورًا للبلاد من أجل حمايتها من الطامعين قال: أنا السور، ويكفي ذلك للدلالة على الاعتداد بالنفس، وعلى تحمل المسؤولية كاملة في كل ما يتعلق بحماية البلاد حدودًا ووجودًا.

ولقد كانت اتفاقية سنة ١٨٩٩م بين الكويت وبريطانيا جزءًا من ذلك الحرص الذي بذله مبارك من أجل حماية الكويت والنأي بها عن المطامع وبخاصة مطامع الدولة العثمانية التي لم تدخر وسعًا في سبيل ضم الكويت إليها، وإذا كان ذلك كله قد تم من قبل الدولة دون طائل، فإن المستقبل - آنذاك - غير معروف، ولا يدري أحد ما يحتوي عليه من مفاجآت، ولذا لجأ مبارك إلى الطريق الذي يكفيه أمر المفاجآت، وينأى به عن كل ما يتسبب في النيل من استقلال بلاده.

ولقد اطمأن مبارك كثيرًا بعد توقيع هذه الاتفاقية، وضمن وجود سند قوي يقف معه ضد التيارات المعادية، غير أن إقدام بريطانيا على إبرام الاتفاقية المذكورة لم يكن أمرًا سهلاً، فقد كان التردد من قبلها واضحًا، واقتضى الأمر الكثير من الجهود، والمهارات الدبلوماسية من قبل مبارك حتى تحقق له ما أراد.

أما من حيث الاتفاقية ذاتها فقد جرى حولها حديث كثير، فمن الناس من أنكر على الكويت التوقيع عليها، ومنهم من أنكر على بريطانيا ذلك، والحجة المعلنة في ذلك قولهم إن الكويت لم تكن في وضع يؤهلها للدخول في تعاقد مع دولة أخرى بادعاء أنها لم تكن مستقلة في ذلك الوقت، ويرد على ذلك بأن الحكومة البريطانية قبل قيامها بأي خطوة سابقة لاتخاذ قرار في موقفها تجاه الدولة العثمانية فيما يخص هذا الموضوع، أرسلت مندوبًا عنها هو المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل كمبال لدراسة وضع الكويت من حيث تبعيتها للدولة العثمانية من عدمها، وقد أثبت كمبال في تقريره أن أصول السكان ولهجتهم لا علاقة لها بالجانب التركي أو العراقي، وأن الكويت قاومت بنجاح كافة المحاولات التي بذلتها الدولة العثمانية لإخضاعها، وقامت بحماية نفسها من كل محاولات القوى المجاورة، فأبعدتها عن التدخل في شؤونها، وفي تلخيص لتقرير الكولونيل كمبال جاء في كتاب ترسيم الحدود الكويتية - العراقية الصادر عن مركز البحوث والدراسات الكويتية: «ومن ناحية أخرى سجل كمبال مجموعة الحقائق التي اعتمد عليها في التوصل إلى النتيجة التي توصل إليها وهي: حماية شيوخ الكويت للثائرين على السلطات العثمانية، عدم وجود حاميات عثمانية على الأراضي الكويتية في أي وقت، عدم أداء حكام الكويت لأية التزامات مالية للسلطات العثمانية إلا لفترات قصيرة جدًا ولظروف طارئة؛ الأمر الذي يمكن معه تجاهلها، بل إن العكس كان صحيحًا فقد كانت الدولة العثمانية هي التي تدفع رواتب سنوية لشيوخ الكويت مقابل حماية شط العرب بناء على ترتيب محلي. أما رفع الراية العثمانية فلم ير فيه كمبال صورة من صور التبعية، فالأمر لم يكن أكثر من مظهر من مظاهر الاحترام الديني لدولة الخلافة الإسلامية».

وهذا الذي سقناه يدل على أن بريطانيا لم توقع على الاتفاق إلا بعد أن أكد لها مستشاروها قانونية ذلك بما لا يدع في الأذهان شكًا من هذه الناحية.

فطلب الاتفاقية إذن أمر كان مهمًا من أجل حماية الكويت وإبعاد الأخطار عنها، وقد قامت السلطات البريطانية بدورها كاملاً في التطبيق مما أتاح للكويت مجالاً واسعًا من الاطمئنان، وهدوء البال، ومرت أحداث كثيرة في عهد مبارك الصباح، وفي عهود أخرى لحقته أظهرت مدى حنكة هذا الرجل الذي لم يترك طريقًا إلا سلكه في سبيل وقاية وطنه من التقلبات والأطماع.

وفي أثناء الحديث عن موضوع اتفاقية الحماية جاءت الاقتراحات التي قدمها المقيم السياسي الكولونيل مالكم ميد المقيم السياسي البريطاني في الخليج في سنة ١٨٩٧م بشأن بسط الحماية البريطانية على الكويت وذلك عندما أحس بوجود حشد للقوات العثمانية قرب البصرة في أواخر سنة ١٨٩٧م، وسمع عن خطة روسية لامتلاك محطة للتزود بالفحم في الكويت. إضافة إلى محاولة أخرى من جانب الروس، عندما قدم فلاديمير كابنست طلبًا للعثمانيين من أجل إنشاء خط سكة حديد من طرابلس (الشام) إلى الكويت، إضافة إلى النشاط الألماني والفرنسي الدائبين حول موضوع استغلال وضع الكويت الاستراتيجي، مما وضع في أذهان البريطانيين أن تركيا وإن لم تستطع أن تثبت أن لها حقًا في الكويت أو تفرض سلطتها عليها إلا أنها تتاجر بمزاعمها غير المبررة، وتبيع للغير ما لا تملك بادعائها التنازل عن حقوقها المزعومة إلى دول أخرى في مقابل مادي، وهو أمر لا يمكن أن يقرّه أحد.

وقد كانت هذه الملاحظات التي قدمها ميد كفيلة بالتعجيل بالموافقة على إبرام الاتفاقية التي لم تعرف بها تركيا في حينه، إلا أن مظاهر لافتة للنظر قد استرعت انتباه السلطات التركية نتيجة لزيارة ميد للكويت أدت إلى قيام تلك السلطات بتعزيز قواتها في البصرة ومحاولة الضغط على الكويت، ولم يأت شهر سبتمبر من سنة ١٨٩٩م حتى أعلن الباب العالي عن تعيين محافظ عثماني

لمرفأ الكويت، وعن إنشاء جمارك تركية فيها، وعن ربط الفاو بالقطيف بخط تلغراف يمرّ عبر الكويت، مع إعلان مطالبة السلطات العسكرية العثمانية في البصرة باتخاذ إجراءات عسكرية ضد الكويت، وغني عن الذكر القول بأن كل هذه الأمور كانت مرفوضة رفضًا تامًا من قبل الشيخ مبارك تدعمه هذه المرة ردة فعل بريطانية عنيفة جعلت العثمانيين يتراجعون فورًا عن كل ما أعلنوه، وعندما جاءت سنة ١٩٠٠م اتجه العثمانيون إلى أسلوب آخر وهو إرضاء الشيخ مبارك عن طريق منحه لقب باشا، وكمية من التمور تقدم له سنويًا، ولم نر في كل مراسلات مبارك ما يدل على أنه رضي لنفسه بهذا اللقب.

ملاحظات على الاتفاقية

١ - لم تكن للاتفاقية بنود سرية، ولو كان لها مثل هذه البنود التي أشار إليها بعض الكتاب لبرزت بعد مضي كل هذه المدة على توقيعها، وبعد زوال أثرها بموجب الرسالة المتبادلة بين الشيخ عبدالله السالم الصباح والمعتمد البريطاني في الخليج بتاريخ ١٩٦١/٦/١٩ وكل ما يمكن أن يذكر في هذا المجال تلك الرسالة التي بعث بها ميد بعد توقيع الاتفاقية والتي تؤكد سريان الاتفاقية على مبارك وعلى ورثته من بعده، ولم تكن هذه الرسالة سرًا في يوم من الأيام.

ولقد كان مبارك يصر على ذكر أبنائه بدلاً من خلفائه، فهو بذلك يضمن استمرار استقلال الكويت أما إذا قيل في الاتفاق: خلفاؤه فهذا يعني أنه يمكن لتركيا أن تعين خليفة له بعد وفاته، وكأنه لم يعمل طول هذه المدة على حماية الكويت من الابتلاع التركي.

٢ - تحدث البعض أن الاتفاق لم يتضمن نصًا صريحًا يدل على حماية الكويت، ولكن ذلك معروف ضمنًا فمن غير المعقول أن يوقع الشيخ مبارك على

الالتزامات الواردة في تلك الاتفاقية دون أن يكون مطمئنًا إلى موضوع الحماية، وفي رسالة ميد التي أشرنا إليها سالفًا حين يقول: «نصرح لجنابك باستدامة الإقدامات الحسنة من جانب دولة جلالة الملكة البريطانية العظمى بالنسبة إليكم وإلى ورثتكم وأخلافكم...» ويستطيع كل عاقل أن يستنتج أن «الاستقدامات الحسنة» التي ذكرها ميد إنما هي ما تقدمه بريطانيا للكويت، كما أن ما حدث في سنة ١٩٦١م حين استدعى الشيخ عبدالله السالم القوات البريطانية لمواجهة عبد الكريم قاسم أمر قوي الدلالة على أمر الحماية، ولو لم يكن ذلك لتنصل البريطانيون، ولامتنعوا عن تقديم الدعم المطلوب في تلك الأزمة التي مرّت بها الكويت.

٣ - هل كان التعهد البريطاني بالحماية للكويت أم لمبارك؟

وإذا كانت الادعاءات التي كتبها البعض تقول إن الكولونيل ميد وهو يسعى إلى إنجاز الاتفاق مع الشيخ مبارك كان يصرح بقوة بأنه بدلاً من تأمين الكويت، وضمان أمنها ضد العثمانيين، فإن على بريطانيا أن تقوم بتأمين الشيخ مبارك ضد أعدائه، وذلك لضمان تحقيق الأهداف البريطانية في المنطقة، وهذا قول لا يمت إلى الحقيقة بصلة إذ إن ميد يعرف أن أصل الاتفاق ومبدأ الحماية للكويت وليس لمبارك بالذات، وأي تأمين لمبارك ضد أعدائه هو تأمين للكويت فهو رمزها في ذلك الوقت، ثم ألم يتحدث الاتفاق عن التزام خلفاء الشيخ وورثته بما يوقع عليه مبارك؟ إذن فليس الأمر حماية شخص ليس لبريطانيا مصلحة في حمايته، وإذا كانت تريد ذلك لسبب ما فإنها تستطيع أن تنقله إلى إحدى ممتلكاتها دون أن تتكبد حماية الكويت.

وأخيرًا فإننا حين نتساءل: هل كانت الاتفاقية باطلة لأن الحاكم لا يتمتع بالسيادة المطلقة؟

فالرد على ذلك واضح، وهو أنه من غير المعقول أن تقوم دولة في حجم بريطانيا - آنذاك - بعقد اتفاق مع حاكم الكويت وهي تعرف أن هذا الاتفاق باطل قانونًا لعدم استقلالية هذا الحاكم وما يحكم.

وكنا قد ألمحنا قبل قليل إلى أن السلطات البريطانية لم تقم بالتوقيع على الاتفاقية إلا بعد تمحيص وتدقيق شديدين، وأرسلت عددًا من المندوبين في فترات متعددة من أجل التأكد من استقلالية الكويت وحاكمها كان آخرهم الكولونيل كمبال.

٤ - هل كانت الاتفاقية غير ذات قيمة خارج الكويت؟

والرد هو أنه كان لهذه الاتفاقية أثرها خارج الكويت وأكبر دليل على ذلك، المواقف العثمانية المتكررة التي ظهرت فيما بعد، وإذعان هؤلاء للتهديدات البريطانية عندما يحاولون التعدي على البلاد، وتوقف التحركات الأجنبية الأخرى التي كانت تحاول إيجاد موطئ قدم لها على شواطئ البلاد كالروس والفرنسيين مثلاً.

أما بالنسبة للكويت فإن الاتفاق وإن كان فيما يبدو ذا أثر خارجي، إلا أنه عاد عليها بالنفع الكبير داخليًا، وذلك بإشاعة الاطمئنان والثقة في الوضع الجديد، وقد ظهرت آثار ذلك في كثير من الحالات التي مرّت بالبلاد في فترة حكم الشيخ مبارك وما تلاه.

٥ - لمن الفضل في صنع الاتفاقية؟

وكان الفضل - ولا شك - في إتمام عقد هذه الاتفاقية هو إصرار مبارك ومتابعته الدائبة للجانب البريطاني، ودبلوماسيته التي استغلها أكمل استغلال، حتى إذا جاء ميد إلى الكويت لم يجد أمامه إلا أن يسير في الخط الذي أراده الشيخ فأصبح من أكبر المتحمسين للأمر، وانتهت جهود الرجلين إلى نتيجة واحدة هي التوقيع على الاتفاقية.

****

الأستاذ عبدالحميد البسيوني في الكويت[1]

من الناس من لا تستطيع نسيانهم مهما حاولت، فهؤلاء لهم حضور على البال دائمًا حتى ولو غيبهم الموت، ومرّت على ذلك السنوات العديدة، ومن هؤلاء أخي المرحوم الأستاذ عبدالحميد البسيوني الذي تلح ذكراه عليّ في كل حين، أتذكر العلاقة الطيبة التي جمعتني به، وأتذكر الأيام التي شاركنا فيها بحضوره قبل الغزو البغيض وفي أثنائه، ثم بعد أن زال عنا. أتذكر الجلسات الجميلة في ديوانية الثلاثاء حين كان يجلس بيننا فيثري الجلسة بعلمه الغزير، ويجيب كل سائل، ويستعرض الكثير مما أمضى عمره في دراسته وقراءته فيقدمه في دقائق معدودة مختصرًا قريبًا للأذهان لا يخرج السامع منه إلا بفائدة وأي فائدة.

معرفتي بالأخ عبدالحميد حسنة من حسنات الأستاذ محمود محمد شاكر، فقد عرفته في بيته، وكان ذلك بعد أن مضت الأيام، وتخرجت، و بدأت العمل، فرأيته عند الأستاذ في إحدى زياراتي لمصر - آنذاك - ولم يكن قد حضر جلساتنا الأولى لأنه في ذلك الوقت كان ملازمًا لأستاذ آخر من الأساتذة الكبار هو عباس محمود العقاد الذي وجهه إلى الاستفادة من علم الأستاذ محمود شاكر، ولكنه لم يتصل بأستاذنا إلا بعد وفاة أستاذه العقاد.

وكما هو مقدر لنا وله فقد حضر إلى الكويت في سنة ١٩٦٨م وصار مدرسًا في ثانوية عبدالله السالم بمعية الأخ الأستاذ جمعه ياسين الذي يعرفه كما نعرفه

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١١/١٢م.

ويقدره كما نقدره. ثم انتقل للعمل في جهاز المناهج بوزارة التربية يوم كان الأخ الأستاذ أحمد الجاسر مديرًا له، وهو - أيضًا - صديق للأستاذ عبدالحميد له معرفة به سابقة مثلنا، وقد طلب انتقاله إلى هذه الإدارة لمعرفته بإمكانات الرجل العلمية، وقد أفاد كثيرًا طيلة فترة عمله هناك. إلى أن تلقيت مكالمة هاتفية من الأستاذ المرحوم أحمد مشاري العدواني يطلب انتداب عبدالحميد لكي يعمل معه في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الذي كان أمينًا عامًا له آنذاك، فلم أملك إلا الموافقة تقديرًا لمكانة الأستاذ العدواني وتعبيرًا عن محبتي له.

وفي هذا الواقع الجديد صار عبدالحميد ضمن الجهاز العامل على إحياء التراث العربي، وكان أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم مشرفًا على هذا الجهاز فوجد فيه نعم العون.

مرّت الأيام وجاءت وجوه وتغيرت وجوه، وصدر أمر سمو الشيخ المرحوم جابر الأحمد الجابر الصباح بتشكيل هيئة تتولى إنتاج قاموس للقرآن الكريم. وقد تم تشكيل هذه اللجنة برئاسة الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، وتولى الأستاذ عبدالحميد البسيوني مهمة الإعداد والتحرير بالمشاركة مع الدكتور أحمد مختار عمر، وأنتجت اللجنة عددًا من البحوث المهمة في هذا المجال، وكان الأخ عبدالحميد يزاول عمله في مقر اللجنة بمؤسسة الكويت للتقدم العلمي حتى وفاته. وقد كان هذا الإنجاز خير هدية من الكويت وأميرها للمسلمين بمناسبة انعقاد الدورة الخامسة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في الكويت وهي الدورة التي ترأسها المرحوم الشيخ جابر الأحمد الصباح.

كان يؤدي عمله المهم هذا في المساء أما في الصباح فهو مستشار في الديوان الأميري يؤدي ما يطلب منه فقد اختاره الأخ الأستاذ إبراهيم الشطي لهذا العمل، ولم يقم بعمل آخر بعده حيث توفي.

منذ بدأنا الجلوس في ديوانية الثلاثاء في سنة ١٩٧٨م، والأستاذ عبدالحميد يداوم على مشاركتنا جلستنا الأسبوعية، وكان نجمًا في هذه الديوانية يطرح الأفكار، ويناقش ما يسمع، ويجيب على أسئلة السائلين، ولقد كان كنزًا من المعرفة بكل شيء تقريبًا، ولم يكن يتردد في متابعة أي موضوع يجد في بحثه فائدة، وكان في البداية يسعى إلى كتابة ما يعنّ له أو ما يناقش معه من موضوعات، فيطبع ما يكتب في كراسات يوزعها علينا، ومنها الكراسة التي أصدرها في اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس لسنة ١٩٩٥م، وكانت هذه هي كراسته الأولى، وتتكون من اثنتي عشرة صفحة من القطع الصغير. وهي تدور حول نقاش دار بيننا ردًا على سؤال سأله أخونا آدام إبراهيم الدسوقي، وكان حول مدلول الآية الكريمة **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** وكان الاختلاف حول نوع العلم الذي تنطبق عليه الآية وهل هو علم الدين أم علم الدنيا؟ تناول الأستاذ عبدالحميد البسيوني هذا الموضوع وعرضه على عدد من كتب التفسير واللغة والنحو، وعلى الرغم من اختلاف الأقوال التي ذكرها عن أولئك إلا أن عبارة الآلوسي في كتابه «روح المعاني» وهي آخر ما جاء في الكراسة قبل الانتقال الى موضوع آخر كانت تعطي الفرصة لإدخال كافة العلماء الذين وصفهم بقوله: «والمراد بالعلماء العالمون به عز وجل، وبما يليق به، من صفاته الجليلة، وأفعاله الحميدة، وشؤونه الجميلة، لا العارفون بالنحو والصرف مثلاً ..».

وهذا معناه أن العلماء الذين يخشون الله سبحانه هم العلماء المشتغلون بعلوم الكون، لأن هذا النوع من العلوم يفتح لهم مجال التأمل في قدرة الخالق العظيم كما يشمل العارفين به من المؤمنين، وإن كان هذا القسم من العلماء لا يقل عن القسم الأول من حيث تأدية العلم الذي علموه إلى معرفة الله، وخشية عقابه.

ولقد تكررت مثل هذه الكراسة حتى بلغت أربع كراسات ضمت موضوعات متفرقة إلى أن توقف عن هذا العمل بسبب انشغاله في مسائل أخرى تتعلق بما يكلف به من أعمال على مستوى الحكومة.

للأستاذ عبدالحميد البسيوني شعر جميل، يتحفنا به بين آونة وأخرى، ويتبادل القصائد مع بعض الشعراء على سبيل الجد مرة وعلى سبيل الدعابة مرات. وقد سبق لنا نشر مقال يتضمن شيئًا من هذا الأخير أفردت له جريدة «الوطن» مكانًا بارزًا، وكان بعنوان «شكاية تايه بن حيران على الميتر الكحيان، أزمة الشاكي الكهربائية بين أربعة شعراء» وكانت البداية من صاحبنا عبدالحميد الذي استبد به عداد الكهرباء في بيته فصار يسجل عليه مبالغ غير معهودة حتى صار الأمر كما قال:

والفواتيرُ كسيلٍ جارفٍ
تدخلُ البيتَ بلا إذنٍ وطرقٍ
كم شكوناهُ فلم يُسْمَعْ لنا
مع أنا (والنبي) أصحابُ حقٍّ

وقد شاركت برد على قصيدته هذه كما شارك أخي المرحوم عبداللطيف الدين، وحين أطلعنا أستاذنا المرحوم عبدالله زكريا الأنصاري على القصائد الثلاث جاءنا بقصيدة جميلة أبى إلا أن يضمنها شكاية عامة حول الأوضاع التي لانزال نشكو منها حين قال:

وَدَجَى اللَّيلِ ولاحت فِتَنٌ
لمعتْ صبحًا ومن بعد الشَّفَقِ
زُمَرٌ هبَّتْ علينا زمرًا
في ظلامِ الليل وانزاحَ الألق

وانثنى الوجدانَ حزنًا وانطوى
وادلهمَّ الخَطْبُ والقلبُ انغلق

لقد كانت ممارسة جميلة للنقد، ولكنها كانت عن طريق الدعابة التي يجيدها المرحوم البسيوني على الرغم من جديته البالغة في العلم، وفي التنبه إلى كل ما يمكن أن يثير الشبهات حول ديننا الحنيف.

كان الأستاذ عبدالحميد البسيوني محبًا للأخ عبداللطيف عبدالرزاق الدين، وكان كثير اللقاء به والحديث معه والإعجاب به، ولذا فقد كانت فجيعته بوفاته لا تقل عن فجيعتنا بها، كنا نلتقي كل يوم جمعة للصلاة في مسجد المطير بضاحية عبدالله السالم وفق عادة مضينا عليها منذ كانت خطبة هذا المسجد تلقى في مسجد البدر المهدوم ظلمًا، وموقعه في الزاوية الشمالية، الغربية من متحف الكويت الوطني.

كان المرحوم عبداللطيف قد توفي في صباح يوم السبت الحادي والثلاثين من شهر يوليو لسنة ١٩٩٩م، وفي أول جمعة بعد وفاته تلفت عبدالحميد البسيوني في المسجد يبحث عن صاحبه الذي يعرف – تمامًا – أنه توفي، ولكن قلبه لم يكن يصدق ذلك، فقال قصيدة سماها «الرثاء المبتور» ذلك لأنه بدأها بدون مقدمات هكذا:

وبعدَ الصَّلاةِ ستبحثُ عيني
وأخطو إلى حيثُ كانَ بقلبي
وأسألُ بالصَّمتِ يعقوبَ عنهُ
ومرزوقَ والعارفيه، وصحبي
وكلُّ خفيٍّ بحبِّ الكويتِ
وذكرى القديم، بأشواقِ صَبِّ
وتسألُ عنهُ معي «قِبْلة»
و«شَرْق» ودور على كلِّ درب

وتسـألُ عنـهُ ربـوعٌ سقاها
بـكـاسـاتِ عـشـقٍ وألحـانِ حُـبْ
ويـسـألُ سـورُ الـكـويـت المجيد
أحـقًا – ولا تـصدقـوا – مـاتَ تَـرِبي

والقصيدة – طويلة، وفيها لمحات فنية رائعة كم كنت أتمنى أن أثبتها كاملة هنا لولا ضيق المقام.

ولكني أشير إلى المقدمة النثرية التي كتبها في بداية القصيدة، فهي الأخرى تحتوي على روح الشعر الذي أثارته الفاجعة، ومما قال فيها: «رحل عنا إلى جوار ربه الصديق العزيز، الشاعر الراوية، عبداللطيف الديين.. وبفقده خسرنا أديبًا صافي الذهن، كانت الكويت بشرًا وأرضًا وتاريخًا بين عينيه وفي قلبه وعقله، أما أنا فقد خسرت – إلى ذلك – معلمًا وصديقًا غاليًا، وأهدي هذا النظم المبتور لمحبي الفقيد، وعارفيه، وأخص منهم الشيخ الجليل المهيب، الشاعر العالم الفقيه سيدي: إبراهيم بن سليمان الجراح».

وعندما حلّ بنا الدمار الصدامي البغيض الذي استمر من اليوم الثاني لشهر أغسطس لسنة ١٩٩٠م حتى اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٩١م كان عبدالحميد البسيوني مقيمًا في الكويت كثير اللقاء بنا كعادته، وكان يتحمل الآلام التي يراها وقد بدأت تنهش في الأرواح والقلوب قبل الأجسام. وكانت له في هذه الفترة مع والدي رحمه الله قصة تروى، ذلك لأنه منذ وصل إلى الكويت وهو على صلة قوية به وصلت إلى حد الصداقة المتينة. وكان الوالد صابرًا محتسبًا أثناء فترة الغزو إلى أن جاءت النهايات فمنع من الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة، فانهارت صحته وتسارع به المرض حتى قضى نحبه في فترة وجيزة ساعد على قصرها عدم توفر بعض الأجهزة الضرورية التي كان علاجه في حاجة إليها، فقد

سرقها العراقيون فيما سرقوا من معدات المستشفيات وأدويتها – واعتبرنا وفاته – والله أعلم. نوعًا من الاستشهاد. وقد أثار هذا الموقف في نفس أخي عبدالحميد البسيوني خواطر كثيرة عبّر عنها في قصيدة طويلة سماها «شاهد وشهيد» حكى فيها قصة الشهيد على لسان الشاهد الذي هو الشاعر وقصة الاحتلال البغيض الذي عانى منه مثل ما عانينا.

وقد نشرت هذه الملحمة في كتاب مستقل، كتبت في مقدمته بعض الأمور المهمة ولكني أود ذكر شيء قليل من ذلك في هذا المقام: «... وقد كان من سعادتنا. نحن الإخوة الثلاثة أن يكون لنا الأخ الرابع لفضله وعلمه وخلقه النبيل، كما أنه كان وثيق الصلة بوالدنا – رحمه الله – وكان كثير الالتقاء به وقد ظلا يتبادلان الحب الخالص والمودة الصادقة، ولذا فقد كان قريبًا منه جدًا في أيامه الأخيرة حيث لم يستطع أن يمرّ عليه هذا الحادث دون أن يسجل انطباعه عنه وشعوره به، فجاءت هذه القصيدة الملحمة التي لا أدعي أنني أقدمها للقارئ الكريم بهذه المقالة، بل هي تقدم نفسها صورة جميلة دالة على الوفاء والإخلاص ليس للشهيد فقط بل للكويت ككل، بالإضافة إلى ما اتصفت به من صدق فني وتعبير راق عن موقف من أشد المواقف عند الأمم».

ولقد حاولت اختيار بعض أبيات هذه الملحمة لكي يطلع القارئ على طريقة الشاعر فيها، وعلى بعض المعاني المهمة التي تطرق إليها، ولكني وجدت في ذلك نوعًا من الاستحالة لأن أبياتها مترابطة بشكل يمنع انتقاء بعضها، ولأن أي اختيار يعطي الانطباع بأن هذا المختار هو افضل ما فيها على حين أنها كانت متكاملة تأبى أن تتحول إلى أجزاء.

كان الأستاذ البسيوني قارئاً نهمًا، لا يمل القراءة، وكان متنوع القراءات لا يترك مجالاً من المجالات إلا وقرأ فيه فهو يقرأ كتب التفسير والحديث والنحو

واللغة والتاريخ وكتب الأدب ودواوين الشعر، وبالجملة فإنه لا يترك كتابًا وقع في يديه إلا وقرأه وكتب تعليقه عليه، وقد منحه الله مقدرة الحافظة الذكية فهو يحفظ الكثير من كل ما قرأ، وهذا ما يعطيه السيل الدافق من العلم الذي يقدمه لكل سائل ويلقيه على كل مستمع، بل وكان فوق ذلك كله كثير الاحتفاء بالعلماء يحرص على لقائهم وتوجيه الأسئلة إليهم بغية استثارة معلوماتهم والاستفادة منهم، وكانت الجلسة من جلسات الديوانية التي يحضرها بوجود أحد هؤلاء مجالا للاستفادة من العلم والاستزادة منه لأن النقاش والسؤال والجواب مما يحيي المعلومات وقديمًا قيل: «حياة العلم مذكراته».

وهو إلى جانب ذلك حريص على أن يقيد كل ما يقرأ أو - على الأقل - كل ما يلفت نظره في كتاب أو مقال، وحريص على تسجيل ملاحظاته واستدراكاته، إضافة إلى أنه كتب عددًا من الموضوعات المهمة كان يأبى أن يطبعها بدعوى أنه لايزال في حاجة إلى مزيد من التدقيق. وقد قام الأخ الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم بالاهتمام بتراث صاحبه فنشر له أربعة كتيبات مهمة هي:

١ - كتاب «وهزم الأحزاب وحده» وهو خاص بالحديث عن غزوة الأحزاب التي نشبت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي المقدمة عن هذه الغزوة: «وإنما اخترتها لأنها - كما سيرى القارئ - أدنى مشابهة، وأقرب قرابة مما نحن فيه، فهي - أولاً - صفحة من تاريخ اليهود الأسود، تكشف كيف مرد القوم على الجحود والكفران، وعداوة الخير حيث كان، وكيف كانوا من قديم حرب على الإسلام وأهله».

وفصل بعد ذلك هذا الأمر ثم بدأ في عرض تاريخ الغزوة من جميع جوانبه، بحيث يخرج القارئ من قراءته له بحصيلة تاريخية علمية، وبإحساس بعظمة القيادة عند الرسول الكريم الذي جابه مجموعات كبيرة من البشر المعادين له فصمد لهم حتى رد - بعون الله - كيدهم إلى نحورهم.

٢ - كتاب «عامية لكنها فصيحة»، ولقد كان اهتمام الأخ عبدالحميد البسيوني باللهجة الكويتية كبيرًا، بدأه منذ وصل إلى الكويت، وهذا الكتاب ترسيخ لذلك الاهتمام، وقد تناول فيها عددًا من ألفاظ اللهجة الكويتية عائدًا بها إلى أصولها العربية، فأحسن في ذلك كثيرًا، وكم كنا نود لو أن الفرص قد أتيحت له لكي يستمر في هذا النوع من البحث حتى يتناول أكبر قدر من الألفاظ.

٣ - كتاب «من برِّ القرآن الكريم» وهذه هي الطبعة الثانية للكتاب، بعد أن نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر في سنة ١٩٦٤م، والكتاب إلمام جيد بكل ما يتصل بمعنى البر في القرآن الكريم، استند فيه على كثير من الآيات الدالة على ذلك، وأجاد إجادة تامة في طرح هذا الموضوع المهم الذي لم أجد أحدًا اعتنى به هذه العناية من قبل.

٤ - كتاب «المادحون لرسول الله صلى الله عليه وسلم». وقد جمع فيه عددًا كبيرًا من القصائد التي امتدح الشعراء فيها الرسول الكريم، وذكر أسماءهم، وبيانًا عن حياتهم بشيء من الإيجاز، ولكنه إيجاز لا يخل بالموضوع، ولا يقتطع فائدة من السياق.

هذا وللأستاذ عبدالحميد كتاب لم يأت دوره للطبع حتى الآن وهو كتاب مهم في نقد طبعة د. عبدالمعطي القلعجي لكتاب دلائل النبوة للبيهقي، وهو كتاب نفيس يتكون من عدة مجلدات لم يوفق المحقق القلعجي في تحقيقه، لأنه ليس من أهل هذا الفن وإن حاول كثيرًا، ذلك لأن أول ما يجب على المحقق أن يعمله هو ذكر من سبقه إلى تحقيق الكتاب وكان شيخنا الأستاذ السيد أحمد صقر قد أصدر المجلد الأول منه بتحقيق راق لا يصل إلا إلى مقدار قليل منه أمثال القلعجي، ومع ذلك فإن هذا لم يذكر شيخنا، من أجل أن يقول إن الكتاب حقق لأول مرة، كتاب الأستاذ

البسيوني الذي نشير إليه تحت عنوان: «عبث القلعجي بكتاب دلائل النبوة للبيهقي» نأمل أن يأتي اليوم الذي نرى فيه صدوره لكي يصحح كل من امتلك نسخة من تحقيق القلعجي ما بيده حرصًا على وضع الحقائق في أماكنها.

إضافة إلى كل ما سبق فإن للأستاذ البسيوني كتابات كثيرة هي عبارة عن مقالات وبحوث وتصحيحات ودروس مكتوبة وكلها تحتاج إلى جمع وطبع لما لها من أهمية لأنها تدل على جهد كبير في سبيل المعرفة بذله أثناء حياته، وتدل على أسلوب تلقيه عن العلماء، وكيف يستفيد طالب العلم منهم. فهي - على كل حال - كنز من العلم لا غنى عنه، ومن عدم الوفاء أن يترك حتى يفقد.

فعسى الله أن يقيض له أحد محبي الأستاذ لكي يتولى جمعه وطبعه ونشره، أسوة بما جرت به العادة حين يقوم الطلاب بجمع آثار أساتذتهم مما يحفظ تلك الآثار، أما الأخ الأستاذ الدكتور عبدالله فإن قيامه بطبع هذه الكتب الأربعة فيه الكفاية ويستحق عليه الشكر.

في ختام مقالنا هذا نعود إلى حديث آخر لابد من العودة إليه، فنقول:

عندما حلت بنا الفاجعة بانتقال هذا الأخ الكريم إلى جوار ربه كتب عنه عدد من محبيه مقالات دلت على مكانته في نفوس هؤلاء، ومنهم أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم الذي كتب مقالاً مهمًا نشر حالاً في إحدى الصحف ثم طبع في كراس تحت عنوان: «في رحاب الله، عبدالحميد البسيوني ذكي القلب واللسان» تحدث عنه حديث المحب وأورد جزءًا من سيرته الذاتية، وعلاقاته بالعلماء ورأي أخينا المرحوم الدكتور محمود الطناحي به حين أنزله منزلة عالية في كتابه: «في اللغة والأدب» كما تحدث عن عمله في الكويت إلى أن عرّج على الجهود التي بذلها في مشروع «قاموس القرآن الكريم» الذي سبقت الإشارة إليه، وكل ما ذكره أخي عبدالله له دلالته على مكانة الفقيد في نفسه وأسفه لفقده، وعلى تقديره لعلمه وخلقه.

وكتب الأستاذ مهنا حمد المهنا مقالاً تحت عنوان: «ذكريات من الأستاذ عبدالحميد بسيوني رحمه الله»، كما كتب الأستاذ محمود حربي مقالاً آخر عنوانه: «في وداع أبي تميم» ولا أستطيع أن أحصي جميع ما كتب عنه هنا لكثرة ما كتب ولكنني أشرت إلى بعض ذلك إشارة فيها الكفاية.

وفي الختام أتوجه بالدعاء الصادر من القلب إلى الله أن يتغمده برحمته، وأن نجد في الأمة من أبنائها من يستطيع القيام بدوره، ويا أبا تميم إننا لن ننسى ما عرفناه عنك من خلق كريم، وعادات طيبة، وعلم غزير، ولقد غرست بسيرتك الطيبة في نفوسنا الكثير، وهذا الكثير لا يمكننا نسيانه.

****

ملحاق خير

في يوم السبت الثامن شهر نوفمبر الجاري، ودعنا إلى رحمة ربه أخًا عزيزًا وزميلاً وفيًّا، هو المرحوم عبدالعزيز علي العبدالحميد البحر، لقد فجعت بوفاته، وحزنت على ذلك كثيرًا، وبخاصة وأنني قد أمضيت فترة طويلة لم أجد المجال للاتصال به، والإطمئنان عليه كما جرت بذلك عادتي معه، وكان الخبر المفاجئ بوفاته في صحف يوم السبت ذا وقع آليم عليّ، إذ أحسست بالتقصير تجاهه، وهو الذي يستحق كل اهتمام ورعاية.

الأخ أبو علي زميل دراسة قديم كنا في خمسينيات القرن الماضي معًا من طلاب معهد الكويت الديني، وكان بقدر ما هو صديق لي كان صديقًا لكل الطلاب لما فطر عليه من طيبة وإخلاص ووفاء، وكانت علاقاته متشعبة مع الجميع حتى مع المدرسين والفراشين الذين لم يكن يفرق بينهم في التعامل، وفي حسن اللقاء، والحرص على معرفة أحوالهم، وأذكر أنه قبل بداية العام الدراسي كان ينتهز فرصة عودة المدرسين من إجازاتهم فيمر عليهم جميعًا واحدًا فواحدًا في منازلهم يسلم عليهم ويحمد الله لهم بالسلامة، ولم يكن هذا الأمر مطلوبًا منه، ولكن الطبع الجميل الذي طبع عليه، حبه للجميع، وحرصه على التواصل معهم هي التي كانت تدفعه إلى هذه الزيارات، ولقد كنت معه في بعضها ورأيت كيف كان المدرسون يحتفون به ويشكرون له مبادرته بزيارتهم وتحيتهم.

تخرجت من معهد الكويت الديني قبله بعام دراسي واحد، وسافرت إلى مصر من أجل الدراسة، وكانت المراسلات منه ومنّي مستمرة بيننا، كنت أعرف أخباره، ويعرف أخباري، وزاد على ذلك فكان يزور والدي يوميًّا يسأله عن أخباري ويبلغه بما وصله منّي من رسائل، حتى صارت علاقة الرجلين من أقوى العلاقات، وفي العام الدراسي اللاحق تخرج وحصل على الشهادة الثانوية، وتقرر سفره إلى مصر، فالتحق بالأزهر الشريف بكلية الشريعة، وكان هذا هو المكان المحبب لديه، وذلك لشدة حبه للمدرسين الذين كان يتلقى العلم عنهم في معهد الكويت الديني.

سعدت جدًا بوصوله إلى مصر، وتابعت معه بعض الإجراءات التي لابد منها لطالب مستجد، بصفتي الأقدم بسنة كاملة وواصل دراسته، وتنقل بين مناطق القاهرة من حيث السكن، وكان آخر مسكن زرته فيه في منطقة العجوزة، وفي هذه الزيارة أبلغني بعزمه على الزواج، فتمنيت له حظًا سعيدًا وزواجًا مباركًا، وذهبت معه في اليوم التالي إلى الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري، وكان يومها مسؤولاً عن الطلاب في بيت الكويت بالقاهرة، كان أبوعلي يظن أن النظام قد يكون حائلاً أمام رغبته في الزواج وكان في الوقت نفسه حريصًا على اتباع النظام، وقد اطمأن كثيرًا حين أبلغه الأستاذ عبدالله زكريا بعدم وجود ما يمنع ذلك، فتوكل على الله، وتم الزواج.

سار في طريق شاقة من الناحية الفكرية والمادية فأمور الدراسة تحتاج إلى وقت كبير، وأمور المنزل تحتاج إلى مثل ذلك، إضافة إلى الشؤون المالية التي لا يفي بها مقدار ما يتقاضاه بصفته طالبًا في البعثة، هنا فضّل حياته الزوجية فقطع دراسته وعاد إلى وطنه.

ومنذ عاد وهو يعمل في وزارة العدل إلى أن تقاعد وكان كعادته محبوبًا من رؤسائه وزملائه، ومن المراجعين الذين يعني كثيرًا بأمور وتسهيل احتياجاتهم.

أفرحني بقدومه إلى ديوانية الثلاثاء أكثر من مرة وكنت أتمنى أن تزيد المرات، وفرح بلقياه أَخوايَ، وعدد من الحاضرين الذين كان منهم بعض زملائه القدامى في معهد الكويت الديني، وأعجب به من لا يعرفه فقد كان حديثه ممتعًا وكان حضوره دليلاً على الوفاء، وعلى عدم نسيانه للأيام الجميلة التي عشناها في الكويت وفي القاهرة.

وقد انقطع بعد ذلك، ثم سمعت أن حادثاً قد حدث له أدخل بسببه إلى مستشفى الرازي، وهرعنا أنا وأخي الدكتور مرزوق إلى زيارته، فوجدناه على حالته التي عهدناها منه، فعلى الرغم من الكسور التي كان يعاني منها، فقد كانت معنوياته عالية، وكان يتحدث بالطلاقة التي اشتُهر بها ، وطبع عليها، ولكنه عندما خرج من المستشفى لم تكن باستطاعته معاودة زيارتنا، وكنا نتلمس له العذر بسبب هذا الحادث، إلى أن قرأنا نعيه في الصحف.

رحم الله الأخ الفاضل عبدالعزيز العلي العبدالحميد البحر، وأحسن إليه بقدر ما امتاز به من وفاء، وما حصل عليه من محبة الناس، وأسكنه فسيح جناته.

****

الأماكن الكويتية في كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي[1]

لا أدعي أنني كتبت هذا المقال حالاً، ولكني أعدت قراءته وأضفت إليه أشياء لم تكن فيه حتى صار كأنه وليد اليوم. وأصل هذا المقال محاضرة ألقيتها في رابطة الأدباء الكويتيين في اليوم الحادي والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ٢٠٠١م. وقد مرّ وقت كافٍ عليها حتى يستطيع كاتبها أن يقوم بتنقيحها والإضافة إليها، فما يكتبه المرء في يومه لابد وأن يجد فيه ما يحتاج إلى مثل ذلك في الأيام اللاحقة.

اهتم العلماء العرب منذ زمن بعيد بالتأليف في الموضوعات الجغرافية، وكان عملهم هذا في اتجاهين يتعلق الأول: منهما بالمعاجم الجغرافية ويتعلق الثاني: بكتب البلدان والمسالك إلى الممالك.

وقد بدأ أبو عبيدالله بن عبدالعزيز البكري العمل على هذين الاتجاهين حينما ألف كتابيه: «معجم ما استعجم» و«المسالك والممالك»، ويعتبر كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي، قمة في الاتجاه الأول وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» لمحمد بن أحمد المقدسي قمة في الاتجاه الثاني، كل ذلك إثر محاولات سابقة أدت إلى وصول هذا الفن إلى ما وصل إليه عند من أشرنا إليهما.

وللدلالة على قدم اهتمام علمائنا بهذين المجالين نعرض هنا إلى بعض الأسماء التي ألّف أصحابها فيهما وهم:

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١١/١٩م.

- **عبيدالله بن عبدالله بن خرداذبه المتوفى في سنة ٢٨٠هـ، وكتابه: المسالك والممالك.**
- **إبراهيم بن محمد الإصطخري المتوفى في سنة ٣٤٦هـ، وكتابه: مسالك الممالك.**
- **محمد بن حوقل المتوفى في سنة ٣٦٧هـ، وكتابه: صورة الأرض.**
- **محمد بن أحمد المقدسي المتوفى في سنة ٣٧٥هـ، وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.**
- **أبو عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٩٦هـ، وقد ذكرنا اسمي كتابيه.**
- **ياقوت الحموي المتوفى في سنة ٦٢٦هـ.**

وهناك أعداد كبيرة من العلماء الذين ألّفوا في هذا الفن لا مجال هنا لتعدادهم أو ذكر أسمائهم.

وشهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي نموذج رائع من تلك النماذج التي زخر بها التاريخ العلمي العربي، وبرز فيها مدى الاهتمام بالعلم بشكل عام، فقد أُسِرَ في بداية حياته من قبل الروم، ثم حمل إلى بغداد حيث تم بيعه إلى تاجر يدعى عسكر الحموي، الذي أدخله إلى الكتّاب لكي يتعلم الخط فينتفع به في ضبط أعماله، ثم أصبح تاجرًا جوالاً لمولاه، ولكنه كان في إحدى فترات حياته ناسخًا للكتب الأمر الذي أفاده كثيرًا، حتى أصبح موسوعة علمية متنقلة بسبب ما قرأه من كتب في أثناء نسخها، توفي في سنة ١٢٢٨م في مدينة حلب.

وكتاب ياقوت المسمى «معجم البلدان» كتاب جليل القدر، عظيم الفائدة يحتوي معلومات مهمة ومفيدة عن عدد كبير من الأماكن في العالم المعروف له في أثناء حياته، ويضم أخبارًا كثيرة وأشعارًا متنوعة، وقد طبع عدة طبعات منها الطبعة

المتوافرة الآن، وهي طبعة دار صادر ببيروت التي تكرر نشرها منذ سنة ١٩٥٥م وتتكون من أربعة مجلدات ضخمة، بدأها المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن موضوع الكتاب، وبواعث تأليفه له، كما تحدث عن سابقيه من المؤلفين، ثم ذكر الأبواب التي يتكون منها الكتاب وهي خمسة نص عليها بما يلي:

الباب الأول: في ذكر صورة الأرض وحكاية ما قاله المتقدمون في هيئتها، وما روي عن المتأخرين في صورتها.

الباب الثاني: في وصف اختلافهم في الاصطلاح على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه ودلائل القبلة في كل ناحية.

الباب الثالث: في ذكر ألفاظ يكثر تكرار ذكرها فيه يحتاج المرء إلى معرفتها كالبريد والفرسخ والميل والكورة وغير ذلك.

الباب الرابع: في بيان حكم الأرضين المفتتحة في الإسلام وحكم قسمة الفيء والخراج فيما فتح صلحًا أو عنوة.

الباب الخامس: في جمل من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضع دون موضع، لتكمل فوائد هذا الكتاب، ويستغنى به عن غيره في هذا الباب.

ثم يضيف إلى ذلك قوله:

«ثم أعود إلى الغرض فأقسمه ثمانية وعشرين كتابًا على عدد حروف المعجم، ثم أقسم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابًا للحرف الثاني للأول، وألتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه، وإلى أي غاية بلغ، فأقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب: أ ب ت ث... على صورته الموضوعة له، من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها، لأن جميع ما يرد إنما هو أعلام لمسميات مفردة، وأكثرها أعجمية ومرتجلة لا مساغ للاشتقاق فيها».

ومن الجدير بنا ذكره هنا أن المؤلف قد أهدى كتابه إلى خزانة الوزير علي بن يوسف الشيباني منهيًا إهداءه بالأبيات التالية:

فلمّا قَضَتْ نفسي من السَّيرِ ما قَضَتْ
على ما بَلَتْ من شدَّةٍ ولَيَانِ
عِلقتُ بحبلٍ من حبال ابن يوسفٍ
أَمِنتُ به من طارق الحَدَثَانِ
تغطيتُ عن دهري بظلٍّ جناحِهِ
فَعَيْني ترى دهري، وليس يَراني
فلو تسألَ الأيامَ عني لما دَرَتْ
وأين مكاني، ما عَرَفْنَ مكاني

ومن الأماكن التي ذكرها ياقوت الحموي في معجمه عدد من المواضع الكويتية المعروفة لنا اليوم، سواء أكان ذلك باسمها القديم، أم بعد أن لحق بعض أسمائها شيء من التحريف، وسوف نعرض بعضًا مما ذكره صاحبنا عن هذه المواضع بشيء من الاختصار إذ إن المقصود من هذه المقالة إنما هو الإشارة إلى هذا الأمر دون التوسع فيه.

١ - أوارة: ويسمى الموقع اليوم وارة، وهو تل معروف بالقرب من الأحمدي، وفيه يقول ياقوت: « أوارة بالضم» اسم ماء أو جبل لبني تميم، قيل: بناحية البحرين، وهو الموضع الذي حرق فيه عَمْرُو بن هند بني تميم».

ومعروف أن الكويت واقعة ضمن إقليم البحرين بحسب التقسيمات الجغرافية القديمة، وقصة عمرو بن هند مع بني تميم معروفة ومروية في الكتب.

وكانت هذه القبيلة الكبيرة قد عاشت على الجزء الذي فيه الكويت اليوم، وما تاخمه، وورد في كتب التاريخ وأخبار العرب ذكر هؤلاء من حيث حياتهم العامة، أو حروبهم أو أشعار شعرائهم، وكلها تحتوي على أسماء عدد من المواقع الكويتية المعروفة لنا في هذه الأيام.

٢ - برقان: وهو موضع معروف إلى اليوم بهذا الاسم، وعنه يقول ياقوت: «برقان: موضع بالبحرين قُتل فيه مسعود بن أبي زينب الخارجي، وكان غلب على البحرين وناحية اليمامة بضع عشرة سنة، حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي سار إليه ببني حنيفة» فقال الفرزدق:

ولولا سيوفٌ من حنيفةَ جُرِّدَتْ
ببُرقانَ، امسى كاهِلُ الدِّين ازورَا
تَركْنَ لمسعودٍ وزينبَ أُختِهِ
رداءً وجلبابًا من الموتِ احمرَا

وبرقان اليوم - كما هو معروف - مركز من المراكز النفطية المهمة في البلاد، وبه أكبر حقل من حقول نفط الكويت.

وفيما يتعلق بـ (١و٢) انظر كتابنا: أوارة.

٣ - تياس: وهو موضع يقع على الحدود الكويتية الجنوبية وقد سمته بلدية الكويت في الخريطة التي أصدرتها «اللتياس» وهو تحريف للاسم الأصلي، وذكر ياقوت لمسمى تياس عدة أماكن منها قوله: «وقيل جبل بين البصرة واليمامة، وهو إلى اليمامة أقرب». وقال أبو عبيد البكري عن هذا الموضع «تياس.. موضع في بلاد بني تميم، وهو الذي مات فيه العلاء بن الحضرمي».

والعلاء بن الحضرمي رجل من كبار الصحابة، مستجاب الدعوة، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين (التي كانت تشمل الكويت) وبقي فيها في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

٤ - الحومان: ذكر ياقوت هذا الموضع دون تحديد واضح، ومما قاله عنه: «وهو موضع في بلاد بني عامر بن صعصعة».

وهذا الموقع هو المسمى اليوم حومة، وهو في الشمال الغربي للكويت، يأتي على يمين الطريق المؤدي إلى العبدلي وقد ذكره ذو الرمة بقوله:

تَـزاوَرْنَ عن قُـرَّانَ عـمدًا ومَـن بـه
مـن الـنـاس وازْوَرَّت سُـراهُـنَّ عن حَـجـرِ
فـأصْبَحْـنَ بـالحـومانِ يجعلنَ وجهةً
لأعـنـاقـهـنَّ الجـديَ أو مـطـلعِ الـنَّـسر
فـصَمَّـمنَ فـي دَوِّيَّـةِ الـدَّوِّ بـعدمـا
لـقـيْنَ الـتـي بـعـدَ الـلُّـتـيا مـن الـضُّـمر
فـأصبحـن يـحـعلـنَ الـكـواظـمَ يمنة
وقـد قَـلِـقَـت أجـوازُهُـنَّ مـن الـضُّـفـر

وفي هذه الأبيات وصف للطريق من اليمامة إلى كاظمة، وهو طريق يسير بالشاعر من الغرب إلى الشرق، حيث يقول شارح ديوان ذي الرمة: «الجدي والنسر كواكب، يقول جعلن رؤوسهن قِبَل المشرق».

وقد أشرنا فيما سبق مما كتبناه عن كاظمة أننا نجد في هذه الأبيات الدليل على طريق إلى كاظمة في أعلى المطلاع وذلك من الحومان (حومة) إلى كاظمة التي يجدها سالك هذا الطريق على يمينه. أما قائل الأبيات وهو ذو الرمة فقد كان من شعراء الدولة الأموية البارزين وكان كثير التردد على كاظمة وله فيها قصة مع الشاعر الشهير الفرزدق.

٥ - الرحا: يعرف هذا الموقع اليوم باسم الرحية، غربي الجهراء، وفيه يقول ياقوت: «رحا بلفظ الرحا التي يُطحن فيها: جبل بين كاظمة والسيدان».

٦ - رمم: وهو ما يسمى اليوم أم الرمم، وقد أشار إليه ياقوت إشارة سريعة حين قال: «وقرأته في شعر مضرس بن ربعي:

ولـم أنـسَ مـن ريّـا غـداة تَـعَـرَّضَـتْ
لـنـا دونَ أبـوابِ الـطِّـراف مـن الأَدَمِ
تَـعَـرُّض حـوراء المـدامـع تَـرْتَـعي
تِـلاعًـا وغُـلانًـا سـوائلَ مِـن رَمِم
عـشـيَّـةَ تـبلـيـغ المـودة بـيـنـنـا
بـأعْـيُـنـنـا مِـن غـيـرِ عـيٍّ ولا بكم

ومما يؤكد أن المقصود بهذا الموقع هو أم الرمم المعروف لنا اليوم، قول عمرو بن شأس:

ديـارَ ابـنـةِ الـسَّـعـديِّ هِـنـدٍ تكلَّمي
بـدافِـقَـةِ الحـومـانِ والـسَّـفـح مـن رَمَمِ

وتقع أم الرمم في مقابل حومة على يمين المتجه إلى العبدلي.

ووادي الرمة واد طويل وعريض، يقع جزء منه في غربي الكويت من جهة الشمال ولا ينتهي عند حدودها فامتداده أكثر من ذلك، ويسمى اليوم: وادي الباطن.

٧ - سفوان: ولئن كان هذا الموقع داخلاً اليوم ضمن الحدود العراقية مقابلاً لمنطقة العبدلي الكويتية، فإنه كان - في وقت ما - ضمن حدود الكويت. ففي رسالة من الشيخ مبارك الصباح يبين فيها حدود الكويت للسلطات العثمانية جاء ما يلي: «وحدودنا من شمال أم قصر التي بناها جدنا جابر، وسفوان».

٨ - السيدان: وهو المسمى حاليًا السَّادَّة، وهو موقع يجده من يطلع على خريطة الكويت غربي الجهراء عن يمين المتجه إلى السالمي الواقع - غربًا - بالقرب من الحدود الكويتية السعودية.

وحول حدود السيدان القديم حديث طويل أوردته في كتابي «السيدان، قبس من ماضي الكويت».

وعنه يقول ياقوت: «موضع وراء كاظمة بين البصرة وهجر، وقيل ماء لبني تميم في ديارهم»، وقد ذكرناه عند الحديث عن «الرحا».

٩ - الشجي: وهو ما يسمى اليوم «الشقايا» يقع غربي الكويت، ذكره ياقوت بقوله: «والطريق من المدينة إلى البصرة يسلك من الشجي والرحيل في القف، ثم يأخذ في الحزن على الوقباء، وبين الشجي وحفر أبي موسى ثلاثون ميلاً».

وقد تحدثت عنه كثيرًا في كتابي السابق ذكره.

ومما ذكر من الأماكن المعروفة اليوم «الرحيل» وهو باسمه هذا ظاهر على خريطة الكويت.

ولكنه مكتوب خارج حدودنا الحالية، وإن كان مما يُظن أن جزءًا منه يقع داخل الكويت لأنه واسع، وقد وصفه ياقوت وصفًا دقيقًا ذاكرًا أن فيه آبار مياه عذبة عميقة الغور.

١٠ - طوالة: ويسمى اليوم: الطويل، ويقع بالقرب من برقان وأوارة، قال ياقوت: «طوالة بالضم: موضع ببرقان فيه بئر» وقد وصف هارولد ديكسون طوالة بقوله: «الطويل: وهي مجموعة من اثنتي عشرة بئرًا مياهها عذبة، وعمقها حوالي ٤٠ قدمًا، وتقع على بعد ستة أميال إلى الغرب من وارة».

١١ - العدان: يطلق اسم العدان عندنا على الساحل الممتد من رأس الأرض شمالاً حتى نهاية الحدود الكويتية جنوبًا. وعنه يقول ياقوت: «عدان: موضع في ديار بني تميم بسيف كاظمة، وقيل ماء لسعد بن زيد مناة بن تميم، وقيل هو ساحل البحر كله كالطّف».

ومهما يكن من أمر فيما يتعلق بأقوال ياقوت هذه، فإن من الواضح ارتباط اسم العدان بساحل البحر من جهة وبالجهة التي فيها كاظمة من جهة أخرى.

١٢ - فردة: وهو اليوم الفرّيدة، هكذا قال أستاذنا أحمد البشر الرومي، وقال ياقوت: «فردة... اسم جبل بالبادية» ومثل لذكره في الشعر بقول الراعي النميري:

عَجِبْتُ من السَّارينَ والريحُ قَرَّةٌ
إلى ضوءِ نارٍ بين فَردَةَ والرَّحى
إلى ضَوءِ نارٍ يَشْتَوي القِدَّ أهلُها
وقد يُكرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشتَوى

وذِكْرُ هذا الموضع على لسان هذا الشاعر، واقترانُه بالرحا الذي سبق لنا أن تحدثنا عنه دليل على أن المقصود بفردة هو الفريدة الذي استحال على مرّ الأيام من جبل إلى تل صغير واقع في الجزء الجنوبي الغربي من الجهراء.

١٣ - القصيبة: ويسمى اليوم أم أقصبة وهو موضع على الطريق المؤدي إلى النويصيب بعد اجتياز أم الهيمان، وقد ذكره ياقوت بقوله: «ويوم القصيبة: لعمرو بن هند على بني تميم، وهو يوم أوارة، قال الأعشى:

ونكون في السَّلَفِ الموا
زي مِنْقَرًا وبني فزارة
أبناءَ قومٍ قُتِّلوا
يومَ القُصَيْبَةِ مِن أوارَه

وعلى الرغم من أن ياقوتًا قد ذكر عدة مواضع بهذا الاسم فإن شعر الأعشى له أهميته فيما اخترناه، ولا يمنع أن يوم أوارة قد شهد شيئًا من الكر والفر اتسع بسببهما ميدان المعركة حتى وصل إلى أم قصبة التي تبعد حوالي عشرين كيلو متراً عن أوارة.

١٤ - كاظمة: حافظت كاظمة على اسمها ولكنها لم تحافظ على مساحتها إذ إن من المعروف أن هذا الاسم يشمل موقعًا أكبر من الموقع المعروف اليوم الذي يقع على الطرف الغربي لجون الكويت.

وعنها يقول ياقوت: «كاظمة: جون على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة، بينها وبين البصرة مرحلتان، وفيها ركايا كثيرة، وماؤها شروب، واستسقاؤها ظاهر، وقد أكثر الشعراء من ذكرها».

ومن هذا الذي ذكره ياقوت، قول مهيار الدارمي:

يا نسيمَ الصُّبحِ من كاظمةٍ
شدّ ما هِجتَ الجوى والبُرَحا

الصَّبا إن كان لابدّ الصَّبا
إنها كانت لقلبي أرْوَحا

وقول الشريف المرتضى:

لو كانَ للواشينَ مقدرةٌ
ما سوَّغوك زيارةَ الحلمِ

زرت الألى باتوا بكاظمةٍ
متلثمين جوىً على الرَّضمِ

طرحوا الخدودَ على سواعدهِمْ
والليلُ في أثوابهِ السُّحمِ

ولقد طَرقتِ وما طروقُكِ في
عِلْمٍ لقائِفِهم ولا رجمِ

١٥ - كُدَد، يقول ياقوت: «كدد، بضم أوله وفتح ثانيه، موضع قرب أوارة».

وقد سبق لي أن قلت أن كدد هو الموضع المعروف في وسط الكويت المسمى اليوم الشدادية، وكان يُدعى الجدادية بالجيم المعطشة التي لا شك في أنها انتقلت من الكاف التي هي الأصل، وقد سمعت بعضهم يقول: «الكدادية، وبذلك فإن الاسم تحول مع الزمن من «كدد» إلى الشدادية.

١٦ - وذكر ياقوت خرم قائلاً: الخرم بكاظمة جبيلات وأنوف جبال ويرى المتجه إلى الصبية على يمينه سلسلة مرتفعات غضى، التي يطل جزء منها على الطريق المتجه إلى كاظمة شمالاً منفصلاً عن طريق الصبية، ومن الجدير بالذكر أن (غضى) وهو من المواقع التي لم يتردد ذكرها في المعاجم الجغرافية القديمة مذكورة في كتاب «الكامل في التاريخ» لابن الأثير عند حديثه عن بدايات معركة القادسية، حيث كان من الأماكن التي نزل بها الناس في مرحلة من مراحل الاستعداد للمعركة».

ومرتفعات غضى المقابلة لكاظمة جنوبًا عنها هي التي عناها ياقوت باسم خرم، وتسمى أيضًا: المخارم، وقد وردت هذه التسمية في كتاب لغدة الأصفهاني المسمى «بلاد العرب» حين قال واصفًا الطريق: «ثم تجوز إلى موضع يقال له المخارم حتى تهبط كاظمة».

١٧ - والمقر: وقد ذكر أستاذنا أحمد البشر الرومي أن المقصود به ما يسمى اليوم أمغرة، وهي بئر من مجموعة آبار تقع في منخفض مرتفعات غضى وحولها أكمة مشرفة عليها. وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى هذا الموقع فقال: «المقر: جبل كاظمة، وفيه قبر غالب» وغالب هذا هو والد الفرزدق

الشاعر. وقال ياقوت: «المقر: علم مرتجل لاسم جبل كاظمة في ديار بني دارم»، وأضاف: «وقال العمراني: مقر موضع بكاظمة، وقيل: أكمة مشرفة على كاظمة».

وهناك حديث طويل حول الموقع، وحول قبر أبي الفرزدق، وما دار حوله من أحداث سوف يجدها من يريد الاستزادة في كتابنا: «كاظمة في الأدب والتاريخ».

١٨ - ملح: وهو موقع قريب من المقوع، على طريق الأحمدي القديم، وقد ذكر ياقوت عددًا من المواقع بهذا الاسم أقربها إلى موقعنا هذا قوله: «وقال السكري: ملح ماء لبني العدوية، ذكر ذلك في شرح قول جرير:

يا أيُها الرَّاكِبُ المُزجي مَطِيَتَهُ
بلِّغ تحِيَّتَنا، لُقّيتَ حُملانا

تُهدي السَّلامَ لأهلِ الغَورِ من مَلَحٍ
هيهاتَ من ملحٍ بالغور مُهْدانا

أحَبُّ إليَّ بذاكَ الجزعِ منزلةً
بالطَّلحِ طَلحًا وبالأعطانِ أعطانا

١٩ - الوفراء: وهي القرية والمنطقة الزراعية الواقعة في جنوبي الكويت، ورد ذكرها في كتاب لغدة الأصفهاني «بلاد العرب»، وفي كتاب معجم ما استعجم للبكري، وفي شعر الأعشى، وقد قال ياقوت: «ووفراء: اسم موضع» ولم يحدد، ولكن ما ورد في المراجع الأخرى يقربنا إلى القول بأن وفراء المقصودة هي هذه التي بيننا، وبخاصة أن الأصفهاني يقول عنها إنها «من مياه بني مالك بن سعد وبني الحرماز بن مالك» وهم من سكان المنطقة التي نعيش عليها اليوم.

هذه نماذج مختارة من الأماكن الكويتية التي ذكرها ياقوت في كتابه. وهناك مواضع أخرى تشابه أسماؤها أسماء مواضع في الكويت ولكن مواقعها مختلفة.

كما أن هناك مواضع لم يذكرها، ولكنها مذكورة في عدد من الكتب، مثل كتاب «معجم ما استعجم من أسماء الأماكن والبقاع» للبكري، ومثلما ورد في أشعار الشعراء الذين أوردوا ذكر بعض أسماء الأماكن الكويتية مما لم يذكره ياقوت كموقع اللياح وأديرع الواقعين في الجهة التي فيها حومة التي أشرنا إليها فيما سلف، وقد ورد ذكرهما في قصيدة للشاعر نهشل ابن حري بن ضمرة حيث يقول:

ولم تحموا على نَعَمِ ابن سُوْرٍ
صوامَ إلى إذيرعَ فاللياحِ

ومن المواقع التي لم يذكرها ياقوت (الدو) والمسمى اليوم الدبدبة في الزاوية الغربية للكويت.

والحجيجة، الموقع الكائن بقرب الصبية، وقد سمي باسم امرأة تدعى الحجيجة التغلبية، وكانت لها قصة في هذا الواقع، وللحجيجة «الموقع» ذكر في تاريخ الكويت الحديث، وبخاصة في عهد الشيخ مبارك الصباح، وذلك حينما كان الجدال على أشده بين الكويت والدولة العثمانية بشأن جزيرتي وربة وبوبيان، وقد حاول الأتراك احتلال الحجيجة - آنذاك - ولكن الشيخ بادر إلى إرسال أربعين رجلاً مسلحًا فوتوا الفرصة على الطامعين.

ومن الأماكن التي لم يذكرها ياقوت: الفوارس وكان يسمى الفارسي وهو موقع بالقرب من تياس الذي أشرنا إليه في جنوبي الكويت.

ومنها: الضباعية وكان الموقع معروفًا باسم: ضُباع ويبعد عن الكويت مسافة ٥٩ كيلو مترًا إلى الجنوب، ومن الأماكن التي لم يذكرها صاحبنا: المناقيش وكان يسمى المنقاشية، وهو موضع معروف في جنوب غربي الكويت.

ولايزال البحث في الأماكن الكويتية يؤدي إلى العثور على ما له تاريخ منها ينبغي أن تتم حوله متابعة عملية تقرب منه ما ابتعد عن أذهان الناس.

وبعد، فهذه عجالة حول موضوع أراه من أهم الموضوعات التي يجب أن تستمر الدراسة حولها، ومسميات المواقع تعطي المؤرخ فرصة كبيرة يعرف من خلالها تاريخ كل موقع، وأخبار البشر الذين مروا عليه. ولذا فإن من الضروري الحفاظ على الأسماء، والعودة إلى القديم منها في حالة التحول عنه، ولا أنسى التذكير بضرورة العمل على إحياء التاريخ القديم للأراضي الكويتية حتى نربط تاريخنا الحديث بما قدم منه، وهذه مسؤولية الأجيال منذ اليوم، ولا خير في أمة تهمل تاريخها.

ومن الجدير بالذكر أن هذا الأمر الذي اهتم به عدد من علماء أمتنا قد أصبح اليوم من مهمات المنظمات الدولية التي باتت تعنى بتثبيت الأسماء الجغرافية، وتحرص على دوام هذه الأسماء في مواضعها، تمامًا كما هو الحال عندنا حين ننادي بالعودة إلى مسميات مواقعنا كما كانت في الأصل.

****

سل الدجاج العوالي[1]

لنخرج قليلاً من الجديات إلى بعض الهزل الخفيف فإن القول المأثور يقول: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت».

حديثنا واضح من عنوانه، وسوف يرى القارئ فيما يلي السبب المباشر لكتابته.

في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن الماضي، كان الحصول على الدجاج صعبًا وعلى البيض أصعب، ولذا كان كثير من الأهالي يهتمون بتربية هذا النوع من الطيور في منازلهم لسد حاجتهم، وكانت المحتاجات من أولئك يقمن بتربية الدجاج من أجل بيع بيضه والاستفادة من مردود ذلك لسد بعض مستلزمات المعيشة، أما على مستوى البيع، فقد ذكرت في المقال الذي سبق أن نشرته «الوطن» ضمن الأزمنة والأمكنة، وكان عن سوق واجف وقلت يومها إن الجزء الشمالي من البسطات النسائية كانت مخصصة لبيع البيض، وذكرت كيف يجمعنه من المنازل ومن القرى لكي يستطعن تلبية حاجة السوق.

وكان الشاعر المرحوم عبدالله سنان محمد شاعرًا يتناول في شعره - أحيانًا - أطرافًا من الفكاهة، وقد حضر مائدة كان الطبق الرئيسي فيها هو الدجاج، فتذكر قصيدة صفي الدين الحلي المتوفي في سنة ١٣٣٩م ومنها قوله:

سَلِ الرِّمَاحَ العوالي عن معالينا
واستشْهدِ البيضَ هل خابَ الرَّجا فينا

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٦م.

لقد سَعَينا فلم تَضعُف عزائِمُنا

عَمَّا نَرومُ ولا خابَتْ مساعينا

وفيها البيت المشهور الذي يدعي البعض أن علم الكويت وضع على أساس ما فيه من ألوان:

بيضٌ صنائِعُنا سودٌ وقائِعُنا

خُضرٌ مرابِعُنا حُمرٌ مواضينا

فأراد الشاعر (السنان) أن يستغل هذه القصيدة في قول أخرى على منوالها، ولكن بأسلوب فكاهي فقال قصيدته التي نشرت في إحدى الصحف قديمًا كما نشرت في ديوانه ومطلعها:

سَلِ الدُّجاج العوالي عن أيادينا

واستشهد البَيضَ هل خابَ الرَّجا فينا

فجعل رماح الحلِّي دجاجًا، والبيض بكسر الباء بيضًا بفتحها، ولقد كانت قصيدة جميلة نالت شهرة واسعة.

ولأهمية الدجاج في ذلك الوقت فقد كان ذكره كثيرًا ما يتردد في أهازيج الأطفال في الماضي ومن ذلك قولهم:

دجاجَتْنا دجاجَتْنا

سودة ومسلمانية

تبيض البيض تبيض البيض

على مطرح وزولية

وكان الأطفال من الذكور يقلدون العرضة ولكن بأسلوبهم الخاص فينشدون:

يا راكب من فوق رقطا الدجاج

زينة البيض مرباها القطيف

وفي ليلة من ليالي صيف سنة ١٩٦٢م كنت في دمشق بناءً على تكليف من وزارة الإرشاد والأنباء التي كنت أعمل بها آنذاك، وقد أخذني الصديق العزيز أحمد راتب النفاخ إلى مكان ممتع سوف أصفه هنا، والأستاذ أحمد النفاخ عالم متخصص في الأدب العربي عرفته عن طريق المرحوم الأستاذ محمود محمد شاكر، كان الوقت أصيلاً، وتوجهنا بمحاذاة نهر بردى ولم أكن قد شاهدت هذا النهر، فقال لي صاحبي هذا نهر بردى الذي ذكره الصحابي الشاعر حسان بن ثابت حيث يقول:

يَسقونَ من وَرَدَ البَريصَ[1] عَلَيهِم

بَرَدى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلسَلِ

وصلنا إلى ربوة على أطراف دمشق، ولكنها تطل عليها، وإذا المكان الذي يقصده الأستاذ النفاخ مقهى من المقاهي التي تشتهر بها أقدم عاصمة في العالم، ابتهج الحاضرون برؤية صاحبي ورحبوا به ثم بي بعد أن عرفهم علي وكانوا مجموعة من الأدباء والعلماء والشعراء يجتمعون كل مساء في هذا المكان، وقد قصد الأستاذ النفاخ من اصطحابي إلى هذا المقهى هو تعريفي بهم وتعريفهم بي، وكان بعض أسمائهم معروفًا لدي أقرأ له في المجلات الأدبية التي كانت تصدر وقتذاك. ولكن المفاجأة كانت عندما دخل علينا رجل مسن يبدو عليه أثر البؤس فنهض الجميع للسلام عليه فتبين أنه الشاعر المشهور أحمد الصافي النجفي، وكنت أقرأ له ما ينشر من شعر، وقد التف حوله الصحب يسألونه ويطلبون منه أن يقرأ عليهم آخر قصائده، فانفتل يقرأ قصيدة عن الدجاج هذا مطلعها:

اليليَ طِلْتَ وانطفأ السِّراجُ

ولا جيرانُ لي إلا الدجاجُ

فيَمنَعُني الكَرى منهُ صياحٌ

بسمعي منهُ قَرعٌ وانزعاجُ

(1) البَريص: نهر قرب بردى.

لأصحابِ الدَّجاجِ لذيذُ بيضٍ
ولي منه دروقٌ أو عجاجُ

إذا ما الدِّيكُ أولعَ في صياحٍ
فليس له سوى ذبحي علاجُ

لقد كانت أمسية لطيفة سعدنا بها جميعًا.

مرّ ذكر الدجاج كثيرًا في كتب الأدب، وعلى الأخص في كتاب الجاحظ المعروف: «كتاب الحيوان» فقد أكثر من الحديث عنه، وتحدث داوود الأنطاكي صاحب كتاب تذكرة «أولي الألباب» المشهور باسم «تذكرة داوود» كثيرًا عن الدجاج وذكر منافعه، وبيّن النوع الجيد منه، والنوع الرديء، ووصف جدوى تناوله لعلاج عدد من الأمراض لا أستطيع أن أذكرها هنا حتى لا أعد متدخلاً في أعمال أخي العزيز الأستاذ علي البراك وزير الصحة العامة، الحريص على اختصاصات وزارته، وله كل الحق في ذلك.

ومن هنا نعود إلى حديث آخر، ولكنه يتعلق بهذا الطائر الجميل فنقول:

لقد كانت لي ولزملائي في الديوانية تجربة خضنا فيها في موضوع الدجاج بين مؤيد لهذا الطائر محبذ لأكله وآخر لا يرى فيه أكلاً مستساغًا ويفضل عليه غيره من المآكل، بينما نجد البعض محايدًا كما يتبين فيما سنعرضه من أشعار كلها قيلت في موضوع واحد هو هذا الذي أثرناه منذ بداية هذا المقال إلى أن وصلنا إلى هذه المرحلة.

بدأ الأستاذ إبراهيم محمد الشطي ذلك الأمر بأن قدم للديوانية بيتين زعم أنهما من قول المبطط الكبدي، ونحن نذكر ذلك على مسؤولية الأستاذ أبي قتيبة، وكان البيتان يحتويان على حديث عن الدجاج وأن أكله أفضل المأكولات، ويعيب علينا غيره، وقد رددت عليه بأبيات فندت فيها مقولته، وقد تناولت ما ورد في

شعره خطوة فخطوة، ورددت على كل ما قال وقد وجدت تجاوبًا من الحاضرين حين قرأتها عليهم، ولما كانت الأبيات تتضمن أقوال الطرفين: هو وأنا، فقد آثرت إثباتها هنا للفائدة:

وقفتَ لنا تُردِّدُ في اهتياجِ
ونفخرُ بالعيُوشِ وبالدُّجاجِ

وتذكرُ أن شُربَ الشاي صرفا
بُعيدَ الأكلِ أصفى للمزاجِ

وتفخرُ أن شربتَ الماء يومًا
تَجرّعهُ بآنيةِ الزُّجاجِ

وهذي سِلعةٌ قَدُمتْ وبارتْ
وجيءَ بها إلى سوقِ الحراجِ

فهل لك في الدُّجاجِ مقامُ عزٍّ
يزيّنُ رأسَكَ العالي بتاجِ

وأنتَ بحُبِّكَ المحبوسَ تبقى
كماشٍ في الظَّلامِ بلا سراجِ

وتسخرُ حينَ لم نأكل دجاجًا
وتحسبُ أننا قومٌ بُجاجي؟

وما ضَرّ المموُّش يومَ دَجْنٍ
تَذوُّقهُ بالبنانِ النِّعاجِ

فذاكَ الأكلُ ما نهواهُ حقًا
وما ندعو إليه وما نُناجي

إليكَ مقالَنا من بعدِ صَمْتٍ
تجنَّبنا به هذا التَّهاجي

فاقصر عن فَخارك لا تُكابرْ
فليس الفخرُ في فيض اللُّجاجِ

وشـاركـنـا طـعـامًـا لـذ دومًـا

فـقـد فُـزنـا عليك بـالاحْـتِـجـاج

ولما كان الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري رحمه الله يتابع من بعيد كل ما يجري في الديوانية، وبخاصة ما يتعلق بالشعر الذي يستهويه الاطلاع عليه بل والمشاركة فيه، فقد أرسلنا إليه حاصل المحاورة كالمعتاد، وقد استثار الحديث شاعريته فكتب قصيدة جميلة، كان فيها معبرًا عن رأيه في القضية المبططية التي أثارها أبو قتيبة، بل وكان أكثر توسعا منا في إبداء ما عَنّ له حول هذا الموضوع الذي كان لهوًا فغدا جدًا.

انقسمت قصيدة الأستاذ عبدالله من حيث الموضوع إلى قسمين تحدث في أولهما: عن الدجاج كما كنا نتحدث وتحدث في الثاني: منهما عن الأرانب. أما من حيث المعنى فإنه عرّج بنا إلى مسألة سياسية مهمة يفرضها الوضع في تلك الأيام، وبخاصة الأحداث المتعلقة بقضية فلسطين، فجاءت قصيدته، وهي تحمل مدلولين هما: المشاركة في الرد على الأستاذ إبراهيم الشطي، وإسقاط الموضوع على الأحداث الجارية.

ومن المعروف أن للأستاذ زكريا حسًا قوميًا، وهو شديد التأثر بما يحدث في محيط الأمة العربية، وكثيرًا ما كان يشعر بالكدر الشديد عندما يستمع إلى أمر من الأمور المؤذية لهذه الأمة، ولذا فقد انتهز الفرصة وعبّر عن هذه المشاعر أصدق تعبير.

عنون الشاعر قصيدته بعنوان: «إلى عاشق الدجاج» ووضع لها عنوانين جانبيين هما: الدجاج، ثم الأرانب وها نحن نقدمها كما كتبها:

الدجاج:

يناجي طَيفُكَ الساري يناجي
ويحلمُ فيكَ يا قَفَصَ الدَّجَاجِ

ويرقصُ قلبُهُ طربًا إذا ما
غدا فيه يُكَو كِو أو يُجاجي

أفي القفص المفضض راحَ يزقو
زُقاءَ أو يُؤمِّل بانفراج

ولو ذُبحَ الدَّجاجُ وصار لحمًا
بلا صوتٍ يفخُ ولا اهتياج

لسالَ لعابُه ورأيتَ صبًا
يعافُ الأكلَ من لحمِ النِّعاج

وخلتَ مُتيمًا قد طارَ حبًا
لديكَ أو دجاجٍ بابتهاج

وأرخى ثوبَه الضافي عليه
وهَفْهَفَ كي يَقيهِ من انبعاج

وعادَ لنا بأثوابٍ وساعٍ
مُلَطَّخَةً بأنواعِ الخُراج

إذا «المجبوسَ» طَبْقَةُ دجاجُ
أضاءَ رشادَه والطرفُ ساجي

فكيف تقوّم المعوجُ يومًا
إذ ما راح يمشي باعوجاج

فخيرٌ أن تُقوِّمه ببيعٍ
وتأخذه إلى سوقِ «الحراج»

تصيحُ عليه من يشريه عبدًا
ويُبعدهُ إلى أقصى الفِجاج

وتَـزمـيـهِ بـشعـرٍ مِـن شَعـيرِ
لـيـحـيـا بـيـن هـاجـيـةٍ وهـاجـي

الأرانب:

ألا إن الأرانـبَ قـد تمادوا
بتفكيكِ الأواصرِ والوَشاجِ
وعاثَ المفسدون بكلِّ رأسٍ
وراحوا يلعبون بكلِّ تاج
وعاثوا بالشُّعوبِ وأفسدوها
فلا أملٌ وراجيةُ وراجي
يُدَمِّرُ بعضُهُمْ بعضًا ويعلو
عليهِمْ كُلُّ مضطربِ المزاج
هُمُ ملأوا العقولَ بكلِّ لغوٍ
وبالكذبِ المنمَّقِ والحجاج
وقد حسبوا الكذَّابَ لهم سراجًا
فأين المفسدونَ من السِّراج
لقد طُمسَتْ نفوسُهُمْ بزيفٍ
وعاشوا في الحياةِ بلا علاج
(أرانبُ غيرَ أنَّهم ملوكُ)
فكلُّهم ينافقُ أو يُداجي
لقد باعوا فلسطينًا ببخسٍ
وتاهوا في الضَّلالِ وفي اللِّجاج
أهانَهُمُ اليهودُ بها فأضْحَتْ
عقولُهم تُفكِّرُ بارْتِجاج
فمهلاً إنها الدُّنيا تَراءَتْ
لنا شفافةً مِثْلَ الزُّجاج

فَطَوْرًا أنتَ تلهو بابتهاجٍ
وطورًا أنت تحيا بانزعاج

وهو بعد ذلك يبكي القدس ويئن لما حدث لها على أيدي الأوغاد، ويتمنى لها وضعًا أفضل ثم يقول:

فياليتَ الدَّجاجُ يطيرُ يومًا
لطارَ وحطَّ في أعلا الكَراجِ
وصاحَ الدِّيكُ ويحكُمْ أفيقوا
فإنَ الفجرَ آذنَ بانبلاج

وهو هنا يأمل بانبلاج الفجر بعد ليل طويل. رحمه الله

الدكتور سعيد شوارب أحد الأخوة الأعزاء الذين اعتادوا حضور الديوانية وإثراء الأحاديث التي تدور فيها، وتطعيم تلك الأحاديث بأشعاره الجميلة التي يترقبها الحاضرون واستمع إلى الأستاذ إبراهيم الشطي وإلى ما كتب فوجه إلينا معًا القول في قصيدة فاقت ما كتبناه وعبّرت عن مشاعره الخاصة فهو يقول إنه لا يشتاق إلى مكبوس الدجاج كما نشتاق لإنه تعود على المآكل الخاصة بوطنه ويعتذر للمكبوس لأنه لم يصفه وصفًا كاملاً، ونحن هنا نقدم بعض أبياته لضيق المقام يقول:

لأجْلِكما سأكسِرُ من رتاجي
وآكلُ من مكابيسِ الدَّجاج
ولم يكُ بي إلى المكبوسِ شوقٌ
وإن سكبُوا عليه شِوال «ماجي»
ولكنِّي وجدتُ رفاقَ قلبٍ
سرَوْا في ليله، وهمُ سراجي
فبعْتُ رضايَ كي يرضوْا، وهل لي
إذا رَضِيَ الأحبةُ، أن أحاجي؟

شربتُ النِّيلَ أزمانًا، ولكن
لأجلهِمُ، صبرْتُ على الأجاج!
إذا ملكَ الهوَى قلبًا، أراهُ
يقينًا، لا يقومُ على حجاج!
وقد قلَبْتُ أفكاري، لعليّ
إلى «المكبوس» أظفرُ بانفراج
فإنِّي أرفضُ الأشعارَ إلا
إذا اندفَقت إليَّ بلا رَتاج
لأن الفنَّ كالأطفالِ، يبقى
عليلًا، إذ يجيءُ على خِداج!
وبعضُ الفنِّ إنهارٌ، وبعضٌ
جلامِدٍ لا ترقُ، ولا تُداجي!
وبعض الفن أنهار، وبعضٌ
كليْلٍ ساقطِ الأكتافِ، داجي
ولكني رجعْتُ طريدَ شعْرٍ
أفرُّ من الحَراج، إلى الحراج
وأسمعُ غضبةَ الأوزانِ حولي
كتكسير الزُّجاج على الزُّجاج!
فقلت دعِ «المكابيسَ» اللواتي
وخذْ في الحب، فاتسعت فجاجي
إلى جيميَّةٍ تُنسيكَ طه
إذا رقَّتْ، وإبراهيم ناجي
تمرُّ على الحروفِ وأنتَ خَفْقٌ
وتسمعُ للحروفِ ، وأنت راجي!

فحَياني بابراهيمَ فجْري
ومن يعقوبَ أشرعةُ تُناجي!
على ديباجةٍ رقَّتْ فجاءت
كفجرٍ طيبِ الأنفاسِ، سَاجي
فمعذرةٌ إلى المكبوس إن لم
أصفه من الوداجِ إلى الوداج
ولم أعرف صنوفَ الطَّبخ فنًا
كويتي اللحوم، أو الدجاج
فان لم آكل المكبوس شعرًا
فإنِّي قد أكلتُ على مزاجي!

هذا، وطه المذكور في الأبيات هو الشاعر المصري علي محمود طه وهو من أشهر شعراء الفترة التي عاش فيها، أما إبراهيم ناجي فيكفي أن نقول أنه شاعر «الأطلال» التي شدت بها أم كلثوم.

وهكذا اخترق الدجاج ديوانية الثلاثاء وشغلنا به وبالشعر الذي ورد بسببه واستطعنا أن نحظى بمشاركة أستاذنا عبدالله زكريا الأنصاري، ومع بساطة الموضوع فإننا رأينا فيما عرضناه من شعر كيف تلونت الرموز الدجاجية واتخذت مسارات مختلفة، وهذه طباع من تعتريه حرفة الأدب.

****

مقارنة بين شاعرين كويتيين[1]
زيد الحرب، وفهد بورسلي

لا أملّ معاودة قراءة شعر زيد الحرب، ولا شعر فهد بورسلي فكلاهما شاعر من شعراء الشعر النبطي الجيدين، وكلاهما له قراء ومحبون أثناء حياتهما وبعد مماتهما. وقد رأيت في قراءتي للديوانين اللذين ضما شعريهما ما يغري بالمعاودة، بل بالمقارنة بين هذين اللذين شغلا الناس في فترة من الفترات، وأعجب الجميع بما جادت به قريحتهما من شعر حفظ ذكرهما، فنحن اليوم نقرأ هذا الشعر وكأنهما يعيشان بيننا، ويشاهدان ما نحن فيه على الرغم من أن شكوانا أعظم من شكواهما، وهذا هو الأمر الذي سوف يطلع عليه قارئ هذا المقال.

كنزان من الشعر النبطي تركهما لنا شاعران من شعراء «الوطن» كانا سجلاً لوقتهما ومحط أنظار الناس. ولما كانت بدايتهما في وقت خلا من أدوات الإعلام التي بدأت تظهر في أواخر أيامهما، وتتزايد نموًا وانتشارًا بعد وفاتهما فإن شعرهما كان هو الأداة الإعلامية السائدة وبخاصة في أربعينيات القرن الماضي وأوائل خمسينياته، وكان الكل يتطلع الى ما قاله زيد الحرب وفهد بورسلي في مناسبة عابرة، أو في تعليق شعري على حادث عارض.

كان شعر الأول منهما معبرًا تعبيرًا صادقًا عن شخصيته نامًا عن إمكاناته القوية، ولقد كان وصف الأستاذ أحمد البشر الرومي له من أصدق ما قيل فيه

---

(1) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٣م.

على الرغم من قصر الكلمة التي كتبها عنه في أوراقه الخاصة، فهو يقول مؤرخًا لوفاة الشاعر: «في صباح يوم الإثنين بتاريخ ١٩٧٢/٢/٢١م، توفي صباحًا الشاعر المشهور زيد الحرب، وشيع جثمانه في الساعة الثالثة بعد الظهر، وزيد الحرب صديق، وهو شاعر باللهجة العامية رغم أنه أمي لا يجيد القراءة والكتابة ولا التهجي، وقد كان بصيرًا، وقبل ٢٥ سنة كف بصره، ولم يفد به العلاج، وزيد الحرب يحفظ قصائده، وينشدها بلهجة رجولية. وهو بعد عاقل، ومميز، ويحترم أصدقاءه».

إن اللهجة الرجولية التي أشار إليها أحمد البشر هي التي ميزت شعر هذا الشاعر إضافة إلى ما أضفته من تميز على شخصيته. ولذا فأنت تجد شعره معبرًا بقوة عن كثير من الأمور لا يتردد في الانتقاد إذا وجد ما يستحق ذلك، ولا في الإشادة إذا وجد ما هو جدير بالإشادة، وهو في حياته وفي شعره بعيد عن الإسفاف وعن التزلف.

أما فهد بورسلي فقد كان حديث الأستاذ البشر عنه حديث عارف به، قريب الصلة منه، فقد كانت له جلسات مع هذا الشاعر يستمع فيها إلى شعره، ويعرف من خلالها أخباره، وهو الذي جمع قصائده، وأعدّ ديوانه للنشر، وهو ما نعرفه حق المعرفة.

كتب الأستاذ أحمد البشر الرومي مقدمة جيدة لديوان الشاعر تحدث فيها حديث العارف به المحب له، ومما قال فيها: «أما شاعرنا (فهد بورسلي) فهو أول الشعراء الشعبيين اهتمامًا بمشاكل حياتنا الاجتماعية، وكانت قصائده الانتقادية عن أخطاء سياسة الدوائر الحكومية» بمثابة الصحيفة الناطقة عن الضمير الشعبي، العاكسة للأوضاع الاجتماعية والسياسية والإدارية داخل البلاد، ومجريات الأحداث السياسية داخل الوطن العربي وخارجه، في الوقت الذي لم

تكن تصدر فيه بالكويت أية صحيفة، وكان فهد بورسلي ينظم أكثر قصائده عفو الخاطر، وكانت هذه القصائد تنتشر بسرعة وبعد ساعات من نظمها، فتُردد في مجالس أصدقائه، ويتناولها الرواة عن الرواة».

هكذا أجمل لنا الأستاذ الرومي أغراض الشعر التي تطرق لها فهد بورسلي، وطريقته في النظم وتعلق الناس به.

كتبتُ عن الشاعر فهد بورسلي كثيرًا، ولكني هنا في مجال مقارنة بينه وبين شاعر آخر من جيله هو الشاعر زيد الحرب. وليس ما يمنع هنا من التذكير بشيء عن حياة بورسلي حتى يكتمل العمل الذي أعرضه للقارئ الآن.

ولد الشاعر فهد بورسلي في سنة ١٩١٨م، وكان والده من كبار رجال البحر، وكان تاجر لؤلؤ يمتلك عددًا من السفن التجارية. درس شاعرنا القرآن الكريم واللغة العربية والحساب في الكتّاب كغيره من أقرانه، وكما هي عادة هؤلاء في الدراسة في تلك الأيام الماضية. وقد أضاف فهد بورسلي إلى دراسته هذه دروسًا خاصة تلقاها من المرحوم علي المجرن، وكان والده محبًا للشعر النبطي يحفظ منه الكثير، ويردده بينه وبين نفسه ولكنه لم يؤثر عنه أنه نظم من ذلك النوع من الشعر شيئًا. وكان خال الشاعر وهو المرحوم علي الموسى شاعرًا مجيدًا، يُعدُّ من أكبر شعراء الكويت النبطيين في زمنه، وبعض شعره لا يزال موجودًا ولكن أكثره قد أحرق بيد من لا يعرف قيمة الشعر. وقد أورد له الشيخ عبدالعزيز الرشيد قصيدة في كتابه «تاريخ الكويت» وجهها إلى الشيخ مبارك الصباح أثناء معركة الصريف المشهورة، هذا وللشاعر فهد بورسلي أقارب آخرون يقولون الشعر النبطي، ويُعرفون بذلك حتى يومنا هذا.

هيأت هذه البيئة للشاعر الفرصة، فتعلق قلبه وفكره بالشعر النبطي والشعبي، وأكبَّ عليه حتى برع فيه، وتميز، وظل بارزًا في فنه حتى توفي في الخامس

والعشرين من شهر أبريل لسنة ١٩٦٠م. اهتمت مجلة البعثة منذ صدورها في سنة ١٩٤٦م بشعر هذا الشاعر، وقدمت له الكثير من القصائد، وتحدثت عنه وعن المحن التي مرّت به في بعض أعدادها، وكتب عنه الأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري منوّها بقدراته الفنية في كتابه «الشعر العربي بين العامية والفصحى».

وكما قلنا آنفًا فإنه بتاريخ الحادي والعشرين من شهر فبراير لسنة ١٩٧٢م، انتقل إلى رحمة الله شاعر كويتي مجيد «هو الشاعر زيد الحرب. وهو شاعر مبدع سلك في الشعر النبطي مسالك كثيرة وأبدع وأجاد وشارك الكثيرين من شعراء زمانه في محاورات ومراسلات شعرية عديدة، وجاهد في حياته، وصبر على كثير من المشاق التي عبّر عنها في شعره، ولد الشاعر زيد بن عبدالله الحرب في سنة ١٨٨٧م تقريبًا، في منطقة الشرق من العاصمة الكويتية، وكان يجيد نظم الشعر النبطي، وله قصائد معروفة تتردد بين الناس، ونُشرت له قصائد في عدد من المجلات الكويتية، كما أذيعت له قصائد أخرى من خلال الإذاعة والتلفزيون» إذ كان لا يمتنع عن الحضور إلى هذين الجهازين المهمين لكي يلقي عبرهما أشعاره التي ينتظرها محبوه وعاشقو شعره.

عمل زيد الحرب في البحر بمجاليه الغوص، والسفر، وشارك في معركة الجهراء (١٩٢٠م) وفي بناء سور الكويت الثالث (١٩٢٠م) وعندما بدأت عمليات استخراج النفط في البلاد التحق بإحدى الوظائف المتعلقة بأعمال الشركة المختصة بذلك. وفي سنة ١٩٥٢م كُفَّ بصره، فانقطع عن العمل. وكان رجلاً شهمًا نبيلاً محبًا لوطنه، متفانيًا في خدمته، يحمل لأمته العربية ودًا لا حد له. ذكر في أشعاره العديد من الأحداث التي مرّت بالعرب في أثناء حياته، وشارك قومه في أفراحهم وأتراحهم، ولم تمرّ مناسبة وطنية بالكويت إلا وهو يشارك فيها، معلنًا بأناشيده الوطنية عن اعتزازه بوطنه، ودفاعه عنه في شتى المواقف.

تجد في شعر زيد الحرب أثر عمله في الغوص، وشاعت له قصائد جيدة في وصف حالة العاملين في هذا المضمار المهم بالنسبة للكويت بعد أن توقف العمل جزئيًا في السنوات التي سميت سنوات الكساد، ولم يكتف شاعرنا بوصف الحالة بل إنه عتب على التجار المولين لرحلات الغوص لأنهم لم يلتفتوا إليه وإلى رفاقه في هذه الفترة العصيبة ولم يمدوهم بما يسد حاجتهم. وتجد في شعر زيد الحرب - كما أشرنا - أثر محبته لوطنه الكويت، ولأمته العربية، وله في ذلك قصائد كثيرة معبرة - ويكشف شعره - كذلك عمق صلاته مع أبناء وطنه ولاسيما الشعراء منهم، فهو يرسل القصائد إليهم مشاركًا وهو يرد على قصائد الشعراء، والقصائد المتبادلة في ديوانه كثيرة لا مجال لتعدادها هنا.

لزيد الحرب ديوان مطبوع صدر بعنايةِ ابنتهِ الشاعرة غنيمة زيد الحرب، وضم عددًا كبيرًا من قصائده.

ها نحن الآن أمام شعر الشاعرين اللذين تحدثنا عنهما في بداية المقال، فما ذا نرى فيه؟

والإجابة على ذلك هي: نرى شعرًا قويًّا متميزًا ولكن ميزان القوة مختلف بين الرجلين فالشاعر فهد بورسلي يميل إلى الكلمات الدارجة أكثر من صاحبه، ويتناول حديثًا متنوعًا بين الشعر الرصين، والغنائي، والفكاهة، ولكنه في جميعها متمكن قوي الإبانة عن نفسه. وأما الشاعر زيد الحرب فهو مختلف حتى على المستوى الشخصي عن الآخر فهو يعيش عيشة هادئة لا تعصف بها أحداث شخصية تؤثر على وتيرة حياته ولذا فقد جاء شعره هادئًا معبرًا وإن كان قد تطرق إلى كثير مما كتبه فهد. وسوف نتتبع بعض الأغراض التي وردت في شعرهما فيما يلي:

١ - كان الشاعران يعتبان على وطنهما لكثير من الأمور، ورددا ذلك في قصائد أضحت مشهورة مثل قصيدة فهد بورسلي التي يقول فيها:

الدار جارت ما عليها شافه
والحُرّ فيها شايف ما عافه
بالك تكاثر صدّها وإن صدت
عاداتها عقب القبول انكافه
دار لغير عيالها مشكورة
وإلا ابنها تلعنْ أبو أسلافه
دار يعيش ابها الغريب منعم
وتْعيش فيها أم أحمد العجافة

والقصيدة تدل على مدى السخط الذي كان يسيطر على نفس الشاعر، ومدى معاناته اليومية في زمنه.

أما زيد الحرب فهو مختلف في طرحه، فإننا نراه يعتب على وطنه في الوقت الذي يبدي فيه محبته له، وتعلقه به:

الكويت أمي وعنّي الباب مغلوقْ
يا من يقول الأم تطرد ضناها
بلادي تسد الدرب دوني بطابوق
وزود على الطابوق تردم حصاها
قزّر شبابي في البحر دوم ما سوق
وسخّرت نفسي دايم في هواها
وبين الرجا والياس ظليت مشبوق
وكم وقعة منها شربنا غثاها
ويوم استوت كالورد في حق مطبوق
واقبل ثمرها أقبلت في جفاها
اتقلط غريب الدار والغوش مفهوق
تحضنت لَجْناب وخنا وراها

٢ – اشتركا في الشكوى من زمانهما. فهذا هو فهد بورسلي يشكو دهره قائلاً:

الدار قامت تُصفّعني روابعها

ما دامها مجفية لي وين أتابعها

عيناك من يطرد المجفي فهو نادم

مثل الذي خاطفٍ عينه بأصابعها

دنياي بين السما والأرض تومي بي

والدهر خيله على أرخى مصارعها

ويتحسر في قصيدة أخرى على زمن مضى كان فيه من الرجال من يُعتمد عليه، ويلبي النداء:

أعاتب زماني ولا من زمان

ألا يا زمان اشحدا ما بدا

تُفرِّج رجال الوفا واللزوم

وتجمع رجال العشا والغدا

وما في ديوان هذا الشاعر من قصائد الشكوى كثير، وذلك لما مرّ به من أحداث مؤلمة جرّها عليه أن المحيطين به لم يكونوا يدركون حساسية الشاعر، ولا رغبته في الانطلاق من كثير من القيود التي كان التحرر منها في ذلك الوقت منكرًا كبيرًا.

واشتكى زيد الحرب في شعره وبخاصة بعد أن تدهور سوق اللؤلؤ، وتهافتت مهنة الغوص، فلم يعد له مجال يرتزق منه في تلك الفترة إلى أن هيأ الله له ذلك فيما بعد، وشكوى زيد الحرب ناتجة عن تدهور أسباب المعيشة ليس بالنسبة له فحسب بل لكل من كان يعمل في المهنة ذاتها فهو عندما تحدث عن ذلك كان يشرك معه زملاءه أبناء مهنة الغوص، ويشرح أحوالهم، ويدعو إلى إنصافهم، وذلك في قصيدته التي مطلعها:

عسر الدهر كابح ازنودي بكمبار

والوي على العرقوب زنجيل الأفكار

وظليت انا من دار لي دار محتار

تايهْ بغبّات الفكر والهواجيس

وقد استمر في نظمه للشعر الجيد يأخذ في أغراضه بحسب ما تقتضيه الحياة إلى أن قرر التوقف قائلاً:

بن حرب شاب وتاب عن بدع الأمثال

قلبه ضعيف والقوافي صعيبة

إمنَ أولٍ من قوة الحيل والحال

سيم الحديد إلى عتا ما يجيبة

واليوم من ضيم الليالي والأهوال

لي شد في عنقه تقوده السيبه

كانت شكاوى زيد الحرب مثل أسلوب حياته إذ كان مختلفًا في ذلك عن زميله فهد بورسلي، وقد قال الكثير من الأشعار ولكنه لم يكن معبرًا عن ثورة في نفسه، ولقد عاش في القسم الأخير من حياته معززًا بين الناس يحبونه ويقدرون فنه، ويتمنون سماع ما يُلقيه عليهم من إنتاجه، وكان سعيدًا – أكثر – بأولئك الشباب من شعراء المستقبل الذين التفوا حوله لكي يكتسبوا من خبرته ويستمعوا إلى نصائحه، وكل هذا جلب له راحة البال والسعادة التي كان يبحث عنهما في النصف الأول من حياته.

٣ – يكاد فهد بورسلي أن يكون شاعر الغزل، وذلك لأن الكثير من قصائده كانت غزلية، وكان الكثير منها يُغنى ومنه ما يذاع إلى يومنا هذا حتى بالأصوات الشابة التي لم تدرك الشاعر إبّان حياته. وشعره الغزلي يدور حول ثلاثة محاور منها الشعر الجاد الذي يصوغه في قصائد

طوال، ومنها شعر الغناء الذي يكتبه على عجل لكي تغنيه هذه الفرقة أو تلك، ومنها ما يقوله في لحظة ارتجالية تطلبها الموقف الذي كان فيه، وذلك وفق ما أشار إليه الأستاذ أحمد البشر الرومي حين قال إنه يكاد يرتجل شعره.

فمن قصائده الغزلية الطويلة قوله:

حلّ الفراق وخافي السد باحي
حاولت باصبر والصبر يتلف الروح
حالي تردّي ومتكسر جناحي
حزين من كثر الهواجيس والنوح

وأما الغزلية الخفيفة المغناة فمثل قوله:

خاطري طاب من ذاك الفريج
ضدّ قلبي وانا تابع هواه
كلّ يوم وانا أدق الطريج
ما احدّ قال لي واعزتاه

وقوله:

سلموا لي على اللي
سم حالي افراقه
حسبي الله على اللي
حال بيني وبينه
قايد الريم تاخذني
عليه الشفاقة
ليتني دب دهري
حيسة في يمينة

وأما النوع الثالث فمنه الأبيات التي قالها وهو في البحرين موجهًا حديثه إلى صديقه الفنان محمود الكويتي:

محمود تاه الراي محمود
بين المحرق والمنامة
قم سلّني في نغمة العود
خفف على قلبي سقامة

والحديث عن شعر الغزل عند فهد بورسلي حديث يطول ولكن ما ذكرناه فيه الكفاية مؤقتًا.

أما الشاعر زيد الحرب فهو مختلف نوعًا من هذه الناحية، فلم يكن شعر الغزل أساسيًّا عنده كما هو عند بورسلي، وما كان شعر الغناء هو ما يبحث عنه، ولكن لا مانع لديه من التعبير العاطفي إذا تهيأت الأسباب، ولقد لاحظت أن أكثر ما كتب في هذا الغرض من أغراض الشعر هو الوصف ومن ذلك قصيدة له مشهورة وصف فيها المحبوبة وصفًا كاملًا وهي - في حد ذاتها - معبرة عن طريقته في الغزل:

ما همني ابدنياي شدّه ولا لين
إلا حبيب القلب سيدي إلى بان
قالوا: تحبه؟ قلت: ما يعادله شين
حبه رجح بطويق مع ضلع شمسان
قالوا: يحبك؟ قلت: حين بعد حين
حين يحب، وحين يكمر بطغيان
قالوا: تهابه؟ قلت: حتى الفراعين
من هيبته شفهم ارخوم وذلان

إلى أن يقول في الوصف:

قالوا: عيونه؟ قلت: نادر شياهين

سود هدبها يطعن القلب بالزان

قالوا: خشيمه؟ قلت: سيف السلاطين

في كف نادر واشهره يوم الاكوان

وهكذا...

ولقد وجدت له قصيدة غزلية منشورة في ديوانه هي من أحلى قصائد الشعر النبطي التي قرأتها، وهي ذات تعبير صادق عن مشاعر زيد الحرب حينما نظمها، ومعبرة عن أسلوبه المحتشم في الغزل، يقول:

يا صاحبي لا تحسب اليوم جافيك

والله ما زليت ساعة عن البال

لو طالت الأيام ماني بناسيك

لو كان دونك نازح البعد واللال

كنت أتمنى أن تتسع دائرة المقارنة بين هذين الشاعرين ولكن الإطالة ليست مما يحتسب هنا فلكل من الرجلين ديوان مطبوع يستطيع القارئ أن يسعى إلى الاطلاع عليه، ومتابعة ما بدأناه هنا عن طريق القراءة والتأمل.

****

ما يزول به الشجن[1]

قد يستغرب القارئ عنوان هذا المقال، ولكن استغرابه سوف يزول عندما يعرف أن ما نرمي إليه هو الحديث عن كتاب قديم هو كتاب: «نفحة اليمن فيما يزول به الشجن» وهو كتاب ألفه أحمد بن محمد الأنصاري اليمني الشرواني، ولأنه من اليمن فقد أضفى هذا الاسم على الكتاب، مع أن ما في الكتاب من موضوعات لا ينتمي إلى هذا البلد، فهو كتاب يضم الكثير من الحكايات والأخبار والأشعار. تم طبعه في عدة طبعات منها ما صدر عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر في سنة ١٩٣٧م، وقد كتب عليه ما يشير إلى أن هذه هي الطبعة الأولى. وعدد صفحاته مع الفهارس يصل إلى ٢٣٣ صفحة.

يبدأ الكتاب بمقدمة يتحدث فيها المؤلف عن كتابه وطريقته في تأليفه، ثم يأتي الكتاب مقسمًا على خمسة أقسام أو أبواب.

كان الباب الأول: عبارة عن حكايات متنوعة بعضها يحتوي على أشعار مختارة ومواقف مضحكة.

ويضم الباب الثاني: مناظرتين نقلهما نصًا عن شخصين قاما بكتابتهما في موضوعين مختلفين.

ويضم الباب الثالث: قصائد ومقطوعات شعر مختارة سوف تكون لنا عودة إليها فيما بعد.

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٠م.

والباب الرابع: هو مجموعة من القصائد التي يطلق عليها (اللاميات) وهي قصائد تأتي قافيتها على حرف اللام، وبعضها مشهور وسوف نتحدث عن واحدة منها.

أما الباب الخامس: فيضم مجموعة متنوعة من شعر ونثر منه القديم ومنه المعاصر للشرواني المؤلف، ولكنَّ ما يهمنا هو ما ذكرنا أننا سوف نعود إليه.

ويبدو أن للكتاب عدة طبعات في عدد من البلدان منها طبعة تمت في الأهواز بإيران، غير معروفة التاريخ كتب عليها هي الأخرى: الطبعة الأولى.

قدم لها الناشر بكلمة لا يتجاوز فحواها ما جاء في مقدمة المؤلف فكان ذلك تكرارًا لها، وفي نهاية المقدمة يقول: «هذا وقد بُذل الجهد الممكن في تحقيقه وتصحيحه بعد صف حروفه بالكمبيوتر حتى جاء بهذا الشكل الجميل»، ومن يقرؤه يجد أن الجهد الذي ذكره الناشر جهد ضائع لكثرة الأخطاء وعدم الدراية بالأساليب العربية وغيرها، وإذا قارناها بالنسخة المصرية وجدنا الفرق واضحًا فقد صححتها لجنة خاصة يرأسها أحد علماء الأزهر، وقد جاء قوله عن الكتاب أنه جاء: «مصححًا بمعرفتي».

ووضع تاريخ ذلك في اليوم العشرين من شهر ديسمبر لسنة ١٩٣٧م، ووقع تحت توقيعه إثنان هما ملاحظ المطبعة ومديرها، وذلك للدلالة على اعتماد الدقة عند الطبع.

وكما ذكرنا فإن لنا وقفة عند الباب الرابع حيث القصائد اللاميات كما ذكرنا فيما سبق، ومنها لامية ابن الوردي التي مطلعها:

اعتزلْ ذكرَ الغواني والغزلْ

وقلِ الفصلَ وجانبْ مَن هزلْ

وهي قصيدة ممتلئة بالحكمة والأمثال الصالحة والدعوة إلى الاستقامة وطرح التكالب على الدنيا، وكانت هذه القصيدة مقررة علينا في مدرسة الشيخ محمد صالح العدساني الأهلية رحمه الله، وكان يحرص على أن نحفظها لما فيها

من معانٍ نافعة، وأذكر أن المرحوم الشيخ عبدالله السالم الصباح قد تمثل ببيت من هذه القصيدة وهو قول الشاعر:

لا تَقُلْ قد ذهبتْ أربابهُ

كلُّ من سارَ على الدربِ وصلْ

كنت والأخ المرحوم عبدالعزيز محمد جعفر نقوم بزيارة الشيخ في قصر السيف، وكان يتحدث عن ضرورة تطلعنا للغد، وعدم التهاون في أمر من الأمور، كما طلب منا عدم تهيب خوض المجالات الجديدة فكل من سار على الدرب وصل، وقد دلنا ذلك على مدى اطلاع الشيخ على كتب الأدب، وحفظه لعدد من الأشعار بحيث يتمثل بها عند الحاجة، وقد سمعنا فيما بعد أشياء كثيرة صدرت منه ودلت على كل ذلك.

أما الشرواني وقد ذكرنا فيما مرّ بنا من حديث اسمه كاملاً فهو أديب من أهل اليمن كان من سكان مدينة الحديدة وبعض المدن اليمانية الأخرى، وسافر إلى الهند حيث أقام في مدينة كلكتا، وقد ألّف عدة كتب غير كتابه هذا هي: حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح وهو مطبوع ويضم مجموعة لطائف جمعها عن الأهالي من سكان اليمن والحجاز، وعن أدباء مصر والشام، وكتاب الجوهر الوقّاد في شرح بانت سعاد، وهو مطبوع، والمناقب الحيدرية (مطبوع) تناول فيه سيرة السلطان حيدر الذي كان يحكم مدينة لكنو الهندية آنذاك، وآخرها: العجب العجاب فيما يفيد الكتاب وهو مطبوع كذلك، ومن الغريب أننا لم نعثر على أي من هذه الكتب المطبوعة، وإن كانت أسماؤها تدل على أنها تخوض في موضوعات لا تختلف عن موضوعات «نفحة اليمن» الذي يهمنا عرضه في هذا المجال.

توفي الشرواني في سنة ١٨٣٧م، ولا نعرف سنة مولده، وعند هذا الحد نعود إلى ما نريد الوقوف عليه من المعلومات التي ضمها كتابه.

عندما أصدرت كتابي «الأغاني، في التراث الشعبي الكويتي» كنت حريصًا على تقديم الأغاني الكويتية المكتوبة بلهجة البلاد، ولم أذكر أي أغنية مكتوبة باللغة

الفصحى مع أن عددًا كبيرًا من أغاني الكويت وبخاصة (الأصوات) كانت باللغة العربية، ولكن التزامي بالتراث الشعبي هو الذي جعلني أتمسك – هناك – باللهجة لا غير. وهنا وأنا اتصفح كتاب: «نفحة اليمن» أجد فرصة لاستكمال ما فات من حديث حول ذلك. فهذا الكتاب يضم في فصله الثالث الكثير من المقطوعات الشعرية التي ترددت بأصوات مطربينا وانتشرت بين الناس. ولقد قارنت بين ما ورد في هذا الكتاب وما ورد في كتاب الأخ الأستاذ غنام الديكان الذي أطلق عليه اسم «الإيقاعات الكويتية في الأغنية الشعبية»، وهو كتاب مهم في بابه، جاء في مجلدين كبيرين ضم كل ما يحتاج إليه الباحث في مجال الغناء الكويتي. لقد قارنت بين بعض ما ورد في نفحة اليمن وما ورد في كتاب الأخ الديكان فوجدت أن كثيرًا من أغنيات الكويت ومنها الصوت على جهة الخصوص مذكورة عند الطرفين إلا أن الكتاب الحديث تناول الأمر بتفصيل جيد حين ذكر اللحن ثم كتبه وبين اسم الملحن وكل ما يتعلق بصفات هذا النوع من الغناء. وسوف أختار هنا بعضًا مما اختاره الشرواني في كتابه مستعينًا بالأخ غنام الديكان، وهكذا:

. يقول الشرواني: «وما أحسن قول القائل»:

قُلْ لمن ملَّ هوانا

وتولى وجفانا

ولمن اعرض عنَّا

بعدَ ما كُنَّا وكانا

وهذه مقطوعة من اثنى عشر بيتًا من تلحين عبدالله الفرج، وكان قد غناها قديمًا الفنان يوسف البكر على قالب الصوت الشامي، وسجلها له المرحوم أحمد البشر الرومي.

وأذكر أن الفنان سعود الراشد، قد كتب لي في ورقة صغيرة جدًا الشطر الأول من البيت الأول لهذه المقطوعة وطلب مني أن أقرأ ما في الورقة وأن أحاول كتابة

أبيات على وزن ما فيها، وأن يكون ذلك باللهجة العامية، فكتبت له أغنية سرعان ما لحنها وغناها، فاشتهرت في ذلك الحين وأقبل عليها المستمعون، ومطلعها:

الحبيب اللي معنا

عافنا وانكر هوانا

وقد وضع لها إيقاعات جميلة مُرقصة، خرج بها عن اللحن القديم.

٢ – وجاء في «نفحة اليمن» ما أورده الشرواني مما يغني عندنا على نغم الصوت وهي أبيات نظمها الفاضل البكري ومطلعها:

بالهوى قلبي تعلق

وجفا جفني المنام

والحشا مني تمزق

ودُموعي في انسجام

وعدد أبياتها كثير، وهي لملحن غير معروف، وقد غناها في الكويت الفنان الكويتي حمد خليفة على قالب الصوت الشامي.

٣ – وأورد الشرواني أيضًا عدة أبيات للشاعر عبدالله الشبراوي تبدأ بقوله:

إن وجدي كل يوم في ازدياد

والهوى يأتي على غير مراد

يا خليلي لا تَلُمْني في الهوى

ليسَ لي ممَّا قضاهُ اللهُ راد

وهي في قالب الصوت الشامي الرباعي، من ألحان الشاعر عبدالله الفرج وغناء الفنان محمود الكويتي. وقد ألحقه بتوشيحة تقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة

رُدِّي على فؤادي أينما كانا

لا تاخذينَ فؤادًا تلعبين به

وكيف يلعبُ بالإنسان إنسانا

(لاحظ الأخطاء النحوية في البيت الثاني).

٤ - أما الصوت المشهور فهو ما غناه الفنانان محمود الكويتي وشادي الخليج من أبيات نظمها شاعر اسمه الفاضل البكري، ومطلعها:

في هوى بدري وزيني

زاد وجدي والجنون

والدما من سحب عيني

سيلها يجرى عيون

(والقصيدة طويلة ولا أظنهما غنياها بكاملها).

ويذكر أنها من ألحان عبدالله الفرج، وكان قد لحنها على قالب الصوت الشامي.

٥ - ولحّن عبدالله الفرج صوتًا على قالب الصوت العربي لقصيدة معروفة، ولكن قائلها مجهول، ومطلعها:

سادتي رقُّوا فقلبي موجعُ

موجعُ قلبي فرقوا سادتي

دمعتي تجري عليكم دائمًا

دائمًا تجري عليكم دمعتي

إلى آخرها. وهي من أشهر أصوات الغناء الكويتي وغناها عدد من المغنين، ولكن الفنان سعود الراشد أخذ هذا اللحن، وقدمه بأسلوب آخر، ولحنها تلحينًا عجيبًا، فارتبطت بأذهان الناس فترة طويلة.

٦ - وذكر صاحب نفحة اليمن قصيدة، غناها سعود الراشد أيضًا، سمعناه وهو يشدو بها واستمتعنا بسماعها. وكاتب القصيدة هو نفسه مؤلف الكتاب: أحمد بن محمد الأنصاري الشرواني، ومطلع الصوت:

اعندك ما عندي من الشوق والوجد

وهل أنت باق في المحبة والعهدِ

أكابدُ أشجانًا توقّدُ نارها

بقلبي المعنّى من بعادك والصدِّ

والقصيدة في سبعة عشر بيتًا. أصلها اللحني من قالب الصوت العربي، وقد أدخل عليه الفنان نغمة الصبا بحيث اعتبر تحديثًا جيدًا للصوت ضمن ما أحدثه الفنان سعود الراشد في عدد من أغانيه وأصواته.

أظن أن النماذج التي قدمناها كافية، ولا ننسى أن نقول: إن المطربين العرب قد أدوا بعض غنائهم مستمدًا من المجموعة التي ضمها كتاب نفحة اليمن ومما يذكر من ذلك الأبيات التي قالها الشاعر الرقيق البهاء زهير الذي احتوى الكتاب له على عدد كبير من القصائد، أما الأبيات التي نشير إليها فهي:

يا مَن لَعِبَتْ به شمولٌ

ما ألطفَ هذهِ الشمائلْ

نشوانُ يَهُزُّهُ دلالٌ

كالغُصنِ مع النَّسيم مائل

وتتكون من اثني عشر بيتًا، وقد غناها أكثر من مُغن عربي على لحن الموشحات المعروف.

أما ملاحظاتنا الأخيرة على ما جاء فإن بعض القصائد كانت تحتوي على أخطاء نحوية وبعضها تعتريها الأخطاء اللغوية على الرغم من أن الكتاب روجع مراجعة دقيقة أثناء الطبع كما ورد في الصفحة الأخيرة من طبعة مصر، وأغلب الظن أن السبب في ذلك أن هذه القصائد قيلت في وقت متأخر ضعف فيه الدرس

النحوي واللغوي، بل وضعف فيه الشعر بعامة، وكنا قد ذكرنا أن الشرواني مؤلف الكتاب الذي عرضنا شيئًا من محتوياته قد توفي في سنة ١٨٣٧م، وهي سنة لم يكن فيها الأدب متقدمًا ولم يبرز من أعلامه أحد، إلا ما ندر.

ومما نود الإشارة إليه - أيضًا - أن مصطلحات تسميات الأصوات من الأمور التي يصعب تفصيلها وتقديمها لأن الموسيقى علم والعلم يحتاج التخصص، وقد وجدنا الأخ الكريم الأستاذ غنام الديكان يقرب لنا هذه المصطلحات ويدفعنا إلى فهمها، لذا فإنني أحيل القارئ على كتابه الذي ذكرته في هذا المقال ففيه الفائدة المرجوة.

وأخيرًا فإن المختارات التي غناها مطربون منذ عهد الفنان الشاعر عبدالله الفرج ومن بعده دليل على اطلاعهم الأدبي وحرصهم على الازدياد من المعرفة، وقد كان كتاب «نفحة اليمن» من أهم ما كانوا يحرصون على الاستفادة منه.

بقيت إشارة أخيرة هي أنه لم يكن كل ما قدمناه هنا من قصائد تم غناؤها من قبل المغنين الكويتيين هو حصر شامل لما تم تقديمه منهم، بل إن القصائد العربية التي شدا بها هؤلاء كثيرة، ولو أردنا أن نتوسع في الحديث عن كل ذلك لوجدنا أمامنا في «نفحة اليمن» وفي غيرها عددًا كبيرًا آخر وسوف نرى على رأس هذا العدد الكبير أغاني الفنان المتقدم يوسف البكر التي قام بتسجيلها الأستاذ أحمد البشر الرومي، وقد أحصينا منها ما يزيد على العشرة أصوات متنوعة القوالب والأنغام.

إذن فإن ما قصدناه من هذا المقال هو تقديم صورة سريعة عن محتويات كتاب «نفحة اليمن في ما يزول به الشجن» وتبين مدى تأثيره في الغناء الكويتي قديمًا وحديثًا[١].

****

(١) صدر لنا فيما بعد كتاب عنوانه «غناء القصائد العربية في التراث الشعبي الكويتي»، وفيه استكمال لما بدأناه في كتابنا الأول «الأغاني في التراث الشعبي الكويتي».

ملحاق خير

يجدر بنا أن نشير مع هذا المقال إلى رجلين مهمين في مجال الموسيقى الكويتية، والاهتمام بتدوين كل ما يتعلق بها. هذان هما: أحمد علي والدكتور يوسف الدوخي.

والأول رجل من مصر متخصص في فن الموسيقى بدأ عمله في مجال تدوين الأغاني الكويتية كما ذكر في سنة ١٩٥٩م، كان محبًا لهذا الفن متابعًا له يلتقي الفنانين وبخاصة كبار السن منهم لينقل عنهم، وقد قال يومًا: «لقد كنت محظوظًا بحبي الفن الموسيقى والغنائي الكويتي، الذي أتاح لي الكشف عن كنوز من الألحان والإيقاعات العربية القديمة التي لاتزال تعيش بيننا».

اجتمعت له خبرة كبيرة بهذا الفن، وتوسعت معلوماته عن موسيقى الكويت وغنائها، ولذا فإنه عندما نشأ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وتولى أمانته العامة الأستاذ المرحوم أحمد العدواني كان لابد من انتقاله إلى المجلس لكي يقوم بجزء من أعماله، وكان أحمد علي خير من يُؤدي هذا العمل، وقد قام بعمل جليل حين سجل ألحان عدد كبير من الأغاني القديمة، وأصبح عمله هذا ذخيرة من ذخائر إذاعة الكويت التي لا تزال تقدم منه الكثير بين فقراتها دون إشارة إلى الجندي المجهول الذي قام بالعمل الذي أدى إلى حصول صوت الكويت على هذه الخلاصة الممتعة من موسيقى أغانينا، تعرف أثناء وجوده في المجلس الوطني إلى عدد من الرجال كان منهم الأستاذ المرحوم أحمد البشر الرومي الذي ارتبط به

ارتباطًا كبيرًا وبخاصة أن أحمد علي يعرف جُهدَ البشر الخاص بتسجيل أغاني يوسف البكر فحفظ لنا صوتًا من أقدم الأصوات، وكان يوسف قد بلغ في وقت التسجيل من العمر ما يجعل ذلك العمل صعبًا عليه، ولكن أحمد البشر أنجز مهمته.

جمع الموسيقار أحمد علي خلاصة معلوماته التي حصل عليها طوال فترة عمله في كتاب اسمه «الموسيقى والغناء في الكويت» طبعه في سنة ١٩٨٠م، وقدم له الأستاذ أحمد البشر الرومي بمقدمة جميلة عن الموسيقى الكويتية وآلاتها ورجالها، وقد أثنى كثيرًا على الأستاذ أحمد علي وذكر أنه عبقري في فنه، ثم قال: «وإني لأقدر للأستاذ أحمد علي جهوده الشاقة التي بذلها في تأليف هذا الكتاب القيم، وإن هذا الكتاب سيخلد فننا الكويتي القديم للأجيال القادمة التي يجب أن تعرف تاريخ فننا الغنائي على وجهه الصحيح».

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة شارحة، ثم تحدث عن طرق تدوين النصوص الموسيقية القديمة وطرق التلحين والأداء ثم قدّم نماذج لعدد كبير من الأصوات المعروفة.

أما الفنان الثاني وهو الدكتور يوسف الدوخي فإنه من الموسيقيين المعروفين وكان قبل وفاته في اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر لسنة ١٩٩٠م عميدًا للمعهد العالي للموسيقي وكان قد حصل على درجة الدكتوراه من القاهرة في سنة ١٩٨١م، وموضوع رسالته: «كتاب الأغاني للأصفهاني في نقد وتحليل»، وله نشاط في الغناء والتلحين وتأليف الأغاني. وهو شقيق الفنان القدير عوض الدوخي، وقد التقيتهما في أوائل ستينيات القرن الماضي حيث حضرا إلي وأنا جالس في إحدى الغرف الملحقة بمكتب وزير الأعلام - آنذاك - الشيخ جابر العلي السالم الصباح لكي يتسلما مني أبياتًا كنت كتبتها بناءً على اقتراح من الشيخ، وهي:

لك حبي واشتياقي

دون أهلي ورفاقي

فلحنها يوسف وغناها أبو فهمي ونالت الاستحسان ولاتزال مسموعة إلى اليوم بفضل اللحن الجميل والصوت الدافئ الحنون.

ألّف الدكتور يوسف دوخي كتابًا أسماه «الأغاني الكويتية» وطبعة في سنة ١٩٨٤م، ويتكون من مقدمة وثلاثة أبواب كل باب منها يتفرع إلى عدة فصول، ثم خاتمة.

يتكون الباب الأول من ثلاثة فصول وعنوانه الرئيسي بيئة الكويت أما الفصول فهي مرتبطة بهذا العنوان العام أما الباب الثاني فهو عن نشأة الأغنية الكويتية وأعلامها وقد ركز فيه على نشأة الصوت وبعض المصطلحات.

أما الباب الثالث فهو عن المدارس الفنية والغناء البحري وفي الفصل الرابع من هذا الباب تحدث عن تطور الأغنية الكويتية. أما الختام فكان عبارة عن تأملات وآمال تتعلق بالأغنية الكويتية.

استشهد الدكتور يوسف في كتابه بعدد كبير من الأغاني والأصوات ونسب الحانها وكلامها إلى أصحابها ووضع لها النوتة الموسيقية التي يتم العزف بموجبها. وعلى العموم فقد خدم هذا الموضوع خدمة جيدة، وأتقن عمله إلى حد بعيد.

رحم الله الرجلين.

الدكتور يوسف الدوخي والأستاذ أحمد علي.

****

الشاعر عبداللطيف الديين يتحدث[1]..

لا أزال أرى أن الشاعر المرحوم عبداللطيف عبدالرزاق الديين كان «تاريخًا حيًا للكويت» إبّان حياته، ولا أزال أرى أن ما نقلناه عنه حفظًا وكتابةً وتسجيلاً هو امتداد لما حوته تلك الذاكرة الفذة. فقد عرف الكثير من تاريخ الكويت، وعرف الكثير عن أهلها، وعن مواقعها المختلفة بحيث لا يسأله المرء عن شيء إلا وجد الإجابة على سؤاله حاضرة على طرف لسانه. ولكني مع ما استفدت منه من معلومات أراني اليوم في حاجة إلى سؤاله عن بعض الأمور التي لم يتسنّ لي سؤاله عنها في حياته، ولكن قضاء الله النافذ لا يتيح لي هذا على الرغم من أهميته عندي.

في موجز عن هذا الرجل كتبت قبل فترة كلمات أرى من المهم إعادتها هنا قبل الدخول إلى نقل حديثه.

عبداللطيف عبدالرزاق الديين، شاعر من أبناء الكويت الذين عشقوا أرضها فجعلوها على لسانهم شعرًا جميلاً عذبًا، كتب الشعر مبكرًا فأجاد وكانت نشأته في بيئة شعرية، ففي أسرته خالاه الشاعران داوود سليمان الجراح وإبراهيم سليمان الجراح، ومن أصدقائه زيد الحرب الشاعر المعروف، وغيره من شعراء ذلك العصر، وتعلم فنون اللغة العربية على يد خاله الشيخ إبراهيم سليمان الجراح الذي درس عليه شرح الأجرومية في النحو، كما تلقى توجيهات في الصرف والنحو من خاله الشيخ محمد سليمان الجراح، فانفتح له بذلك باب مهم من أبواب فهم الشعر وإجادة قوله.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٧م.

كان شاعرنا من أوائل الطلاب الذين انتظموا في الدراسة بالمدرسة المباركية عند إنشائها، وكانت يومها مركز إشعاع علمي وأدبي بما تضم من خيرة الأساتذة، ولأنها كانت المدرسة النظامية الأولى في الكويت، إذ كانت مناهجها تحتوي العديد من العلوم والمعارف خلافًا لما كانت عليه الحال في المدارس الأهلية السائدة قبلها.

وبالإضافة إلى إقباله على الدراسة والتحصيل فإنه كان ميالاً إلى الاطلاع ومداومة القراءة، فقرأ الكثير من الكتب في الأدب والتاريخ، وقرأ عددًا من دواوين الشعراء وحفظ الكثير من القصائد، ومن الغريب أنه كان معجبًا بالشاعر الأموي ذي الرمة في ذلك العهد الذي ندر عندنا من يهتم فيه بشاعر مثله على الرغم من أن ذا الرمة يقف على قمة من قمم الشعر، وهذا - ولاشك - يدلنا على عمق اهتمام شاعرنا بالتراث الشعري العربي الفصيح.

وقد حفظ لنا عبداللطيف الديين في شعره كلمات عامية كويتية لم تعد تستعمل الآن، وبذا يكون شعره سجلاً للهجة الكويتية بوجهيها الحضري والبدوي، ومرجعًا لدراسة هذه اللهجة.

وإضافة إلى ذلك فقد كانت تجربة شاعرنا العملية في البحر ذات أثر في شعره، إذ وردت في ثنايا قصائده إشارات كثيرة إلى البيئة البحرية بما في ذلك الإشارة إلى طبيعة البحر، وعادات العاملين فيه، وأسلوب حياتهم على متن السفينة، وكذلك الإشارة إلى بعض المواقع البحرية ووصف السفن وذكر بعض أجزائها.

وفي اليوم الحادي عشر من شهر مايو لسنة ١٩٩٧م حضر الشاعر الديين إلى مركز البحوث والدراسات الكويتية وسجل حديثًا حضرته وحضره الأخ الدكتور يعقوب يوسف الحجي، وكان حديثًا ممتعًا مليئًا بالمعلومات المفيدة عن الكويت وأهلها ولاسيما في الجانب البحري الذي خاضه في بداية حياته، وكان من ضمن ما تحدث عنه رحلته إلى السفر على بوم يقوده النوخذة محمد العصفور.

فمن أبناء الكويت الذين شاركوا في رحلات السفر البحرية، ووصلوا من الدراية بأمور البحر وقيادة السفن الشراعية عبره إلى مرحلة في غاية التقدم: النوخذة محمد بن عيسى العصفور، المولود في الكويت سنة ١٩٠٨م، الذي بدأ في تلقي المعرفة البحرية عندما كان عمره خمس عشرة سنة، وقد أتقن فنون الملاحة بما في ذلك استخدام «الكمال» الذي يحدد موقع السفينة وهي في عرض البحر، وقراءة الخرائط البحرية وكيفية الاستفادة منها، وغير ذلك. وما أن بلغ الثلاثين من عمره حتى صار نوخذة بدءًا من سفينة والده «تيسير».

كان النوخذة محمد العصفور من رجال البحر المعدودين وكان واثقًا من نفسه، قوي الشخصية، مهيبًا بين البحارة، صلبًا في مواجهة الأخطار.

وكان ضمن أربعة من النواخذة الكويتيين الذين حصلوا على شهادات من قبطان سفينة الأسطول البريطاني «شورهام» نتيجة لامتحان خبرتهم، وكان هؤلاء بالإضافة إلى صاحبنا حسين العسعوسي وعبدالوهاب القطامي وأحمد الخشتي.

وقد وضع النوخذة محمد نتيجة خبرته في روزنامة فلكية صنعها بالاشتراك مع النوخذة حسين العسعوسي وأسمياها «النتيجة الكويتية في الحسابات الفلكية» وقد طبعت أكثر من مرة.

ورحلته الأكثر أهمية هي التي قام بها إلى ميناء كولومبو في سريلانكا، وكان ذلك في سنة ١٩٣٧م حيث طلب منه أحد التجار وهو على الساحل الغربي للهند نقل كمية من الأسماك المجففة (متوت) إلى كولومبو، وقد قبل المجازفة، وأخذ طريقه إلى هناك معتمدًا على درايته البحرية وما معه من معدات وخرائط.

وقد فتح بذلك الطريق لزملائه، فتمت عدة رحلات إلى هذا الميناء بعد رحلته تلك. لقد تحمل الكثير من المشاق في سبيل الوصول إلى هدفه، ولكنه في النهاية

حقق ما يريد، ونزل إلى كولومبو وشاهد فيها الكثير من المشاهدات، وقد ذكر أنه أعجب بنظافة المدينة، وطيب المعيشة فيها.

وقد ترك النوخذة محمد بن عيسى العصفور الكثير من الآثار في المجال البحري، ويتحدث عنه زملاؤه وبحارته بكل إجلال واحترام ويطرونه إطراءً شديدًا. ولذلك فقد كان الحزن عليه قويًّا حين توفي سنة ١٩٦٢م في مدينة كاليكوت بالهند، تلك المدينة التي طالما دخل ميناءها شامخًا بشراع سفينته وقدر الله أن تكون وفاته فيها، وأن يكون قبره في ثراها.

أما ما يتعلق بحديث عبداللطيف الديين عن رحلته التي أشرنا إليها فقد قال ما يلي (بتصرف يسير) اقتضاه تحويل الحديث المسموع إلى شيء مكتوب يقرأ:

محمد العصفور رجل صاحب خبرة، حاذق في عمله بصفته نوخذه، رزين واثق بنفسه وبمعرفته في أمور البحر، لا يهتم إلا بالشيء الذي يعرفه لا يغير رأيه مهما تعددت الآراء من حوله، كنت معه في البوم المسمى (إقبال) وقد ملأناه تمرًا حتى ثقل حمله، وخرجنا من موقعنا إلى نهر يؤدي إلى الاتجاه المطلوب، وكنا ننتظر هبوب ريح الشمال حتى نسير بحملنا إلى الهند. وفي هذه الأثناء مرّ أحد أصدقاء النوخذة فتعجب من كمية الحمولة، ورأى أن البوم سوف يكون ثقيلاً بها، فسأله ضاحكًا: يا نوخذه أتريد عبور الشط إلى الضفة الأخرى؟ إن حملك هذا لا يتيح لك الوصول إلى الهند عابرًا بحر العرب؟ فقال له ابن عصفور: قل لا إله إلا الله. ولكن النوخذة بدأ في اتخاذ إجراءات وقائية ربما كان ينوي القيام بها قبل أن يستمع إلى أقوال صاحبه.

وبناء على أمره قمنا بتعلية جوانب البوم، وفي اليوم الثالث أمر بوضع القابية وهي شراع صغير يرفع على رأس الصاري زيادة على الأشرعة الأخرى. وقد عمد النوخذة إلى اتخاذ هذين الإجراءين لكي يمنع بما وضعه على جوانب السفينة

ونسميه (الدراريب) أمواج البحر العاتية حين يصل بسفينته إلى وسط البحر، وبالقابية حتى يعطي البوم فرصة للسرعة لأنه محتاج إلى ذلك بسبب زيادة الحمولة. وكان وضع القابية نادرًا بين النواخذة، ولا تدعو إلى وضعها إلا حاجة يراها النوخذة ضرورية.

وفور وضع القابية انطلق البوم سابقًا السفن الأخرى على الرغم من حمولته الكبيرة، وسار (إقبال) إلى أن توقف هبوب الهواء ولم يعد للقابية أثر فقمنا بطيها ووضعها في مكان خلفي استعدادًا لإعادتها عند الحاجة. وفجأة هب هواء الكوس في وجود بقايا الشمال، وكانت الأمواج تتقابل وتصطفق وتلعب بنا، كان الوقت ضحى، وكنا نرى بأعيننا ما يحدث لنا وبخاصة وقد انشق الشراع وكسر الدقل (الصاري) وسقطت (الجامعة) وهي بكرة ضخمة تطوى بها حبال الشراع في أعلى الصاري. وكان سقوطها بين بعض البحارة وفي هذه الأثناء صرخ النوخذة: شوفوا ربعكم، عدوا ربعكم، وكان يخشى أن يسقط منهم أحد أو أن يصاب.

وجمع النوخذة حوله في هذه الأثناء صغار البحارة (التّبّابة) وجعلهم في الغرفة التي كان يستعملها لقراءة الخرائط في وقت هبوب الرياح. وهنا اطمأن على الجميع، كلهم بخير وسلامة، ولكن الأمور انحدرت إلى أقل مما كنا نأمل فهوى الصاري (الدقل)، والموج يضرب البوم ضربًا شديدًا ونحن في ذهول، وأمرنا النوخذة بأن تقطع الحبال بالسكاكين التي يحملها البحارة عادة، ثم أمرنا بالقفز إلى البحر وترك البوم وهو في وضع مزر تلعب به الرياح بدقل مكسور وشراع مهترئ، وبعد أن قام مع عدد محدود من البحارة ببعض الأعمال وجد أنها تمهد لعودتنا طلب منا الصعود، وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن البحارة لم يستجيبوا للنوخذة عندما دعاهم إلى الصعود مرة أخرى وذلك لأن كل واحد منهم كان يخجل أن يتقدم على زملائه ولم ينه هذا الموقف إلا قيام النوخذة بدعوتهم واحدًا فواحدًا

إلى ظهر السفينة وعندها فقط استجابوا للأمر. وفي هذا دليل على ما يتمتع به هؤلاء الرجال من إحساس بالواجب تجاه بعضهم.

كان الوضع سيئًا حين عدنا إلى سطح البوم، وكان معترضًا ثقيلاً بحمله، أما النوخذة فكان هادئًا يعطي الأمر بهمس حتى إنه طلب منا أن نرمي الحمولة بحرًا عن طريق (المجدّمي) وكان يحدثه أمامنا دون أن نسمع ما يقول، وقد ملأ نفوسنا الأسف على التمر وطلبنا أن ينتظر قليلاً لعل الأمور تتحسن، ولكنه غضب وأبى أن يغير رأيه، وقد أحس بما نحس به من انفعال، فأراد أن يزيل ذلك عنا، وأن يرفع معنوياتنا بأمر بسيط ولكنه لافت للنظر، وذلك أنه قد كلف النجار الذي معنا بإنشاء قارب صغير(كتر) وكان يشرف بنفسه على العمل ويصدر الأمر خطوة خطوة للنجار، وكان هذا مثلنا لدرجة أن يده لم تقدر على دق المسمار، فقال له النوخذة: «لا تطق إيدك، زين، علامك إشفيك» كان يريد أن يخبرنا بطريق غير مباشر ألا نخاف. وبالفعل فقد تغيرت حالتنا. وبدأنا نعمل على علاج الموقف عن طريق ما تبقى لبومنا من أدوات إضافة إلى الشراع الصغير المسمى (الجيب) وكان النوخذة بنشاطه المعهود وبهدوئه يوجهنا، ويتعامل مع الموقف بشيء كبير من الثقة بالنفس.

نحن الآن أمام جزيرة أبوموسى التابعة لدولة الإمارات العربية المتحدة، ولم نكن قد وجدنا عشاء نقتات به لأن الأمور لم تكن تسمح بإعداد الأكل، وقد استفدنا بما في صناديقنا من تمر معد لمثل هذه الظروف. وتطلعنا بوساطة المناظير فلاحت لنا سفن طلب منا النوخذة أن تعلق لها إشارة (نوف)[1]، وما إن علقناها حتى اتجهت الأبوام الواحد بعد الآخر إلينا لنجدتنا، كان أول بوم وصل إلينا هو بوم (قتيبة) نوخذاه محمد بن شيبة (أبو إبراهيم) والبوم الثاني ونوخذاه هو مفلح الفلاح والبوم الثالث هو

(1) النوف: قطعة من قماش أسود تقوم السفن برفعها دلالة على طلب المساعدة.

الذي يسمونه الوزة وعليه علي بن خميس وقطرونا واحدًا وراء الآخر إلى أن أوصلونا إلى مكان يسمّى (كنج)، وهنا قال لهم النوخذة: شكرًا لكم فقد أنقذتمونا، وتستطيعون الآن أن تعودوا إلى ما كنتم عليه فإن معكم بضاعة لابد لكم من بيعها، أما نحن فسوف نقوم بشراء (دقل) من هذا المكان، وإن لم نجد فسوف نطلبه من الكويت.

بعد ذلك نزلنا إلى البر لنعالج مُشكلة (الدقل) والشراع واستطعنا أن نصلح الشراع، واشترينا دقلاً مستعملاً من تلك البلدة، وعدنا لنعد مكانه في السفينة وسرعان ما تم لنا ذلك فنصبناه في الموضع الذي أعددناه له، ولم يغادرنا بوم (الوزة) إلا بعد أن رأى الدقل واقفًا في وسط بومنا.

وعند المساء دار الهواء لصالحنا فبدأنا بالرحيل مع أصوات العرضة والطبول فرحًا بالنجاة وانتهاء المأساة، واتجهنا إلى كراتشي، وكان الطريق إليها محفوفًا بالظلام وبالخوف من الضياع سرنا أربعة أيام ونحن نترقب الوصول، ولكن النوخذة لم يغير مجراه ولم يلتفت يمينًا ولا يسارًا حتى صرنا نضحك بين بعضنا قائلين: لعلّه أضاع الطريق، ولكنه في اليوم الرابع استدعى المجدمي وقال له أخبر أهل الزام أن يرسلوا اثنين إلى الأمام فقد يجدون سراجًا لأن هنا حداقة (صيادون)، واستغربنا كيف يوجد الحدّاقة في (الغبّة)، ولكننا بعد قليل أبصرنا بهم وهم في الظلام يشعلون أنوارًا تنبه إلى وجودهم، ولما أبلغناه ذلك أمرنا بالانتباه حتى لا نصطدم بهم، وقد أخذنا العجب من قدرته على معرفة ما في الطريق من معوقات مع هذا الظلام الدامس، وقد وضعنا لهم سراجًا ليروا سفينتنا.

وبعد قليل قال لنا: انتبهوا هناك سراج منير في مدخل كراتشي، وأصبح الصبح دون أن نرى السراج، ووجدنا البحر متغيرًا وصار لونه أبيض شديد البياض وتساءلنا عن ذلك في عجب فقال: انزلوا (البِلْد)[1] فوجدنا البوم في خطر شديد

(1) هو ثقل من الرصاص مربوط بحبل أو خيط سميك يستعمل لقياس الأعماق.

ولم يبد على النوخذة مع ذلك أي ارتباك وكنا قد وقفنا للصلاة حين أسرعنا إلى مواجهة هذه الكارثة الجديدة، فبدأ يأمر بعمل بعض الأمور التي تدارك بها ما حدث وارتفع منسوب البحر بالنسبة للبوم إلى مقدار باعين فعاد إلى صلاته، وبعد أن تناولنا فطورنا قال: أنا أعرف أن هنا سراجًا، ولكنهم غيروا مكانه ولذلك حدث لنا ما حدث، وعندما وصلنا وجدنا أن ما قاله صحيح وأن السلطات هناك قد نزعت السراج من مكانه، ونتيجة لذلك قدم شكوى يذكر فيها أن بومه ومن فيه من رجال وبضاعة وهو معهم قد تعرض لخطر كبير بسبب نزع السراج، وقد حقق المسؤولون بذلك ثم اعترفوا بالخطأ وعاقبوا المتسبب واعتذروا من محمد العصفور.

وعجبنا مرة أخرى لهذا الرجل المعتد بنفسه الحريص على حقه العارف بدروب البحر ومداخله ومخارجه.

وصلنا كراتشي، ونقلنا إلى البوم الحمل الجديد الذي سوف نرسله إلى مكان آخر هناك، وقد شاهدنا عددًا من أصحاب السفن من كويتيين وغيرهم، وقد قصوا علينا قصص ما شاهدوا في الفترة التي سبقونا إلى كراتشي فيها، انتظر يوم الاقلاع إلى آخر النهار لأنه أسهل وقت لهذا العمل، كانت رحلتنا في آخرها إلى مسقط، وسار معنا أحمد بن سلامة في بوم المرزوق، وقد طلب منه صاحب البوم أن يسير معنا على شكل (سنيار) وبذلك لا يحتاج إلى استئجار (معلم) يهديه الطريق.

وسرنا معًا ولكنه كان يسبقنا لأن حملنا كان ثقيلاً وسيرنا بذلك بطيء وعندما يتقدم يقف ويضع لنا علامات نعرفه بها من بعيد، وفي الطريق اشترينا من إحدى القرى طعامًا ونقلنا ماء إلى البوم استعدادًا لاستئناف الرحلة، وكانت مناورة بين النوخذة والرياح، كان بن سلامة يرغب في المسير ولكن ابن عصفور يرى التمهل لحسابات يدركها جيدًا، ومرت علينا عدة أيام ونحن في انتظار اللحظة المناسبة،

وهذا الانتظار دفع سنيارنا بن سلامة إلى السأم فخطف بومه وغادرنا، فقلنا لابن عصفور صاحبك خلاك وغادرنا، فرد علينا: «الله يسهل له. وأثناء صلاة الفجر كان واقفًا يصلي سمع صوتًا قويًا فسألنا عنه قلنا هذه باخرة قد مرت من بعيد وألقت قنبلة لم تصبنا، وبعد أن تحقق من الأمر قال: الله يفك بن سلامة. سكن الهواء في وسط الغبة ما يقرب من ثلاثة أيام، وكنا بلا عمل لأن البوم لا يتحرك، فأحب ابن عصفور أن يشغل من معه من البحارة دون أن يأمرهم وهذه هي طريقته، فطلب مقشر الخشب ونزل إلى البحر ثم أخذ يقشر ما التصق بالسفينة، ولم نكن ندري بما فعل لولا أن قال لنا زملاؤنا: نوخذاكم نزل إلى البحر، وهنا هبطنا إليه حتى نقوم بما يقوم به كانت هناك بعض الأسماك الصغيرة تجتمع على القشرة لأكلها، ثم تأتي أسماك أكبر منها بمجموعات كبيرة تلحقها أسماك ضخمة يخشى منها على البحارة، ولذا حثنا على الركوب، وبقينا على حالنا الأول لمدة ستة أيام والجو صاف والهواء راكد، وفي آخر يوم شاهدنا في جهة المغيب قطعة حمراء متحركة تُشْبهُ السحاب لفتت إليها الأنظار، وعلم بها النوخذة فأرسل إلينا المجدمي ليسألنا، فأطلعناه عليها، فقال له ليجعلوا لها علامة تقابلها من البوم فوضعنا علامة، وقد لاحظنا أن هذه القطعة الحمراء ترتفع حتى صارت فوق رؤوسنا، وكان الوقت قبل المغرب بقليل فطلب تقديم العشاء على غير العادة، وبعد الانتهاء منه أمرنا بوضع الأواني تحت أغطية، وقال: ضعوا على الشّرع أغطية تحميها، واحرصوا على أن يكون كل شيء في حرز أمين، وطلب نشر شراع الجيب وهو صغير. وقد لاحظنا أن الهواء يزداد شدة، وأن البوم يسرع في سيره على الرغم من صغر الشراع وتبين لنا علم النوخذة بهذه الأوضاع واستعداده لها، وكان يبادل بين الأشرعة الصغيرة بحسب الموقف، وكنا لا ندري في أي موقع نحن، والبحر أمامنا عريض ولا نرى أثرًا من آثار البر، سمعنا النوخذة وهو يتحدث إلى أحد الذين يأنس إليهم فيذكر جزيرة سقطره ولكننا لم نفهم من كلامه شيئاً، ثم حدث

ما يدل دلالة أكيدة على مقدرة محمد بن عصفور، إذ شارك النجار في الحديث فقال: يا نوخذة أنت هنا تضرب بالمطرقة ونحن لا ندري نصل إلى أهلنا أم لا؟ فقال النوخذة: لماذا لا تصل إلى أهلك، فقال النجار: إن شاء الله نوصل لأهلنا، ولكنك لا تخبرنا بشيء، أنت ساكت ولا ندري أين نحن، متى تصل إلى البر، فرد النوخذة إذا صار الغد، في الضحى تشوف الأشاخر وهي بالتحديد أول ما يظهر من بر عمان لعابر بحر العرب من الهند، وعندما سمعنا هذا الحديث بتنا الليل نُمني أنفسنا بذلك وعندما جاء الصباح ظهر موقع الأشاخر من بعيد. وصلنا ولكن بال النوخذة كان مع بن سلامة، سألنا عنه مرارًا يقول: حطوا بالكم مع بن سلامة لأنه كان خائفًا عليه ولم يطمئن إلا حين لقيه، وقد علمنا من بحارته أن ما توقعه نوخذانا له قد وقع، فتعرضوا إلى خطر عظيم ولكن الله سلم.

وحدث بعد ذلك أمر لا بد من ذكره إذ لحقت بنا باخرة حربية بريطانية، وطلبت منا الوقوف، فما كان من محمد بن عصفور إلا أن طلب من المجدمي أن يظهر الشهادة فعرضها من بعيد، وقرأها الضابط بالمنظار المقرب وعندما أتم قراءتها وجدناه يؤدي التحية العسكرية لنواخذنا، ووجدنا المترجم يقول لنا: تيسّروا.

عدنا بعد ذلك وقد تحملنا الكثير في هذه الرحلة ولكننا سعدنا برؤية الأهل والأصحاب، وأخذنا عدة دروس من هذا النوخذة الفحل محمد بن عيسى العصفور.

كان هذا جزءًا من رحلة سفر على سفينة شراعية رواها لنا الشاعر المرحوم عبداللطيف عبدالرزاق الديين، وفيها دليل على تحلي البحارة بالأخلاق الطيبة، وتميز النوخذة بالمقدرة الفائقة على أداء العمل، وتعاون أصحاب السفن والنواخذة مع بعضهم في الخارج، وكلها أمور نفخر بها ونعتز.

****

الفيلسوف الباحث الدكتور محمد[1] عبدالهادي أبوريدة في الكويت

في سنة ١٩٩٣م أصدرت كلية الآداب بجامعة الكويت كتابًا تذكاريًا عن الدكتور محمد عبدالهادي أبوريدة من إعداد الأخ الدكتور عبدالله العمر، وكان الدكتور أبوريدة قد توفي في اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٩١م، بعد عمر أمضاه في العلم وتعليمه. ولد هذا العالم الجليل في مدينة العريش بمحافظة سيناء المصرية، وعاش بها ووجد في تلك الرحاب الواسعة بيئة مناسبة للنظر في الكون من حوله، فنشأ محبًا لوطنه ولأهله فيه، ونشأ حريصًا على دينه مدافعًا عنه مبينًا المحاسن الجمة التي يتميز بها الدين الإسلامي الحنيف.

تزيد صفحات الكتاب المشار إليه عن ستمائة صفحة، منها ما يقرب من المائة صفحة مكتوبة باللغة الإنجليزية، وهو يضم ثلاثة أبواب بخلاف الباب الرابع الإنجليزي اللغة.

يتناول الباب الأول تفصيلاً عن حياة أبوريدة من حيث سيرته وفكره، ويتكون من أربعة فصول كتبها أربعة من الأساتذة، **أولها** بعنوان: أبوريدة وتجديد الفكر الإسلامي **والثاني**: النظر العقلي في الإسلام، **والثالث** عنوانه: الجديد في القديم، **والرابع**: تحقيقات أبوريدة.

---

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٤م.

وقد سبق الدكتور فؤاد زكريا هؤلاء بمقال تحت عنوان: أبوريدة، الأستاذ والإنسان اعتبر بداية للباب الأول وإن لم يأت ضمن ترتيب الباب في فهرس الكتاب.

كان الدكتور زكريا معجبًا جدًا بصاحبنا، وحق له أن يعجب فإن أبا ريدة كنز من كنوز العلم وبخاصة في مجال الفلسفة، له دراية بها في القديم والحديث، وله صيت عمّ العالم العربي والإسلامي ثم خرج إلى بقية دول العالم ولذا فليس من العجب أن نرى الدكتور فؤاد زكريا يقول عن أبي ريدة في مقدمة مقالته: «على الرغم من مضي سنتين على رحيل أستاذنا القدير الدكتور محمد عبدالهادي أبوريدة، فإن صورته لا تكف عن معاودة الظهور أمام مخيلتي، وخاصة في الآونة الأخيرة التي ترافق فيها غيابه عن عالمنا مع تصاعد غريب ومريب للتطرف السياسي والعقائدي الملتحف برداء الإسلام. ويظل شريط الذكريات التي تتدافع إلى ذهني كلما ذكر اسم هذا العالم الجليل، يربط على نحو متزايد بين الظاهرتين: ظاهرة «أبو ريدة» نفسه، وهي في ذاتها ظاهرة فذة، وظاهرة التطرف باسم الدين، التي تزداد انتشارًا في بلادنا عامًا بعد عام، والأمر الذي أستطيع أن أقوله عن ثقة. هو أن هذا الارتباط لم يكن من قبيل تداعي المعاني الذي تحكمه قواعد آلية، بل كان ارتباطًا ذهنيًا أصيلاً، تحكمه أسباب ذهنية قوية ومقنعة».

ولم يكن عجبًا أن يكتب الأكاديمي البارز ما كتبه عن الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، فقد كان هذا أحد أساتذته في بداية طلبة للعلم، وعاش معه فترة من الزمن، وزامنه في كلية الآداب بجامعة الكويت، لقد تلقى على يديه محاضرات في «علم الكلام» وموضوعات أخرى في إطار الفلسفة في جامعة القاهرة التي كان اسمها جامعة فؤاد الأول، وذلك في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي، وقد رأى أن أبا ريدة يختلف عن كثير من الأساتذة في طريقة إلقائه للدرس فهو

حين يلج قاعة المحاضرات يقبل على الطلاب بصورته المحببة: صورة الإنسان الذي لا يجعل على وجهه قناعًا يفصله عن طلابه، وبالتالي فإنه يكسب قربهم منه وحبهم لدرسه، ومتابعة كل ما يلقيه عليهم من معلومات، وهو في هذه الطريقة الإنسانية السمحة التي يتميز بها يختلف عن كثير جدًا من أساتذة الجامعات العربية وغير العربية.

وقد أضاف الدكتور فؤاد زكريا قوله: «إن من السهل أن نتصور حلول أي أستاذ محل الآخر في تشغيل آلة المعلومات هذه مادام يملك المعارف اللازمة، ولكن من المستحيل أن نتصور محاضرة أبو ريدة دون شخصه سواء أكان ذلك في محتواها أم في طريقتها، فالمحاضرة التي يقدمها إنما هي جزء لا يتجزأ من شخصيته الفذة المليئة بالحيوية والتنوع والقدرة على التشويق وجذب الانتباه».

استطرد الدكتور زكريا كثيرًا في الحديث عن أستاذه، وعبّر عن سعادته بأنه إضافة إلى دراسته على يديه فقد زامله لا في جامعة الكويت فقط كما سبق أن ذكرنا بل في جامعة عين شمس.

وفي الموضوع ذاته يتحدث الدكتور عبدالله العمر قائلاً: «ومن المؤكد أن المتابعين للحياة الثقافية في الكويت، من أكاديميين ومثقفين، قد لمسوا أهمية العطاء وأصالة الإسهام العلمي اللذين أثرى بهما المرحوم أبو ريدة المواسم الثقافية التي شهدتها الساحة الكويتية منذ أن التحق الفقيد بالعمل في جامعة الكويت في سنة افتتاحها عام ١٩٦٦م، حتى نهاية خدمته فيها في عام ١٩٨٧م، ومن الواجب هنا أن ننوه أيضًا بالنشاط المتميز الذي أسهم به في وسائل الإعلام المختلفة، سواء أكان ذلك من خلال المقالات الصحافية، أو الندوات الفكرية المتلفزة، أو المقابلات الإذاعية، وإذا كان مؤكدًا أن الراصد لإسهامات المرحوم أبو ريدة يحتاج إلى جهد جبار، وإلى صبر طويل كيما يستطيع توثيق كل ما أسهم به مفكرنا الراحل في

ميادين العلم والثقافة، فإن المناسبة هنا لا تتيح لي سوى الإتيان على ذكر بعض كتاباته وآثاره العلمية».

وأما طريقته في الدرس فيفصلها أحد تلامذته وهو السيد محمود حميدة عبدالكريم، يقول: كان لأبي ريدة تأثير بليغ بهدوئه الوقور ونبذه أساليب الخطابة والإشارات المتكلفة وتحريه البساطة فيما يقصده وكانت عبارة أبي ريدة فلسفية رصينة، تستوقفك معها مرة ومرات، فهي تحرك تفكير القارئ لإعادة النظر فيما يعرضه عليه، ونعود إلى عبارته في المحاضرة مع تلميذ آخر حضر دروسه: «كان يحاور ويسأل ويجيب، ونحن نحاور ونسأل ونحاول الإجابة، عرفنا التواضع، وانتزعت من نفوسنا هيبة مدرس الفصل في التعليم العام، كنا نفكر معًا في جماعة، والسبورة السوداء وراءه يلتفت إليها ويعطينا ظهره أحيانًا ويسطر عليها بالعربية والإفرنجية المصطلحات وأسماء الكتب، بقامته الرياضية وشبابه وكأنه ابن العشرين، يتكلم واقفًا متحركًا، ولم يدرس أو يحاضر جالسًا قط».

على الرغم من أن الدكتور أبي ريدة يعتبر من المقلين في عالم التأليف والنشر باعتباره من الأساتذة الذين ارتبطوا بطلابهم ورأوا الاتصال المباشر بهم أجدى وأكثر نفعًا فإنه قد قدّم إنتاجًا لا بأس به فله في مجال الترجمة خمسة كتب قيمة، كلها مما كتبه المستشرقون عن العالم الإسلامي والفلسفة الإسلامية، وهو لا يعد مترجمًا فحسب فله تعليقات وإضافات مهمة يستفيد منها قارئ النسخة العربية، وهو لا يكتفي بنقل النصوص العربية كما وردت لدى الكتاب الذين يترجم لهم بل يعود إلى الأصول فيصحح الكثير من المعلومات على ضوء ذلك، إضافة إلى ذلك فإنه حقق بعض الكتب التي كان منها «رسائل الكندي الفلسفية» و«التمهيد» للباقلاني مشتركًا في تحقيقه مع الأستاذ محمود الخضري، و«ديوان الأصول» للنيسابوري، و«ثمرة الحكمة» لابن الهيثم، وأما مؤلفاته فله منها ما هو مطبوع،

ومنها ما نتمنى أن يجد سبيله إلى الطبع، لعل من أهم ما فيه رسالة الدكتوراه التي نال بها شهادته، وهي باللغة الألمانية ولم تترجم حتى الآن.

إضافة إلى عمل الأستاذ الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة في جامعة الكويت مدرسًا ومحاضرًا ومربيًا، ودالاً أبناءه من الطلبة وبناته من الطالبات على طرق البحث والأساليب الموصلة إلى الأعمال العلمية السليمة فقد كان مشاركًا في كثير من الأعمال العلمية خارج الجامعة كان العمل البارز منها هو عضويته في اللجنة المشرفة على مشروع «قاموس القرآن الكريم» التي أمر بإنشائها أميرنا الراحل رحمه الله بمناسبة ترؤسه للمؤتمر الإسلامي الخامس الذي عُقد في الكويت، وهي مكونة من عدد من العلماء، قاموا بهذا المشروع خير قيام وأنجزوا المهمة الموكلة إليهم باعتبارها مهمة علمية ودينية قبل كل شيء، رئيس المشروع هو أخي الأستاذ الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، معه فريق عمل مكون من خمسة من الأساتذة، وله مستشاران هما المرحوم الدكتور عبدالعزيز كامل، والمرحوم الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة، ولا نريد أن ندخل في تفصيل هذا المشروع المبارك فالأمر يحتاج إلى إطالة ضرورية لعرض مثله، ولكننا نكتفي بالإشارة إليه، والإشارة إلى أن الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة كان أحد المستشارين الذين مرّ عليهم هذا العمل الجليل وكانت له نظراته الثاقبة في كثير من الأمور.

ولم يكتف بهذا العمل بل قام بتأليف أحد أجزاء القاموس وهو كتابه «مضمون القرآن الكريم في قضايا الإيمان والنبوة والأخلاق والكون»، وَيُعَدُّ هذا الكتاب بداية مهمة للقاموس تلي المدخل الذي أعدته نخبة من العلماء والباحثين وسبق كتاب أبي ريدة في الصدور، ولئن كان الكتاب المدخل مهمًا من حيث اهتمامه بجميع القضايا العامة التي يحتاج قارئ القرآن الكريم إلى الإلمام بها، فإن كتاب الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة مهم من ناحية طرحه لعدد من القضايا المهمة التي لا يصل

إلى الإحاطة بها إلا قارئ القرآن الكريم المتدبر لما فيه من آيات، وتوجيهات وصور علمية مهمة، وهكذا نرى أن الكتاب الذي نتحدث عنه سوف يعين قارئه على تدبر ما في كتاب الله من الحكمة والعلم، وسوف يحس بحلاوة لفظه وعلو معانيه.

يتكون الكتاب من محورين يبدآن بتمهيد عنوانه: «القرآن روح من أمر الله» وفيه إشارة إلى الآية الكريمة التي تبدأ بقوله تعالى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان...﴾** سورة الشورى الآيتان ٥٢ - ٥٣.

ثم يأتي المحور الأول وعنوانه «بين يدي القرآن: مقدمات لا بد منها» يتحدث عن الدين الذي هو الإسلام، وعن الإخلاص والإيمان والإحسان. ثم يتحدث عن مكان القرآن بين الكتب المنزلة فيقول إن نزول القرآن الكريم يمثل مرحلة جديدة، ومنهجًا جديدًا يتحدث عن الإيمان وطريق الوصول إليه، ويؤكد في هذا المحور أن القرآن هو البديل للمعجزة التي كانت تصاحب الرسل عليهم السلام، أما مميزات القرآن الكريم فهي - كما ذكر - أنه خطاب إلهي عام، وأنه تعليم متدرج ومستمر، وأنه يقدم تحولاً في طريقة التفكير واتجاه المعرفة، وهو بالتالي كتاب شامل، ثم يورد شيئًا عن طريقة القرآن في التعريف ببعض المسائل مثل القدرة الإلهية وأفعال المخلوقات، والأمر الإلهي والإذن الإلهي، وغير ذلك.

ولا ينبغي أن نفيض أكثر في رصد ما جاء في كتاب الأستاذ الدكتور عبدالهادي أبو ريدة، فإن قراءته كاملاً هي الأمر الجدير بكل قارئ محب لكتاب الله الكريم، إذ سوف تتفتح له موضوعات مهمة، وسوف تتوسع مداركه بفضل الإشراقات العلمية التي يقدمها هذا الباحث الكبير فيه.

ولد الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة في مدينة العريش الواقعة في شمالي شبه جزيرة سيناء المصرية في اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٠٩م، وبعد مواصلة صعبة لطلب العلم بالنسبة إلى شاب في مثل ظروفه نشأ في بيئة

قاسية، وعاش في مكانٍ ناءٍ عن العاصمة حيث دور العلم المختلفة في ذلك الوقت البعيد فإنه استطاع أن ينال ما يشبع نهمه إلى المعرفة في مصر وفي خارجها تساعده على ذلك فطرته السليمة ومحبته للدراسة، وانكبابه على القراءة وتفهم ما تحويه الكتب التي تصل إلى يديه، حصل على ليسانس الآداب من قسم الفلسفة بكلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة) وكان من ضمن أوائل المتخرجين في هذا القسم، ثم درس الماجستير ونال درجته في سنة ١٩٣٩م، وعلى أثر ذلك أرسلته الحكومة المصرية في بعثة إلى سويسرا، حيث درس الدكتوراه في جامعة بازل، وحصل عليها في سنة ١٩٤٥م، برسالة عن حجة الإسلام الغزالي ونقده للفلسفة اليونانية، وبعد ذلك عاد إلى مصر، فعُيِّن مدرسًا في كلية الآداب بالجامعة التي تخرج فيها، وعندما قررت مصر إنشاء المعهد المصري في مدريد تقرر أن يكون أول مدير له فرحل إلى العاصمة الأسبانية وبدأ العمل في هذا المجال سنة ١٩٤٩م، وبقي في منصبه هذا حتى سنة ١٩٥٣م. ثم عاد إلى القاهرة التي انتقل منها بعد فترة إلى ليبيا حيث انتدب ضمن المجموعة التي تم اختيارها من أجل إنشاء الجامعة الليبية، فكان أن رأس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية هناك، ثم عاد إلى القاهرة في سنة ١٩٦٢م، ليعمل في جامعة عين شمس، ثم انتقل بعد ذلك إلى الكويت كما ذكرنا فيما سلف.

في ليبيا نال الدكتور أبوريدة اهتمامًا شديدًا من المسؤولين ومن الطلاب على حد سواء. واجتمع حوله عدد منهم في حلقات شيقة يستفيدون من علمه، ومن أسلوبه الإنساني الكريم الذي يحتضن به طلابه، ألم يقل الدكتور عبدالله العمر عنه عندما كان في الكويت: «أسلوب محاضراته كان مفيدًا وشيقًا، كان يشعرنا بأننا أنداد له ولسنا مجرد طلبة نتلقّى العلم على يديه».

وعلى هذه الصفة كان في ليبيا، وها هو أحد أبناء ذلك البلد العربي يصف جلسة من جلسات تلك الفترة فيقول: «خلال إقامته في بنغازي، في بداية تكوين الجامعة، سكن بمبناها قبل أن يُحضر أسرته، الذي احتوى أيضًا القسم الداخلي للطلاب في تلك الأيام، وكثيرًا ما سهروا معه الليالي في نقاشات علمية رائعة إلى الفجر خاصة في ليالي شهر رمضان، واستمعوا إلى قراءته للقرآن الكريم وترديده للابتهالات والأدعية بما عرف عنه من مسحة صوفية وخشوع كاملين، والواقع أن تلاميذه في بنغازي كانوا يعدونه (أبًا) قبل أن يكون أستاذًا فله مواقف كثيرة اتسمت بالأبوية والتعاطف معهم ومع مشاكلهم الخاصة، وكثيرًا ما أعطى محاضراته في جو ودي وعبر حلقات جمعته بهم، في بعض الأحيان، على كراسي مقهى الفردوس القديم القريب من الجامعة، ويبدو أن هذه الروح لازمته باستمرار».

وقبل أن نصل إلى النهاية فإنه لابد من الإشارة إلى أن أستاذنا كان قد تخرج في سنة واحدة مع نجيب محفوظ وتوفيق الطويل وعلي أحمد عيسى. وكان الروائي الشهير نجيب محفوظ قد سجل هذه المرحلة تسجيلاً رائعًا في روايته «القاهرة الجديدة» التي صدرت في سنة ١٩٤٥م، وكان أبطالها هؤلاء الرجال الأربعة الذين درسوا معًا وعاشوا معًا وتخرجوا في وقت واحد، وكان للدكتور أبوريدة نصيب كبير في الرواية التي وثقت تلك المرحلة من حياته وحياة زملائه الثلاثة، وعن مأمون رضوان، وهو الاسم البديل له في الرواية كتب نجيب محفوظ كثيرًا، ابتداءً من المناقشات التي تتم بين الزملاء الأربعة، ثم وصف الغرفة التي كان أبو ريدة يعيش فيها، ومما قال عنه: «وفي تلك الحياة البسيطة لم يجد الفتى سبيلاً إلى تحقيق ذاته إلا في العمل، فبز الأقران جميعًا، وكان في قدرته أن يتعبد ساعات متتابعات لا يسكت لسانه عن ذكر الله، وكان يذاكر في الأيام الأخيرة من العام الدراسي عشرين ساعة في اليوم، فكان أول الناجحين في البكالوريا، كما ينتظر أن يكون أولهم في الليسانس، فصار التفوق من أحلامه العليا كالإسلام والعروبة والفضيلة،

ولم يسمح لمخلوق أن يدانيه في تفوقه، ولكن لم ترسب للمنافسة في صدره أبخرة خبيثة، بفضل قوته الخارقة، وثقته الكبيرة بنفسه، وإيمانه الراسخ بالله، فسما بإنسانيته إلى أعلى المراتب، ولذلك لم يجعل من إيمانه سبيلاً إلى الزهد العاجز أو الفناء في الغير، فكان يقول: «إن الإيمان امتلاء بالقوة الربانية لتحقيق مثل الله العليا على الأرض».

كانت وفاة الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة في المكان الذي يحب، وكانت دراسته في سويسرا سببًا لتعلقه بهذا البلد الأوروبي الجميل، ولذا فقد كان يتردد عليه سنويًّا ويطيل الإقامة فيه بقدر ما يستطيع. وقد حانت وفاته هناك في اليوم العاشر من شهر نوفمبر لسنة ١٩٩١م، ودفن في مدافن الجامع الإسلامي في مدينة جنيف. رحمه الله.

****

ملحاق خير

كان مقال الأزمنة والأمكنة المنشور في عدد «الوطن» الصادر في يوم الأربعاء العاشر من شهر ديسمبر لسنة ٢٠٠٨م عن كتاب «نفحة اليمن» وكان بعنوان «ما يزول به الشجن» وقد نشرت معه عددًا من الصور لفنانين كويتيين كانوا قد غنوا من الأصوات الواردة في الكتاب المذكور، وكان من ضمن الصور المنشورة مع المقال صورة ضمت أربعة أشخاص ذكرت منهم الأستاذ أحمد البشر والفنان أحمد الزنجباري والفنان سعود الراشد، ولم يتهيأ لي ذكر رابعهم في الصورة، وقد سعدت جدًا باتصال هاتفي من الأخ ناصر إبراهيم النجران التويجري الذي صار بيني وبينه حديث طويل عن الفريج القديم وعن أهله، والأشخاص الذين كنّا نعرفهم ولا نزال نتذكرهم وضمن الحديث أبلغني الأخ الكريم بأنني لم أذكر اسم الشخص الرابع، وهو الظاهر في الصورة بجوار الفنان سعود الراشد، وكان رأيه أن هذا الشخص ينبغي ألا يُنسى، فهو معروف لدى الكثيرين بالأعمال التي قام بها وبخاصة في مجال الإذاعة عند بداية عملها. ومع شكري للأخ ناصر إبراهيم النجران التويجري، واطمئناني إلى أنه من قراء هذه الصفحات التي أكتبها في «الوطن» فإنني أقدم الصورة مرة أخرى وأعلن أن الشخص الثالث من اليمين هو السيد مبارك الميال رحمه الله تعالى.

كان مبارك الميال صاحب أول صوت يُسمع عبر ميكرفون الإذاعة الكويتية في سنة ١٩٥٢م، فقد أعلن عن قيام هذه الإذاعة بقوله لأول مرة: هنا الكويت.

ولد مبارك عبدالرحمن الميال في الحي الشرقي من العاصمة في اليوم السادس من شهر أغسطس لسنة ١٩٣١م، ونشأ يتيمًا بسبب وفاة والده، وهو صغير، ولكن والدته قامت بتنشئته خير قيام، ووجد عندها الحنان والمحبة اللذين جمعت بهما بين ما يحتاجه هذا الطفل منها ومن أبيه.

درس في مدرسة أهلية، ثم في المدرسة الشرقية، وانتقل منها إلى المدرسة المباركية التي غادرها في سنة ١٩٤٧م.

بدأ حياته العملية بعد ذلك في الشركة البريطانية التي كانت تتعاطى أعمال الاتصالات السلكية واللاسلكية في الكويت وبقي بها منذ ترك المدرسة إلى سنة ١٩٥٠م، ولكنه تركها بعد ذلك لكي يعمل في دائرة الأمن العام بصفته رئيسًا لقسم اللاسلكي حتى سنة ١٩٥٤م. في فترة لاحقة التحق بالإدارة العامة للموانئ والجمارك ولكنه في سنة ١٩٦٥م، صار مديرًا لإدارة البريد والبرق والهاتف، ثم مديرًا للإدارة العامة للجمارك ثم وكيلاً مساعدًا في وزارة المواصلات حتى تقاعد في سنة ١٩٨٣م.

ويبدو أنه كان رئيسًا لقسم اللاسلكي في دائرة الأمن العام حين بدأ العمل الإذاعي بالإضافة إلى عمله الأساسي.

توفي رحمة الله في اليوم الخامس والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٩٩٤م.

****

هذه هي ثروة الكويت[(١)]

يردد التربويون ورجال التخطيط مقولة شبه ثابتة عندهم وهي قولهم: ثروة الأوطان برجالها، وهذا حق فإن المال وحده لا يبني الوطن وإنما يبنيه أبناؤه، صحيح أنهم يستخدمون المال في المجالات النافعة التي تعود بالخير، ولكنهم لا يقدرون على استخدامه الاستخدام الأمثل ما لم يكونوا على استعداد تام لذلك. ولا يوجد سبيل إلى الاستعداد إلا بالعلم مسبوقًا بتطلع إلى الأفضل ورغبة في التقدم والرقي على كافة المستويات، وبخاصة النظر إلى مصلحة الوطن والعمل على القيام بكل ما يؤدي به إلى السمو بين مختلف البلدان. وكانت الكويت من الدول التي حباها الله سبحانه بثروة بشرية هائلة قبل أن تحظى بالثروة النفطية الماثلة. وإذا كانت قد نشأت – كما هو ثابت تاريخيًّا – في سنة ١٦١٣م، وكان النفط قد تدفق إلى الخارج في سنة ١٩٤٦م حين قام المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح بإدارة الصمام الذهبي الذي أدّى إلى امتلاء الباخرة الأولى مبتدئًا التصدير فإن المدة بين السنتين المذكورتين ومقدارها ثلاثمائة وثلاث وثلاثون سنة مدة طويلة ماذا كان أهل الكويت يعملون فيها وهم لا يعتمدون على مصدر محدد كالنفط؟ وكيف استطاعوا ترتيب أمور معيشتهم وعلاقاتهم مع الغير؟ وكيف ارتقوا بالبلاد من أرض قفراء كما وصفها الشيخ مبارك الصباح في إحدى رسائله إلى دولة؟ وكيف حموا أنفسهم من المجاعات التي كانت تفتك بعدد من دول المنطقة؟

(١) نشرت في جريدة الوطن بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٣١م.

إنها لحياة مليئة بالكفاح، والنصب، لم يدع الكويتيون خلالها مجالاً إلا طرقوه.

وكان أول ما قاموا به من ذلك الزمان أمرين، هما: استغلال البحر استغلالاً تامًا عن طريق الغوص ورحلات السفر وصيد الأسماك، والثاني هو العلم فكان هناك عدد من العلماء البارزين الذين تركوا لنا من نسخ أيديهم كتبًا تراثية مهمة، وكان لهم تلاميذهم الذين امتدت سلسلة الاتصالات بهم إلى السنوات الحالية بحيث أننا لو تتبعا الخط الذي نشأ منه عدد من طلاب العلم في أيامنا هذه وأرجعنا كل واحد منهم إلى شيخه الذي تعلم منه لوصلنا إلى تلك الأيام، ونحن نعرف سلسلة ذهبية من العلماء الذين أناروا البلاد في زمانهم ذاك.

إن المشاهد التي يلحظها متتبع تاريخ الكويت وبخاصة ما جاء منه في الجانب الإنساني يجدها مشاهد دالة على حيوية الشعب، ورغبة أبنائه في العيش بكرامة، وحرصهم على الاتصال بالعالم الخارجي والاستفادة مما وصل إليه من تقدم حتى يواصلوا هم – أيضًا – مسيرة الرقي أسوة بغيرهم من الأمم.

ولقد تم خلال فترات سابقة تبادل الزيارات بين أبناء الكويت، وعدد من أبناء الدول الأخرى وذلك هو ما أحيا الأنشطة الثقافية في البلاد، فكان لذلك أثره في بروز التعليم النظامي، وفي ظهور الحركة الصحفية، وفي قيام الجمعيات التي اضطلعت بالدور التثقيفي، وقيادة أبناء الوطن إلى المناهل الثقافية. ولقد حرص الرواد على تسجيل هذا الجزء المهم من تاريخ البلاد، وقد بدأ ذلك حينما قام الشيخ عبدالعزيز الرشيد بتأليف كتابه «تاريخ الكويت»، وتحدث فيه بحكم ثقافته الخاصة عن الأنشطة الثقافية في البلاد، وعن عدد من شعرائها، موردًا نماذج من أشعارهم، وقد صدر كتابه هذا في سنة ١٩٢٦م.

ويأتي لاحقًا لكتاب الشيخ الرشيد كتاب المرحوم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي «صفحات من تاريخ الكويت»، الذي صدر في سنة ١٩٤٦م، وهو تاريخ

موجز للبلاد، أورد فيه الحديث عن أهل الكويت وعاداتهم وصفاتهم وأنشطتهم، وتحدث عن شعرائهم معلنًا أن الشيخ عبدالعزيز الرشيد قد كتب في هذا الموضوع ما يكفي ولكنه أكمل ذلك بذكر من لم يذكرهم الرشيد من الشعراء والأدباء، وحسنًا فعل، فقد اكتملت الصورة التي تعطي فكرة واضحة عن حالة النشاط الأدبي الكويتي في ذلك العصر ولاسيما عندما أشار إلى عدد من شعراء النبط الذي أغفلهم الشيخ عبدالعزيز.

والفترة المنتهية في سنة ١٩٥٠م حين توفي المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير الكويت الأسبق، هي الفترة التي يمكن أن نطلق عليها أنها تمثل الأدب الكويتي القديم أو على الأقل القسم الأول منه، حيث تعد الفترة التي بدأت بعد ذلك وإلى سنة ١٩٦١م فترة أخرى هي الوسط بين القديم والحديث، وهي فترة التهيئة للنهضة التي سارت فيها البلاد فخرجت – بعد ذلك – إثر استقلالها إلى العالم وهي متكاملة البنية من كافة الوجوه.

وإذا كان العمر قد امتد ببعض الأدباء الذين ذكرهم الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه فإن هذا لا يعني خروجهم من دائرة المؤسسين لهذه النهضة الأدبية إذ لابد من حسبانهم على تلك الفترة مهما تأخر بهم العمر كالمرحوم الأستاذ أحمد البشر الرومي الذي عاش حتى سنة ١٩٨٢م فقد كان محسوبًا على تلك الفترة باعتباره أحد شبابها الذين تأثروا بها وهو في بداية حياته، ثم استفاد منها، وأسهم بإنتاجه الأدبي فيها، بالإضافة إلى اشتغاله بالتعليم بصفته مدرسًا – آنذاك – إذ مارس العمل بسلك التدريس لعدة سنوات ابتداءً من سنة ١٩٣٧م.

وقبل أن نأتي إلى ذكر شعراء تلك المرحلة وأدبائها لابد وأن نشير إلى وجود عدد من المؤسسات الأهلية أسهمت في نمو الحركة الثقافية، وهيأت الأجواء للنشاط الفكري الذي ساد ذلك الوقت، وهي مؤسسات قام أبناء الكويت بتكوينها

رغبة منهم في النهوض إلى المستوى الذي تعيش فيه الدول الأخرى، والذي يرونه ماثلاً في كثير من الصحف والمجلات التي تردهم من خارج الكويت وبخاصة من مصر التي كانت الحركة الثقافية فيها قد بلغت الأوج ببروز عدد كبير من الأدباء والمفكرين، وعدد من الصحف والمجلات الثقافية، وكان ما يكتب في الصحافة المصرية زادًا ثقافيًا لأبناء الكويت في تلك الفترة فتح أعينهم على ضرورة اللحاق بالركب، فكان أن بدأ هؤلاء الرجال بتأسيس عدد من المؤسسات المهمة التي أدت دورها في التوعية، وتبني عدد من الكفاءات الأدبية الكويتية الناشطة، وكانت أعمال تلك المؤسسات هي البذرة التي آتت أكلها بعد ذلك في شكل نهضة شاملة عمت البلاد كلها، وبكل مرافقها.

وقد بدأت تلك المؤسسات في الظهور اعتبارًا من سنة ١٩١٢م كما يلي:

أ- المدرسة المباركية

وقد تأسست في سنة ١٩١٢م، ويرجع الفضل في إنشائها إلى ثلاثة من أبناء الكويت هم الشيخ يوسف بن عيسى والشيخ ناصر المبارك الصباح والسيد ياسين الطبطبائي. وكان القصد من إنشائها هو إدخال التعليم في الكويت إلى مرحلة جديدة تفوق مرحلة المدارس الأهلية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وذلك من أجل إدخال العلوم العصرية، والنظام التربوي المناسب للعصر آنذاك، وقد تكاتف أبناء الكويت على تقديم الدعم المادي والمعنوي لهذه المدرسة التي أضحت نواة التعليم النظامي في البلاد ولحقها على مرّ السنين عدد من المدارس، ومن أجل التعليم تبرع عدد من أبناء الكويت بالأموال في وقت عزّت فيه الأموال على الناس، ومن الطريف أن نذكر هنا قول الشيخ يوسف بن عيسى في كتابه صفحات من تاريخ الكويت ص ٤٤ «وحصل بيت وقف خرب تحت إشراف آل خالد أدخلناه في المدرسة، وتعهدت المعارف بدفع أضحيتين بحسب نص الوقف كل سنة» وما أردت

الإشارة إليه هنا أن وزارة التربية بالكويت مازالت إلى اليوم تقدم الأضحيتين تنفيذًا لشرط هذا الوقف.

ب- الجمعية الخيرية

وقد تأسست في سنة ١٩١٣م باجتهاد من المرحوم فرحان الخالد، وكان من أصحاب الفضل في كثير من الأعمال الخيرية، وقد اهتمت بإرسال عدد من طلاب العلم إلى الخارج، واستقدام عدد من المرشدين منهم الشيخ محمد الشنقيطي، وأحضرت طبيبًا مزودًا بما يحتاج إليه المرضى من أدوات علاجية مناسبة وأدوية، كما قامت بعدد آخر من الأعمال المفيدة.

ج- المكتبة الأهلية

وقد تأسست في سنة ١٩٢٢م وكان للشيخ يوسف بن عيسى الفضل في ظهورها إلى حيز التنفيذ، وتبرع لها عدد من الفضلاء بالكتب والأموال، يقول الشيخ عبدالعزيز الرشيد «وفي سنة ١٣٤١هـ فتحت المكتبة أبوابها للقراء، وأصبحت موردًا عذبًا زلالاً ومنهلاً صافيًا للمطالعين، وفيها عدا الكتب عدة جرائد ومجلات راقية تفضل بها رجال من أهل الشرف والغيرة».

د- النادي الأدبي

وقد تأسس في سنة ١٩٢٢م، وشارك في إنشائه عدد من أبناء الكويت، وكان برئاسة الشيخ عبدالله الجابر الصباح، وأول من فكر في إنشاء هذا النادي المرحوم خالد سليمان العدساني.

وقد تحدث الشيخ عبدالعزيز الرشيد عن الحركة الفكرية في البلاد في عهده فقال: «في الكويت اليوم حركة فكرية، ونهضة علمية وأدبية، يدير شؤونها أناس علموا بالحوادث التي مرّت عليهم أن العصر عصر إرتقاء وتقدم لا عصر

جمود وتأخر، علموا بذلك فساروا بكل همة ونشاط، وبكل إقدام وجرأة، تتقدمهم الأحلام اللذيذة والآمال العذبة».

وقد عزا تلك النهضة إلى عدة أسباب، منها الاطلاع على ما يرد إلى البلاد من صحف مختلفة الأغراض والمصادر، وكانت تردهم على الرغم من المشاق التي كانوا يعانونها في سبيل الحصول عليها، وكان اهتمامهم بالصحف في ذلك الوقت عظيمًا حتى قال المرحوم أحمد البشر الرومي:

إن للصُّحفِ بقلبي
منزلاً أعلى محلهْ

وذكر الرشيد أن السبب الثاني هو الآراء الحرة والنصائح الثمينة التي كان يبثها أهل العلم والفضل من الغرباء، وقد استقبلت الكويت في تلك الفترة عددًا منهم كالأستاذ محمد رشيد رضا (١٩١٢م) والأستاذ عبدالعزيز الثعالبي (١٩٢٤م) والشيخ محمد الشنقيطي (١٩٢٤م) وكان الأهالي يحتفون بهؤلاء الضيوف، ويحرصون على الاستماع إلى محاضراتهم، وحضور مجالسهم الإرشادية، وكان تقديرهم كبيرًا لهؤلاء المصلحين، وفي ذلك يقول أحد أبناء البلاد وهو عبداللطيف النصف مرحبًا بالشيخ محمد الشنقيطي:

إيهٍ بني قومي وسادةَ معشري
أوموا إليه بشُكْرِكُم واشيروا
خلوا النَّواظرَ شاخصاتٍ نحْوهُ
وذروا القلوبَ تسيرُ حيثُ يسيرُ

والسبب الثالث من أسباب النهضة يقول الرشيد هو «ظهور شبان متنورين امتلؤوا حماسة وغيرة حتى أخذوا يعانون إنهاض الوطن إلى العلا، ورفعه إلى مستوى الكمال».

وهنا نعود إلى الحديث عن الأنشطة التي ظهرت في تلك الفترة التي أشرنا إليها، فنجد أن الجهود التي خاضها أولئك الرجال المؤسسون قد بدأت - في نهاية الفترة - تعطي ثمارها المرجوة، ونتيجة لتزايد عدد المتعلمين والمثقفين، ولرغبتهم في الارتقاء ببلدهم إلى أعلى مقام، بدأت المجلات في الصدور مستعينة بجهود هؤلاء الأبناء، فظهرت المجلات التالية بحسب التسلسل التاريخي:

١ - الكويت: سنة ١٩٢٨م لصاحبها عبدالعزيز الرشيد.

٢ - البعثة: سنة ١٩٤٦م لسان حال طلاب البعثات الكويتية في مصر، وكان يكتب فيها عدد من أبناء الكويت من الدارسين هناك، ومن غيرهم من العاملين في البلاد وقد رأس تحريرها كل من الأستاذ عبدالعزيز حسين والأستاذ عبدالله زكريا الأنصاري على التوالي.

٣ - كاظمة: سنة ١٩٤٨م وكان رئيس تحريرها الأستاذ أحمد السقاف.

٤ - البعث: سنة ١٩٥٠م وكان رئيس تحريرها كلاً من الأستاذ حمد الرجيب والأستاذ أحمد العدواني.

٥ - الكويت: سنة ١٩٥٠م وهي عودة لمجلة الكويت الأولى ورئيس تحريرها الأستاذ عبدالله الصانع.

وقد برز في هذه الفترة عدد من الشعراء نذكر منهم صقر الشبيب، وعبداللطيف بن إبراهيم النصف، وعبدالله الفرج، وخالد الفرج، والسيد مساعد بن السيد عبدالله الرفاعي، وحمود الناصر البدر، وعبدالمحسن بن السيد عبدالله الطبطبائي، وفهد العسكر، وأحمد العدواني، وعبدالمحسن الرشيد، وعبدالله السنان، وداوود سليمان الجراح، وإبراهيم سليمان الجراح وغيرهم كثير، منهم من اهتم بالنشر في تلك المجلات التي ذكرناها أو غيرها من المجلات التي تصدر في الخارج، ومنهم من اكتفى بترديد شعره بين خلانه وأقربائه.

وبالإضافة إلى الشعر، بدأت فنون الأدب الأخرى تظهر بين الأدباء الكويتيين وبخاصة بعد صدور المجلات الكويتية، فأخذت المقالة، والبحث الأدبي، والقصة والرواية تظهر في آفاق الأدب عندنا، فكتب الأستاذ فهد الدويري أول قصة له في سنة ١٩٤٨م، وصدرت لفرحان راشد الفرحان رواية الأم صديق سنة ١٩٥٠م، وبدأ النشاط المدرسي في تكوين بعض الفرق المسرحية المدرسية، ومثّل الأستاذ حمد الرجيب أول مسرحية في البلاد، وهي إسلام عمر سنة ١٩٣٨م، ومثّل كذلك مسرحية مهزلة في مهزلة التي ألّفها بالاشتراك مع الأستاذ أحمد العدواني سنة ١٩٣٨م، ونشر في مجلة البعثة مسرحيته الأخرى المسماة: خروف نيام نيام التي نشرها - يومذاك - على حلقات اعتبارًا من شهر يناير لسنة ١٩٤٩م. وقد تتابع هذا النشاط في مختلف المجالات الثقافية بفضل تظافر جهود هؤلاء الرجال ورغبتهم في مشاركة الدول الأخرى نهضتها. ولا أكون مبالغًا إذا ما قلت: إن هذه الفترة كانت فترة غرس لنهضة شهدتها الكويت فيما بعد، وفيها ازدهر التعليم وانتشرت الثقافة، وعظم الاتصال مع العالم فحصل ذلك التلاقي بين أدبائنا وكافة المصادر الأدبية والثقافية بشكل عام، حتى أصبحت البلاد تستقطب الكثير من التيارات الأدبية، ومن الأدباء والمفكرين، وتوج ذلك كله نمو الروح الديموقراطية بصدور الدستور ونشأة مجلس الأمة، وتأسيس جامعة الكويت، وتنامي عدد المؤسسات الأهلية التي تهتم بالثقافة ونشرها حتى بلغنا إلى ما بلغناه في هذا المجال، وإن كنا نطلب المزيد، ونتطلع إلى مستقبل يكثر فيه المبدعون في كافة الفنون. (راجع كتابنا: ملامح من تاريخ الكويت).

لا سبيل إلى الإنكار فيما يتعلق ببعض ما ورد في الاستعراض السابق، أننا قد ذكرنا بعضًا منه فيما سبق من مقالات ولكن ذلك لم يكن بالإيجاز الذي أوردناه هنا ولم يكن من الملائم أن نقدم حديثنا عن الثروة الحقيقية للكويت دون أن نشير إلى كل ما تقدم، على الصورة الموجزة التي قرأها القارئ آنفًا.

وهناك أمور أخرى ذات علاقة بكل ذلك لا بد من عرضها وإن كان في ذلك إطالة:

١ - في مجال رحلات السفر والغوص نجد الكثير مما يقال عن اهتمام أبناء الكويت بهذا العمل الشريف الذي كان يدر عليهم وعلى وطنهم من المال ما يغنيهم عن غيرهم. وقد ذُكر أبناء الكويت الأوائل بذلك، وورد الثناء عليهم وعلى جهودهم البحرية ونالوا احترام البلدان التي رحلوا إليها.

وقد ارتبط ذلك بنشاط صناعة السفن الذي تَفَوَّقَ فيه أبناء الكويت تفوقًا كبيرًا وأنجزوا من خلاله إنجازات تدل على تمكنهم من هذا العمل حيث لم يكتفوا بسد حاجة البلاد من السفن بل كانوا يصنعون للخارج بعضًا من ذلك، ولقد كان أبرز عمل هو ما قام به الأستاذ حجي أحمد في مجال هذه الصناعة.

ففي خلال الحرب العالمية الثانية كلّفت الحكومة الأمريكية حجي أحمد بن سلمان وهو من أبرز صناع السفن الكويتيين بصنع عدد من السفن من نوع (الدوبة)، فانجزها في مدة وجيزة نال على أثرها ثناء الحكومة الأمريكية، وحصل في سنة ١٩٤٦م على وسام من الحكومة البريطانية تقديرًا لأعماله.

٢ - في مجال التجارة وهو مجال مرتبط برحلات السفر والغوص في كثير من الأحيان، ولكن هناك من أبناء الكويت من قام بأنشطة أخرى منها رحلات القوافل التي تنقل البضائع بواسطة الجمال، وقد وجدنا رحلة من رحلاتها المهمة في مقال سابق، ومنها نشاط تجارة الخيل وتصديرها إلى الهند. وفي هذا المجال نذكر رجلاً من رجال الكويت الذين شاركوا في النشاط التجاري في تلك الأثناء، وهو المرحوم صالح العثمان الراشد الذي سافر في سنة ١٩٢٣م في رحلة أقرب ما تكون إلى المغامرة، وتنقل بين مرسيليا الفرنسية وميلانو الإيطالية. وكان صالح العثمان معروفًا بشدة البأس والقدرة على مجابهة الأحداث، وكان قبل سفره هذا قد رحل إلى القاهرة، وكانت له أعمال تجارية هناك منها محل في سوق خان

الخليلي الشهير. وقد كان والده من كبار التجار وله قوافل من الجمال تسير التجارة من الكويت إلى مصر والشام.

ومما قام به صالح العثمان عند سفره إلى مرسيليا استكشاف الأسواق الخاصة بتجارة اللؤلؤ وتعرف مجالات العمل في هذه التجارة التي توشك أن ينتهي سوقها في الهند عما كانت عليه الحال سابقًا، فكتب رسائل إلى تجار الكويت يبلغهم إمكان العمل مباشرة مع فرنسا في هذا المجال، بدلاً من اتخاذ الهند واسطة، فكان أن قام عدد من الرجال الكويتيين بسفرات متعددة إلى فرنسا رغبة في فتح سوق لتجارتهم هناك، وكان أول المبادرين بالسفر إلى باريس علي بن حسين بن علي آل سيف ومعه عيسى الصالح، وذلك في سنة ١٩٣٠م، وفي سنة ١٩٣٢م سافر إلى باريس محمد بن شملان بن علي آل سيف، ومعه مساعد الصالح، وفي الرسائل التي أرسلها هؤلاء المغامرون وصف لكثير من الأمور التي شاهدوا، وبيان لأحوال باريس، وأساليب البيع والشراء بها، كما أن بعض رسائلهم تتحدث عن سير رحلتهم من الكويت أو من بومبي (في الهند) إلى ذلك المكان.

حظي الجيل السابق من أبناء الكويت بشهادات كثيرة تدل على التميز وحب التقدم، ومن ذلك ما شهد به الن فاليارز صاحب كتاب «أبناء السندباد» الذي قال ضمن حديث طويل: «لم أجد سفنًا تمخر عباب اليم أقدر من سفن الكويت الشراعية، وإني لأجد من عظيم فخري أن أكون قد أبحرت في هذه السفن الجميلة» ثم وجه تحيته إلى أصدقائه من الكويتيين الذين استمتع بالإقامة معهم، وكرّر الشكر للنوخذة علي بن ناصر النجدي، ومن معه من البحارة مضيفًا إلى ذلك قوله «وكم كنت أرغب بأن أكون مع أصدقائي في هذا الأسطول المبارك الفخم، وإني لأقدر غاية التقدير قيمة ذلك السكون والهدوء» وفلسفة عدم الاهتمام، أو من باب أحرى الصبر على المتاعب، وتحمل المشاق في الحياة التي ساعدتهم

غاية المساعدة وساعدتني أنا كذلك، وأعزو ذلك إلى حياة السفن الشراعية التي يعيشونها، وعشتها معهم أيضًا، وغالبًا في خلال أيام الحرب، عندما استمر عملي فيها لمدة عدة سنوات أقود أشجع رجالنا لاكتشاف السواحل للتمهيد لغزو قواتنا المحاربة. كنت أعزو هدوئي وسكوني إلى تلك الفلسفة في الحياة وإلى المبدأ الذي تعلمته من حياة السفن الكويتية. وأتمنى لجميع تجار الكويت ونواخذتها وجميع بحارتها أيام رخاء وعز. وألتمس من المولى أن يكلأ سمو أمير الكويت المعظم برعايته وحمايته، فلتحيا الكويت، وليحيا جميع الكويتيين».

وغني عن البيان أن نقول إن رحلته مع البوم «بيان» كانت في نهاية سنة ١٩٣٩م.

وفي سنة ١٨٤١م كتب القبطان الإنجليزي (هنل) بعد أن زار الكويت وصفًا لها قائلاً «وتعطينا هذه البلدة أنموذجًا عن الرخاء التجاري، وبها كل المميزات الأولى ولديها ميناء رائع، وتعداد سكانها كبير، حيث يمكنها أن توفر ٦ آلاف رجل قادرين على حمل السلاح، وسكانها عددهم في المتوسط ٢٥ ألف نسمة، ويمتلكون ٣١ بغلة وبتيلاً، تستطيع أن تحمل من ١٥٠ إلى ٣٠٠ طن من البضائع، وتتاجر باستمرار مع الهند، ويوجد لديها ٥٠ سفينة صغيرة للاتجار مع دول الخليج، وحوالي ٣٥٠ قاربًا يعملون بصيد الأسماك واللؤلؤ، والسكان شجعان ولديهم طاقة كبرى ومتحدون تمامًا ومتكاتفون، وليست بينهم عداوات ولا شقاقات».

ثم يُضيف:

وفي الحقيقة هم يردون الإهانة أو العدوان في التو واللحظة، وهم ليسوا متغطرسين ولا يعتدون على جيرانهم المسالمين، والقرصنة حدوثها نادر، وحكومة الشيخ جابر حكومة أبويَّة، وهو وأولاده يلبسون ملابس تشبه ملابس سائر المواطنين ويسكنون في مساكن تشبه مساكنهم، وقد فرضوا رسومًا جمركية ضئيلة على

مشتروات ومبيعات الذين يأتون إلى البلدة، ودخل البلدة الذي يتصرف به الشيخ لا يزيد على ٣٠٠ دولار سنويًّا، بالإضافة إلى الأرباح التي يحققها من بواخره التجارية التي يرحب بالتجارة معها جميع الأفراد، ومثل هذه الحرية التي يتمتع بها الجميع مع عدم وجود أي تدخل من سلطة خارجية تجعل الشيخ جابر وأولاده محبوبين من رعاياهم إلى درجة كبيرة، والرعايا مخلصون لهم جدًا بدرجة غير عادية ومستعدون لإجابة أي طلب منهم سواء أكان طلبًا يخص أملاكهم أم أي شيء آخر، (الشيخ جابر بن عبدالله، هو حاكم الكويت الثالث بحسب ما ورد في الكتب، تولى الحكم منذ سنة ١٨١٤م حتى سنة ١٨٥٩م).

نكون الآن قد قدمنا شهادتين إحداهما قديمة والأخرى حديثة نسبيًا، وهناك غيرهما كثير لا مجال لإعادة نشره هنا.

أبناء الكويت الأوائل الثروة الحقيقية للبلاد هم الذين أنشأوا الدوائر الحكومية وأداروها، وقامت بهممهم المدارس والمستوصفات والمستشفيات، حتى إذا تغير الزمن وتحولت الكويت إلى عصر جديد كان هؤلاء الرجال جديرين بالانتقال معها متمثلين روح العصر لم يجدوا في حياتهم الجديدة أمرًا يعوق انطلاقتهم ولا انطلاقة وطنهم.

وبرز هنا المعلمون ورجال الدين والأطباء والمهندسون، كما برز الفنانون بمختلف أنواع الفنون، وبرز الرياضيون الذي صار لهم ذكر في كثير من الأمكنة، وبرز الكتاب والشعراء والباحثون في مختلف النواحي العلمية والاجتماعية والثقافية، ولا تزال الكويت تنتج رجالاً من هذا النوع الذي هو في حد ذاته ثروة، وما علينا إلا الحفاظ على هذه الثروة ورعايتها وتنمية المواهب التي تؤدي إلى بروز أجيال أخرى منها، وتكون لها ذات الهمم العالية التي حازها الأولون.

****

المحتوى

****